

BOBST LIBRARY



3 1142 01677 4799



**Elmer Holmes
Bobst Library**

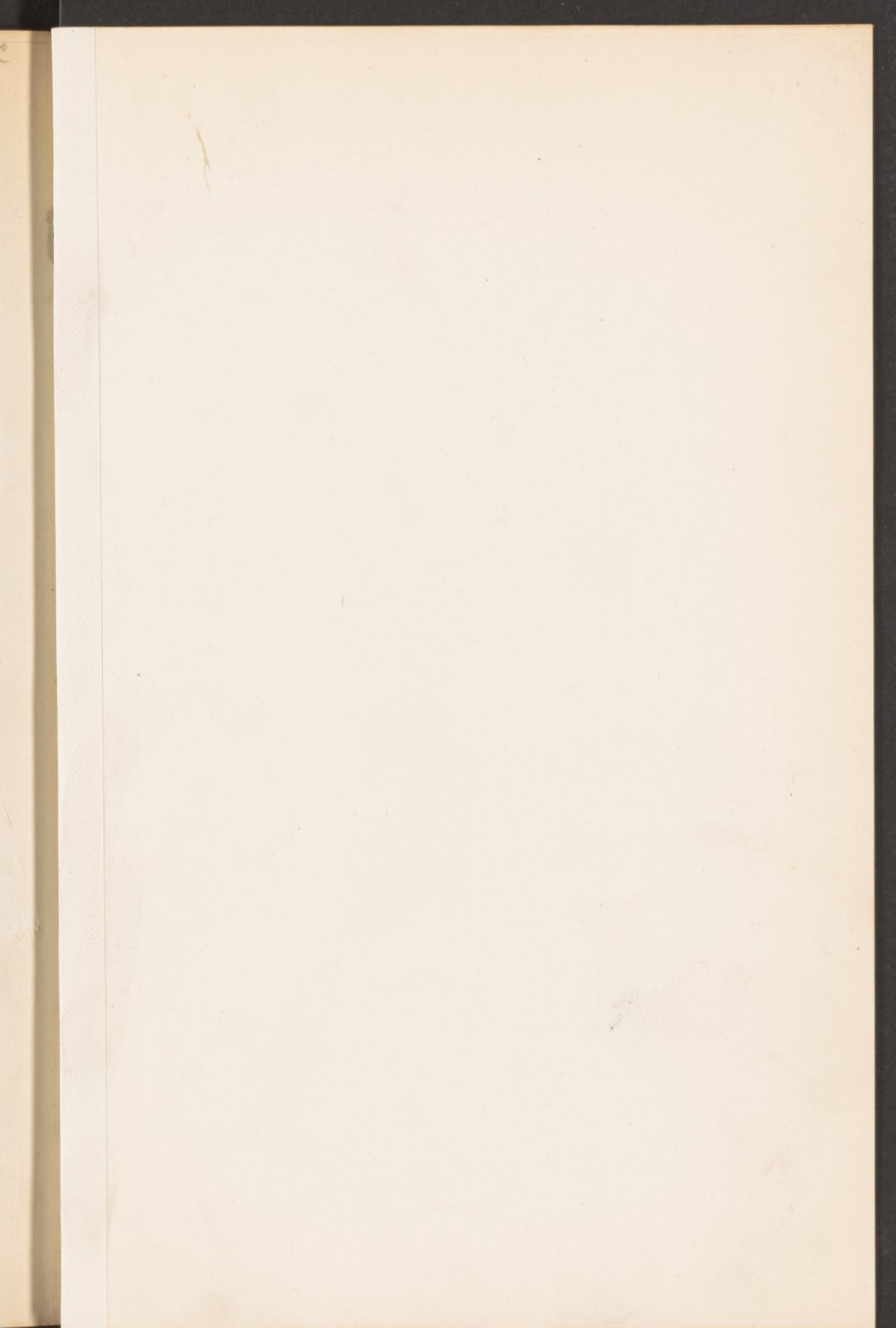
**New York
University**

58 F



New York University
Bobst Library
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

DUE DATE	DUE DATE	DUE DATE
Bobst Library JAN 10 1994 CIRCULATION		



58 F Ahmad Amīn

بجته التأليف والترجمة والنشر

زهر الإسلام

Zuhr al-Islām

3

تأليف

إخميمين

الجزء الأول

٧٠١

يبحث في الحالة الاجتماعية ومراكز الحياة العقلية
من عهد المتوكل إلى آخر القرن الرابع الهجري

الطبعة الثانية

القاهرة

مطبعة بنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

Near East

BP

161

A5

1946

V-1

C-1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ

بِسْمِ اللَّهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

وهذه هي المرحلة الثالثة بعد « فجر الإسلام ونضاه » .

ومعذرة إلى القارئ الكريم من طول الفترة بين ظهور هذا الجزء وآخر جزء من ضحى الإسلام ، فإن ما كُفِّت من عمادة كلية الآداب لم يترك لي زمناً صالحاً للسیر في هذه السلسلة ؛ فلما تخلّيت عنها احتجت إلى زمن آخر أروض فيه عقلي ونفسي على العودة إلى معاناة البحث ، والصبر على الدرس .

واليوم فرغت من إعداد هذا الجزء ، وقد قصدت به أن يكون مقدمة لدراسة واسعة للحركة العقلية في النصف الأخير من القرن الثالث ، وفي القرن الرابع ، وهي أوسع حركة وأخصبها وأعمقها في تاريخ المسلمين إلى اليوم . وقد حزرت أن يستغرق وصفها خمسة أجزاء ، أحدها للأندلس .

عنيت في هذا الجزء بناحيتين :

(١) وصف للحياة الاجتماعية في هذا العصر ، فليس يمكن فهم الحياة العقلية إلا بفهم بيئتها التي نشأت فيها ، والعوامل التي ساعدت عليها ، وطبيعة الناس الذين أنتجوها ونحو ذلك .

(٢) ووصف لمراكز الحياة العقلية ، ونوع الحركات العلمية والأدبية التي ظهرت في كل إقليم وخصائصها ، وأشهر رجالها ، وهو وصف موجز ونظرة شاملة

خاطفة أردت منها أن تكون نقطة ارتكاز يتبعها تفصيلها والتوسع فيها فيما يأتي
بعد من أجزاء إن شاء الله .

وفي سبيل الله ما لقيت من عناء ، وخاصة في القسم الأخير ؛ فقد تجاهل
مؤلفو تاريخ العلوم ومؤلفو كتب التراجم — غالباً — الناحية الإقليمية والزمنية ،
فأرخوا الحركة العلمية على أنها وحدة ، وترجموا للمؤلفين من غير مراعاة لأزمنتهم
ولا أمكنتهم ، وكل ما راعوا هو ترتيب أسمائهم على حروف الهجاء ، فأحمد في
القرن الثاني في العراق بجانب « أحمد » في القرن السادس أو السابع في مصر ،
وهكذا ؛ فمن أراد أن يفرز علماء كل عصر وحدثهم ، وفي كل قطر على حدة تحمل
من العناء ما لا يقدر . ولم يحملني على سلوك هذا المسلك في التأليف مجرد الرغبة
في إيضاح الحركة العلمية والأدبية وزمانها ومكانها ؛ بل إن تحديد زمانها
ومكانها يعين على تفهم أسباب وجودها وطبيعتها تكوينها ، فالמושحات والأزجال
لم توجد في الأندلس دون غيرها اعتباطاً ، ولا المقامات نشأت في إقليم خراسان
مصادفة ، ولا الحركة الفلسفية أزهرت في العراق أول الأمر اتفاقاً . وإنما ذلك
كله يرجع إلى أسباب طبيعية حتمية ، وما كان يمكن أن يكون غير ذلك ، فتعيين
زمن الحركة ومكانها معين على فهمها فهماً علمياً صحيحاً ، وهذا ما قصدت إليه .
والله أسأل أن ينفع به كما نفع بسابقه ، وأن يعين على إتمامه .

أحمد أمين

مصر الجديدة — الجمعة — ١٦ ربيع الثاني سنة ١٣٦٤
٣٠ مارس سنة ١٩٤٥

فهرس

الموضوع الصفحة

الكتاب الأول : في الحياة الاجتماعية من عهد المتوكل الى

آخر القرن الرابع الهجرى ١ — ١٥٨

الباب الأول — سطر المملكة الاسلامية ٣ — ٩٠

عنصر الأتراك ٣ — عنصر الفرس ٤٩ — عنصر العرب ٥٧ —

عنصر الروم ٦٤ — الزنج ٧٠

المذاهب الدينية في المملكة الإسلامية ٧٤ — اليهود والنصارى ٨١

أثر هذه العناصر والمذاهب والديانات ٨٧

الباب الثاني — أهم المظاهر الاجتماعية والسياسية في ذلك العصر ٩٠ — ١٥٨

انقسام الدولة ٩٠ — أثر هذا الانقسام في السياسية والعلم والأدب ٩٤ —

الترف والبؤس ٩٧ — أثر ذلك في الحياة الاجتماعية ١٢١ — الرقيق

١٢٤ — أثره في الحياة الاجتماعية ١٣٠ — الأدب من حيث هو

مصوّر للحياة الاجتماعية ١٣٢

الكتاب الثاني : مراكز الحياة العقلية في ذلك العصر ١٥٩ — ٣١٨

الباب الأول — مصر والشام ١٦١ — ٢١٥

الحركة الدينية في مصر في العهد الطولوني والإخشيدى وأشهر رجالها

١٦١ — الحركة اللغوية والنحوية ١٦٩ — الحركة الفلسفية ١٧٣

— الحركة العلمية والأدبية في الشام في ذلك العهد ١٧٥ — الحركة

الدينية والفلسفية في مصر والشام في العهد الفاطمي ١٨٨ — المؤرخون

في العصر الفاطمي ٢٠١ — الأدب في هذا العهد ٢٠٥

الباب الثاني — العراق وبنوبى فارس ٢١٦ — ٢٥٨

أشهر المدن التي اشتهرت بالعلم ٢١٦ — الحركة الدينية وأشهر

رجالها ٢٢١ — الحركة الفلسفية ٢٢٩ — الحركة الأدبية ٢٣٣ —

الصفحة	الموضوع
	الحركة الدينية والفلسفية والأدبية في جنوبي فارس ٢٤٥ - أثر الدولة البويهية في العلم والأدب ٢٥٥ - الدولة الزيارية في جرجان وطبرستان وأثرها ٢٥٧
٢٧٦-٢٥٩	الباب الثالث - خراسان وما وراء النهر
	المدن التي اشتهرت بالعلم في هذا الإقليم ٢٥٩ - الحركة العلمية والأدبية والفلسفية فيه ٢٦٢ - أثر الدولة السامانية في العلم والأدب ٢٦٧
٢٩٠-٢٧٧	الباب الرابع - السمرقند وأفغانستان
	الدولة الغزنوية وأثرها في العلم والأدب والفلسفة ٢٧٧
٣١٨-٢٩١	الباب الخامس - بلاد المغرب
	نظرة في بلاد المغرب وتمدينها وأشهر مدنها العلمية ٢٩١ - عنايتها بالعلوم الدينية وأشهر محدثيها وفقهائها ٢٩٧ - الحركة الأدبية فيها ٣٠١
٣٠٨	صقلية والحركة العلمية فيها
٣١٩	فهرس للأعلام والبلدان
	خريطة للعالم الإسلامي في ذلك العصر
	خريطة تبين ما تعاقب على كل إقليم من الدول من العهد الأموي إلى آخر القرن الرابع

١٧٧-١٧٨
 ١٧٩-١٨٠
 ١٨١-١٨٢
 ١٨٣-١٨٤
 ١٨٥-١٨٦
 ١٨٧-١٨٨
 ١٨٩-١٩٠
 ١٩١-١٩٢
 ١٩٣-١٩٤
 ١٩٥-١٩٦
 ١٩٧-١٩٨
 ١٩٩-٢٠٠
 ٢٠١-٢٠٢
 ٢٠٣-٢٠٤
 ٢٠٥-٢٠٦
 ٢٠٧-٢٠٨
 ٢٠٩-٢١٠
 ٢١١-٢١٢
 ٢١٣-٢١٤
 ٢١٥-٢١٦
 ٢١٧-٢١٨
 ٢١٩-٢٢٠
 ٢٢١-٢٢٢
 ٢٢٣-٢٢٤
 ٢٢٥-٢٢٦
 ٢٢٧-٢٢٨
 ٢٢٩-٢٣٠
 ٢٣١-٢٣٢
 ٢٣٣-٢٣٤
 ٢٣٥-٢٣٦
 ٢٣٧-٢٣٨
 ٢٣٩-٢٤٠
 ٢٤١-٢٤٢
 ٢٤٣-٢٤٤
 ٢٤٥-٢٤٦
 ٢٤٧-٢٤٨
 ٢٤٩-٢٥٠
 ٢٥١-٢٥٢
 ٢٥٣-٢٥٤
 ٢٥٥-٢٥٦
 ٢٥٧-٢٥٨
 ٢٥٩-٢٦٠
 ٢٦١-٢٦٢
 ٢٦٣-٢٦٤
 ٢٦٥-٢٦٦
 ٢٦٧-٢٦٨
 ٢٦٩-٢٧٠
 ٢٧١-٢٧٢
 ٢٧٣-٢٧٤
 ٢٧٥-٢٧٦
 ٢٧٧-٢٧٨
 ٢٧٩-٢٨٠
 ٢٨١-٢٨٢
 ٢٨٣-٢٨٤
 ٢٨٥-٢٨٦
 ٢٨٧-٢٨٨
 ٢٨٩-٢٩٠
 ٢٩١-٢٩٢
 ٢٩٣-٢٩٤
 ٢٩٥-٢٩٦
 ٢٩٧-٢٩٨
 ٢٩٩-٣٠٠
 ٣٠١-٣٠٢
 ٣٠٣-٣٠٤
 ٣٠٥-٣٠٦
 ٣٠٧-٣٠٨
 ٣٠٩-٣١٠
 ٣١١-٣١٢
 ٣١٣-٣١٤
 ٣١٥-٣١٦
 ٣١٧-٣١٨
 ٣١٩-٣٢٠
 ٣٢١-٣٢٢
 ٣٢٣-٣٢٤
 ٣٢٥-٣٢٦
 ٣٢٧-٣٢٨
 ٣٢٩-٣٣٠
 ٣٣١-٣٣٢
 ٣٣٣-٣٣٤
 ٣٣٥-٣٣٦
 ٣٣٧-٣٣٨
 ٣٣٩-٣٤٠
 ٣٤١-٣٤٢
 ٣٤٣-٣٤٤
 ٣٤٥-٣٤٦
 ٣٤٧-٣٤٨
 ٣٤٩-٣٥٠
 ٣٥١-٣٥٢
 ٣٥٣-٣٥٤
 ٣٥٥-٣٥٦
 ٣٥٧-٣٥٨
 ٣٥٩-٣٦٠
 ٣٦١-٣٦٢
 ٣٦٣-٣٦٤
 ٣٦٥-٣٦٦
 ٣٦٧-٣٦٨
 ٣٦٩-٣٧٠
 ٣٧١-٣٧٢
 ٣٧٣-٣٧٤
 ٣٧٥-٣٧٦
 ٣٧٧-٣٧٨
 ٣٧٩-٣٨٠
 ٣٨١-٣٨٢
 ٣٨٣-٣٨٤
 ٣٨٥-٣٨٦
 ٣٨٧-٣٨٨
 ٣٨٩-٣٩٠
 ٣٩١-٣٩٢
 ٣٩٣-٣٩٤
 ٣٩٥-٣٩٦
 ٣٩٧-٣٩٨
 ٣٩٩-٤٠٠
 ٤٠١-٤٠٢
 ٤٠٣-٤٠٤
 ٤٠٥-٤٠٦
 ٤٠٧-٤٠٨
 ٤٠٩-٤١٠
 ٤١١-٤١٢
 ٤١٣-٤١٤
 ٤١٥-٤١٦
 ٤١٧-٤١٨
 ٤١٩-٤٢٠
 ٤٢١-٤٢٢
 ٤٢٣-٤٢٤
 ٤٢٥-٤٢٦
 ٤٢٧-٤٢٨
 ٤٢٩-٤٣٠
 ٤٣١-٤٣٢
 ٤٣٣-٤٣٤
 ٤٣٥-٤٣٦
 ٤٣٧-٤٣٨
 ٤٣٩-٤٤٠
 ٤٤١-٤٤٢
 ٤٤٣-٤٤٤
 ٤٤٥-٤٤٦
 ٤٤٧-٤٤٨
 ٤٤٩-٤٥٠
 ٤٥١-٤٥٢
 ٤٥٣-٤٥٤
 ٤٥٥-٤٥٦
 ٤٥٧-٤٥٨
 ٤٥٩-٤٦٠
 ٤٦١-٤٦٢
 ٤٦٣-٤٦٤
 ٤٦٥-٤٦٦
 ٤٦٧-٤٦٨
 ٤٦٩-٤٧٠
 ٤٧١-٤٧٢
 ٤٧٣-٤٧٤
 ٤٧٥-٤٧٦
 ٤٧٧-٤٧٨
 ٤٧٩-٤٨٠
 ٤٨١-٤٨٢
 ٤٨٣-٤٨٤
 ٤٨٥-٤٨٦
 ٤٨٧-٤٨٨
 ٤٨٩-٤٩٠
 ٤٩١-٤٩٢
 ٤٩٣-٤٩٤
 ٤٩٥-٤٩٦
 ٤٩٧-٤٩٨
 ٤٩٩-٥٠٠
 ٥٠١-٥٠٢
 ٥٠٣-٥٠٤
 ٥٠٥-٥٠٦
 ٥٠٧-٥٠٨
 ٥٠٩-٥١٠
 ٥١١-٥١٢
 ٥١٣-٥١٤
 ٥١٥-٥١٦
 ٥١٧-٥١٨
 ٥١٩-٥٢٠
 ٥٢١-٥٢٢
 ٥٢٣-٥٢٤
 ٥٢٥-٥٢٦
 ٥٢٧-٥٢٨
 ٥٢٩-٥٣٠
 ٥٣١-٥٣٢
 ٥٣٣-٥٣٤
 ٥٣٥-٥٣٦
 ٥٣٧-٥٣٨
 ٥٣٩-٥٤٠
 ٥٤١-٥٤٢
 ٥٤٣-٥٤٤
 ٥٤٥-٥٤٦
 ٥٤٧-٥٤٨
 ٥٤٩-٥٥٠
 ٥٥١-٥٥٢
 ٥٥٣-٥٥٤
 ٥٥٥-٥٥٦
 ٥٥٧-٥٥٨
 ٥٥٩-٥٦٠
 ٥٦١-٥٦٢
 ٥٦٣-٥٦٤
 ٥٦٥-٥٦٦
 ٥٦٧-٥٦٨
 ٥٦٩-٥٧٠
 ٥٧١-٥٧٢
 ٥٧٣-٥٧٤
 ٥٧٥-٥٧٦
 ٥٧٧-٥٧٨
 ٥٧٩-٥٨٠
 ٥٨١-٥٨٢
 ٥٨٣-٥٨٤
 ٥٨٥-٥٨٦
 ٥٨٧-٥٨٨
 ٥٨٩-٥٩٠
 ٥٩١-٥٩٢
 ٥٩٣-٥٩٤
 ٥٩٥-٥٩٦
 ٥٩٧-٥٩٨
 ٥٩٩-٦٠٠
 ٦٠١-٦٠٢
 ٦٠٣-٦٠٤
 ٦٠٥-٦٠٦
 ٦٠٧-٦٠٨
 ٦٠٩-٦١٠
 ٦١١-٦١٢
 ٦١٣-٦١٤
 ٦١٥-٦١٦
 ٦١٧-٦١٨
 ٦١٩-٦٢٠
 ٦٢١-٦٢٢
 ٦٢٣-٦٢٤
 ٦٢٥-٦٢٦
 ٦٢٧-٦٢٨
 ٦٢٩-٦٣٠
 ٦٣١-٦٣٢
 ٦٣٣-٦٣٤
 ٦٣٥-٦٣٦
 ٦٣٧-٦٣٨
 ٦٣٩-٦٤٠
 ٦٤١-٦٤٢
 ٦٤٣-٦٤٤
 ٦٤٥-٦٤٦
 ٦٤٧-٦٤٨
 ٦٤٩-٦٥٠
 ٦٥١-٦٥٢
 ٦٥٣-٦٥٤
 ٦٥٥-٦٥٦
 ٦٥٧-٦٥٨
 ٦٥٩-٦٦٠
 ٦٦١-٦٦٢
 ٦٦٣-٦٦٤
 ٦٦٥-٦٦٦
 ٦٦٧-٦٦٨
 ٦٦٩-٦٧٠
 ٦٧١-٦٧٢
 ٦٧٣-٦٧٤
 ٦٧٥-٦٧٦
 ٦٧٧-٦٧٨
 ٦٧٩-٦٨٠
 ٦٨١-٦٨٢
 ٦٨٣-٦٨٤
 ٦٨٥-٦٨٦
 ٦٨٧-٦٨٨
 ٦٨٩-٦٩٠
 ٦٩١-٦٩٢
 ٦٩٣-٦٩٤
 ٦٩٥-٦٩٦
 ٦٩٧-٦٩٨
 ٦٩٩-٧٠٠
 ٧٠١-٧٠٢
 ٧٠٣-٧٠٤
 ٧٠٥-٧٠٦
 ٧٠٧-٧٠٨
 ٧٠٩-٧١٠
 ٧١١-٧١٢
 ٧١٣-٧١٤
 ٧١٥-٧١٦
 ٧١٧-٧١٨
 ٧١٩-٧٢٠
 ٧٢١-٧٢٢
 ٧٢٣-٧٢٤
 ٧٢٥-٧٢٦
 ٧٢٧-٧٢٨
 ٧٢٩-٧٣٠
 ٧٣١-٧٣٢
 ٧٣٣-٧٣٤
 ٧٣٥-٧٣٦
 ٧٣٧-٧٣٨
 ٧٣٩-٧٤٠
 ٧٤١-٧٤٢
 ٧٤٣-٧٤٤
 ٧٤٥-٧٤٦
 ٧٤٧-٧٤٨
 ٧٤٩-٧٥٠
 ٧٥١-٧٥٢
 ٧٥٣-٧٥٤
 ٧٥٥-٧٥٦
 ٧٥٧-٧٥٨
 ٧٥٩-٧٦٠
 ٧٦١-٧٦٢
 ٧٦٣-٧٦٤
 ٧٦٥-٧٦٦
 ٧٦٧-٧٦٨
 ٧٦٩-٧٧٠
 ٧٧١-٧٧٢
 ٧٧٣-٧٧٤
 ٧٧٥-٧٧٦
 ٧٧٧-٧٧٨
 ٧٧٩-٧٨٠
 ٧٨١-٧٨٢
 ٧٨٣-٧٨٤
 ٧٨٥-٧٨٦
 ٧٨٧-٧٨٨
 ٧٨٩-٧٩٠
 ٧٩١-٧٩٢
 ٧٩٣-٧٩٤
 ٧٩٥-٧٩٦
 ٧٩٧-٧٩٨
 ٧٩٩-٨٠٠
 ٨٠١-٨٠٢
 ٨٠٣-٨٠٤
 ٨٠٥-٨٠٦
 ٨٠٧-٨٠٨
 ٨٠٩-٨١٠
 ٨١١-٨١٢
 ٨١٣-٨١٤
 ٨١٥-٨١٦
 ٨١٧-٨١٨
 ٨١٩-٨٢٠
 ٨٢١-٨٢٢
 ٨٢٣-٨٢٤
 ٨٢٥-٨٢٦
 ٨٢٧-٨٢٨
 ٨٢٩-٨٣٠
 ٨٣١-٨٣٢
 ٨٣٣-٨٣٤
 ٨٣٥-٨٣٦
 ٨٣٧-٨٣٨
 ٨٣٩-٨٤٠
 ٨٤١-٨٤٢
 ٨٤٣-٨٤٤
 ٨٤٥-٨٤٦
 ٨٤٧-٨٤٨
 ٨٤٩-٨٥٠
 ٨٥١-٨٥٢
 ٨٥٣-٨٥٤
 ٨٥٥-٨٥٦
 ٨٥٧-٨٥٨
 ٨٥٩-٨٦٠
 ٨٦١-٨٦٢
 ٨٦٣-٨٦٤
 ٨٦٥-٨٦٦
 ٨٦٧-٨٦٨
 ٨٦٩-٨٧٠
 ٨٧١-٨٧٢
 ٨٧٣-٨٧٤
 ٨٧٥-٨٧٦
 ٨٧٧-٨٧٨
 ٨٧٩-٨٨٠
 ٨٨١-٨٨٢
 ٨٨٣-٨٨٤
 ٨٨٥-٨٨٦
 ٨٨٧-٨٨٨
 ٨٨٩-٨٩٠
 ٨٩١-٨٩٢
 ٨٩٣-٨٩٤
 ٨٩٥-٨٩٦
 ٨٩٧-٨٩٨
 ٨٩٩-٩٠٠
 ٩٠١-٩٠٢
 ٩٠٣-٩٠٤
 ٩٠٥-٩٠٦
 ٩٠٧-٩٠٨
 ٩٠٩-٩١٠
 ٩١١-٩١٢
 ٩١٣-٩١٤
 ٩١٥-٩١٦
 ٩١٧-٩١٨
 ٩١٩-٩٢٠
 ٩٢١-٩٢٢
 ٩٢٣-٩٢٤
 ٩٢٥-٩٢٦
 ٩٢٧-٩٢٨
 ٩٢٩-٩٣٠
 ٩٣١-٩٣٢
 ٩٣٣-٩٣٤
 ٩٣٥-٩٣٦
 ٩٣٧-٩٣٨
 ٩٣٩-٩٤٠
 ٩٤١-٩٤٢
 ٩٤٣-٩٤٤
 ٩٤٥-٩٤٦
 ٩٤٧-٩٤٨
 ٩٤٩-٩٥٠
 ٩٥١-٩٥٢
 ٩٥٣-٩٥٤
 ٩٥٥-٩٥٦
 ٩٥٧-٩٥٨
 ٩٥٩-٩٦٠
 ٩٦١-٩٦٢
 ٩٦٣-٩٦٤
 ٩٦٥-٩٦٦
 ٩٦٧-٩٦٨
 ٩٦٩-٩٧٠
 ٩٧١-٩٧٢
 ٩٧٣-٩٧٤
 ٩٧٥-٩٧٦
 ٩٧٧-٩٧٨
 ٩٧٩-٩٨٠
 ٩٨١-٩٨٢
 ٩٨٣-٩٨٤
 ٩٨٥-٩٨٦
 ٩٨٧-٩٨٨
 ٩٨٩-٩٩٠
 ٩٩١-٩٩٢
 ٩٩٣-٩٩٤
 ٩٩٥-٩٩٦
 ٩٩٧-٩٩٨
 ٩٩٩-١٠٠٠

الكتاب الأول

في الحياة الاجتماعية

من عهد المتوكل إلى آخر القرن الرابع الهجري

Faint, illegible text at the top of the page, possibly bleed-through from the reverse side.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله
والحمد لله رب العالمين

الباب الاول

سكان المملكة الاسلامية

عنصر الأتراك — في هذا العصر الذي نؤرخه ، ظهر في المملكة الإسلامية عنصر كبير بجانب العنصرين العظيمين — الفرس والعرب — وهو عنصر الأتراك ، وكان له أثر كبير في تاريخ الأمة الإسلامية وحياتها السياسية والاجتماعية .

ذلك أن المعتصم الذي تولى الخلافة سنة ٢١٨ استقدم سنة ٢٢٠ قوما من بخارى وسمرقند وفرغانة وأشروسنة وغيرها من البلاد التي نسميها « تركستان » وما وراء النهر ، « اشتراهم وبذل فيهم الأموال ، وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب ، وأمعن في شرائهم حتى بلغت عدّتهم ثمانية آلاف مملوك ، وقيل ثمانية عشر ألفاً » وهو الأشهر^(١) .

وسبب اتجاه المعتصم إلى الأتراك يرجع إلى أمور :

١ — أن أهم عنصر في الجند كانوا إلى عهد المعتصم هم الخراسانيين ، وهم فرس من خراسان ، وكانوا عماد الدولة العباسية نحو قرن ، من عهد إنشاء الدولة إلى المعتصم ، كما كانوا حرس الخلفاء ؛ وكان بجانب هؤلاء الجنود من الفرس جنود من العرب ، من مضر واليمن وربيعة ، ولكن هؤلاء العرب كانوا أقل شأنًا وأقل حظوة ، وأقل عددا من الفرس .

ضعفت ثقة الخلفاء بالعرب على مرّ الأيام ، إذ رأوهم لا يتحمسون للقتال لهم تحمس الفرس . وقد تقدم أن رجلا تعرض للمأمون بالشام وقال له :

(١) النجوم الزاهرة : ٢٣٣/٢ .

« يا أمير المؤمنين ، انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان ! ولكن المعتصم بدأ يشعر أيضا بضعف ثقته بالفرس ، وذلك أن كثيرا من الجند لما مات المأمون كان هواهم مع ابنه العباس ، لأن أم المأمون فارسية ، فدعتهم عصبيتهم للمأمون — نصف الفارسي — أن يتعصبوا لابنه العباس أيضا .

وذكر « الطبري » أن الجند شغبوا لما بويع لأبي إسحاق (المعتصم) بالخلافة ، فطلبوا العباس ونادوه باسم الخلافة ، فأرسل أبو إسحاق إلى العباس فأحضره فباعه (العباس) ثم خرج العباس إلى الجند فقال : ما هذا الحب البارد ! قد بايعت عمي ، وسلمت الخلافة إليه . فسكن الجند^(١) .

لم تمر هذه الحادثة على المعتصم من غير أن تدعوه إلى التفكير العميق حتى لا يتكرر مثل هذا الحادث ، ففكر أن يستعين بقوم غير الفرس وغير العرب ، فهدهاء تفكيره إلى الترك ؛ وظل لا يصفو للعباس ولا العباس يصفو له حتى اتهم العباس بأنه يدبر مؤامرة لاغتيال المعتصم ، فقبض على العباس وسجن ومنع عنه الماء حتى مات .

٢ — وسبب آخر لاستدعاء المعتصم للترك ، وهو أن أم المعتصم أصلها من هذه الأصقاع التركية ، فقد كانت من الشعد ، واسمها ماردة ، وكان في طباعه كثير من طباع هؤلاء الأتراك ، من القوة والشجاعة والاعتداد بقوة الجسم ؛ « كان يجعل زند الرجل بين أصبعيه فيكسره » . ويقول أحمد بن أبي ذؤاد : « كان المعتصم يخرج ساعده إلى ويقول عض ساعدي بأكثر قوتك ، فأمتنع ، فيقول : إنه لا يضرني ! فأروم ذلك فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلا عن الأسنان »^(٢) ! فدعته العصبية التركية والتشابه الخلق أن يفكر في استدعاء الأتراك ففعل .

(٢) تاريخ الخلفاء : ١٣٣ .

(١) طبري : ١٠/٣٠٤ .

استكثر المعتصم من الأتراك حتى ملئوا بغداد وضايقوا أهلها ، قال المسعودي :
« كانت الأتراك تؤذى العوام بمدينة السلام بحريها بالخيول في الأسواق وما ينال
الضعفاء والصبيان من ذلك ، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند
صدمة لامرأة أو شيخ كبير ، أو صبي أو ضير ؛ فعزم المعتصم على النقلة معهم ...
فانتهى إلى موضع سامرًا ، فأحضر الفعلة والصناع وأهل المهن من سائر الأمصار ،
ونقل إليها من سائر البقاع أنواع الغروس والأشجار ، فجعل للأتراك مواضع
متميزة ، وجاورهم بالفراغنة والأشروسنية ... وأقطع أشناس التركي وأصحابه من
الأتراك الموضع المعروف بكرخ سامرًا » الخ^(١) . كان من هؤلاء الأتراك مسلمون
أسلموا على أثر فتح المسلمين لبلادهم في العصر الأموي ، ومنهم مجوس وثنيون
أخذوا يسهلون عند استقدام المعتصم لهم ، وكانوا يتكلمون التركية فأخذوا
يتعلمون العربية ، وقد عرفوا بالشجاعة والصبر على القتال كما عرفوا بحشونة
البداءة وقسوة الطبيعة ؛ وحافظ المعتصم على دماءهم أن تبقى متميزة فجلب لهم نساء
من جنسهم زوجهن لهم ، ومنعهم أن يتزوجوا من غيرهم .

مكن المعتصم للأتراك في الأرض ، وكانوا في أول أمرهم قوة للدولة ، وبسببهم
— على الأكثر — يرجع انتصارهم على الروم في وقعة عمورية سنة ٢٢٣ ،
فكانت القيادة العليا في يد الأتراك وعلى رأسهم أشناس .

من ذلك التاريخ دخل في نزاع العصبية عنصر قوى جديد ، فقد كان النزاع
قبل بين الفرس والعرب فأصبح بين العرب والفرس والترک ، وكان العرب قد
ضعف أمرهم في نزاعهم مع الفرس ، فجاءت قوة الترك ضعفاً على إبالة ، وتوجهت

(١) مروج الذهب : ٢/٢٧٢ وما بعدها .

قوة الترك — أولاً — لإضعاف شأن هؤلاء الفرس المستبدين بالسلطان . وأخذ التاريخ الإسلامي يصطبغ بالصبغة التركية ، وبعد أن كانت الأحداث تتصل بأعلام الفرس ، كأبي مسلم الخراساني والبرامكة والحسن بن سهل والفضل بن سهل وعبد الله بن طاهر وأمثالهم ، ظهر التاريخ مرتبطة أحداثه بأشناس ، وإيتاخ ، وبغا الكبير ، وبغا الصغير ، وابن طولون وأمثالهم من الأتراك ، إذ كانوا القابضين على زمام الدولة والمتصرفين في شؤونها .

وبدأت العصبية ضد الأتراك من عهد دخولهم بغداد ، فقد شكوا أهل بغداد للمعتصم وقالوا له : تحول عنا وإلا قاتلناك ! قال : وكيف تقاتلونني وفي عسكري ثمانون ألف دارع ؟ ! قالوا : قاتلك بسهام الليل — يعنون الدعاء — فقال المعتصم : والله مالي بها طاقة ! فبنى لذلك « سر من رأى » وسكنها^(١) .

وهما دِعْبِلُ الخَزَاعِي المعتصم لتعصبه للأتراك وحمايته إياهم فقال :

لقد ضاع أمرُ الناسِ حيث يسوسهم وِصِيفٌ وَأَشْنَسٌ وقد عظم الخطبُ
وإني لأرجو أن ترى من مغيها مطالعُ شمسٍ قد يَغصُّ بها الشَّرْبُ
وهُمُّكَ تُرْكِي عليه مَهَانَةٌ فأنت له أُمٌّ وأنت له أبُ
بل يظهر أن المعتصم نفسه — وهو جالب الأتراك — قارن بين خدمة

الفرس للخلفاء قبله وخدمة الترك له ، فحمد الأولى وذم الثانية ؛ فقد روى الطبري أن المعتصم دعا أبا الحسين إسحاق بن إبراهيم^(٢) ، وبعد حديث طويل — قال المعتصم : يا إسحاق ! في قلبي شيء أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة . فقال إسحاق : قل يا سيدي فأنا عبدك وابن عبدك . قال المعتصم : نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا ، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم ! قال

(١) النجوم الزاهرة : ٢/٢٣٣ . (٢) هو والي بغداد للمأمون .

إسحاق : ومن الذى اصطنعهم أخوك ؟ قال : طاهر بن الحسين ، فقد رأيت
وسمعت ؛ وعبد الله بن طاهر ، فهو الرجل الذى لم يُر مثله ؛ وأنت ، فأنت والله الذى
لا يعتاض السلطان منك أبدا ؛ وأخوك محمد بن إبراهيم ، وأين مثل محمد ؟ وأنا
فاصطنعت الأفشين ، فقد رأيت إلى ما صار أمره ؛ وأشناس ، فمشل أيه ؛
وإيتاخ ، فلا شيء ؛ ووصيف ، فلا معنى فيه ! فقال إسحاق : أجيّب يا أمير المؤمنين
على أمان من غضبك ؟ قال : قل . قال إسحاق : يا أمير المؤمنين نظر أخوك إلى
الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب ،
إذ لا أصول لها ! قال : يا إسحاق . لمقاساة ما مر بي في طول هذه المدة أسهل على
من هذا الجواب ^(١) .

وكره أهل بغداد محبتهم إذ كانوا شؤماً عليهم في حلهم وترحالهم ، فلما أقاموا
بينهم كانت خيولهم تصيب الضعفاء والمرضى ، ولما رحلوا عنهم إلى القاطول ^(٢)
ثم سامرا أثر ذلك أثراً سيئاً في بغداد من حيث تجارتها وحضارتها ، فقال بعضهم
في ذلك يعيّر المعتصم :

أيا ساكن القاطول بين الجرامقه تركت ببغداد الكباش البطارقة .
وأخذ المحدثون يضعون الأحاديث في ذم الترك تعبيراً عن شعورهم وشعور
الناس ، فرووا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الترك أول من يسلب أمتي
ما حوّلوا » ، وعن ابن عباس أنه قال : « ليكون الملك — أو قال الخلافة —
في ولدى حتى يغلب على عزهم الحمر الوجوه ، الذين كأن وجوههم المجان المطرقة » ،
وعن أبي هريرة أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى يجيء قوم عراض الوجوه صغار

(١) طبرى : ٨/١١ .

(٢) القاطول : نهر كان في موضع سامرا قبل أن تعمّر .

الأعين فطس الأنوف ، حتى يربطوا خيولهم بشاطئ دجلة» (١) .
زاد نفوذ الأتراك شيئاً فشيئاً بكثرة ما كان يرد على عاصمة الخلافة من
بلادهم ، وبما أبدوا من بسالة في حروبهم ، وبما تزوجوا وتناسلوا ، ويتأيد
الخلفاء لهم ؛ فالواقف بعد المعتصم « استخلف سنة ٢٢٨ على السلطنة أشناس التركي
وألبيه وشاحين مجوهرين وتاجا مجوهراً . وأظنه أول خليفة استخلف سلطاناً ،
فإن الترك إنما كثروا في أيام أبيه » (٢) .

وفي أيامه نكل قواد الأتراك بكثير من الأعراب في مواضع مختلفة من
جزيرة العرب ، فمرة حول « المدينة » ، ومرة باليمامة ، وكان على رأس الجيش
بغا الكبير التركي . واحتقر الأعراب أول أمرهم هؤلاء الترك وقالوا لمن استنجد
بهم : « ما هؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم والله لنرينك العبر » ! ولكن هؤلاء
العبيد والعلوج انتصروا عليهم ، وكان بغا يحضر الواحد تلو الواحد من أسرى
بنى نمير ويضربه ما بين الأربعمائة إلى الخمسمائة وأقل من ذلك وأكثر . وعاد بغا
ومعه الأسرى من قبائل مختلفة من العرب (٣) ، ولهذا الحادثة وأمثالها أثر في
ضعف نفسية العرب أمام الترك .

وكان مما فعله المعتصم متمسكاً بآرائه على الأتراك أن كتب إلى واليه على مصر
كَيْدَر ، واسمه نصر بن عبد الله ، يأمره بإسقاط من في الديوان من العرب (٤)
وقطع أعطيائهم . فلما قطع العطاء عنهم خرج يحيى بن الوزير الجروى في جمع

(١) وردت هذه الأحاديث في معجم ياقوت مادة تركستان .

(٢) الخلفاء : ١٣٥ .

(٣) انظر هذه الأحداث بطولها في تاريخ الطبرى : ١٢/١١ وما بعدها .

(٤) يراد بإسقاطهم من الديوان حذف أسمائهم من الدفاتر التي يقيد فيها أسماء الجنود
الرسامين الذين يأخذون مرتباً .

لنَحْمَ وجذام وقال : « هذا أمر لا تقوم في أفضل منه ^(١) لأنه منعنا حقنا وفيئنا » ؛ واجتمع إليه نحو من خمسمائة رجل . فتوجه إليهم مُظَفَّرَ بن كيدُر في بحيرة تَنيس ، فأَسْرِيحِي بن الوزير وتفرق عنه أصحابه ، فانقرضت دولة العرب من مصر وصار جندها العجم والموالي من عهد المعتصم ، إلى أن ولى أحمد بن طولون (التركي) فاستكثر من العبيد وبلغت عدتهم زيادة على أربعة وعشرين ألف غلام تركي ، وأربعين ألف أسود ، وسبعة آلاف حر مرتزق ^(٢) .

ولا شك أن هذه الحادثة أيضا أضعفت من شأن العرب وخاصة في مصر .

وتولى المتوكل سنة ٢٣٢ هـ ، فكان قد مضى على مجيء الأتراك اثنتا عشرة سنة تمكنوا فيها من الأرض وعرفوا الناس والبلاد ، وخدمتهم الحوادث في إعلاء سلطانهم ؛ فرأينا إيتاخ التركي هو الذي بيده معظم الأمور . وإيتاخ هذا غلام تركي كان طباحاً فاشتراه المعتصم ، وكان ذا رجولة وبأس « فرفعه المعتصم ومن بعده الواثق حتى ضم إليه من أعمال السلطان أعمالاً كثيرة — وكان من أراد المعتصم أو الواثق قتلته فعند إيتاخ يُقتل ويبيده يحبس ، منهم محمد بن عبد الملك الزيات ، وأولاد المأمون » . فلما ولى المتوكل كان إيتاخ في أعلى مرتبته ، إليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبربر والحجابة ودار الخلافة ^(٣) ، حتى لقد خرج المتوكل مرة متنزهاً إلى ناحية القاطول وشرب وعربد على إيتاخ ، فهم إيتاخ بقتله ، فلما أصبح أخبر المتوكل بذلك فاعتذر إلى إيتاخ وقال له : « أنت أبي ووريتني » ^(٤) . نعم إن المتوكل دبر له مكيدة فقتله ، ولكن هذا

(١) أي لا يوجد سبب يدعو إلى الثورة أفضل منه .

(٢) الولاة للكندي : ١٩٤ والخطط للمقرئى : ٩٤/١ .

(٣) الطبرى : ٣٣/١١ . (٤) المصدر نفسه .

لم يضعف شأن الأتراك في شيء ، بل أوعز صدرهم على المتوكل .
أصبحت أمور الدولة في يد الأتراك ، وأصبحوا مصدر قلق واضطراب ، فهم
يكرهون الفرس والعرب ، وهم أنفسهم ليسوا في وفاق بعضهم مع بعض ، وهم
لا يقطعون عن المؤامرات والديساس ، وتعصب كل فريق لقائد منهم ، وهم
كثيرو الطمع في الأموال لا يشبعون ، وعلى الجملة فقد أصبحت « دار السلام »
وما حولها ليست دار سلام .

لا بد أن يكون المتوكل قد شعر بهذا الجو الخائني بما يثيره الأتراك من
شروع ، ولا بد أن يكون قد أحس الخطر على حياته منهم ، ففكر أن ينقل عاصمة
الخلافة من العراق إلى دمشق ، وأن يعود إلى عاصمة الأمويين لعله يجد فيها من
العنصر العربي من يغنيه عن العنصر التركي ؛ ففي سنة ٢٤٣ أى بعد خلافته
بإحدى عشرة سنة رحل إلى دمشق ، ولكنه لم يطل مقامه بها ، فلم يستطع
جوها كما قالوا . وهو مع هذا لم يسلم من شغب جنود الشام عليه ، « فاجتمعوا
وضجوا يطلبون الأعطية ، ثم خرجوا إلى تجريد السلاح والرمي بالنشاب »^(١) ،
فعاد إلى سامرا . وكان بين خروجه منها وعودته إليها ثلاثة أشهر وسبعة أيام ، وبعد
أربع سنوات من عودته قتله الأتراك .

لقد رأى المتوكل أن يتخلص من الأتراك ويعيد الدولة سيرتها الأولى ،
ولكن كان ابنه المنتصر يشايعهم ، « فعزم (المتوكل) أن يفتك بالمنتصر ، ويقتل
وصيفاً وبغا وغيرها من قواد الأتراك ووجههم »^(٢) ، وعزموا هم على الفتك به .
فكان ذلك مفترق الطرق ، فإن نجح زالت دولة الأتراك وعادت غلبة الفرس ،
ورجعت الأمور إلى ما كانت عليه . ولكن شاء القدر أن ينجحوا هم ، فتقدم

(٢) الطبري : ٦٣/١١ .

(١) المسعودي : ٢٠٤/٢ .

باغر التركي حارس المتوكل ينفذ مؤامرة من القواد الأتراك على رأسهم بغا الصغير ،
ومعه عشرة غلمان من الأتراك وهم متلثمون والسيوف في أيديهم ، وصعدوا على
سرير الملك ؛ وضرب باغر « المتوكل » بالسيف ففدّه إلى خاصرته ، ثم ثناه على
جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك . وأقبل الفتح (بن خاقان) يمانهم فبعجه واحد
منهم بالسيف في بطنه فأخرجه من متنه ، فلما في البساط الذي قتلا فيه ، وطرحا
ناحية ، فلم يزالا على حالتها في ليلتهما وعامة نهارهما ، حتى استقرت الخلافة
للمنتصر فأمر بهما فدفنا .

كان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين ، فكل من كان
قبله مات حتف أنفه (إلا الأمين فقد قتل بعد هزيمته في الحرب) . ولم يكن
قتل المتوكل اعتداء على المتوكل وحده ، بل هو قتل لسلطان كل خليفة بعده ،
ولم يكن قتله بيد باغر وحده بل بيد الأتراك . وكان في قتله حياة الأتراك
وسلطانهم ، وإنذار عام للبيت المالك أن من أراد أن يلي الخلافة فليدعن
إذعاناً تاماً للأتراك ، ومن حدثته نفسه — من الخليفة فمن دونه — أن يناوئهم
فليوطن نفسه على القتل .

وهكذا كانت هذه الحادثة مصرع الخلافة ، ومجد الأتراك ، فكان
الخليفة بعده خاتماً في أصبعهم أو أقل من ذلك ، حتى قنع بالسكة والخطبة ،
« وصار يُضرب ذلك مثلاً لمن له ظاهر الأمر ، وليس له من باطنه شيء ، فيقال
قنع فلان من الأمر الفلاني بالسكة والخطبة ، يعني قنع منه بالاسم دون الحقيقة » (١) ،
وفي هذا المعنى يقول بعضهم في الخليفة المستعين :

خَلِيفَةٌ فِي قَفْصِ بَيْتِ وَصِيفٍ وَبُغَا

(١) الفخرى : ٣٨ .

يقول ما قالوا له كما يقول البيهقي

لقد شهد البحترى مقتل المتوكل وكان نديمه وجليسه ، وفزع لذلك ، ووصف
مقتله في قصيدته الرائية المشهورة ، يقول فيها :

ولم أنس وحشَ القصر إذ ربيع سرُّه بهُ
وإذ دُعرت أطالؤه وجاذِرُه
وإذ صيَّح فيه بالرحيل فهُتِّكتْ
على عجل أَسْأَرُه وسَسْأَرُه
وفيها :

حُلومٌ أضلَّتْها الأمانى ومدة
ومغتصبٍ للقتل لم يُحش رَهْطُه
صريع تقاضاه السيوفُ حشاشَةً
أدافع عنه باليدين ولم يكن
ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي
حرامٌ على الراح بعدك أو أرى
وهل أرتجى أن يطلب الدم واترُ
بل يخيل إليّ أن البحترى هاله ما فعله الأتراك بسبيده المتوكل وهو الذي
مجده في كثير من قصائده ، وأسبغ عليه فيها نوعاً من التقديس .

وشبيه النبي خلقاً وخلقا ونسيب النبي جدًّا فجداً

يا ابن عم النبي حقاً ويا أزكى قریش ديناً ونفساً وعرضاً

بنت بالفضل والعلو فأصبحت سماء وأصبح الناس أرضاً

ولم يستطع أن يهجو الأتراك في صراحة وإقذاع ، وهم الذين بيدهم السلطان ؛
وآله ما آل إليه أمر الدولة وقد غلب عليها الأتراك ، وما كانت عليه الدولة أيام

كان السلطان سلطان الفرس ، فحنق على الأولى ، وحمد الأخرى ؛ فيخيل إلى أنه قام «بمظاهرة» طريفة يرضى بها شعوره ، وهي أنه حج إلى إوان كسرى رمز سلطان الفرس ، ووقف أمامه شاكياً باكياً ، وقال سينتبه البديعة المشهورة يندب حظه ويبيكي أمسه :

حَضْرَتْ رَحَلِي الْهُمُومَ فَوَجَّهْتُ إِلَى أَيْضِ الْمَدَائِنِ عَنِّي
أَتَسَلِّيَ عَنِ الْخَطُوطِ وَأَمْسِي لِحَلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرَسِ
ذَكَرْتَنِيهِمْ الْخَطُوبُ التَّوَالِي وَلَقَدْ تَذَكَّرَ الْخَطُوبُ وَتَنَسَى

وهو ينيبك عن عجائب قومٍ لا يُشَابُّ البَيَانُ فِيهِمْ بَلَّسِ

لَيْسَ يُدْرِي أَصْنَعُ إِنْسٍ لِحْنٍ سَكَنُوهُ أَمْ صُنْعُ جَنِّ لِنَسِ
غَيْرَ أَنِّي أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنْ لَمْ يَكْ بَانِيهِ فِي الْمُلُوكِ بِنَكْسِ

بل هو يصرح بعد ذلك أن الفرس ليسوا قومه ، ولكن لهم فضل على العرب بما أيدوا من ملكهم ، وما خدموا في دولتهم (أى وليس كذلك الترك) . وفضلاً عن ذلك فإنه يألف الأشراف من كل جنس ، ويجب الأصول من كل قوم :

ذَاكَ عِنْدِي وَليست الدار دارِي باقتراب منها ولا الجنس جنسِي

غَيْرَ نَعْمَى لِأَهْلِهَا عِنْدَ أَهْلِي غَرَسُوا مِنْ ذَكَائِهَا خَيْرَ غَرَسِ

أَيَّدُوا مُلْكَنَا وَشَدُّوا قِوَاهُ بَكَاءَ تَحْتِ السَّنَوْرِ حُمْسِ

وَأَرَانِي مِنْ بَعْدُ أَكْلَفُ بِالْأَشْرَاءِ فِ طَرًّا مِنْ كُلِّ سِنَخِ وَأَسِّ

فهذه القصيدة ليست نزعة شعوية من البحتری كما يرى بعضهم ، ولكنها

— فيما أرى — حسرة على عهد الفرس بعد أن رأى عهد الأتراك ، وبكاء على

عصر كان الفرس فيه يحتفظون بأبهة الخليفة وعظمته ، ويعملون ما عملوا في

خدمته ، وألم من عصر الأتراك الذي محوا فيه سلطة الخليفة وسلبوه سلطانه ، وأخضعوه لإشارتهم ، وجعلوه تابعاً لأمرهم ونهيمهم ، وأخيراً فعلوا فعلتهم الشنعاء فقتلوه أشنع قتلة ، ولم يرعوا له ولا للخلافة أية حرمة .

وقد خلف لنا الجاحظ رسالة في موضوع العصبية عند مجيء الترك ، وهي رسالة كتبها للفتح بن خاقان التركي في مناقب الترك ، تمثل لنا أصدق تصوير العصبية بين الجنود المختلفة لَمَّا جُنِدَ الأتراك ، وما يقال عن الجنود يصح أن يقال عن غيرهم . وقد ذكر في هذه الرسالة أنه ألفها أيام المعتصم جالب الأتراك ، وأنه أراد أن يوصلها إليه فلم تصل ، لأسباب يطول ذكرها ، ولم يبين لنا شيئاً من هذه الأسباب ؛ والظاهر أنها لم تصل إليه لأن من كان في قصر المعتصم من الفرس والعرب عملوا على ألا تقع في يده فتعظم عصبيته للترك .

ويظهر أنه أعاد كتابتها من جديد على ضوء ما كان من عظمة الترك ، وقدمها للفتح بن خاقان وزير المتوكل — وكل قوم من الجند في ذلك العصر كان لهم أدباء وعلماء ومتحدثون ، يتكلمون في مناقب قومهم ويميزتهم عن غيرهم . أما الأتراك فلم يكن لهم شيء من ذلك ، فتعاون الفتح بن خاقان والجاحظ على أن يسدا هذا النقص ، ويبينا مناقب الترك ؛ فكتب الجاحظ رسالته في ذلك وحكى فيها بعض أقوال الفتح . وقد استعمل الجاحظ عقله وقلمه وفلسفته في إعلاء شأن الترك تقرباً لذوى النفوذ ، وإظهاراً لمزيتة البلاغية ، بقطع النظر عن كونه يعتقد ما يقول أو لا يعتقد .

والرسالة قيمة جدا من ناحية حكاية ما كان يحول بخاطر الجند على اختلاف أنواعهم ونوع عصبيتهم . ويقول فيها إنه لا يريد أن يذكر مناقب الأتراك ويتبعه

بمعايب غيرهم ، بل يكتفى بذكر المناقب قصدا إلى الألفة وتوحيد القلوب . ولكنه بسط مناقب الترك وبالغ في إعلاء شأنهم ، وأسبغ عليهم — بقلمه السيل وأسلوبه الواسع — عظمة وأبهة تكفيان في إشعار القارئ أن الترك أعظم جند ، وأشجع قوم ؛ فهو بهذا الأسلوب الماكر رفع من شأن الترك ، ووضع من غيرهم تحت ستار الدعوة إلى الألفة .

حكى في صدر الرسالة حكاية الفتح بن خاقان من أنه سمع رجلا يقسم الجند في عهد المتوكل إلى أقسام : خراساني ، وتركي ، ومولى ، وعربي ، وبنوي^(١) . فاعترض عليه الفتح وأبى هذا التقسيم ، ودعا إلى أن ينظر إلى الجند كوحدة لا كأجناس ، وأن هذا الجند مع اختلاف أجناسه متقارب الأنساب ؛ فالخراساني والتركي متقاربان في الشبه والصقع ، وأن القرب بينهما أكثر مما بين العدنانيين والقحطانيين مع أن كلهم عرب — وأن البنويين خراسانيون لأن نسب الأبناء نسب الآباء ، وأن الموالى أشبه بالعرب وأقرب إليهم ، وهم عرب في المدعى وفي العاقلة وفي الراية ، وقد جاء : « مولى القوم منهم » و « الولاء كلحمة النسب » ، وأن الأتراك صاروا من العرب لهذا المعنى ، لأن الأتراك موالى الخلفاء ، فهم موالى لباب قريش . وحكى عن الفتح ، أن هذه الأجناس بهذا المعنى يجب أن يكونوا متوازنين متكاتفين مطيعين محبين للخلفاء الخ الخ .

وهو كلام جيد نظريا ولم يكن واقعا عمليا ، فالدعوة الجنسية كانت بالغة أشدها ، والعداوة بينهم متغلغلة في أعماق صدورهم .

(١) في الأصل بنوي ولكن في أثناء الرسالة تأتي نبوي ، والظاهر أن صحتها بنوي والبنوي نسبة إلى الأبناء ، وهو لفظ كان يطلق في العصر العباسي على ذرية دعاة الدولة العباسية في أول نشأتها .

ثم حكى الجاحظ عن «الفتح» أن هذا القائل ذكر مناقب كل جنس من الجنود وألغى ذكر الأتراك ، فذكر أن الخراسانيين يفخرون ويقولون إنا دعاة الدولة العباسية ونحن النقباء والنجباء ، وأبناء النجباء ، وبنو زال ملك بني أمية ، ونحن الذين تحملوا العذاب وبُضعوا بالسيوف الحداد ، ندين بالطاعة ونقتل فيها ، وتموت عليها ؛ ونحن قوم لنا أجسام وأجرام ، وشعور وهام ، ومناكب عظام ، وجباه عمراض ، وسواعد طوال ، وأبداننا أحمل للسلاح ، ونحن أكثر مادة ونحن أكثر عددا وعدة ، ومتى رأيت مواكبنا وفرساننا وبنودنا التي لا يحملها غيرنا علمت أننا لم نخلق إلا لقلب الدول وطاعة الخلفاء وتأييد السلطان ؛ ونحن أرباب النهى وأهل الحلم والحجى ، وأهل النجابة فى الرأى ، والبعد من الطيش ، وليس فى الأرض صناعة عراقية ولا حجازية ، من أدب وحكمة ، وحساب وهندسة وارتفاع بناء ، وفقه ورواية ، نظرت فيها الخراسانية إلا فرعت فيها الرؤساء وبدت فيها العلماء الخ الخ .

والعرب يفخرون بالأنساب وبالشعر الموزون الذى يبقى بقاء الدهر ، ويلوح ما لاح نجم ، وبالكلام المنشور والقول المأثور وتقييد المأثر ، إذ لم يكن ذلك من عادة العجم — قالوا — ونحن أصحاب التفاخر والتنافر ، والتنازع فى الشرف والتحاكم إلى كل حكم مقنع ، وكاهن شجاع ؛ ونحن أصحاب التعابر بالمثالب والتفاخر بالمناقب ، نقاتل رغبة لا رهبة . ثم ردوا على الخراسانيين بأن أكثر النقباء فى الدعوة العباسية كانوا من العرب الخ .

وغر الموالى بأنهم موضع الثقة عند الشدة ، وأن شرف السادة راجع إليهم ، إذ هم منهم ، ثم لهم الطاعة والخدمة والإخلاص وحسن النية — قالوا — ونحن أشكل بالرعية ، وأقرب إلى طباع الدهم ، وهم بنا آنس ، وإلينا أسكن ، وإلى

لقائنا أحنّ ، ونحن بهم أرحم ، وعليهم أعطف الخ .
وقال النبوي ، إن أصلنا خراساني وهو مخرج الدولة ، ومطلع الدعوة ،
ولنا بعدُ في أنفسنا ما لا ينكر من الصبر تحت ظلال السيوف القصار ، والرماح
الطوال ، ولنا معانقة الأبطال عند تحطم القنا وانقطاع الصفّاح ؛ ونحن أهل الثبات
عند الجولة ، والمعرفة عند الخبرة ، مع حسن القد ، وجودة الخرط ، ثم لنا الخط
والكتابة ، والفقه والرواية ، ولنا بغداد بأسرها تسكن ما سكنا وتتحرك
ما تحركنا ؛ ونحن تربية الخلفاء وحيران الوزراء ، ولدنا في أفنية ملوكنا ، ونحن
أجنحة خلفائنا ، أخذنا بأدابهم ، واحتدينا على مثلهم .

فأخذ الجاحظ بعدُ يشيد بفضل الترك ، فيزعم أن كل الأجناد يرجعون إلى
شيء واحد كما قال « الفتح » ؛ فالنبوي خراساني ، والخراساني مولى ، والمولى
عربي بالولاء ، والأترك خراسانية (أى بحكم القرب والجوار) ، فصار النبوي
والخراساني والمولى والعربي والتركي شيئاً واحداً ، فصار فضل التركي إلى الجميع
راجعاً ، وصار شرفهم زائداً في شرفهم ؛ ورجا أنه إذا عرف سائر الأجناد ذلك
تساحت النفوس ، ومات الضغن وانقطع سبب الاستئثار .

بدأ الجاحظ دفاعه عن الأترك بحكاية قصها عن قوم أيام المأمون تذاكروا
أى الاثنين أشجع : الخارجي أم التركي ؟ (وكان الخوارج معروفين بين الناس
إذ ذاك بأنهم أشجع جند وأصبر الناس على قتال) ، وانتهى من هذه القصة بنتيجة
هي أن التركي أشجع من الخارجي ، لأن الخوارج عرفوا بعشر مزايا في القتال ،
والتركي يفضلهم فيها جميعاً ، لأنه أثبت عزماً حتى لقد عوّد برذونه ألا ينثى ، وهو
أصدق رماية ؛ فالتركي يرمى الوحش والطير والناس في سرعة وإصابة ؛ والخوارج
إذا ولوا فقد ولوا ، ولكن التركي إذا ولي فهو السم الناقع ، لأنه يصيب بسهمه وهو

مدبر كما يصيب بسهمه وهو مقبل ؛ والتركي في حال شدته معه كل شيء يحتاج إليه لنفسه وسلاحه ولدابته ؛ والتركي هو الراعي وهو السائس ، وهو الرائض وهو النخاس وهو البيطار ، وهو الفارس ، وهو أصبر على السير وعلى الصعود في ذرى الجبال ؛ والتركي في بلاده لا يقاتل على دين ، ولا على تأويل ، ولا على ملك ، ولا على خراج ، ولا على عداوة ، ولا على وطن ، وإنما يقاتل على السلب ، فكيف إذا انضم إلى ذلك غضب أوتدين ، أو عرض له بعض ما يصحب القاتل من العلل والأسباب ؛ والأتراك قوم وُضع أصل بنيتهم على الحركة وليس للسكون فيهم نصيب ، وهم أصحاب توقد واشتعال وفطنة ، وهم يرون الاكتفاء بالقليل عجزاً ، وطول للمقام بلاذة ، والراحة عقلة ، والقناعة من قصر الهمة .

ويقول بعد : إن كل أمة امتازت بشيء ، فأهل الصين في الصناعات ؛ واليونان في الحكم والآداب ؛ والفرس في الملك والسياسة ؛ والعرب لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ولا أطباء ولا حُساباً ، ولا طلبوا المعاش من أسنة المكابيل والموازين ، ولم يهتموا ذلاً قط فيميت قلوبهم ، ويصغر عندهم أنفسهم ، وكانوا سكان فياف ، وتربية عراء ، فوجهوا قواهم إلى قول الشعر ، وبلاغة المنطق ، وثقيف اللغة ، وتصريف الكلام ، وحفظ النسب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآثار ، والبصر بالخليل والسلاح ، والحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شأن المناقب والمثالب — ومزية الأتراك في الحروب ، وهم كذلك أصحاب عمد ، وسكان فياف ، وأرباب مواش ، وهم أعراب العجم كما أن هذيلاً أكراد العرب ، لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات ، ولا الطب والفلاحة والهندسة ، ولا غراس ولا بنيان ، ولا شق أنهار ، ولا جباية غلات ، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد ، وركوب الخيل ، ومقارعة الأبطال ،

وطلب الغنائم ، وتدويح البلاد ؛ لذتهم في الحرب ، وهي فخرهم وحديثهم وسمهم ، وقد اتصفوا بالصفات التي تستتبع النجدة والفروسية ، من الكرم وبعد الهمة وطلب الغاية ، والحزم والعزم والصبر .

وبذلك انتهت رسالته الطويلة التي أوجزناها إيجازاً تاماً .

ومنها نستدل على أن العصبية في هذا العصر كانت شديدة قوية ، كل عنصر يعدّ مزاياه ، ويُبدل بها على من سواه ؛ فعربي يفخر بلسانه وسيفه ، وفارسي يفخر بسياسته ومُلْكِه الخ ؛ وأن الأتراك كانت مزيّتهم حسن القتال وما يستتبعه من صفات ، فلم يفخروا بعلم ولا سياسة ولا بسابقة دين ولا شيء من ذلك ، فلما كان هذا شأنهم في قوة القتال ، غلبوا على كل سلطان .

أراد الفتح بن خاقان والجاحظ أن ينشرا عقيدة الوحدة بين الجنود وتناسي الأجناس ، ولكن أئىّ لهما ذلك ، والدين نفسه لم يستطع أن يمحو هذه العصبية ، وعمل الأتراك أنفسهم باستبداهم وطغيانهم يحيي العصبية ويجعلها وسيلة للدفاع عن النفس ، بل وطريقة الجاحظ التي سلكها في مناقب الأتراك من شأنها أن تقوى العصبية لا أن تضعفها !

كان طبيعياً أن يزداد نفوذ الأتراك بقتلهم المتوكل وتنصيبهم المنتصر . وقد حكى الطبري (أن المنتصر عزم على أن يُغزى وصيفا (التركي) الثغر الشامي ، فقال أحمد بن الخصيب للمنتصر : « ومن يجترئ على الموالى (الأتراك) حتى تأمر وصيفا بالشخص » (١) — وأمر الأتراك المنتصر أن يخلع أخويه المعتز والمؤيد

(١) الطبري : ٧٣/١١ .

من الخلافة خوفاً أن ينتقم — إذا وليا — من قتلة المتوكل ، وكان لذلك كارهاً ، فدعاها المنتصر والأترک وقوف وقال : « أترى أني خلعتكما طمعاً في أن أعيش حتى يكبر ولدى وأبايع له ؟ والله ما طمعت في ذلك ساعة قط ، وإذا لم يكن في ذلك طمع فوالله لأن يلبها بنو أبي أحب إلى من أن يلبها بنو عمي ، ولكن هؤلاء — وأوماً إلى سائر الموالى (يريد الأترک) — أخوا عليّ في خلعتكما ، فحفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتي عليكما » (١)

فلما مات المنتصر بعد خلافته بستة أشهر ، وقبل أن يستخلف خليفة بعده ، استحلقت القواد الأترک والمغاربة والأشروسنية على أن يرضوا بمن يرضى به بعا الكبير وبعا الصغير وأتامش ، وجميعهم أترک ؛ وهؤلاء قد اختاروا أحمد بن محمد المعتصم ، ولقبوه المستعين فبايعه سائر الناس .

ضايق الأترک المستعين بعد ذلك وضايقوا الناس حتى ضجج وضجوا ، ودبروا المؤامرات لاغتياله ، فهرب من سامرا إلى بغداد ، فذهبوا إليه يعتذرون ، فقال لهم : « أتم أهل بغي وفساد واستقلال للنم ، ألم ترفعوا إلى في أولادكم فألحقتمهم بكم ، وهم نحو من ألفي غلام ؟ ! وفي بناتكم ، فأمرت بتصييرهن في عداد المتزوجات ، وهن نحو من أربعة آلاف امرأة ؟ ! وفي المدركين والمولودين ، وكل هذا قد أحببتم إلي ، وأدررت لكم الأرزاق حتى سبكت لكم آنية الذهب والفضة ؛ ومنعت نفسي لذتها وشهوتها ، كل ذلك إرادة لصلاحكم ورضاكم ، وأتم تزدادون بغيًا وفساداً ، وتهتدون وإبعاداً » (٢)

وهاج أهل بغداد « لما بلغهم مقتل عمر بن عبيد الله الأقطع ، وعلى بن يحيى الأرمي ؛ وكانا نابين من أنياب المسلمين ، شديداً بأسهما ، عظيماً غناؤهما عنهم ، في

(٢) طبرى : ٩٨/١١

(١) طبرى : ٧٦/١١

الثغور التي هما بها ، وقرب مقتل أحدهما من مقتل الآخر ، مع ما لحقهم من استنفاذهم من الأتراك قتل المتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين ، وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء ، واستخلافهم من أحبوا استخلافه ، من غير رجوع منهم إلى ديانة ولا نظر للمسلمين ، فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير^(١) هذا إلى أن الأتراك أنفسهم انشق بعضهم على بعضهم ، وتكونوا أحزاباً : هذا حزب داغر ، وهذا حزب بغا ووصيف الخ ، وقتلوا داغرا ، وحارب بعضهم بعضاً .

فلما لم يدعن لهم المستعين بايعوا المعتز بالله ، وانضم إليه أغلب الأتراك ، وكان مركزه سامرا ؛ وظل أهل بغداد على ولائهم للمستعين وبيعهم له ، ومعه ابن طاهر الفارسي الأصل وقليل من الأتراك ، وكانت سنة شديدة على الناس عذبوا فيها عذاباً شديداً من السلب والنهب والقتال .

وكان من حسن حظ الترك أن غلبوا أخيراً ، ودخلوا بغداد منتصرين ، وخلعوا المستعين ثم قتلوه ، فكانت هذه خطوة أخرى في سبيل سيادة الأتراك ؛ وفي ذلك يقول رجل من أهل سامرا وقيل إنها للبحترى :

لله دَرٌّ عصابة تُركية رَدُّوا نوابَ دهرهم بالسيف
قتلوا الخليفة أحمد بن محمد وكسوا جميع الناس ثوب الخوف
وطَفَّوْا فأصبح مُلكنا متقسِّماً وإمامنا فيه شبيه الضيف

ومع هذا سرعان ما ضيقوا على المعتز وشعر منهم بالشر ، فكان لا يلتذ بالنوم ، ولا يخلع سلاحه لافي ليل ولا في نهار خوفاً من بغا ، وقال : لا أزال على هذه الحالة حتى أعلم لبغا رأسي أو رأسه لي؟! وكان يقول : « إني لأخاف أن

(١) طبرى : ٨٥/١١ .

ينزل على بغا من السماء أو يخرج على من الأرض» (١). ومن ناحية أخرى عنهم المعتز على قتل رؤسائهم ، وأعمل الحيلة في فناءهم ، فخلعوه وقتلوه .
وقد أكثر الشعراء في ذلك العصر من وصف ما أصاب البلاد من سوء الحال وتحكم الأتراك في الخلفاء ، وما عم الناس من الفوضى والاضطراب ، فقال في ذلك بعض شعراء العصر في مقتل المعتز :

بَكَرَ التَّرْكُ نَاقِينَ عَلَيْهِ خَلَعَتْهُ ، أَفْذِيهِ مِنْ مَخْلُوعِ
قَتَلُوهُ ظَلَمًا وَجَوْرًا فَأَلْفَوْهُ كَرِيمِ الْأَخْلَاقِ غَيْرِ جَزُوعِ
لَمْ يَهَابُوا جَيْشًا وَلَا رَهَبُوا السَّيْفَ فَلَهَفِي عَلَى الْقَتِيلِ الْخَلِيعِ
أَصْبَحَ التَّرْكُ مَالِكِي الْأَمْرِ ، وَالْعَالَمُ مَا بَيْنَ سَامِعٍ وَمَطِيعِ
وَرَى اللَّهُ فِيهِمْ مَالِكَ الْأَمْرِ سَيَجْزِيهِمْ بِقَتْلِ ذَرِيعِ
وقال آخر :

قَتَلُوهُ ظَلَمًا وَجَوْرًا وَغَدْرًا حِينَ أَهْدَوْا إِلَيْهِ حَتْفًا مُرِيحًا
نَضَّرَ اللَّهُ ذَلِكَ الْوَجْهَ وَجْهًا وَسَقَى اللَّهُ ذَلِكَ الرُّوحَ رَوْحًا
أَيُّهَا التَّرْكُ تَلْقُونِ لِلدَّهْرِ سَيْوْفًا لَا تَسْتَبِيلَ الْجَرِيحًا
فَاسْتَعِدُّوا لِلسَّيْفِ عَاقِبَةَ الْأَمْرِ فَقَدْ جِئْتُمْ فَعَالًا قَبِيحًا
وقال آخر :

أَلْزَمُوهُ ذَنْبًا عَلَى غَيْرِ جُرْمٍ فَتَوَى فِيهِمْ قَتِيلًا صَرِيحًا
وَبَنُو عَمِّهِ وَعَمُّ أَيْيِهِ أَظْهَرُوا ذِلَّةً وَأَبْدَوْا خَضُوعًا
مَا هَذَا يَصْحُحُ مُلْكٌ وَلَا يُفْزَى عَدُوٌّ وَلَا يَكُونُ جَمِيعًا
ويقول عبد الله بن المعتز في أرجوزته التاريخية المشهورة :

(١) السعدي : ٣٣٦/٢ .

وكلَّ يومَ ملكٍ مقتولٍ أو خائفٍ مُرَوِّعٍ ذليلٍ
أو خالِعٍ للعقدِ كما يَغْنَى وذاك أدنى للردى وأدنى
وكم أميرٍ كان رأسَ جيشٍ قد نَفَّصوا عليه كلَّ عيشٍ
وكل يومٍ شَغَبٌ وغضبٌ وأنفسٍ مقتولةٍ وحربٍ
وكم فتاةٍ خرجت من منزلٍ فغصبوها نفسَهَا في الحفلِ
ويطلبون كلَّ يومٍ رِزْقًا يرونه دِينًا لهم وحقًا
كذلك حتى أفقرُوا الخِلافه وعودُوهَا الرعبَ والخِلافه الخ

شعر الناس بسوء الحالة العامة من سلطة الأتراك ، وحاولوا التخلص من سلطانهم ، وقويت هذه الفكرة عند الخليفة المهدي ، وقد كان شجاعا تويًا ، مثله الأعلى عمر بن الخطاب ؛ فظن أنه يستطيع القضاء على سلطة الأتراك ، وأن الشعب يؤيده ، ولكنه لم ينجح .

لقد أكثر الترك من مصادرة الناس في أموالهم ، وكان من مصائب الرجل أن يكون غنيا ؛ صادروا الكتاب وصادروا الأمراء الكبار ، وأخيراً صادروا زوجة المتوكل وهي أم المعتز بعد أن قتلوا ابنها ، وكان المتوكل سماها قبيحة لحسنها وجمالها كما يسمى الأسود كافورا ، وكان لها أموال كثيرة ، وهربت إلى مكة ، وسمعت وهي تدعو بصوت عال تقول : اللهم اخز صالحا^(١) كما هتك ستري ، وقتل ولدي ، وشتت شملي ، وأخذ مالي ، وغرّني عن بلدي وركب الفاحشة مني^(٢) .

دبر الأتراك مؤامرة لقتل المهدي لأنه لم يعجبهم في نزعته . وانتشر الخبر في العامة أنهم قد اتفقوا على خلع المهدي والفتك به ، وأنهم قد أرهقوه ،

(٢) ابن الأثير : ٧٠/٧ .

(١) هو صالح بن وصيف التركي .

فكتب العامة الرقاع ورموها في الطرق والمساجد مكتوبا فيها : « يا معشر المسلمين ادعوا الله خليفتم العدل الرضا المضاهى لعمر بن الخطاب أن ينصره الله على عدوه ، ويكفيه مؤونة ظالمه ، ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه ، فإن الأتراك قد أخذوه بأن يخلع نفسه » .

ولما وصل خبر المؤامرة إلى المهتدى تحول من مجلسه متقلداً سيفاً ، وقد لبس ثياباً نظافاً وتطيب ، ثم أمر بإدخال هؤلاء الأتراك المتآمرين عليه ، فقال لهم : « بلغنى ما أتم عليه ولست كمن تقدمنى مثل المستعين والمعز ، والله ما خرجت إليكم إلا وأنا متحنط ، وقد أوصيت إلى أخى بولدى . وهذا سيفى ، والله لأضربن به ما استمسك قائمه بيدي ، والله لئن سقطت منى شعرة ليهلكن وليذهبن أكثركم . أما دين ! أما حياء ! أما رعية ! كم يكون هذا الخلاف على الخلفاء والإقدام والجرأة على الله ، سواء عليكم من قصد الإبقاء عليكم ، ومن كان إذا بلغه هذا عنكم دعا بأرطال الشراب فشربها مسروراً بكمروهم وحباً لبواركم ، خبرونى عنكم هل تعلمون أنه وصل إلى من دنيا كم هذه شىء ! أما أنك تعلم يا بكباك أن بعض المتصلين بك أيسر من جماعة إخوانى وولدى ؟ ! تعرف ذلك — فانظر هل ترى فى منازلهم فرشاً ، أو وصائف أو خدما أو جوارى أو لهم ضياع أو غلات ؟ سوأة لكم ! »^(١) . ولكن ماذا يغنى إظهار سيفه والتهديد بخطبته ، وقد أراد أن يضرب الأتراك بعضهم ببعض حتى يخلص منهم جميعاً ؛ ولكنه لم ينجح فى هذا أيضاً ، ودارت الدائرة عليه فقتلوه .

ومع هذا فقد كان لحركة المهتدى أثر فى استرداد البيت العباسى بعض سلطانه ، وكان من أسباب ذلك أيضاً انتقال الخليفة من سامرا ، وهى حصن

(١) الطبرى : ١١ / ١٩٤ .

الأتراك ، إلى بغداد ، وفيها عناصر كثيرة تريد أن تحمي الخلافة من شرورهم .
ولذلك رأينا سلسلة من الخلفاء بعده يقبضون على كثير من السلطان ، ويموتون
حتف أنوفهم ، فقد تولى بعد المهتدي المعتمد ؛ نعم إنه كان مسلوب السلطان
محجوراً عليه . وقال في ذلك أبياته المشهورة :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قلّ ممتنعاً عليه
وتوكلّ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذلك شيء في يديه
إليه تحمّل الأموال طرّاً ويُمنع بعض ما يُنجي إليه

ولكن الذي كان يحجر عليه هذه المرة هو أخوه الموفق ، لانصراف
لمعتمد إلى لهوه وملذاته ؛ والموفق في أيامه كان بطلا ، ترك لأخيه المعتمد الخطة
والسكة والتسمى بإمرة المؤمنين ، وأمسك هو بزمام الأمر والنهي ، وقود
العساكر ، ومحاربة الأعداء ؛ ومرابطة الثغور ، وترتيب الوزراء والأمراء ،
وكبح غير قليل من جماح الأتراك .

فلما جاء المعتضد بن الموفق سار سيرة أبيه ، وزاد في رفع شأن الخلافة ،
والأخذ على يد الأتراك بقدر ما يستطيع ؛ قال الفخرى : « كان المعتضد شهماً
عاقلاً فاضلاً ، مُحدث سيرته ، وليّ والدنيا خراب ، والثغور مهملة ، فقام قياماً
مرضياً حتى عمرت مملكته ، وكثرت الأموال ، وضبطت الثغور ؛ وكان قوى
السياسة شديداً على أهل الفساد ، حاسماً لمواد أطاع عساكره عن أذى رعيته ،
محسناً إلى بني عمه من آل أبي طالب »^(١) . وقد كثرت الفتن والأحداث في أيامه
نتيجة للفساد الذي كان قبل أيامه ، فجاهد فيها ما استطاع .

وقد نظم فيه « ابن العنز » ابن عمه قصيدة طويلة هي صورة مصغرة لنمط

الملاحم كالإلياذة والشاهنامه ، سدت بعض النقص في الشعر العربي من هذا النوع ؛ بدأها بدم الأتراك وما جنوا على البلاد ، ذكرنا طرفاً منه فيما سبق ، ثم عدّد أعمال المعتضد ، وما قام به من حروب وما أتى به من إصلاح . وهي تعدّ بجانب مزيتها الأدبية وثيقة تاريخية هامة للأحداث في عهد المعتضد .

واستبشر الشعراء بهمته ، فقال ابن الرومي :

هنيئاً بنى العباس إنَّ إمامكم إمامُ الهدى والناسِ والجودِ أحمدُ
كما بنى العباس أنشئ ملككم كذا بنى العباس أيضاً يُجدد

وقال ابن المعتز :

أما ترى مُلكَ بنى هاشم عاد عزيزاً بعد ما ذلاً
يا طالباً للملك كن مثله تستوجب الملك وإلاً فلا

وعلى الجملة ، فقد مات بعد نحو عشر سنوات من حكمه ، خلف فيها الخلافة على حال أحسن بكثير مما كانت منذ وفاة الواثق .

وسار ابنه المكتفي بسيرة أبيه ، ولكن الفتن التي بدأت في عهد أسلافه استفحلت وعظم أمرها ، من إسماعيلية ، وقرامطة ، وفاطمية ؛ وانتهى القرن الثالث الهجري والفتن قائمة ، والثورات مشتعلة ، وعلى الخلافة المقتدر بن المعتضد ، فعادت الخلافة إلى ضعفها الأول ، وعاد الأتراك إلى قوتهم .

ويظهر أن الأتراك والوزراء سئموا من اختيار الخلفاء القادرين الأكفاء ، أمثال المهدي ، والمعتضد ، والمكتفي ، فأرادوا أن يعدلوا عن هذه السنة ويولوا عديم الكفاية ، ولذلك طال اجتماعهم وتفكيرهم بعد موت المكتفي ؛ وكان من أول المرشحين للخلافة عبد الله بن المعتز ، وهو كفاء عالم أديب قادر ، فانصرفوا عنه إلى المقتدر ، وهو طفل عاجز ، فولوه حتى تم لهم الرياسة . حكى مسكويه

أن وزير المكتفي العباس بن الحسن استشار ابن الفرات فيمن يلي الخلافة ، فقال له : « اتق الله ولا تنصب في هذا الأمر من قد عرف دار هذا ، ونعمة هذا ، وبستان هذا ، وجارية هذا ، وفرس هذا ، ومن لقي الناس ولقوه ، وعرف الأمور ، وتحنك وحسب حساب نعم الناس ^(١) . قال الوزير : فيمن تشير ؟ قال ابن الفرات : بجعفر بن المعتضد (هو المقتدر) . فقال الوزير : جعفر صبي ! قال ابن الفرات : إلا أنه ابن المعتضد : ولم تجيء برجل يأمر وينهى ، ويعرف ما لنا ، ومن يباشر التدبير بنفسه ويرى أنه مستقل ، ولم لا تسلم هذا الأمر إلى من يدعك تدبره أنت ؟ » .

وحكى الصولي أنه عهد إليه بتربية الراضي بالله وأخيه هارون ، فكان يلقاها مرتين في الأسبوع وقد رآها فظنين عاقلين ، إلا أنها خاليان من العلوم . قال الصولي : « خيبت العلم إليهما ، واشتريت لهما من كتب الفقه والشعر واللغة والأخبار قطعة حسنة ، فتنافسا في ذلك ، وعمل كل واحد منهما خزانة لكتبه ، وقرأ على الأخبار والأشعار » . فكان مما قرأه لهما الصولي كتاب « خلق الإنسان » للأصمعي ، فوشى الخدم وقالوا : « إن الصولي يعلمهما أسماء الفرج والذكر » فاجتهد الصولي في نفي هذه التهمة وأراهم الكتاب .

ثم لما تقدم الصولي في تعليمهما وتطلع إلى مكافأته على ما عمل ، قيل له على لسان أهل القصر : « ما نريد أن يكون أولادنا أدياء ولا علماء . وهذا أبوها قد رأينا كل ما نحب فيه ، وليس بعالم » ؛ فلما سمع الصولي أتى نصرأ الحاجب وأخبره بما قيل ، فبكي ، وقال : كيف نفلح مع قوم هذه نياتهم ^(٢) ؟ !

(١) يشير بهذا القول إلى ابن المعتز .

(٢) انظر الأوراق في أخبار الراضي والمعتز ص ٢٦ .

وحكى في موضع آخر ، أن الراضى بالله ، قبل أن يلى الخلافة ، كان يقرأ عليه (على الصولى) شيئاً من شعر بشار ، وبين يديه كتب لغة ، فجاء خدم من خدم جدته فأخذوا جميع ما بين يديه من الكتب ، فجعلوه فى مندبل ؛ فغضب الراضى ، فسكنت غضبه وقلت : ليس ينبغى أن ينكر الأمير هذا ، فإنه يقال لهم إن الأمير ينظر فى كتب لا ينبغى أن ينظر فى مثلها ، فقال لهم الراضى : قولوا لمن أمركم ، إن هذه الكتب إنما هى حديث وفقه وشعر ولغة وأخبار ، وليست من كتبكم التى تبالغون فيها مثل عجائب البحر ، وحديث سندباد ، والسنور والفار^(١) .

فترى من هذا كيف كانوا يريدون الحجر على من يرشح للخلافة لينشأ جاهلاً غرماً ، فينصرف إلى هوه ولذته ، ويترك لهم زمام الأمور والتصرف فى شؤون الدولة .

وكان من المؤيدين لتولية هذا الطفل مؤنس الخادم ، ومؤنس الخازن ، وغيرهما من الأتراك .

نعم كان مع ابن المعتز بعض الأتراك ، ولكن الغلبة والقوة كانتا فى جانب الذين مع المقتدر ، فتم الأمر للمقتدر ، وقتل ابن المعتز^(٢) .

روى أنه لما اختلف أمر الناس ، وباع بعضهم لابن المعتز ، سأل ابن جرير المؤرخ الكبير ، وكان فى آخر أيامه : ما الخبر ؟ قالوا : ببيع ابن المعتز ، قال : فمن رشح للوزارة ، قالوا : محمد بن داود ، قال : فمن ذكر للقضاء ، قالوا : أبو المثنى . فأطرق ، ثم قال : هذا الأمر لا يتم . قيل له : وكيف ؟ قال : كل واحد

(١) المصدر نفسه ص ٦ .

(٢) تجارب الأمم : ٢/٥ ، ٣ طعة مصر .

من سميتهم متقدم في معناه ، على الرتبة ، والزمان مدبر ، والدنيا مولية ، وما أرى هذا إلا إلى اضمحلال ، وما أرى لمدته طولاً^(١) .

كان المقتدر صبيماً في الثالثة عشرة من عمره لا يعرف من أمور الدنيا شيئاً ، ومع ذلك لقبوه بالمقتدر ! ولما شب عكف على لذائذه ، وتوفر على المغنين والنساء ، وترك أمور الدولة لغيره وعلى رأسهم مؤنس التركي ، فبلغت الحال من بله الخليفة وسوء رجاله أقصى حد .

وأخيراً بعد حكم فاسد دام نحو خمس وعشرين سنة ، قتل المقتدر رجل من أصحاب مؤنس ، أضجعه فذبحه وسلب ثيابه حتى سراويله ، وتركه مكشوف العورة ، إلى أن مر به رجل من الأكرّة فستر عورته بحشيش ، ثم حفر له في الموضع ، ودفن حتى عفا أثره^(٢) .

قال المسعودي في المقتدر : « أفضت الخلافة إليه وهو صغير غير ترف ، لم يعان الأمور ولا وقف على أحوال الملك ، فكان الأمراء والوزراء والكتّاب يدبرون الأمور ليس له في ذلك حل ولا عقد ، ولا يوصف بتدبير ولا سياسة ، وغلب على الأمر النساء والخدم وغيرهم ، فذهب ما كان في خزائن الخلافة من الأموال والعدد بسوء التدبير الواقع في المملكة فأداه ذلك إلى سفك دمه ، واضطربت الأمور بعده ، وزال كثير من رسوم الخلافة^(٣) ... وكانت في أيامه أمور لم يكن مثلها في الإسلام ، منها : أنه ولي الخلافة ولم يل أحد قبله من الخلفاء وملوك الإسلام في مثل سنه ، لأن الأمر أفضى إليه وله ثلاث عشرة سنة وشهران وثلاثة أيام ؛ ومنها أنه ملك خمساً وعشرين سنة إلا خمسة عشر

(١) تاريخ الخلفاء : ١٥٢ . (٢) تجارب الأمم : ٢٣٧/٥ .

(٣) التبية والإشراف : ٣٧٧ .

يوماً ، ولم يملك هذا أحد من الخلفاء وملوك الإسلام قبله ، ومنها أنه استوزر اثني عشر وزيراً ، فيهم من وزر له المرتين والثلاث ، ولم يعرف فيما قبله أحد استوزر هذه العدة ؛ ومنها غلبة النساء على الملك والتدبير ، حتى إن جارية لأمه تعرف بثَمَلِ القهرمانه كانت تجلس للنظر في مظالم الخاصة والعامة ، ويحضرها الوزير والكاتب والقضاة وأهل العلم (١) .

ولم تكن خلافة القاهر خيراً من خلافة المقتدر . وأخيراً اجتمع بعض قواد الجند وقبضوا على القاهر وهو سكران ، واستحضروا بختيشوع بن يحيى المتطّيب وسألوه أن يدلهم على من يُحسن أن يَسْمَلُ ، فذكر لهم رجلاً ، فأحضر وسمَل (٢) عيني القاهر ؛ ولم يسمَل قبله أحد من الخلفاء ، وقد سمَلوا بعده الخليفة المتقي واسمه إبراهيم ، فقال القاهر :

صرت وإبراهيمُ شيخَي عمِّي لا بد للشيخين من مُصدِرِ
ما دام تُوزُونَ له إمرة مُطاعة فالِمِيلُ في المِجْمَرِ

وقد وقف القاهر يوماً — بعد أن سَمَل وحبس وبويع غيره ثم أطلق — في جامع المنصور بين الصفوف وعليه مبطنة بيضاء ، وقال : تصدّقوا عليّ فأنا من قد عمرتم (٣)

وحدّث أبو الحسن العروضي مؤدب الخليفة الراضي ، قال : اجتزت في يوم مهرجان بدجلة بدار بَجَم (٤) التركي ، فرأيت من المرح والملاهي واللعب والفرح والسرور ما لم أر مثله ؛ ثم دخلت إلى الراضي بالله ، فوجدته خالياً بنفسه

(١) التنبيه والإشراف : ٢٧٨ .

(٢) سمل العين : فقَرَّها بحديدة حماة وقلعها . وقد نقلوا هذه العادة عن البيزنطيين .

(٣) كان ذلك في أيام المستكن ليُشنع عليه . (٤) في الأصل بَجَم وهو خطأ .

قد اعتراهم ، فوقفت بين يديه ، فقال لى : اذن ، فدنوت ، فاذا بيده دينار ودرهم ،
فى الدينار نحو من مئائيل ، وفى الدرهم كذلك ، عليه صورة « بجكم » شك فى
سلاحه ، وحوله مكتوب :

إنما العز فاعلم ، للأمير المعظم ، سيد الناس بجكم
ومن الجانب الآخر الصورة بعينها ، جالس فى مجلسه كالمفكر المطرق .
فقال الراضى : أما ترى صنع هذا الإنسان وما تسمو إليه همته ، وما تحدّثه به
نفسه ؟! فلم أجبه بشيء ، وأخذت به فى أخبار من مضى من ملوك الفرس
وغيرها ، وما كانت تلقى من أتباعها ، وصبرهم عليهم ، وحسن سياستهم لذلك
حتى تصلح أمورهم ، وتستقيم أحوالهم ، فسلا عما عرض لنفسه . ثم قلت : يمتع
الله أمير المؤمنين أن يكون كالمؤمن فى هذا الوقت حيث يقول :

صِلِ الثَّدْمَانَ يَوْمَ الْمُهْرَجَانِ بِصَافٍ مِنْ مُعْتَقَةِ الدَّنَانِ
بِكَاسٍ خُسْرَوَانِيٍّ عَتِيقِ فَإِنَّ الْعِيدَ عِيدُ خُسْرَوَانِيٍّ
وَجَنَّبِنِي الزَّيْبِيِّينَ طَرًّا فَشَأْنُ ذَوِي الزَّيْبِ خِلافِ شَانِيٍّ
فَأَشْرَبَهَا وَأَزْعَمَهَا حَرَامًا وَأَرْجُو عَفْوَ رَبِّ ذِي امْتِنَانِ
وَيَشْرَبَهَا وَيَزْعَمَهَا حَلَالًا وَتَلِكْ عَلَى الشَّقِيِّ خَطِئَتَانِ

فطرب وأخذته أريحية وقال لى : صدقت ، ترك الفرح فى مثل هذا اليوم
عجز ! وأمر بإحضار الجلساء ، وقعد فى مجلس التاج على دجلة ، فلم أر يوما
كان أحسن منه فى الفرح والسرور^(١) .

هذا فى إنجاز تام — حال الأتراك من حيث علاقتهم بالخليفة والخلافة
وشؤونها .

(١) مروج الذهب : ٤١١/٢ .

وللأتراك في هذا العصر ناحية أخرى اجتماعية لها أثر كبير في حياة المسلمين ، فقد كان لقبض الأتراك على زمام الحكم أثر في دخول كثير منهم في الإسلام وانتشارهم في المملكة الإسلامية . فسكويه يذكر في حوادث سنة ٣٤٩ أنه في هذه السنة أسلم من الأتراك نحو مائتي ألف خركاه^(١) ، والخركاه هي الخيمة التي تسكنها الأسرة ، أي أن من أسلم نحو مائتي ألف أسرة ، فإذا كان متوسط الأسرة خمسة أشخاص كان مجموع ذلك نحو ألف شخص ، ولاشك أن هذا العدد ، ومن أسلم قبله ومن أسلم بعده ، في اندماجهم في المسلمين يؤثر أثراً كبيراً .

كان هؤلاء الأتراك أقوياء أشداء أصحاء كما تستلزمه طبيعة بلادهم ، وبدوابة معيشتهم . وقد ذكر لنا الجاحظ فيما سبق أنه أطلق على الأتراك « أعراب العجم » ، ويعنى بالأعرابية البدوابة ، وهذه البدوابة تكسبهم قوة في البدن وحشونة في الطبع ؛ وقد تجلى هذا في معاملتهم الناس ، فضج منهم أهل بغداد في عصر المعتصم ، ولكن مرور الأزمان عليهم ، واستيلائهم على البلاد المنعمة المترفة ، وكثرة الأموال في أيديهم ، حضرهم ، وعلمهم النعيم والبذخ ، وحمل بعضهم على العبث بالأخلاق . حكى التنوخي أن شيخاً من التجار كان له على بعض القواد مال جليل يماطله به ، ولم يستطع الظلامة إلى الخليفة المعتضد ، لأنه كان إذا جاء حجه القائد واستخف به غلامانه ، فدلوه على خياط في سوق الثلاثاء ، فأمر الخياط القائد بدفع ما عليه للتاجر ففعل ؛ فعجب التاجر من هذا الذي رأى ، وألح عليه في السؤال عن سبب خضوع القائد ! فقص عليه أنه مر مرة في الطريق فرأى تركيا على داره ، وقد اجتازت امرأة جميلة عليه فتعلق بها وهو سكران

(١) تجارب الأمم : ١٨١/٦ .

ليدخلها داره ، وهي ممتعة تستغيث ، وليس أحد يغيثها ، وتقول إن زوجي قد حلف بالطلاق ألا أبيت خارج بيته ، فإن بيّتي هذا أخرب بيتي مع ما يرتكبه معي من المعصية ، ويلحقه بي من العار .

قال الخياط : فحُتت إلى التركي ورققت به وسألته تركها ، فضرب رأسي بدبوس كان في يده فشحني وآلمني ، وأدخل المرأة داره ، فجمعت جمعاً وجئنا فضججنا على بابه ، فخرج إلينا في عدة من غلمانه فأوقع بنا الضرب ، وذهبت إلى بيتي ولم أزل أفكر في هذه المرأة حتى اتصف الليل ، فقلت هذا التركي قد شرب طول ليلته ولا يعرف الأوقات ، فإن أذنت لوقع له أن الفجر قد طلع ، فيطلق المرأة فتلحق بيّتها قبل الفجر فتسلم من أحد المكروهين ، ولا يخرب بيتها مع ما قد جرى عليها . فخرجتُ إلى المسجد . وصعدت المنارة فأذنت ، وجعلت أتطلع منها إلى الطريق أترقب خروج المرأة فلم تخرج ، وإذا الشارع امتلاً خيلاً ورجالاً ومشاعل ، وهم يقولون من هذا الذي أذن الساعة؟! ففرغت ، ثم صحت من المنارة أنا أذنت . فقالوا لي انزل ، فأجبت أمير المؤمنين . ثم ذهب بي إلى المعتضد ، وقص عليه القصة ، فأحضر التركي والمرأة ، فلما تحقق من صحة قولي أمر برد المرأة إلى زوجها وأن يتمسك بها ويحسن إليها وقال للتركي : كم عطاؤك ؟ قال : كذا وكذا . قال : وكم وظائفك ؟ قال : كذا وكذا ، وجعل المعتضد يعدد ما يصل إليه ، والتركي يقر بشيء عظيم ، ثم قال له : فكم جارية لك ؟ قال : كذا وكذا . قال : أما كان فيهن وفي هذه النعمة العريضة كفاية عن ارتكاب معاصي الله ، وخرق هيبه السلطان ! ثم أمر به فقتل . قال الخياط : وأمرني المعتضد إذا رأيت مثل هذا العمل أن أوذن . وانتشر الخبر فما سألنا أحداً منهم بعدها إنصافاً إلا فعل^(١) .

(١) الحكاية بطولها في نشوار المحاضرة : ١٥٢/١ ، وما بعدها .

ورأينا كثيراً من قواد الأتراك — عند استيلائهم على الدولة — شرهين ، وكان مظهر شرهم كثرة مطالبتهم للخلفاء بالأموال من حين لحين ؛ فإذا نصبوا خليفة فسرعان ما ينقلبون عليه يطالبونه بالأموال ، فإن أعطاهم سكتوا قليلاً ثم عادوا إلى المطالبة ، وإلا قتلوه ، ومن أجل ذلك كثر إخفاء المال في سرداب أو حفرة في الأرض ، أو بناء حوائط عليه أو نحو ذلك خوفاً من إلحاحهم . نسوق مثلاً لذلك ما فعلوه مع المعتز ، « فقد هجم قوادهم عليه وقالوا أعطنا أرزاقنا ، فطلب من أمه مالا فأبت عليه ، ولم يكن في بيوت المال شيء ، فاجتمع الأتراك حينئذ على خلعه » :

ومظهر آخر من إفراطهم في حب المال ، وهو ما نقرأ في تاريخ ذلك العصر من كثرة المصادر للأموال — نعم كان قبل ذلك في العصر العباسي الأول شيء من هذا القبيل ، ولكنه قليل ؛ أما في هذا العصر فأصبح العادة المتبعة . وكان أول مظهر لهذه الكثرة في عهد المتوكل ، وهو أول عهد استيلاء الأتراك ؛ فقد صادر محمد بن عبد الملك الزيات ، وأخذ ما في منزله من متاع ودواب وجوار وغلمان ، وكذلك فعل مع أهل بيته ؛ وقبض على عمر بن فرج الرُّخْبِجِي ، وكتب في قبض ضياعه وأمواله ؛ وغضب على أبي الوزير وأخذ منه ستين ألف دينار ؛ وضرب إبراهيم بن الجنيد النصراني حتى أقر بسبعين ألف دينار فأخذها منه ؛ وعزل يحيى بن أكرم وقبض منه ما كان له ببغداد ، ومبلغه خمسة وسبعون ألف دينار ؛ وغضب على بختيشوع وقبض ماله . وصادر أموال أحمد بن أبي دواد ، مع أنه سبب خلافته ، واستصفي أمواله وأموال أبنائه ، فحمل إليه من ذلك مائة ألف درهم ، وعشرون ألف دينار ، وجواهر بقيمة عشرين ألف دينار^(١) . وهكذا افتتح عهد الأتراك بكثرة المصادر ، واستمرت طوال

(١) انظر هذه الأحداث كلها في تاريخ الطبري في خلافة المتوكل .

هذا العصر ، حتى لم يرحموا قبيحة أم المعتز فسلبوها كل مالها ، وكانت خباته . وكان الخليفة أحياناً يضطر إلى كثرة المصادرات لتلبية مطالب القواد . وكان كثير من أمراء البلدان في هذا العصر من الأتراك ، كما هو الشأن في مصر ؛ فمن سنة ٢٤٢ هجرية وحكام مصر أتراك ، وذلك منذ ولى على مصر يزيد ابن عبد الله بن دينار التركي . وقبل ذلك بنحو عشرين عاماً كانت مصر تُمنح لحاكم تركي في الغالب يقيم في بغداد ، ويستخلف عنه أميراً يقيم في مصر ويديرها نيابة عنه كأشناس وإيتاخ . واستمرت سيادة الأتراك في مصر طول مدة الطولونيين الأتراك والأخشيديين الأتراك أيضاً ، فكان بيد هؤلاء الولاة الأتراك السلطان والقوة والمال .

وهناك لون آخر مما لونوا به الحياة الاجتماعية ، وهو ما عرف عنهم من جمال ونظافة ، فكان ذلك سبباً في كثرة الجوارى المالك الأتراك في قصور الخلفاء والعطاء والأغنياء ، حتى إن بعض الخلفاء أنفسهم في هذا العصر كانت أمه جارية تركية ؛ فالمعتصم أمه تركية ، والمتوكل كذلك أمه خوارزمية ، والمكتفي بالله أمه تركية اسمها چيچك ، والمقتدر بالله أمه أم ولد قيل تركية وقيل رومية الخ . كما اشتهر في بيوت الأمراء جوارى تركيات ، واشتهرت سمرقند بأنها مركز هام لتجارة الرقيق الأبيض . وقد وصف ابن بطلان في رسالته في الرقيق الجوارى التركيات فقال : « التركيات قد جمعن الحسن والبياض ، ووجوهن مائلة إلى الجهامة ، وعيونهن مع صغرهما ذات حلاوة ، وقد يوجد فيهن السمراء الأسيلة ، وقدودهن ما بين الربع والقصر ، والطول فيهن قليل ؛ ومليحتن غاية ، وقبيحتن آية ؛ وهن كنوز الأولاد ، ومعادن النسل ، فلما يتفق في أولادهن وحش ولا ردى التركيب ، فيهن نظافة ولباقة . . . لا يكاد يوجد فيهن نكهة

متغيرة . . . وفيهن أخلاق سمجة وقلة وفاء » .

وتغزل الشعراء في ذلك بغلمان من الأتراك ، وكان منهم في القصور ودور
الغناء كثيرون . فرووا أنه في وقعة بين عز الدولة وعضد الدولة البويهيين أسر
غلام تركي لعز الدولة ، فجن عليه واشتد حزنه وامتنع من الأكل ، وأخذ في البكاء
واحتجب عن الناس ، وكتب إلى عضد الدولة يسأله أن يرز الغلام إليه ، فصار
ضحكة بين الناس ، وعوتب فما ارعوى لذلك ، وبذل في فداء الغلام جارييتين
عُوديتين كان قد بذل له في الواحدة مائة ألف ، وقال للرسول إن توقف عليك
في رده فزد ما رأيت ولا تفكر ، فقد رضيت أن أخذه وأذهب إلى أقصى الأرض !
فرده عضد الدولة عليه ^(١) .

وروى أبو إسحاق الصابي أنه كان لمعز الدولة غلام تركي يدعى تكيكيز
الجامدار ، أمرد زومي الوجه ، منمك في الشرب لا يعرف الصحو ولا يفارق اللعب
واللهو ، ولفرط ميل معز الدولة إليه وشدة إعجاب به ، جعله رئيس سرية جردها
لحرب بني حمدان ، وكان المهلبى يستظرفه ويستحسن صورته ، ويرى أنه من
عُدَد الهوى لا من عُدَد الوعى ، فقال فيه :

ظَنِّي يرقّ الماء في وِجَنَاتِهِ وَيُرِوقُ عُوْدُهُ
ويكاد من شبه العذارى فيه أن تبدو نهوده
ناطوا بمعقد خصره سيفاً ومِنْطَقَةً تُوودُهُ
جعلوه قائدَ عسكر ضاع الرعيل ومن يقوده

فما أسرع أن كانت الدائرة على هذا القائد ^(٢) .

وكان لسيف الدولة الحمداني مملوك تركي جندى اسمه يَمَّاك ، مات بحلب

(١) تاريخ الخلفاء : ١٦٣ . (٢) نزهة الجليس : ٥٦/٢ .

سنة ٣٤٠ هـ فزن عليه حزنا شديداً ، وقال المتنبي قصيدة يعزیه فيها مطلعها :

لَا يُحْزِنُ اللَّهُ الْأَمِيرَ فَإِنِّي سَأَخَذُ مِنْ حَالَاتِهِ بِنَصِيبٍ
وفيهما :

لَأَبْقَى يَمَّاكَ فِي حَشَايَ صِبَابَةً إِلَى كُلِّ تَرْكِي النَّجَارِ جَلِيبٍ
وَمَا كُلُّ وَجْهِ أَيْضٌ بِمَبَارِكٍ وَلَا كُلُّ جَفْنٍ ضَيْقٌ بِنَجِيبٍ
وفيهما :

وَإِنِ الَّذِي أَمَسْتَ نَزَارًا عَبِيدَهُ غَفِيْتُ عَنْ اسْتِعْبَادِهِ لَغْرِيبٍ
وقال أبو تمام — وقد أهدى له الحسن بن وهب — غلاماً خزرياً :

قَدْ جَاءَنَا الرَّشَاءُ الَّذِي أَهْدَيْتَهُ خِرْقًا^(١) وَلَوْ شِئْنَا لَقَلْنَا الْمَرْكَبُ
لَدُنَّ الْبَنَانِ لَهُ لِسَانٌ أَعْجَمٌ خُرْسٌ مَعَانِيهِ وَوَجْهٌ مُعْرَبٌ
يَرُونُ فَيُثَلِّمُ فِي الْقُلُوبِ بَطْرَفَهُ وَيَعِنُّ لِلنَّظَرِ الْحَرُونَ فَيُصْحَبُ^(٢)
قَدْ صَرَفَ الرَّانُونَ خَمْرَةَ خَدِهِ وَأَظْهَرَ بِالرِّيْقِ مِنْهُ سَتُّقَطَبُ^(٣)

وأحب مذهب الدين الطرابلسي غلاماً مملوكاً له اسمه « تتر » ، فبعث مرة هدايا إلى الشريف المرتضى تقيب الأشراف مع هذا الغلام ، فتوهم الشريف أنه من جملة الهدايا ، فأخذه ، فسأته حال مذهب الدين وكان شيعياً ، فقال قصيدته المشهورة التي مطلعها :

عَذَّبْتَ طَرْفِي بِالسَّهْرِ وَأَذْبَتَ قَلْبِي بِالْفِكْرِ
وَمَزَجْتَ صَفْوَ مَوَدَّتِي مِنْ بَعْدِ بُعْدِكَ بِالْكَدْرِ
وفيهما :

نَفْسِي الْفَدَاءَ لِشَادِنٍ أَنَا مِنْ هَوَاهُ عَلَى خَطَرٍ

(١) الخرق : الفتي الحسن الخلق .

(٢) النظر الحرون : الشارد . وأحب انقاد بعد صعوبة . يريد أنه لو نظر إليه الخلى

لوقع في شراكه . (٣) صرف : شرب صرفاً . وتقطب : تخرج .

عذ العذول وما رأ ه فحين عاينه عذر
وقد كان مذهب الدين هذا شيعياً ، فهدد الشريف بأنه إن لم يرسل الغلام
يهجر التشيع ويدخل في مذهب أهل السنة ، وفي ذلك يقول :
لئن الشريف الموسوي (م) ابن الشريف أبي مضر
أبدى الجحود ولم يرُدّ (م) إلى مملوكي تتر
وآليت آل أمية الطهر الميامين الفرر
وجحدت بيعة حيدر وعدلت عنه إلى عمر^(١)
وأخيراً قال الشاعر :

الله أكبر ليس الحُسن في العرب كم تحت لمةِ ذا التركي من عجب

أما من الناحية العقلية — وهي التي تهمنا هنا — فإننا نرى أن ابتداء
سلطان الأتراك — وكان ذلك في عهد المتوكل — مصحوب بمظاهر جديدة
تخالف كل المخالفة ما كان من قبل ، أهمها ثلاث :

(١) إلغاء سلطان المعتزلة وإعلاء شأن المحدثين ، فنهى المتوكل عن القول
بخلق القرآن والجدال في الكلام ، « وأظهر الميل إلى السنة ونصر أهلها ، ورفع الحنة ،
وكتب بذلك إلى الآفاق ، وذلك في سنة ٢٣٤ ؛ واستقدم المحدثين إلى سامرا ،
وأجزل عطاياهم وأكرمهم ، وأمرهم بأن يحدثوا بأحاديث الصفات والرؤية »^(٢) .
وكتب كتابا إلى الأمصار يأمر بترك الجدال في القرآن ، واضطهد رؤساء
المعتزلة وضيق عليهم ؛ فرئيس الاعتزال في مصر وهو محمد بن أبي الليث ،

(١) القصيدة بطولها في تزيين الأسواق لداود الأنطاكي : ٢١/٢ .

(٢) تاريخ الخلفاء : ١٣٨ .

جاء كتاب المتوكل بخلق رأسه ولحيته وضربه بالسوط ، وحمله على حمار يا كاف
وتطوافه الفسطاط ، ثم أخرج إلى العراق^(١) ؛ وأحمد بن أبي دواد رأس الاعتزال
في العراق قد غضب عليه المتوكل وعلى ابنه محمد وصادر أموالهما — وما أظن أن
الجاحظ المعتزلي نجح من النكبة إلا لأنه مرّن ، وقد دفع عنه الشر بمروته ، وبما
قدم من رسالته في إعلاء شأن الأتراك ، واتصاله بالفتح بن خاقان — وفي
الوقت نفسه أعلى المتوكل شأن المحدثين ، فكرم أحمد بن حنبل . وفي عهده
جلس أبو بكر بن أبي شيبة في جامع الرصافة يحدث الناس ، فاجتمع إليه نحو من
ثلاثين ألف نفس ؛ وجلس أخوه عثمان في جامع المنصور ، فاجتمع إليه أيضاً نحو
من ثلاثين ألف نفس^(٢) .

وتبلور عداة الناس للمعتزلة في أبي الحسن الأشعري ، فقد ولد بعد المتوكل
بنحو اثني عشر عاماً ، وتثقف ثقافة المعتزلة ، ثم عاداهم وأعلن الحرب عليهم ، ودعا
إلى مذهب كلامي اعتنقه جمهور كبير من المسلمين ، كما سيأتي . فالأشعري يمثل
الموجة الحديثة التي أتت في عهد المتوكل تهاجم المعتزلة وتنصر المحدثين وأهل
السنة ، وهو ليس إلا معبراً عن ميول عصره ، وصدى لصوت زمانه . رجع عن
الاعتزال « وورق كرسياً في المسجد الجامع بالبصرة ، ونادى بأعلى صوته من
عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي ، أنا فلان بن فلان كنت
أقول بخلق القرآن ، وأن الله لا تراه الأبصار ، وأن أفعال الشر أنا أفعالها ، وأنا
تائب مقلع ، مقتعد للرد على المعتزلة ، مخرج لفضائحهم ومعائبهم^(٣) . وقال أبو بكر
الصيرفي : « كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري فجحرم في
أقماع السمسم » . ولكن الحق أنه ما كان يكون له هذا لولا ما كان من المتوكل

(١) تاريخ الولاة والقضاة : ٤٦٥ . (٢) الخلفاء : ١٣٨ .

(٣) ابن خلكان : ٤٦٤/١

من الحجر عليهم ، والتنكيل بهم ، وتأيد الجمهور — بتأثير المحدثين —
لهذه الحركة .

والواقع أن هذه الحركة ، وأعني بها اضطهاد المعتزلة ونصرة المحدثين ، كان
لها أثر كبير في حياة المسلمين من ذلك العهد إلى اليوم ؛ فقد لونت حياتهم بلون
خاص ، ظلوا يحافظون عليه طوال العصور المختلفة .

كانت طبيعة الاعتزال تدعو إلى التفلسف واتجاه العقل في مناح شتى من
الحياة وتحريره من كثير من القيود بعد الإيمان بالله ورسوله ، والإيمان بالقرآن ،
وحصر الحديث في دائرة ضيقة — كما تقدم — وإشعار الإنسان بالمسئولية لأن
أعماله صادرة عنه ، ولكنهم — مع الأسف — آمنوا بهذه الحرية وأرادوا أن
ينفذوا الحرية بالقوة والسلطان ، فكانت حرية بالإكراه .

وطبيعة المحدثين تدعو إلى الوقوف عند النصوص والتزامها ، وتضييق دائرة
العقل ، واحترام الرواية إلى أقصى حد ، والبحث وراء ألفاظ الحديث ومعانيه
وأسانيده ؛ وهذا — مع اعترافنا بما له من مزايا — يستتبع نمطاً في التفكير
خاصاً يسود فيه تقديس النقل أكثر من تقديس العقل ، والتقليد دون الاجتهاد ،
والوقوف عند النصوص دون التعمق في مغازيها ومراميها ، والنظر إلى الفلسفة
والبحث العقلي في الكليات نظر البغض والكراهة ، وعد المفكر على هذا النمط
ملحداً أو زنديقاً الخ . وهذا هو الذي ساد عقول كثير من المسلمين منذ خنق
الاعتزال ، فاحترمت نصوص الكتب أكثر مما احترمت نقد العقل ، واحترمت
العالم واسع الاطلاع بالنصوص الدينية واللغوية ، أكثر مما احترمت قليل الحفظ
واسع أفق العقل ، وأكرم العالم المقلد أكثر مما أكرم العالم المجتهد ، ونظر إلى
المحدث والفقهاء بخير مما نظر إلى الفيلسوف والمفكر الناقد ، وضائق دائرة

التفلسف إذا قيست بدوائر العلم في الفروع الأخرى .
كل هذا وأكثر منه كان نتيجة لهذه الحركة . وأعتقد أن الأتراك في ذلك العصر مسئولون لدرجة كبيرة عن هذا ؛ فطبيعة عامتهم لا تقبل الجدل الكلامي ، ولا كثرة المذاهب الدينية . فالأتراك في جميع عصورهم قل أن نرى منهم من اعتنق مذهباً في الأصول غير مذهب أهل السنة وفي الفروع غير مذهب أبي حنيفة ، وقل أن نرى بين علماءهم خصومة في المذاهب كالتى كنا نراها في العراق من خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة ، ونحو ذلك ؛ إنما هو مذهب واحد يسود — غالباً — ويتوارث . ومع هذا فلسنا ننكر أن فيهم أفضالاً في سعة النظر وقوة التفكير — كما سيأتى بيانه — ولكن هذا هو النظر العام .

(٢) الإيقاع بالشيعة إيقاعاً بالغاً : ففي سنة ٢٣٦ « أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن على ، وهدم ما حوله من المنازل والدور ، وأن يُبذَر ويسقى موضع قبره ، وأن يمنع الناس من إتيانه ؛ فنادى بالناس في تلك الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة حبسناه في المطبق ، فهرب الناس وتركوا زيارته ، وخرّب وزرع . وكان المتوكل شديد البغض لعلى بن أبى طالب ولأهل بيته ، وكان يقصد من يبلّغه عنه أنه يتولى عليه وأهله بأخذ المال والدم . وكان من جملة ندمائه عبادة الخنث ، وكان يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ، ويكشف رأسه وهو أصلع ، ويرقص بين يدى المتوكل والمغنون يغنون : قد أقبل الأصلع البطين ، خليفة المسلمين ، يحكى بذلك علياً عليه السلام ، والمتوكل يشرب ويضحك »^(١) ، « وقيل إن المتوكل كان يبغض من تقدمه من الخلفاء — المأمون والمعتصم والواثق — في محبة على وأهل بيته ، وإما كان ينادمه ويجالسه

(١) ابن الأثير ١٩/٧ .

جماعة قد اشتهروا بالنصب والبغض لعلّ، منهم علي بن الجهم الشاعر الشامي ...
وعمر بن فرج الرّحجى ، وأبو السمط من ولد مروان بن أبي حفصة . . . وابن
أترجة ، وكانوا يخوفونه من العلويين ، ويشيرون عليه بإبعادهم والإعراض عنهم
والإساءة إليهم ، ثم حسنوا له الواقعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم
في الدين ، ولم يبرحوا به حتى ظهر منه ما كان ، فغطت هذه السيئة جميع حسناته»^(١) .
وروا أن المتوكل كان قد اتصل به يعقوب بن إسحاق النحوى المعروف
بابن السكّيت ، فسأله المتوكل : أيما أحب إليك ، المعتز والمؤيد (ابنا المتوكل) ،
أو الحسن والحسين ؟ فتنقّص ابنه ، وذكر الحسن والحسين عليهما السلام بما
هما أهل له ، فأمر الأتراك فداسوا بطنه ، فحمل إلى داره فمات^(٢) .

وهذه الحوادث وأمثالها في التنكيل بالشيعة قد كان لها مثيل من قبل في
العهدين الأموى والعباسى الأول ، إلا أنا نريد أن نثبت هنا أن سلطان
الأتراك لما ظهر صحبه عودة التنكيل بالشيعة ، وكان قد هدأ في عهد المأمون
والمعتصم والواثق .

وهذه الظاهرة أيضاً لازمت الأتراك طول عهدهم ، فكل تاريخهم مملوء
بكراهيتهم للتشييع والشيعة ، وبالحروب المتصلة بينهم — وهم سنيون — وبين
الفرس ، وهم شيعة .

وكان تصرف المتوكل مع الشيعة سبباً كبيراً من أسباب تدمير الشيعة
للمؤامرات والدسائس والفتن للخروج على الدولة العباسية في بغداد ، وإقامة
حكومات شيعية مستقلة عن خلفاء العراق كما سيأتى .

(٣) المظهر الثالث : اضطهاد اليهود والنصارى . فقد «أمر المتوكل بأخذ

(١) ابن الأثير : ٢٠/٧ . (٢) ابن الأثير : ٣١/٧ .

النصارى وأهل الذمة كلهم بلبس الطيالة العسلية والزناير ، وركوب السروج
بركب الخشب ، وبتصيير زرين على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون
القلنسوة التي يلبسها المسلمون ، وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس ممالئهم
مخالف لونهما لون الثوب الظاهر عليه ، وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه
عند صدره ، والأخرى منهما خلف ظهره ، وتكون كل واحدة من الرقعتين قدر
أربع أصابع ولونهما عسلياً ، ومن لبس منهم عمامة فكذلك يكون لونها لون
العسل ، ومن خرج من نسائهم فبرزت فلا تبرز إلا في إزار عسلي . . . وأمر
بهدم بيعهم الحديثة ، وبأخذ العشر من منازلهم ، وإن كان الموضع واسعاً صير
مسجداً ، وإن كان لا يصلح أن يكون مسجداً صير فضاء . وأمر بأن يجعل على
أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة ، تفريقاً بين منازلهم وبين منازل
المسلمين . ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي تجري فيها
أحكامهم على المسلمين ، ونهى أن يتعلم أولادهم في مكاتب المسلمين ؛ ولا يعلمهم
مسلم . . . وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلا تشبه قبور المسلمين ؛ وكتب
إلى عماله في الآفاق بذلك «^(١) . وقد علل عمله هذا في كتابه بأنه يريد إعزاز
الإسلام ، وإذلال الكفر ، وليجعل الله الفوز والعاقبة للمتقين ، والخزى في
الدنيا والآخرة على الكافرين . وقال علي بن الجهم في ذلك :

العسليات التي فرقت بين ذوى الرشد والغنى
وما على العاقل أن يكثروا فإنه أكثر للنفى^(٢)

نعم ، ربما كان هذا نتيجة لسوء العلاقة بين المسلمين والروم ، ومهاجمة الروم
لبلاد المسلمين من حين لحين ، ولكن مهما كان الأمر فهي حالة سيئة تدل على

(١) تاريخ الطبرى : ٣٦/١١ ، وفيه نص هذا الكتاب الذى أرسله المتوكل للأمصار .

(٢) يريد النفى .

ضيق العقل ، ومخالفته للنظر الواسع الحكيم الذي أمر به الإسلام ، ونفذه خلفاء المسلمين الأولون ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب في حكمة ورفق ! وكان هذا أيضاً مما أفسد قلوب عدد كبير من الرعية كان يُستخدم من قبل في مصلحة الدولة ، وحرك عدداً منهم للثورة ، كثورة نصارى أرمينية على محمد بن يوسف عامل المتوكل على أرمينية وأذر بيجان ، وقتلهم إياه^(١) ونحو ذلك .

وقد أراد بعض من أتى بعد المتوكل من الخلفاء أن يزيلوا هذه المظاهر أو بعضها ، كالذي فعل المنتصر ، فقد أراد أن يعيد الاعتزال إلى سلطانه ، وأراد أن يحسن صلته بالبيت العلوي ، ولكن لم تطل مدته ، ولم يمكنه الزمان ولا حالة الناس من تنفيذ ما أراد .

لم يكن لهذا النوع من الأتراك مدنية وحضارة قديمة ، إذ كانوا بدواً أو أشبه بالبدو ، فلم يكن شأنهم عند ما اندمجوا في المملكة الإسلامية شأن الفرس ؛ فالفرس عند ما فتحت بلادهم ، وأسلم كثير منهم واندمجوا في المملكة الإسلامية ، أعطوا وأخذوا ، وانتفع بهم المسلمون من ناحية الثقافة : بمثل الكتب التي نقلت من الفارسية إلى العربية ، ومثل الألفاظ الفارسية التي نقلت إلى العربية ، ومثل نظم الحكم التي أتقنوها في مملكتهم ، إلى غير ذلك مما شرحناه قبل ؛ كما أخذوا هم عن العرب اللغة والدين . وكان من الفرس رجال مثقفون ثقافات واسعة كالبرامكة ، والفضل بن سهل ، والحسن بن سهل ، وابن المقفع ، فأثروا في الثقافة الإسلامية أثراً كبيراً بما مزجوا من الثقافتين الفارسية والعربية . أما الأتراك

(١) انظرها في تاريخ ابن العبري ص ٢٤٧ .

فجاءوا بشجاعتهم وقوة أبدانهم ، وبعاداتهم وتقاليدهم لا بحضارتهم وثقافتهم ، فكانوا من ناحية الحضارة والثقافة قائلين لا فاعلين ؛ جاءوا ولا يعرفون اللغة العربية فتعلموها في بطاء ، ولم يتقنها بعضهم إلا بعد ذهاب الجيل الأول منهم ، فكانوا يتخاطبون بترجمان .

ويحدثنا الصولي أن «بجكم» أمير الأمراء في عهد الراضي والمتقى ، كان يحسن العربية فهماً ولا يحسنها كلاماً ، « وكان يقول أخاف أن أتكلم بالعربية فأخطئ في لفظي ، وانحطأ من الرئيس قبيح ، فلذلك أدع الكلام »^(١) .

ولم يتقنوها في سرعة ومهارة كما فعل الفرس ، فما أتى الجيل الثاني والثالث على الفرس حتى رأيناهم قد أمسكوا بزمام الأدب شعراً وكتابة وتأليفاً علمياً ، وليس كذلك الأتراك ، فقل أن ترى منهم شاعراً أو ناثراً بالعربية ، وعلى الأخص في الأجيال الأولى من إسلامهم — وأسلم الأتراك الأولون فكان إسلامهم ذالون خاص ، فيه نواحي قوة ونواحي ضعف ، فهو دين شديد لا يقبل جدالاً ولا مناقشة ، ولا يقبل مذاهب مختلفة ؛ وعلى العكس من ذلك الفرس ، فكان إسلامهم فيه الجدل الشيعي وغير الشيعي ، وفيه المقارنة بينه وبين المانوية والزرادشتية والمزدكية ، وفيه التزندق أحياناً والتفلسف أحياناً ، وفيه المذاهب المختلفة التي ظهر أثرها في العراق أيام سلطانهم . أما مؤرخ الإسلام عند هؤلاء الأتراك فلا يرى مجال القول فسيحاً كما يراه عند الفرس ، ولكل من هذين النوعين من التدين مزاياه ومضاره ، كالفرق بين إيمان العجائز وإيمان الفلاسفة .

أخذت طائفة من الأتراك يتعلمون اللغة العربية والدين ، وربما كان خير مثل لتعلم الطبقة الممتازة من الأتراك ما كان من أحمد بن طولون ، فقد أخذ يتعلم

(١) الصولي ، أخبار الراضي والمتقى : ١٩٤ .

على حين أن كثيراً من أمثاله لا يعنون بالتعلم . قال المقرئ : « نشأ أحمد بن طولون نشأً جميلاً غير نشأ أولاد العجم (يريد الترك) ، فوصف بلوا الهمة ، وحسن الأدب ، والذهاب بنفسه عما كان يتراحم إليه أهل طبقتهم »^(١) ، فدرس العربية ، وحفظ القرآن ، وتفق على مذهب أبي حنيفة ، وكان ذلك كله وهو في بغداد ، ثم خرج إلى طرسوس مراراً ، وأخذ الحديث عن كبار المحدثين فيها ، « فظهر فضله واشتهر عند الأولياء ، وتميز عن الأتراك »^(٢) . فكان في هذا من خير الأتراك ، بل كان هو نفسه « شديد الإزراء على الأتراك وأولادهم لما يرتكبونه في أمر الخلفاء ، غير راض بذلك ، ويستقل عقولهم ، ويقول حرمة الدين عندهم منهوكة »^(٣) .

فإذا كانت ثقافة أحمد بن طولون هذه تعد ثقافة ممتازة بين الأتراك ، استطعنا أن نستنتج ضيق ثقافة الأتراك عامة في هذا العصر . ومع هذا فإننا نرى بعض الأتراك من أوائل هذا العصر وبعده نبغوا في فنون مختلفة على قلة فيهم .

ففى مثلاً « الفتح بن خاقان » التركي قال فيه ابن النديم : « كان في نهاية الذكاء والفطنة وحسن الأدب ، وكان من أولاد الملوك ، واتخذ المتوكل أخاً ، وكان يقدمه على جميع أولاده ، قتل مع المتوكل ليلة قتل بالسيوف لأربع خلون من شوال سنة ٢٤٧ هـ . وكانت له خزانة كتب لم ير أعظم منها كثرة وحسناً ، وكان يحضر داره فصحاء العرب وعلماء الكوفيين والبصريين ؛ وروى المبرد شيئاً من شعره — وكان يتعشق غلاماً له اسمه شاهك ، وله فيه أشعار ، منها :

(١) الخطط : ٣١٣/١ .

(٢) المصدر نفسه . (٣) النجوم الزاهرة : ٤/٣ .

أشأهكُ ، ليلي مذ هجرتَ طويل وعيني دماً بعد الدموع تسيل
وبي منك — والرحمن — ما لا أطيعه وليس إلى شكوى إليك سبيل
أشأهكُ لو يُجزي المحبُّ ، بوده جزيّت ولكنّ الوفاء قليل
ويروى له :

وإني وإيّاها لكائنم ، والفتي متى يستطع منها الزيادة يزدد
إذا ازددتُ منها ازددتَ وجداً بقربها فكيف احتراسي من هوى متجدد
وقد روى له في كتب الأدب أبيات من هذا القبيل ، وجمل ظريفة وأجوبة
سديدة تدل على منزلته في الأدب^(١) . وهو الذي قدم له الجاحظ رسالته في مدح
الأتراك التي تقدم وصفها .

وينبع من الأتراك أبو نصر الفارابي الفيلسوف الإسلامي الكبير ، وأستاذ
كل فيلسوف إسلامي بعده ، فإنه من فاراب ، وهي مدينة من مدن الترك
نبغ منها جماعة كثيرة من العلماء . ونبوغ الفارابي من بين الأتراك مفخرة كبيرة
لهم ، فقد عنى بفلسفة أرسطو ، وأخرجها للمسلمين في شكل جديد ، وكان له
فضل على كل من اشتغل بالفلسفة من المسلمين بعده ؛ فظهوره من الترك رجح من
كفتهم وكانت شائلة ، وأثقل ميزانهم وكان خفيفاً . وسيأتي بسط لقيمه وفلسفته
في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله ، وقد مات بدمشق سنة ٣٣٩ هـ .

كما ينبع من الأتراك في القرن الرابع إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي
أيضاً ، صاحب كتاب الصحاح من أهم كتب اللغة وأصولها ؛ كان إماماً في علم
اللغة والأدب ، كما كان يضرب به المثل في جودة الخط .

أخذ علم العربية عن أشهر علماء العراق ، مثل أبي علي الفارسي ، وأبي سعيد

(١) انظر معجم الأدباء : ١١٦/٦ وما بعدها .

السيرافى ، ثم سافر إلى الحجاز يأخذ اللغة عن أهلها بالسمع والمشاهدة ، وطوّف في بلاد ربيعة ومصر ، وحقق ما يشك فيه مما يرويه العلماء ، فيقول — مثلاً — سألت أعرابياً بنجد من بنى تميم ، وهو يستقى ، وبكرته نخيس ، فوضعت إصبعى على النخاس^(١) فقلت : ما هذا ؟ وأردت أن أتعرف منه الخاء من الخاء ، فقال : نخاس بخاء معجمة ، فقلت : أليس قال الشاعر :

* وبكرة نحاسها نخاس *

فقال : ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين .

فلما استكمل دراسته ومشافهته وضع فى اللغة كتابه الصحاح الذى يعد —

بحق — من أسس كتب اللغة .

وكما اجتهد فى تصحيح الألفاظ وضبطها كان له الفضل فى اختراع الطريقة التى ألفت عليها كتابه ، وحذا حذوه فيها صاحب القاموس ولسان العرب وغيرهما من حصر الكلمات فى أبواب حسب أواخرها ، وتقسيم الأبواب إلى فصول حسب أوائلها ؛ وكانت كتب اللغة قبله ترتب ترتيباً مبهوشاً ، فتذكر الكلمة ثم يذكر مقلوبها ، كما فعل صاحب كتاب العين والجمهرة ، وقد مات نحو سنة ٤٠٠ هـ^(٢) . وعلى الجملة ، فإئن كان أكثر العنصر التركى فى المملكة الإسلامية إنما يمتاز بالجنسية والخشونة مع ضعف الثقافة ؛ فقد نبغ منهم علماء فى فروع مختلفة حصلوا ما كان من الثقافة فى عصرهم ، وابتكروا بعقولهم .

(١) النخاس : شئ يلقيه خرق البكرة إذا اتسعت وقلق محورها ، ويقال بكرة نخيس اتسع ثقب محورها فنخست بنخاس ، فيظهر أن بعض علماء اللغة رواها بالحاء المهملة ، فحققتها الجوهرى بالحاء المعجمة .

(٢) انظر معجم الأدباء لياقوت : ٢٦٦/٢ .

العصر الفارسي :

لم يهدأ الفرس منذ رأوا الأتراك تحتل مراكزهم في الدولة العباسية وتستبد بالسلطان دونهم ، وتقصيمهم عن أمماكنهم . لقد كان الفرس في العصر العباسي الأول هم عماد الدولة ، ويدهم تصريف شؤونها ، وكان الخليفة يعتمد عليهم في أهم الأمور ، وهم يحتفظون له بمظهر الأبهة والجلالة ، ثم ينشرون سلطانهم ؛ فإذا أحس الخليفة منهم استبداداً أوقع بهم ، كما فعل الرشيد بالبرامكة ، والمأمون بابن سهل ، ولكنهم سرعان ما يستردون نفوذهم . فلما جاء الأتراك أبعدهم عن منزلتهم ، وغلبوا على الخليفة دونهم ، فانكش الفرس على حنق ، ولعبت بهم العصبية الفارسية ، وأخذوا يدسون الدسائس ويدبرون المؤامرات ، ويحصنون أنفسهم بالرجال والسلاح ، ويرمون إلى اقتطاع البلاد والاستيلاء عليها — وخصوصاً بلادهم الفارسية — والاستقلال بها عن خلفاء بغداد ، فإذا سنحت لهم فرصة بعد فليستولوا على العراق وعلى الخليفة ، وليتسلطوا هم عليه ، ويقضوا على سلطة الأتراك ، وكذلك كان .

كانت هذه العصبيات تلعب في عقول الفرس والترك ، كل يريد الغلبة ويريد القضاء على صاحبه ؛ وكانت بغداد ساحة في كثير من الأوقات للقتال بين الديلمية والأتراك . ولعل خير ما يمثل هذا ما روى الصُّولى في حوادث سنة ٣٢٣ من أن « مرّ داويج الفارسي الأصل (أمير الري وطبرستان ، ومؤسس الدولة الزياريّة) جعل عسكريه صنفين : صنف منهم جيل وديلم^(١) ، وهم خواصه ، وأهل بلده

(١) الجيل : سكان جيلان ، وهي اسم بلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان ، والنسبة إليها جيلي وجيلاني ، والعجم ينطقونها بالسكاف . والديلم اسم يطلق على القسم الجيلي من جيلان وعلى سكان هذا القسم أيضا . ولم يكن بنو بويه من الديلم ، ولكن كان الديلمة أنصارهم ، ولهذا لقبت دولتهم بالديلمية والبويهية .

الذين فتح بهم الري ونواحيها؛ ومنهم صنف أتراك وأهل خراسان؛ ثم استنصخ
نفرًا من الأتراك، فوجد الديلم من ذلك، وعاتبوه عليه. فقال: إنما اتخذت
الأتراك لأقيكم بهم، وأقدمهم يحاربون بين أيديكم، وأنتم خاصتي وأنا بكم ولكم.
فبلغ ذلك الأتراك، فأجمع رأيهم على قتله، فأوصوا الغلمان الصغار الذين في
خدمته، ووكدوا عليهم بالتركية أن يفتكوا به، فقتلوه في حمام؛ وجاءهم الذين
واطؤوهم على ذلك وأخرجوهم من الدار. وركبوا دوابه وساروا فاضطربوا،
فقالوا: نجعل علينا رئيسًا، فرضوا ببجكم، وأخذوا من داره مالا عظيمًا، وآنية
فضة وذهب. وكان (أى مرداويج) قد تكبر وتجبج، ووضع التاج على رأسه
مكلا بأحسن الحب والياقوت، وجلس على سرير فضة حوالية ذهب، وكان
مرصعًا بجوهر، وقال: «أنا أرُدّ دولة العجم، وأبطل دولة العرب» (١).

نجح الفرس إلى حد كبير في اقتطاع أجزاء من الدولة والاستيلاء عليها،
واستبداهم بها، وقصر سلطة الخليفة على المظهر الاسمي؛ فمن قديم استولى
الطاهرية على خراسان (٢٠٥ — ٢٥٩)، والصَّفَّارية على فارس (٢٥٤ —
٢٩٠)، والسامانية على فارس وما وراء النهر (٢٦١ — ٣٨٩)، والزيارية على
جرجان (٣١٦ — ٤٣٤)، ثم دولة بني بويه الفارسية أيضًا (٣٢٠ — ٤٤٧).
فقد استولوا على فارس ثم على العراق، وأخضعوا الخليفة لأمرهم، وأزالوا ولاية
الترك عليه، وأقاموا سلطانهم، فكان شأن الخليفة منهم شأنه مع الترك قبلهم،
مظهر ولا عمل، ولقب ولا أمر ولا نهى.

والواقع أن سلوك البويهيين الفرس مع الخلفاء لم يكن كسلوك آبائهم الفرس
مع الخلفاء في العصر العباسي الأول. لقد كان الأولون من الفرس يأترون بأمر

(١) أخبار الرازي والمتق: ٦٢.

الخليفة ، ويرعون ولاءهم له وطاعتهم إياه ، فلما جاء خلفهم من بني بويه لم يرعوا ولاء ولا قلدوا سلفهم ، إنما قلدوا الأتراك في التنكيل بالخليفة والاستهانة به ، واستغلوا ضعفه فلم يعلوا شأنه بل زادوه ضعفاً .

ففي سنة ٣٣٤ سار معز الدولة بن بويه من الأهواز إلى بغداد في خلافة المستكفي فلما ، ومنحه المستكفي إمرة الأمراء ، « وأعطاه الطوق والسوار وآلة السلطنة ، وعقد له لواء ، ولقبه معز الدولة ، ولقب أخاه ركن الدولة ، ولقب أخاه الآخر عماد الدولة ، وأمر أن تضرب ألقابهم على الدينار والدرهم » (١) .
فما أن استتب أمر معز الدولة ببغداد وقوى أمره حتى حجر على الخليفة المستكفي ، وقدر له كل يوم خمسة آلاف درهم لنفقته .

وأوجس معز الدولة خيفة من المستكفي ، فدخل معز الدولة عليه فوقف والناس وقوف على مراتبهم ، فتقدم اثنان من الديلم إلى الخليفة فديده إليهما ظناً أنهما يريدان تقبيلها ، فجدباه من السرير حتى طرحاه إلى الأرض وجراه بعامته ؛ وهجم الديلم على دار الخلافة إلى الحرم ونهبوها فلم يبق منها شيء . ومضى معز الدولة إلى منزله ، وساقوا المستكفي ماشياً إليه وخُلع وسمت عيناه ، وولوا المطيع لله خليفة ، وقرره معز الدولة كل يوم مائة دينار فقط لنفقته .

وكان معز الدولة يخرج للقتال ومعه المطيع كأسير — ولما ماتت أخت معز الدولة نزل المطيع إلى داره يعزيه .

ومات معز الدولة فأقيم ابنه بختيار مكانه ، فكان مع المطيع كأبيه ، وزاد على ذلك أنه صادر المطيع ، فقال المطيع أنا ليس لي غير الخطبة ، فإن أحببتم اعتزلت ، فشدد عليه بختيار حتى باع قماشه ، وأخذ منه أربعائة ألف درهم .

(١) الفخرى : ٣٣٤ .

وأخيراً خلع المطيع نفسه ، وولى ابنه الطائع .

فاستجمع الأتراك قوتهم ، وتجمعوا حول سُبُكْتِكِينَ التركي ، وتجمع الديلم والفرس حول معز الدولة ، فقدم عضد الدولة البويهى بغداد لنصرة عز الدولة على سبكتكين فتم لعضد الدولة النصر ، وملك بغداد . وأخيراً خلع الطائع على عضد الدولة خلاة السلطنة ، وتوجه بتاج مجوهر ، وطوقه وسوره وقلده سيفاً ، وعقد له لواءين بيده ، أحدهما مفضض على رسم الأمراء ، والآخر مذهب على رسم ولاية اليهود ، ولم يعقد هذا اللواء الثانى لغيره قبله ، وكتب له عهداً وقرى بحضرتة .

وفي سنة ٣٦٨ أمر الطائع أن تضرب الدبادب^(١) على باب عضد الدولة في وقت الصبح والمغرب والعشاء ، وأن يخطب له على منابر الحضرة^(٢) ، وزاد في ألقابه . وجمع الطائع رجال الدولة ودخل عضد الدولة على الطائع وقبّل الأرض بين يديه ، ثم قبّل رجل الطائع ، ثم أعلن الطائع إسناد الأمور كلها إلى عضد الدولة ، فقال له : « قد رأيت أن أفوض إليك ما وكل الله إلى من أمور الرعية في شرق الأرض وغربها ، وتديرها في جميع جهاتها سوى خاصتى وأسبابى » ؛ فقال عضد الدولة : « يعينى الله على طاعة مولانا أمير المؤمنين وخدمته » .

وفي سنة ٣٧٠ خرج عضد الدولة من همدان يريد بغداد ، فخرج الخليفة الطائع للقائه ولم تجر العادة بذلك .

بل قد جرى خلاف بين الطائع وعضد الدولة فقطع عضد الدولة الخطبة للطائع في بغداد وغيرها ، واستمر ذلك نحو شهرين ، ثم سوى الخلاف وأعيدت الخطبة للطائع .

بل طمع عضد الدولة في الخلافة لنسبه ، فزوج الطائع ابنته وعقد العقد

(١) الدبادب : الطبلخانات . (٢) تاريخ الخلفاء : ١٦٣ .

بحضرة الطائع لله و بمشهد من أعيان الدولة ؛ وكان الوكيل عن عضد الدولة أبا علي
الفارسي النحوي . والذي خطب خطبة الزواج القاضي أبا علي المحسن التنوخي ،
وكان المهر مائة ألف دينار — ورمى عضد الدولة بذلك أن يرزق الطائع ولداً من
ابنته فيوَلِّي العهد وتصير الخلافة في بيت بني بويه ، ويصير الملك والخلافة في
الدولة الديلمية^(١) .

وأخيراً بعد كل هذا لم يرض البويهيون عن الطائع ، فإن بهاء الدولة
البويهى احتاج إلى مال فدبر خلع الطائع وأخذ أمواله ، فأرسل إلى الطائع
يسأله الإذن في الحضور ليجدد العهد به ، فأذن له في ذلك وجلس له كما جرت
العادة ؛ فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير ، فلما دخل قبل الأرض وأجلس على
كرسى ، فدخل بعض الديلم كأنه يريد تقبيل يد الخليفة فحذبه وأنزله عن سريره
وهو يستغيث ولا يلتفت إليه أحد ، وأخذوا ما في داره ، ونهب الناس بعضهم
بعضاً . ثم أمروه أن يخلع نفسه ففعل بعد أن نزل للبويهيين عن كل شيء .
وقد كان الشريف الرضى حاضراً في المجلس الذي قبض فيه على الطائع ،
وقد خاف أن يعيد الفرس تمثيل دور الترك مع المتوكل فأسرع في الخروج ، وكان
أول خارج من الدار ، ومكث من مكث من القضاة والأشراف فسلبوا ثيابهم
وامتنهوا ، وفي ذلك يقول قصيدته التي مطلعها :

لواعجُ الشوق تُخطِّبهم وتُصمِّيني واللوم في الحب ينهائم ويغريني
وفيها يقول :

اعجبْ لمُسْكَةِ نَفْسِي بعد ما رُميتْ من النوائب بالأبكار والعور
ومن نَجَائِي يوم الدار حين هوى غيري ولم أخلُ من حزم ينجيني

(١) انظر تجارب الأمم : ٤١٤/٦ .

مرقت منها مروق النجم منكدرًا وقد تلاقت مصاريع الردى دوني
وكنت أول طلاع ثنيتهَا ومن وزأى شرًّا غير مأمور
من بعد ما كان رب الملك^(١) مبتسما إلى أدنوه في النجوى ويدني
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني يا قزب ما عاد بالضراء يبكيئي !
هيئات أغترّ بالسلطان ثانية قد ضل ولاج أبواب السلاطين

وجاء القادر بالله بعد الطائع فظل سلطان بني بويه على الخليفة كما كان ،
قال الذهبي : « في سنة ولايته عقد مجلس عظيم حلف فيه القادر وبهاء الدولة
(البويهي) كل منهما لصاحبه بالوفاء ، وقلده القادر ما وراء بابه مما تقام فيه الدعوة » .
من كل هذا نرى أن البويهيين من الفرس سلكوا مع الخلفاء ما سلكه
الأتراك من قبلهم ، بل زادوا عليه أحياناً ؛ ولكن أكبر التبعة تقع على الترك
فإنهم هم البادئون بانتهاك حرمة الخلافة ، فلم يكن من اليسير بعد إعادة مالها
من جلال .

وزاد الأمر سوءاً في عهد البويهيين النزاع بين الشيعة والسنية ؛ فقد كان
الخليفة سنياً ، والبويهيون شيعيين ، فاختلفت المظاهر وكثر النزاع . ففي سنة
٣٥١ في عهد المطيع — مثلاً — كتبت الشيعة ببغداد على أبواب المساجد بلعن
معاوية ، ولعن من غضب فاطمة حقها من فدك ، ومن منع الحسن أن يدفن مع
جده ، ولعن من نفى أبا ذر ، ، فحاه أهل السنة بالليل ؛ فأراد معز الدولة أن يعيده ،
فأشار عليه الوزير المهلبى أن يكتب مكان ما محى : لعن الله الظالمين لآل رسول
الله (ص) . وصرحوا بلعن معاوية فقط .

(١) يعني الخليفة الطائع .

وفي سنة ٣٥٢ أزم معز الدولة الناس يوم عاشوراء بغلق الأسواق ومنع
الطباخين من الطبخ ، ونصبوا القباب في الأسواق ، وعلقوا عليها المسوح ،
وأخرجوا نساء منتشرات الشعور يلطنن في الشوارع ويقمن المأتم على الحسين ؛
وهذه أول مرة ينجح فيها على الحسين ببغداد ، واستمر هذا سنين . وفي ثاني عشر
ذى الحجة من هذه السنة عمل عيد غدِير خُمٍّ ، وضربت الديداب .

وفي سنة ٣٩٨ ، وقعت فتنة بين الشيعة وأهل السنة في بغداد ، فأرسل
الخليفة القادر الفرسان الذين على بابها لمعاونة أهل السنة ، وهكذا .

وتعصّب بعض شعراء الفرس في ذلك العهد لفارسيّتهم ، ومن أشهر هؤلاء
مهبّار الديلمي ، فبرى ديوانه قدملياً بالتهنئة بيوم النيروز ، ويوم المهرجان ، وبمراسلة
بعض البويهيين للقدوم إلى بغداد والاستيلاء عليها ، وبالعصبة الفارسية
من مثل قوله :

أُعجبت بي بين نادى قومها	« أمُّ سعد » فضت تسأل بي
سرّها ما علمت من خلقي	فأرادت علمها ما حسبي
لا تخلى نسباً يخفضني	أنا من يرضيك عند النسب
قومي استولوا على الدهر فتى	ومشوا فوق رؤوس الحقب
عمّموا بالشمس هاماتهم	وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبي كسرى على إيوانه	أين في الناس أبٌ مثل أبي ؟
قد قبست المجد من خير أب	وقبست الدين من خير نبي
وضممت الفخر من أطرافه	سؤدد الفرس ودين العرب

وقد شرحنا أثر الفرس الاجتماعي في « ضحى الإسلام » غير أنا نذكر هنا

أن هذه الحروب بين الترك والبويهيين الفرس ، وبين البويهيين بعضهم

مع بعض ، أثرت كثيراً من الخراب في العراق وما حولها ، حتى جاء عضد الدولة فاستقرت الأمور بعض الاستقرار ، ومكث ذلك وحبه للعمران أن يصلح بعض ما خرب .

قال مسكويه : « وكان يبغداد أنهار كثيرة ... وكان منها مرافق للناس لسقى البساتين ولشرب الشفة في الأطراف البعيدة من دجلة ، فاندفت مجاريها ، وغفت رسومها ، ونشأ قرن بعد قرن من الناس لا يعرفونها ، واضطر الضعفاء إلى أن يشربوا مياه الآبار الثقيلة ، أو يتكلفوا حمل الماء من دجلة في المسافة الطويلة ، فأمر (عضد الدولة) بحفر عمدانها ورواضها ، وقد كانت على عمدانها الكبار قناطر قد تهدمت وأهمل أمرها ، وقلّ الفكر فيها ، فربما انقطعت بها السبل ، وربما عمرتها الرعية عمارة ضعيفة على حسب أحوالهم ، فلم تكن تخلو من أن يجتاز عليها البهائم والنساء والأطفال والضعفاء فيسقطون ، فبنيت كلها جديدة وثيقة ، وعملت عملاً محكماً . وكذلك جرى أمر الجسر ببغداد ، فإنه كان لا يجتاز عليه إلا المخاطر بنفسه ، لا سيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه ، وتزاحم الناس عليه ، فاختيرت له السفن الكبار المتقنة ، وعرض حتى صار كالشوارع الفسيحة ، وحصن بالدرابزينات ، ووكل به الحفظة والحراس »^(١) !

كما أعاد الاطمئنان إلى أهل الذمة ، وأذن للوزير نصر بن هارون في عمارة البيع والديرة ، وإطلاق الأموال لفقراءهم .

كما أنشأ في بغداد سنة ٣٧١ ، بيارستاناً للمرضى سمي بعده بالبيارستان العضدى ، وأحضر له كل ما يلزم من الأدوية والآلات ، ورتب له أربعة وعشرين طبيباً ، منهم الجراحون والكحالون والمجربون ، وكان فيه دراسة للطب

(١) تجارب الأمم : ٤٠٦/٦ .

أيضاً ، وممن كان يدرس فيه إبراهيم بن بكس^(١) .
وبعد نحو مائتي سنة من بناءه زاره ابن جبير الرحالة ، وقال : « إنه على نهر
دجلة ، وتتفقد الأَطباء كل يوم اثنين وخميس ، ويَطالعون أحوال المرضى به ،
ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ، وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية
والأغذية ، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت ، وجميع مرافق المساكن
الموكية ، والماء يدخل إليه من « دجلة » ، وعلى الجملة فكان مستشفى كبيراً
ومدرسة للطب ، ولكن عاد الأمر بعده إلى الفساد والخراب .
أما الحركة العقلية والأدبية في دولة بني بويه ، فبلغت الغاية في التحصيل
والإنتاج ، وسنتكلم فيها في محلها من هذا الكتاب إن شاء الله .

عصر العرب :

بجانب هذا النفوذ التركي والنفوذ الفارسي ، كان هناك النفوذ العربي ،
وأظهر ما كان ذلك في الشام والجزيرة ؛ فالعرب الذين هاجروا من جزيرة العرب
إلى الشام والعراق كانوا — دائماً — قوة سياسية تحسب الخلفاء حسابها . نعم إنهم
كانوا كل شيء في العهد الأموي وضعف سلطانهم في العهد العباسي ، ولكنهم
كانوا في كل الأحوال قوة لا يستهان بها . ولما ضعفت القوة المركزية في بغداد
شرعت هذه القبائل الهامة في صحراء الشام ووادي الفرات تحط رحالها ، وتنشئ
مستعمرات ثابتة ، وتحتل المدن والقلاع ، وتكون دويلات — فكونت قبيلة
تغلب دولة الحَمْدانيين في الموصل وحلب (٣١٧ — ٣٩٤) ، وكونت قبيلة

(١) ترجم له طبقات الأَطباء .

كِلَاب دولة المِرداسيين في حلب (٤١٤ — ٤٧٢) ، وكون بنو عَمَيْل العقيليين
في ديار بكر والجزيرة (٣٨٦ — ٤٨٩) وكون بنو أسد دولة المَزِيديين في الحِلَّة
(٤٠٣ — ٥٤٥) .

وهؤلاء العرب مع استيلائهم على المدن والقلاع لم يبنذوا عاداتهم القومية
من البداوة وما إليها ، واعتزازهم بيداوتهم واحتقارهم لأهل الحضرة . ومن طريق
ما يروى في ذلك أن قرواشاً العقيلي صاحب الموصل (من الدولة العقيلية) . قال
مرة : « ما في رقبتي غير خمسة أو ستة من البادية قتلهم ، وأما الحاضرة فلا يعبأ
الله بهم » .

وأهم هذه الدول العربية التي تجلت فيها العصبية العربية ، واشتبكت مع
العصبية التركية والفارسية هي دولة بنو حمدان التغلبية ؛ فقد عظم نفوذها بالموصل
وحلب ، وأرادت الاستيلاء على بغداد وطرد النفوذ التركي والفارسي ، واستخلاص
الخليفة لهم ، وجرت في ذلك سلسلة حروب طويلة .

فالخليفة المتقي بالله ، احتسى بناصر الدولة بن حمدان وقلده إمرة الأمراء ،
وخلع عليه وعلى أخيه سيف الدولة بن حمدان ، ودخل ناصر الدولة بغداد
باحتيال عظيم . ولكن ثورة الأتراك وعلى رأسهم « توزون » تغلبت على ابن
حمدان ، وولى الخليفة إمرة الأمراء لتوزون ، واستمر العداة والقتال بين العرب
وعلى رأسهم ابن حمدان ، وبين الترك وعلى رأسهم توزون .

فلما استولى البويهيون الفرس على بغداد لم ينقطع الخلاف والقتال بين
الحمدانيين والبويهيين ، ولما رأى ناصر الدولة بن حمدان استيلاء معز الدولة على
بغداد وسلهم جميع حقوق الخليفة ، جهز جيشاً لقتال البويهيين ، وساعده على
ذلك فرق من الجيش التركي ، ودام القتال طويلاً ؛ وتقدم الحمدانيون إلى بغداد

واستولوا على جانبها الشرقى ، وأخيراً انهزم ناصر الدولة الحمداني وعاد إلى مقره .
وكذلك اشتبك الحمدانيون في قتال مع البويهيين أيام عضد الدولة فهزم
الحمدانيون أيضاً .

وكانت حياة بني حمدان ، مظهراً من مظاهر الحياة البدوية المتخضرة : حب
للحرب ، واستبداد السادة بالرعية ، وكرم ومروءة ، وشهامة ونجدة ، وعصبية
العربية ضد الفرس والترك ، وعصبية للقبيلة ضد بني كلاب وبني عقيل ، وعصبية
للإسلام ضد الروم . وصف الأزدى سيف الدولة الحمداني فقال : « كان معجباً
برأيه ، محباً للفخر والبذخ ، مفرطاً في السخاء والكرم ، شديد الاحتمال لمناظريه ،
والعجب بآرائه ، سعيداً مظفرأً في حروبه ، جائراً على رعيته . اشتد بكاء الناس
عليه ومنه » .

ظهرت عصبية الحمدانيين لعريتهم في قتالهم المتواصل للترك والفرس في
العراق ، وتغنى شعرائهم كالمتنبي في الاعتزاز بعريته وعريتهم ، فيقول وقد
تساءلوا عن أيهم أفضل : العرب أم الأكراد :

إن كنتَ عن خير الأنام سائلاً فخيرُهم أكثرهم فضائلاً
مَنْ أنتَ منهم يا همامُ وائلاً الطاعنين في الوغى أوائلاً
والعاذلين في الندى العواذلاً قد فضّلوا بفضلك القبائلاً

ويقول ويأسف لحكم غير العرب العرب :

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عُربٌ ملوكها عَجَمٌ
لا أدبٌ عندهم ولا حسبٌ ولا عهدٌ لهم ولا ذم
بكل أرضٍ ووطنها أم تُرعى بعبدٍ كأنها غم
ويدل على عصبيتهم القبلية ما فعله سيف الدولة من إيقاعه بيني كلاب وبني

عقيل ، وقشير وبنى عجلان ، وبطشه بينى حبيب حتى خرجوا بذرايرهم إلى الروم في اثني عشر ألف فارس وتنصروا بأجمعهم ، ووقوف المتنبى بجانبه يشيد بذكره في حروبه هذه ، فيقول حيناً أوقع بينى كلاب قصيدته المشهورة التي مطلعها :

بغيرك راعياً عَمَّ الذئابُ و غيرك صارماً تَلَم الضرابُ

ويذكر إيقاعه بينى عقيل وقشير ، وبنى العجلان في قصيدته التي مطلعها :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجرَّ عوالينا ومجرى السوابق

ويدل على عصبيتهم الإسلامية قتالهم للروم ، وصددهم عن بلاد الإسلام وحميتهم للثغور ، حتى غزا سيف الدولة الروم أربعين غزوة ، ولولاه لاستولوا على الشام في غفلة العباسيين . وقد رووا أنه جمع من الغبار الذي أصابه في غزواته ما صنع منه لبنه بقدر الكف أوصى أن يوضع خده عليها في لحده .

بين هذه العصبيات الثلاث التركية والفارسية والعربية تقسمت المملكة الإسلامية ، ولأجلها وقعت الحروب وسادت الفتن ، فلا تكاد تخلو سنة من حروب بين فرس وترك وعرب ، وأحياناً ينضم بعض إلى بعض ؛ فقد كان في جيش بنى حمدان أحياناً فرق من الجيش التركي ، كما كان مع بعض بنى بويه بعض الأتراك ، والبلاد تحرب من القتال ، والروم ينتهزون فرصة اشتباك أمراء المسلمين بعضهم مع بعض للإغارة على الثغور الإسلامية والتكثير بها .

وقد اتخذت العصبيات في هذا العصر شكلاً واضحاً غير الذي كان في العصر العباسي الأول ، فقد كان قبلُ عصبية فارسية وعصبية عربية ، ولكنها كانت تعمل في الخفاء غالباً ، وكانت قوة الخلفاء تحول دون الطغيان ، فإذا أحس الخليفة

طغياناً من الفرس نكل بهم ، وردّهم إلى حدودهم ؛ فلما ضعفت الخلافة ، وقتل المتوكل بيد الأتراك ، لم يكن للخليفة من النفوذ ما يستطيع أن يصد به هذا الطغيان ، فانكشفت العصبيات وأصبحت تعمل جهاراً ، ووسيلتها الحروب .

وكان من نتيجة هذه العصبيات الثلاث ، واستعمالها السيف في بسط نفوذها ، وضعف الخلفاء عن كبح جماحها ، انقسام المملكة إلى مناطق نفوذ . فلو نظرنا إلى المملكة الإسلامية في النصف الثاني من القرن الثالث وفي القرن الرابع الهجري ، رأينا الأندلس يحكمها الأمويون وهم عرب ، وبلاد المغرب يحكم بعضها الأدارسة وهم عرب ، وبعض قبائل البربر ، والفاطمية وهم عرب ، ومصر والشام يحكمها الطولونيون والأخشيديون ، وهم أتراك ، ثم الفاطميون وهم عرب ، والمحمديون في الموصل وحلب وهم عرب ، والعراق يحكمه الأتراك باسم الخليفة العباسي وينازعهم السلطان عليه المحمديون وهم عرب ، ثم يستولى عليه البويهيون وهم فرس — وفارس تنقسمها دول مختلفة : الدّلفية في كردستان وهم عرب ، والصفارية في فارس كلها وهم فرس ، والسامانية في فارس ، وما وراء النهر وهم فرس ، والزيارية في جرجان وهم فرس ، والحسنوية في كردستان وهم أكراد ، والبويهية في جنوبي فارس وهم فرس ، والغزنوية بأفغانستان والهند وهم أتراك .

وكان كل جنس من هذه الأجناس يطبع البلاد التي يحكمها بطابعه الخاص ؛ فطابع التركية حب للجنديّة والفروسية ، والاستكثار من الجنود من جنسهم لتقوية حكمهم ، ثم كثرة الخلاف فيما بينهم ، وتعصب كل فريق لقائد كالبدوي تعصبهم للقبائل واعتزازهم بقبيلهم ، ونظرهم في شيء من الاحتقار إلى أهل البلاد المحكومة بهم ، وانتصارهم لمذهب أهل السنة ، وعدم ميلهم إلى الفلسفة والجدل في الدين ، وتقريبهم علماء الدين وخاصة علماء التفسير والحديث ، وحجهم

للأموال يأخذونها من الرعية في غير حكمة وأناة ونظر بعيد ، فبدل أن يعنوا بموارد المال من رى ، ونظام ضرائب ، وإصلاح أراض ، وتنظيم تجارة ، واستغلال منابع الثروة ، يميلون أبصارهم في الناس ويتعرفون ذوى الثروة ، فيتميزون الفرصة لمصادرهم أو التكيل بهم أو نحو ذلك ، ثم ينفقون ما تصل إليه أيديهم في الترف والنعيم ، فإذا أسرفوا وختل أيديهم من المال ثاروا على من لديه المال — ترى تاريخهم — في العراق في ذلك العهد سلسلة مطالبات للخليفة بالأموال ، فإذا لم يعطهم خلعه ، وإن أعطاهم سكتوا عنه إلى أن يفرغ ما لهم ، ثم أعادوا الكرة ، وهكذا فعلوا في الوزراء والكبراء والتجار ، وهم مع كل هذا لا ينظرون إلى وسائل المال ليصلحوها ، ولذلك سرعان ما ينضب معين الدولة — لقد كان لدى الخلفاء ثروة هائلة تقدر بالملايين ، فما زالوا يلحون عليهم في طلب المال ، والخلفاء يفتدون أرواحهم بالعطاء حتى تركوهم ولا شىء في أيديهم . ومن أجل هذا تقرأ كثيراً في تاريخ هذه العصور دفن الأموال في الأرض ، وبناء الحوائط عليها ، وتظاهر الأغنياء بالفقر ، ونحو ذلك .

وطابع الفرس حب الفخفة والظهور ، قد ورتوا مدينة قديمة مملوءة بالتقاليد والأوضاع ، فطبعوا عليها بحاسنها ومساويها ؛ فلهم قدرة على تنظيم الحكم ، ومعرفة واسعة بما يزيد الثروة ويضعفها ، ولهم عقول مثقفة تتذوق الأدب والعلم وتمتازها ، فهم يشجعون العلم لا بالمعنى الضيق الذى يشجعه التركى ، ولكن بمعناه الواسع الذى يشمل الفلسفة بفروعها المختلفة — قد كثرت المذاهب الدينية القديمة عندهم من مانوية وزرادشتية ومزدكية ، فكثرت في الإسلام مذاهبهم من زيدية واثني عشرية وسبعية وغير ذلك ، وورثوا ما يرثه أبناء كل أمة تحضرت وهرمت من ميل إلى الترف والنعيم ، وانهمك في اللذائذ . وأورثهم ضغط الدولة

الأموية عليهم وتحقيرهم ميلاً كامناً إلى الانتقام من العرب والأخذ بالثأر منهم في لين وهوادة ، وعلمهم التشيع النقية ، فكروا وعملوا في الخفاء وتستروا ، وأسسوا المؤامرات للقضاء على خصومهم بالثورات أحياناً ، وبال دعوة المقنعة بالعلم أحياناً ، إلى غير ذلك .

وطابع العرب ميل إلى البداوة ، وحكم بالقبيلة ، واعتزاز بدمهم ، واحتقار لغير جنسهم ، وزهوهم بسيفهم ولسانهم ، وقلقهم واضطرابهم ، فإذا أحسوا ضعف رئيسهم فما أسرع ثورتهم ؛ ثم هم أسرع ما يكون قبولاً للتأقلم والتحضّر ، فإذا تحضروا انغمسوا في النعيم ، ومالوا إلى خصب العيش ، وتأقنوا في المأكل والملبس والمشرب ، كما كان شأن الفاطميين بعد انتقالهم من المغرب إلى مصر ، وكما كان شأن من نزل من العرب في الأندلس ، وكما كان شأن العرب الفاتحين لبلاد فارس والروم ؛ وهم في أول أمرهم شجعان صرحاء بسطاء ، فإذا انغمسوا في النعيم ، وقعوا في سيئات الحضارة ففقدوا صراحتهم وبساطتهم ؛ أحب إليهم الأدب والشعر لا الفلسفة والعلم ، إلا أن يستعينوا بغيرهم من الموالي في تجميل دولتهم بالفلسفة والعلم .

• وكثيراً ما كان يتعاقب على القطر الواحد هذه الأجناس الثلاثة أو جنسان منها ، فتعاقب على العراق العرب والفرس والترك ، وعلى مصر العرب والترك ، وإذ ذاك يسقيه كل جنس بكأسه ، ويتكوّن لكل قطر مزاج هو نتيجة طبع الأمة مع من تعاقب عليها من الأجناس .

وهناك عنصران آخران كان لهما أثر في الحياة الاجتماعية في هذا العصر ، وإن كان هذا الأثر في المنزلة الثانية ، وأعنى بهما الروم والزنج .

الروم :

كان العرب يطلقون على المملكة البيزنطية « بلاد الروم » ، ومن ثم أطلقوا على البحر الأبيض المتوسط « بحر الروم » . وعلى مر الزمان كان أكثر ما يطلق اسم الروم على بلاد النصارى المتاخمين للمملكة الإسلامية ، ولهذا كان أكثر ما يطلق على بلاد النصارى في آسيا الصغرى ؛ وكانت تسمى الحدود التي بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية « الثغور » ممتدة من ملطية إلى أعلى الفرات وإلى طرسوس ، وكانت هذه الثغور محصنة من الجانبين ، ومنقسمة إلى قسمين : ثغور الجزيرة ، وثغور الشام ؛ فمن الأول ملطية ، وزبطرة ، وحصن منصور والحداث ، ومرعش ، والهارونية ، والكنيسة ، وعين زربة ؛ ومن الثاني : المصيصة ، وأذنة ، وطرسوس .

ومنذ فتح الشام ومصر في عهد عمر بن الخطاب ، والحروب قائمة بين المسلمين والروم . والذي نريد أن نعرض له الآن ما كان بين الروم والمسلمين في العصر الذي نؤرخه ؛ فقد كثرت الحروب بين الفريقين ، وكانت هذه الثغور بين حركتي مد وجزر باستمرار . فمن ابتداء هذا العصر حدثت وقعة عمورية المشهورة في عهد المعتصم ، واستمرت بعد ذلك واشتدت بين الروم والمحمدانيين ، وعلى الأخص أيام سيف الدولة الحمداني .

وليس يهمننا هنا تاريخ هذه الحروب ، ولا جانبها السياسي ، وإنما يهمننا ما كان لها من أثر اجتماعي أو عقلي .

فقد كانت هذه الحروب سبباً في أسر عدد كبير من الروم ، واسترقاق كثير منهم ، ففي وقعة عمورية « أقبل الناس بالأسرى والسبي من كل وجه ، فأمر المعتصم أن يعزل منهم أهل الشرف ، وقتل من سواهم ، وأمر ببيع المغنم في عدة

مواضع . . . وكان لا ينادى على شيء أكثر من ثلاثة أصوات ثم يوجب
يبعه طلباً للسرعة ، وكان ينادى على الرقيق خمسة خمسة ، عشرة عشرة ، طلباً
للسرعة»^(١) . وكانت حرب بين الروم والمسلمين في صقلية سنة ٣٥٣ ، فتقدم
المسلمون إلى «رَمْطَة» «وملكوها عنوة وقتلوا من فيها ، وسبوا الحرم والصغار
وغنموا ما فيها وكان شيئاً كثيراً عظيماً»^(٢) . وفي سنة ٣٤٣ غزا سيف الدولة
الروم «فقتل وأسر وسبي وغنم» ، فانهزم الروم وقتل منهم ومن معهم خلق
عظيم ، وأسر صهر الدمستق وابن ابنته وكثير من بطارقه»^(٣) ، ومثل هذا كثير
فالحروب تكاد تكون متصلة ؛ والأسر من الجانبين متتابع . أنتجت هذه الوقائع
نتائج كثيرة :

فمنها أنها خلفت لنا أدباً عربياً حريماً قوياً ، كقصيدة أبي تمام في فتح
عمورية : «السيف أصدق أنباء من الكتب» ، وقصائد المتنبي في حروب سيف
الدولة للروم ، كقصيدته يذكر الوقعة التي نكب فيها المسلمون بالقرب من بحيرة
الحدّث : «غيري بأكثر هذا الناس ينخدع» ، وقصيدته لما سار سيف الدولة
يريد الدمستق : «نزور دياراً ما نحب لها معنى» الخ الخ ؛ وكالقصائد الروميات
لأبي فراس ، وهي قصائد من غرر شعره ، قالها — لما أسره الروم — في الحنين
إلى أهله وأصحابه ، والتبرم بحاله من أسر ومرض وغربة ، إلى غير ذلك .

ومنها ما كان من انتشار الروم من رجال ونساء وعلماء في بيوت الناس
والخلفاء والأغنياء كما ليك ، حتى إن بعض الخلفاء في هذا العصر كانت أمهم
رومية ؛ فالمنتصر بالله ابن المتوكل أمه رومية ، والمعتز بالله أمه رومية اسمها

(١) ابن الأثير : ١٨٠/٦ . (٢) ابن الأثير : ٢٠٠/٨ .

(٣) ابن الأثير : ١٨٣/٨ .

« قبيحة » ، وقد اشتهرت في التاريخ بغناها وثروتها وتغلبها على عقل المتوكل ؛ والمعتمد على الله أمه رومية اسمها « فتيان » ؛ والمقتدر بالله أمه رومية على بعض الأقوال ، وكان لها في أيام ابنها سلطان في تدبير الأمور ، حتى أمرت قهرمانتها أن تجلس للمظالم وتنظر في رقايع الناس ؛ وأم الراضي بالله رومية اسمها ظلوم الخ . واستكثر الخليفة المقتدر من الخدم والماليك من الروم والسودان ، حتى قالوا إنه بلغ عددهم أحد عشر ألفاً ، وكانوا في أول عهده ألفاً ومائة .

وفي المقرئ « أن أحمد بن طولون (لما ولي مصر) اشترى العبيد من الروم والسودان . . . وصار من كثرة العبيد والرجال والآلات بحال تضيق بها داره ولا تتسع لها . . . فبنى القصر والميدان ، وتقدم إلى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم حوله فاخطوا . . . ثم قطعت القطائع ، فكان للنوبة قطعة مفردة تعرف بهم ، وللروم قطعة مفردة تعرف بهم »^(١) . « وكانت كل قطعة لسكنى جماعات بمنزلة الحارات التي في القاهرة »^(٢) .

ولما اختطت القاهرة اختطت الروم حارتين . « وفي سنة ٣٩٩ أمر الخليفة الحاكم بأمر الله بهدم حارة الروم فهدمت ونهبت »^(٣) .

كما كان في بغداد دار تسمى دار الروم بالشماسية ، وكان لهم بهذا الحى كنيسة على مذهب النسطورية ، ودير يسمى دير الروم .

وانتشرت الجوارى الروميات في القصور ، وكانت لهن ميزات . قال ابن بطالان : « الروميات بيض شقر ، سباط الشعور ، زرق العيون ، عبيد طاعة ومواقفة وخدمة ، ومناحجة ووفاء ، وأمانة ومحافظة ، يصلحن للخزن لضبطهن وقلة سماحتهن ، لا يخلو أن يكون بأكفهن صنائع دقيقة » .

(١) خطط ٣١٥/١ . (٢) ٣١٣/١ . (٣) ٨/٢ .

وتعشق بعض الشعراء الغلمان الروم ، فكان للبحترى غلام رومي اسمه « نسيم » ، « كان قد جعله باباً من أبواب الخيل على الناس ، فكان يبيعه ويعتمد أن يصير إلى ملك بعض أهل المروءات ومن ينفق عنده الأدب ، فإذا حصل في ملكه شئ به وتشوق ومدح مولاه ، حتى يهبه له ، فلم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم فكفى الناس أمره »^(١) . وفي نسيم يقول البحترى :

دعا عبرتي تجرى على الجور والقصد أظن نسياً فارق الهجر من بعدى
خلا ناظري من طيفه بعد شخصه فواجباً للدهر فقدراً على فقد

وقد أنجب هذا العنصر الرومي أدياء وعلماء ، كان لهم في فهم وعلمهم طابع خاص لم يكن مألوفاً في العقلية العربية والفارسية ، ومن أشهر هؤلاء ابن الرومي الشاعر ، وابن جني النحوي .

فإن الرومي من أصل رومي كما يدل عليه اسمه ، فهو على بن العباس بن جريح ، وله في الشعر ميزات قلما اجتمعت لغيره من شعراء العربية ، هي أشبه شيء بالروح الرومي ؛ فهو طويل النفس في قصائده طويلاً قلما يجارى ، وهو يقع على المعنى فلا يزال يستقصى فيه حتى لا يدع فيه فضلة ولا بقية ؛ وهو كثير التعليل لما يقول كما يفعل بالنظرية الهندسية والبرهان عليها من مثل قوله :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأفسح مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقي من أذاها يهدد

وقوله في مליح رمدت عيناه :

قالوا اشتكت عينه فقلت لهم من كثرة القتل مسها الوصب

(١) معاهد التصحيح : ٨٢/١ .

مُحَرَّتْهَا مِنْ دَمَاءٍ مِنْ قَتَلْتِ وَالدم في النَّصَلِ شَاهِدٌ عَجَبٌ
ومثل ذلك كثير لا نطيل به .

وهو بصور المهجوع صورة فنية تستخرج عجبك وتستثير ضحكك ، كقوله

في بخيل :

يَقْتَرُّ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ وليس يباقي ولا خالد
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لَتَقْتِيرَهُ تنفس من منخر واحد

وقوله في ثقيل :

إِذَا بَدَأَ وَجْهَهُ لِقَوْمٍ لاذت بأجفانها العيون
كَأَنَّهُ عِنْدَهُمْ غَرِيمٌ حلت عليهم له ديون

وقوله :

مَعَشَرٌ فِيهِمْ نَكُولٌ إِنْ نَوَوْا فعل خير ، وعلى الشر مرود
لَيْتَهُمْ كَانُوا قَرُودًا فَحَكُوا شيم الناس كما تحكي القرود

أما ابن جني ، فهو كذلك رومي ، أبوه جني كان مملوكاً رومياً لسليمان بن قيس الأزدى ، ولعل أصل « جني » ^(١) Jonah فعرّبها العرب إلى جني . وكان ابن جني هذا غريباً في تصوره النحو والصرف ، فهو ماهر في التصريف ماهر في التعليل والقياس . قال الباخري في دمية القصر : « ليس لأحد من أئمة الأدب في فتح المقفلات وشرح المشكلات ماله وسيا في علم الإعراب » ، وكان المتنبي يقول فيه : « هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس » .

وقد قال هو نفسه في خصائصه :

وَحُلُّ شَمَائِلِ الْأَدَبِ منيفٌ مراتب الحسبِ

(١) وفي بغية الوعاة أنها معرب كنى .

له كَلَفٌ بما كَلِفَتْ به العلماء مَلْعَرَبٌ
بييت يفاش الأتقا ب عن أسرارها الغيب^(١)
فمن جَدَدَ إلى جَلَدَ إلى صعد إلى صَبَبَ
ويفرع فكره الأبكا رَ منها من حمى الحجب
فيبردها كان لها وإن خفيت سنى لهب

يجد بها وتحسبه للطف الفكر في لعب
سبابة^(٢) مذهب سبكت عليه ماء الذهب

وطرداً للفروع على أصول وُطِّدَ رتب
إذا ما انحط غاؤها سما فرعاً على الرتب
قياساً مثل ما وقدت بليلاً برزة الشهب

ومنها في أصله الرومي :

فإن أصبح بلا نسب فعلى في الوري نسبي
على أنى أوول إلى قروم سادة نُجِبَ
قياصرة إذا نطقوا أرم^(٣) الدهر ذو الخطب

فإن الرومي وابن جنى وأمثالهما كانوا عرباً في المنشأ والمربى ، وكانوا روما بعقلهم الموروث ، فجمعوا بين مزايا العقل المطبوع والعقل المصنوع ، وأنتجوا منهما نتاجاً صالحاً ذا طعم خاص .

(١) الغيب بفتحين ، يقال قوم غيب أى غائبون .

(٢) سبابة المطر : سعته وكثرته . (٣) أرم : سكت .

السود:

ومن العناصر التي كثرت في هذا العصر وكان لها أثر كبير الزنج الذين كانوا
يجلبون في الأكثر من سواحل إفريقيا الشرقية ، ولا أدل على كثرتهم وخطرهم من
ثورتهم التي قاموا بها قرب البصرة ، وهددوا بها الدولة العباسية ودوخوها أربعة
عشر عاماً وأربعة أشهر (من ٢٥٥ هـ إلى ٢٧٠) وكانت حرباً بين الأجناس ،
بين السود والبيض ، دعا إليها رجل ادعى نسبته إلى علي بن أبي طالب ، فزعم أنه
علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن
أبي طالب . وأكثر المؤرخين يرون أنه دعوى وأن أصله عربي من عبد القيس ،
وقد توجه هذا الرجل إلى البصرة وحرص الزنوج «الذين كانوا يكسحون السباخ»
في أراضيها ، فإن ملاك هذه الأراضي كانوا يملكون سوداً من السودان يعملون
لهم في أرضهم فيعزقونها ويرفعون عنها الطبقة المألحة ليصلوا إلى الأرض الخالية
من الأملاح الصالحة للزراعة ، وهو عمل شاق جداً في هذه المنطقة ؛ فاستطاع هذا
الذي لقب بعد بصاحب الزنج أن يؤلب هؤلاء العمال الزنوج بعد أن درس حالتهم
وؤسهم وأجورهم ونفستهم فأتاهم من الناحية الدينية فهي أفعال في نفوسهم ،
فادعى أنه متصل بالله على نحو ما ، فاجتمع إليه خلق كثير ، فوصف لهم بؤسهم
وظلم ساداتهم لهم ، ورثى لعيشهم على السويق والتمر ، ودعاهم إلى الخروج على
هؤلاء الظالمين ، «ومتأهم ووعدهم أن يقودهم ويرسهم ويملكهم الأموال ، وحلف
لهم الأيمان الغلاظ ألا يعدير بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى
إيهم» ومن وقع في يده من هؤلاء السادة مالكي العيد كان يسلمه لغلمانه
ويأمر بضربه . فكانت حركته الأولى حركة ضد الملاك ، ثم تطورت فصارت
حركة ضد الدولة ، وأن الخلفاء والولاة ظالمون ينتهكون حرمة الله ، ودعا إلى مذهب

الخوارج . قال المسعودي : « إنه كان يرى رأى الأزارقة من الخوارج ؛ لأن أفعاله في قتل النساء والأطفال وغيرهم من الشيخ الفاني وغيره ممن لا يستحق القتل تشهد بذلك عليه ، وله خطبة يقول في أولها : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر ، ألا لا حُكْمَ إلا لله ؛ وكان يرى الذنوب كلها شركاً »^(١) . وكان عدد هؤلاء الزوج كثيراً ، وفيهم شجاعة نادرة ومران على القتال . وفي بعض الوقائع الحربية انضمت الفرقة السودانية في الجيش العباسي إلى إخوانهم الزوج فزادهم قوة . وقد تملكوا في بعض الأحيان « الأبله » و « عبّادان » ، والأهواز ثم البصرة ، وواسط والنعانة ، ورامهرمز ؛ وكانوا يهزمون الجيوش العباسية المرة بعد المرة ، واغتنموا ، وأصبح الزوج يملكون البيض بل خير البيض ، يقول المسعودي : « وقد بلغ من أمر عسكره (أي عسكر صاحب الزنج) أنه كان ينادى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس من ولد هاشم وقريش وغيرهم من سائر العرب ، وأبناء الناس ، تباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة ، وينادى عليها بنسبها هذه ابنة فلان الفلاني ، لكل زنجي منهم العشرة والعشرون والثلاثون ، يطوّهن الزنج ويخدمن النساء الزنجيات كما تتخدّم الوصائف . ولقد استغاثت إلى علي بن محمد (صاحب الزنج) امرأة من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب كانت عند بعض الزنج ، وسألته أن ينقلها منه إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هي فيه ، فقال : هو مولاك وأولى بك من غيره »^(٢) .

وأخيراً تغلب عليهم الموفق (أخو الخليفة المعتمد على الله) وابنه أبو العباس (الذي صار فيما بعد خليفة ولقب بالمعتضد) ، وقتل صاحب الزنج بعد أن خرب الزنج كثيراً من البلاد ، وأفنوا كثيراً من الناس . وقد قتلوا من أهل البصرة وحدها في وقعة

(١) مروج الذهب ٢/٣٤٤ . (٢) مروج الذهب ٢/٣٥٠ .

واحدة ثلثمائة ألف . « وقد تكلم الناس في قدر ما قتل (على يد الزنج) في هذه
السنين (الأربع عشرة) من الناس فكثروا ومقل ؛ فأما المكثرون فإنه يقول أفنى
من الناس ما لا يدركه العد ، ولا يقع عليه الإحصاء ، ولا يعلم ذلك إلا عالم
الغيب . . . والمقل يقول أفنى من الناس خمسمائة ألف ، وكلا الفريقين
يقول في ذلك ظناً وحدها ، إذ كان شيئاً لا يدرك ولا يضبط (١) .

وقد سقنا هذا كله للدلالة على قوة هذا العنصر الزنجي وخطره في ذلك
العصر ، وبجانب هذا كانت لهم ناحية اجتماعية لها قيمتها . وكانوا يطلقون كلمة
السودان على ما يشمل الأحباش ، وقديماً اتصل هؤلاء السودان بالعرب ، فكان
منهم بلال الحبشي مؤذن رسول الله ، ومنهم سعيد بن جبير سيد التابعين الذي
قتله الحجاج ، وكان من أشعر شعرائهم في العصر الأموي الحقيقطان ، وقد هما
جريراً وغر عليه بالزنج ، فقال :

والزنج لو لاقيتهم في صفهم . لاقيت ثم جحاجحاً أبطالا

وكان الزنج يفخرون بطلاقة اللسان ، وكثرة الكلام ، وشدة الأبدان ،
والسخاء ، وقلة الأذى ، وطيب النفس ، وضحك السن ، وحسن الظن (٢) . وقد
عبروا بصغر عقولهم ، وضعف ذكائهم ، وقلة علمهم ، فأجابوا بأنكم لم تروا الزنج
الحقيقيين ، وإنما رأيتم السبي يجيء من السواحل ، وأهل السواحل هؤلاء
ليس لهم جمال ولا عقول ، ولو رأيتم كرام الزنج لرأيتم الجمال والكمال والعقل .
قالوا : واعتبروا في ذلك بمن تسبونهم من أهل السند والهند ، فإنه لم يتفق لكم
واحد ممن سيبتوهم له عقل وعلم مع ما اشتهر به أهل السند والهند من العلم

(١) المصدر نفسه ٢/٣٥٠ .

(٢) الجاحظ في رسائله .

بالحساب والنجوم ، وأسرار الطب ، والتصاوير والصناعات العجيبة^(١) .
وكانت طائفة من الجند من الزنج كما رأينا قبل ، وكان منهم الكثير في
خدمة القصر . وقد نبغ منهم كافور الأخشيد الذي ملك مصر والشام ، وخطب
له على المنابر بمكة والحجاز ، وكان عبداً أسود أتى به من بلاد السودان واشتراه
الأخشيد بثمانية عشر ديناراً ؛ وقد مدح المتنبي سواده فقال :

جاءت به إنسان عين زمانه وختت بياضاً خلفها وما قيا
ثم ذمّ سواده حين هجاه فقال :

من علم الأسود المخصى مكرمة أقومهُ البيض أم أبأوه الصيد
أم أذنه في يد النخاس دامية أم قدره وهو بالفلسين مردود
وذاك أن الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف انحصية السود

ومن قديم كان للبيض نساء من السود ، فأعشى سليم كانت له دنانير بنت
كعبويه الزنجي ، وكانت زنجية ؛ وقد رآها تكتحل فقال :

كأنها والكحل في مرودها تكحل عينيها ببعض جلدها
وقد تزوج الفرزدق أم مكية الزنجية ، وترك ما عنده من النساء من أجلها .
وقال فيها :

* ياربَّ خَوْدٍ من بنات الزَّنجِ *^(٢)

وكثر ذلك في العصر العباسي ، فامتلات بهن القصور وبيوت الأوساط
والفقراء ، فقد كان الجوارى البيض أغلى ثمنًا ، فكانت أكثر ما تكون في
بيوت الأغنياء ، أما السود فكثيرات ورخيصات .

(١) انظر الرسالة الثانية للجاحظ من الرسائل الثلاث التي نشرها فان فلتون ص ٧٦، ٧٧ .

(٢) انظرها في الأغاني جزء ١٩ ص ٢١ .

وقد ذكر ابن بطلان خصائص السود فقال :

« الزنجيات مساويهن كثيرة ، وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن ، وتحدت أسنانهن ، وقلّ الانتفاع بهن ، وخيفت المضرة منهن ، والغالب عليهن سوء الأخلاق ، وكثرة الهرب ، وليس في خلقهن الغم ، والرقص والإيقاع فطرة لهن ، وطبع فيهن ... ويقال لو وقع الزنجي من السماء إلى الأرض ما وقع إلا بالإيقاع . وهم أبقى الناس ثغوراً لكثرة الريق ، وكثرة الريق لفساد الهضوم ، وفيهن جلد على الكبد ، فالزنجي إذا شبع فصبّ العذاب عليه صباً فإنه لا يتألم له . وليس فيهن متعة لصنانهن وخشونة أجسامهن . أما الحبشيات فالغالب عليهن نعومة الأجسام ولينها وضعفها ، يعتادهن السل ، ولا يصلحن للغناء ولا للرقص ، دقاق لا يوافقهن غير البلاد التي نشأن فيها ، وفيهن خيرية ، ومياسرة وسلاسة انقياد ، يصلحن للآثمان على النفوس ... قصار الأعمار لسوء الهضم » .

وكما تقاسمت المملكة الإسلامية العناصر الجنسية المختلفة . كذلك تقاسمتها المذاهب الإسلامية المختلفة والديانات المختلفة . ولنذكر في ذلك كلمة مجملة تصور هذه الحال .

فقد كان الخلفاء سنيين ، والأتراك سنيين غالباً ، والفرس شيعيين غالباً ، والعرب بين سني وشيعي ، فالفاطميون شيعة ، والمحمدانيون يغلب عليهم التشيع ، فمن آثارهم التي وصلت إلينا درهم ناصر الدولة الحمداني على أحد وجهيه :

لا إله إلا الله

المطيع لله

ناصر الدولة

وعلى الآخر : محمد

رسول الله

عليّ ولي الله

ويروى المؤرخون أن سيف الدولة عثر في حلب على قبر للمحسن بن الحسين فبنى عليه ، وكتب على حجّره :

« عمّر هذا المشهد المبارك — ابتغاء لوجه الله وقربه إليه على اسم مولانا المحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب — الأمير الأجل سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان .

ورروا أن سيف الدولة زوج ابنته ست الناس لأبي تغلب الحمداني ، وضرب لهذا الحادث دنانير على أحد وجهيها :

محمد رسول الله ، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب — فاطمة الزهراء — الحسن والحسين — جبريل .

وعلى الآخر :

أمير المؤمنين المطيع لله — الأميران الفاضلان ناصر الدولة وسيف الدولة — الأميران أبو تغلب ، وأبو المكارم .

فهذا يرجح أن دولة الحمدانيين كانت شيعية .

فكانت المملكة الإسلامية مسرحاً للعصبيات الجنسية والعصبيات المذهبية . وأوضح الأمثلة لذلك حالة العراق في عهد الدولة البويهية ؛ فقد كان مملوءاً بالأتراك والديلم ، والأولون سنيون ، والآخرين فرس شيعة ، والحروب والفتن والمصادرات وكبس البيوت لا تنقطع بينهما . وقد ذهب في سبيل ذلك

ضحايا كثيرة من الوزراء والكتاب والعلماء ، حتى حكي مسكويه في حوادث سنة ٣٦٠ أن بختيار البويهى « رأى لمعالجة (هذه الفتن) أن يعقد بين رؤساء الأتراك ورؤساء الديلم مصاهرات لتزول العداوات التى نشأت بينهم ، فابتدأ بعقد مصاهرة بين المرزبان بن عز الدولة (البويهى) ، وبين بختكين (التركى) ، وفعل مثل ذلك بجماعة ، وأصلح بين الديلم والأتراك ، واستحلف كل فريق منهما لصاحبه ، فحلفوا جميعاً ... فزال الظاهر ولم يزل الباطن » ^(١) . وقال ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٤٣ : « فى هذه السنة تجددت الفتنة بين السنة والشيعة ، وعظمت أضعاف ما كانت قديماً ، وسببها أن أهل الكرخ عملوا أبراجا كتبوا عليها بالذهب : « محمد وعلى خير البشر » ، وأنكر السنة ذلك ، وادعوا أن المكتوب محمد وعلى خير البشر ، فمن رضى فقد شكر ومن أبى فقد كفر ؛ وأنكر أهل الكرخ الزيادة ؛ فانتدب الخليفة القائم بأمر الله من حقق ، فكتبوا بتصديق أهل الكرخ . وحمل الحنابلة العامة على الإغراق فى الفتنة . وتشدد رئيس الرؤساء على الشيعة فمحو « خير البشر » ، فقالت السنة لا نرضى إلا أن يقلع الأجر الذى عليه محمد وعلى ، وألا يؤذَن « حى على خير العمل » ، وامتنع الشيعة عن ذلك . وقتل رجل هاشمى من السنة ، حملة أهله على نعش وطافوا به فى الحرية وباب البصرة وسائر محلة السنة ، واستنفروا الناس للأخذ بثأره ، ثم دفنوه عند أحمد ابن حنبل ؛ فلما رجعوا من دفنه قصدوا المشهد فدخلوه ، ونهبوا ما فيه من قناديل ومحاريب من ذهب وفضة ؛ فلما كان الغد اجتمعوا وأضرموا حريقاً ، فاحترق كثير من قبور الأئمة وما يجاورها من قبور بنى بويه ؛ وقصد أهل الكرخ الشيعيون إلى خات الفقهاء الحنفيين فنهوه ، وقتلوا مدرس الحنفية أبا سعد

(١) تجارب الأمم : ٢٨٢/٦ .

السرخسي وأحرقوا الخان ودور الفقهاء ، وامتدت الفتنة إلى الجانب الشرقي»^(١) .
وقال في سنة ٤٤٤ : « في هذه السنة زادت الفتنة بين أهل الكرخ وغيرهم
من السنية ، وكان ابتداؤها أواخر سنة ٤٤٤ ، فلما كان الآن عظم الشر واطرحت
المراقبة للسلطان ، واختلط بالفريقين طائفة من الأتراك ، فلما اشتد الأمر اجتمع
القواد ، واتفقوا على الركوب إلى المحال ، وإقامة السياسة بأهل الشر والفساد ،
وأخذوا من الكرخ إنسانا علويا وقتلوه ، قنار نساؤه ونشرون شعورهن واستغثن ،
فتبعهن العامة من أهل الكرخ ، وجرى بينهم وبين القواد ومن معهم من العامة
قتال شديد ، وطرح الأتراك النار في أسواق الكرخ فاحترق كثير منها
وألحقتها بالأرض » .

وقد اشتهرت الكوفة بالتشيع والبصرة بالتسنن^(٢) ، فقال الجاحظ : إن
الكوفة علوية ، والبصرة عثمانية ، ثم انتشر بعد الجاحظ التشيع في البصرة حتى
كان فيها في القرن الخامس ما لا يقل عن ثلاثة عشر مشهداً للعلويين . أما الشام
فمن قديم عرفت بالسنية ، ويقول النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ : « دخلت دمشق
والمتحرف عن علي رضي الله عنه كثير ، فأردت أن يهديهم الله بهذا الكتاب »
يعني كتاب « الخصائص » في فضل علي بن أبي طالب . وسئل وهو بدمشق عن
معاوية وما روى من فضائله ، فقال : أما يرضى معاوية أن يخرج رأساً برأس حتى
يفضل ؟ ! فما زال أهل دمشق يدفعون في حضنه حتى أخرجوه من المسجد ، ثم
حمل إلى الرملة فمات بها^(٣) .

(١) ابن الأثير : ٢١٥/٩ باختصار .

(٢) هذه صيغة اصطغناها نسبة إلى أهل السنة .

(٣) ابن خلكان : ٢٩/١ .

وتقسمت البلاد الشيعة والسنية ، بل تقسم البلد الواحد التشيع والتسنن ؛
فبلدة نابلس في النصف الثاني من القرن الرابع كان نصفها سنيين ونصفها شيعيين ،
قال المقدسي المتوفى سنة ٣٧٥ : « ونصف نابلس وأكثر عمان شيعة » .

وجزيرة العرب نفسها كذلك ، « فذاهمهم في مكة وتهمامة وصنعاء وقرح
سنية ؛ وسواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شرارة غالية ؛ وبقية الحجاز وأهل
الري بعمان وجر وصعدة شيعة »^(١) ، « ونصف الأهواز شيعة »^(٢) « وأهل قم
شيعة غالية قد تركوا الجماعات وعطلوا الجامع إلى أن أزمهم ركن الدولة عمارته
ولزومه »^(٣) . وحكى ياقوت أنه ولّى عليهم رجل سني متشدد ، فبلغه أن أهل
« قم » لبغضهم الصحابة لا يوجد فيهم من اسمه أبو بكر أو عمر ، فجمع رؤساءهم
وقال لهم : إن لم تأتوني برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر لأفعلن بكم ولأصنعن ،
فاستهلوه ثلاثة أيام ، وقتشوا فلم يجدوا إلا رجلا صعلوكا حافيا عاريا أحول أقبح
خلق الله منظرا اسمه أبو بكر ، لأن أباه كان غريبا استوطنها فسماه بذلك ، فغاءوا
به فشمهم الخ .

وهكذا سادت العالم الإسلامي هاتان النزعتان — السنية والشيعة —
تتعاديان وتتقاتلان . هذا عدا ما قام به الشيعة من مؤامرات لقلب الدولة
والاستيلاء عليها ، وسيأتي الكلام على ذلك في حينه .

وهناك نزاع آخر ، وهو النزاع بين المذاهب الفقهية — قد كان الخلاف
أيام أصحاب المذاهب ، كأبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل ، خلافا في الرأي
والبرهان ؛ غاية التعصب أن يعتقد أن مذهبه حق يحتمل الخطأ ، ومذهب غيره

(١) المقدسي : ٩٦ .

(٢) ص : ٤١٥ .

(٤) معجم ياقوت في مادة « قم » .

(٣) ٣٩٥ .

خطأ يحتمل الصواب ، وقل أن نرى بين أمة المذاهب عداً حاداً إلا قرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان ، وازداد بعض الشيء أيام أتباعهم ، ولكنه قل أن يتعدى ذلك إلى ضرب أو قتال . فلما انتهى هذا الطور أخذت العصبية تتزايد إلى أن بلغت القتال ، ففي القرن الثالث والرابع نرى أن الحنابلة من حين لآخر يقومون بالثورات الكبيرة ؛ من أمثلة ذلك ما رواه ابن الأثير في حوادث سنة ٣٢٣ إذ قال : « وفيها عظم أمر الحنابلة (ببغداد) وقويت شوكتهم ، وصاروا يكسبون دور القواد والعامّة ، وإن وجدوا نبياً أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء ، واعترضوا في البيع والشراء ومشي الرجل مع النساء والصبيان ، فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذي معه من هو ، فإن أخبرهم وإلا ضربوه ، وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة ، فأرهبوا بغداد ^(١) . وركب صاحب الشرطة ونادى في جانبي بغداد : لا يجتمع من الحنابلة اثنان ، ولا يناظرهم في مذهبهم ، ولا يصلي منهم إمام إلا إذا جهر بيسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الصبح والعشاءين ، فلم يقد فيهم ، وزاد شرهم وفتنتهم ، واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأتون إلى المساجد . وكانوا إذا مر بهم شافعي المذهب أغروا به العميان حتى يكاد يموت ، فخرج توقيع (الخليفة) الراضي بما يقرأ على الحنابلة ، ينكر عليهم فعلهم ويوبخهم باعتقاد التشبيه وغيره . [فما جاء في هذا التوقيع] : تارة ترعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين ، وهيئكم الرذلة على هيئته ، وتذكرون الكف والأصابع والرجلين والنعلين المذهبين ، والشعر القطط ، والصعود إلى السماء ، والنزول إلى الدنيا ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً ، ثم طعنكم على خيار الأمة ونسبتكم شيعة آل محمد (ص) إلى الكفر

(١) أصل أُرهب آثار الغبار ثم استعمل لإثارة الفتن .

والضلال ، ثم استدعواكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة ، والمذاهب الفاجرة التي لا يشهد بها القرآن ، وإنكاركم زيارة قبور الأئمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع ، وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذى شرف ولا نسب ولا سبب برسول الله (ص) ، وتأمرون بزيارته وتدعون له معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ، فلعن الله شيطانا زين لكم هذه المنكرات وما أغواه ! وأمير المؤمنين يقسم بالله قسما جهوراً يلزمه الوفاء به ، لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقكم ليوسعنكم ضرباً وتشديداً ، وقتلاً وتبيداً ، وليستعملن السيف في رقابكم ، والنار في منازلكم ومحالككم» (١) .
وأمثال هذه الحادثة كثير في كتب التاريخ .

ثم الخلاف الشديد بين الحنفية والشافعية ، حتى كان يؤول الأمر في بعض الأحيان إلى خراب البلد من جراء هذا الخلاف . يقول « ياقوت » عند الكلام على « أصفهان » بعد أن ذكر مجدها القديم : « وقد فشا فيها الخراب في هذا الوقت وقبله في نواحيها لكثرة الفتن والتعصب بين الشافعية والحنفية ، والحروب المتصلة بين الحزبين ، فكلماً ظهرت طائفة نهبت محلة الأخرى وأحرقتها وخربتها ، لا يأخذهم في ذلك إلّا ولا ذمة ؛ ومع ذلك فقل أن تدوم بها دولة سلطان أو يقيم بها فيصلح فاسدها ، وكذلك الأمر في رساتيقها وقرائها التي كل واحدة منها كالمدينة » .

ويقول عند الكلام على « الرّي » : « كان أهل المدينة ثلاث طوائف : شافعية وهم الأقل ، وحنفية وهم الأكثر ، وشيعة وهم السواد الأعظم ، لأن أهل البلد كان نصفهم شيعة ، وأما أهل الرستاق فليس فيهم إلا شيعة وقليل من

(١) ابن الأثير : ١٠٦/٨ .

الحنفية ، ولم يكن فيهم من الشافعية أحد ، فوَقعت العصبية بين السنة والشيعة فتظاهر عليهم الحنفية والشافعية ، وتطاولت بينهم الحروب ، حتى لم يتركوا من الشيعة من يُعرف ، فلما أفنوهم وقعت العصبية بين الحنفية والشافعية ، ووقعت بينهم حروب كان الظفر في جميعها للشافعية ، هذا مع قلة عدد الشافعية ، إلا أن الله نصرهم عليهم . وكان أهل الرستاق — وهم حنفية — يجهتون إلى البلد بالسلح الشاك ويساعدون أهل نحتهم ، فلم يغنهم ذلك شيئاً حتى أفنوهم^(١) إلى غير ذلك .

اليهود والنصارى :

وربما كانت الدولة الإسلامية في هذا العصر أكثر الأمم تسامحاً مع المخالفين لها في الأديان ، وخاصة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، رغم ما كان يبدو بعض الأحياء من ظلم وعسف كالذي كان في عصر المتوكل ، وقد سبق ذكره ؛ وربما وقع على المسلمين من هذا الظلم ما وقع على غيرهم .

وقديماً كان الامتزاج بين المسلمين واليهود والنصارى حتى في الأسرة الواحدة بما أباح الله للمسلمين أن يتزوجوا بالكتبايات .

ونرى في هذا العصر حركة اليهود والنصارى قد اتسعت عما كانت بسبب كثرة الاتصال التجاري والحربي والعلمي — والمسلمون في كثير من مواقعهم يعدلون بينهم ويفرّبون بعضهم ، حتى لقد عفوا عن المال الذي يتركه النصراني من غير وارث وردّوه إلى أهل ملته ؛ فالحليفة المعتضد « أمر أن ترد تركة من مات من أهل الذمة — ولم يخلف وارثاً — على أهل ملته » استناداً إلى ما أفتى به يوسف بن يعقوب وعبد الحميد بن عبد العزيز القاضيان (كانا بمدينة السلام)

(١) معجم يا قوت : ٣٥٦/٤ .

من أن السنة جرت بأن أهل كل ملة يورثون من هو منهم إذا لم يكن له وارث من ذى رحمه (١) .

وانتشر اليهود والنصارى في نواحي المملكة الإسلامية وأطرافها وداخلها ، فبلغ عدد اليهود في العراق وحدها حول سنة ١١٨٥ م = سنة ٥٨١ هـ على حسب تعداد بعض المؤرخين ستائة ألف وانتشروا في دمشق وحلب ، وعلى شاطئ دجلة والفرات ، وفي جزيرة ابن عمر والموصل والحلة والكوفة والبصرة وهمدان وأصفهان وشيراز وسمرقند . ويقول المقدسي : في خراسان يهود كثيرة ، ونصارى قليلة ؛ وكذلك يقول في همدان .

ويقول الرحالة بنيامين الذي رحل سنة ١١٦٥ م = سنة ٥٦١ هـ : إن في القاهرة سبعة آلاف يهودى ، وفي الإسكندرية ثلاثة آلاف ، وفي الوجه البحري ثلاثة آلاف ، وفي الوجه القبلي ستائة (٢) .

وفي أوائل القرن الرابع كان في بغداد وحدها نحو من خمسين ألفاً من النصارى . ويقول المقدسي في الشام : « إن أكثر الجهابذة والصياغين والصيافة والدباغين بهذا الإقليم يهود ، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى » (٣) .

وانتشرت أديار النصارى في أنحاء المملكة ، وكانت غنية بيسانيتها وخمورها ، واتصل الأدباء بها وأكثروا من القول فيها .

وكان لليهود والنصارى نفوذ كبير في بعض الدول في هذا العصر . وكان المسلمون في أول أمرهم لا يرضون باستخدامهم في شؤون الدولة ؛ فقد روى أنه ذكر لعمر بن الخطاب غلام كاتب حافظ من أهل الحيرة ، وكان نصرانياً ؛ فقيل

(١) كتاب الوزراء للصابي : ص ٢٤٨ .

(٢) ص ١٨٣ .

(٣) نقلاً عن متر .

له : « لو اتخذته كاتباً » ؟ فقال : « لقد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين »^(١) .
فعمد بن الخطاب كان يحسن معاملتهم ولا يستعين بهم في الأعمال ، ولكن
ذلك لم يدم طويلاً ، فاستخدموا في الأعمال من عهد معاوية . وفي عصرنا هذا
الذي تؤرخه كثير استخدامهم ، وزاد سلطانهم ؛ فيقول المقدسي : « وقلمنا
ترى به (الشام) قبيها له بدعة ، أو مسلماً له كتابة ، إلا بطرية فإنها ما زالت
تخرج الكتّاب ، وإنما الكتبة به وبمصر نصارى »^(٢) . وفي القرن الثالث
وَلِي في بعض الأحيان ديوان الجيش نصرائي ، وكان المسلمون يقبلون يده ، قال
الصابي في كتابه الوزراء : « إن علي بن عيسى قال لابن الفرات : ما اتقيت الله في
تقليدك ديوان جيش المسلمين رجلاً نصرائياً ، وجعلت أنصار الدين وحماة البيضة
يقبلون يده ويمثلون أمره ؟ ! فقال له ابن الفرات : ما هذا شيء ابتدأته
ولا ابتدعته ، وقد كان الناصر لدين الله قلد الجيش إسرائيل النصرائي كاتبه ،
وقلد المعتضد ملك بن الوليد النصرائي كاتب بدر !! فقال علي بن عيسى : ما فعلا
صواباً . فقال ابن الفرات : حسبي الأسوة بهما وإن أخطأ علي زعمك »^(٣) .
وذكر « عريب » في كتابه « صلة تاريخ الطبري » في حوادث سنة ٣٢٠
أن « أبا الجمال الحسين بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب كان يسعى
دهراً في طلب الوزارة ، ويتقرب إلى مؤنس وحاشيته ويصانعهم حتى جاز عندهم
وملاً عيونهم ، وكان يتقرب إلى النصرائي الكتّاب بأن يقول لهم إن أهلي
منكم ، وأجدادي من كباركم ، وإن صليماً سقط من يد عبيد الله بن سليمان جده
في أيام المعتضد ، فلما رآه الناس قال : هذا شيء تبرك به عجائزنا فتجعله في ثيابنا

(١) عيون الأخبار : ٤٣/١ . (٢) ص ١٨٣ .

(٣) الوزراء : ٩٥ .

من حيث لا نعلم — تقريباً إليهم بهذا وشبهه — يعنى إلى مؤنس وأصحابه» (١) .
وكان لعضد الدولة البويهى فى بغداد وزير نصرانى اسمه نصر بن هارون ؛
وقد أذن له عضد الدولة فى عمارة البيع والديرة وإطلاق الأموال لفقراء النصارى (٢)
وثارت لذلك مسألة فقهيّة ، وهى : هل يجوز أن يكون الوزير من أهل الذمة
أم لا ؟ فقال صاحب « العقد الفريد للملك السعيد » : « وهل يشترط فى هذا
الوزير (أى وزير التنفيذ لا وزير التفويض) « الإسلام » ، حتى لو أقام السلطان
وزير تنفيذ من أهل الذمة كان جائزاً أم لا ؟ اختلفت آراء الأئمة فى ذلك ؛ فذهب
عالم العراق الإمام أبو الحسن على بن حبيب البصرى رحمه الله إلى جوازه ؛
وذهب عالم خراسان إمام الحرمين أبو المعالى الجوينى إلى منعه ، وعد تجوز
ذلك من عالم العراق عثرة لن تقال ، وخطأ فيما قال ؛ وهذا بخلاف وزارة التفويض
فإن هذه الشروط معتبرة من جملة ما تقدم بيانه من الأوصاف فى حق المباشر
لها (٣) . واتسعت سلطة اليهود والنصارى فى أيام الفاطميين بمصر ، فمن أشهرهم
يعقوب بن كلّس . قال ابن عساكر : « إنه كان يهودياً من أهل بغداد خبيثاً
ذا مكر ، وله حيل ودهاء ، وفيه فطنة وذكاء . ونزل مصر أيام كافور الأخشيدى
فرأى منه فطنة وسياسة ومعرفة بأمر الضياع ؛ فقال : لو كان مسلماً لصلح أن
يكون وزيراً ! فطمع فى الوزارة فأسلم ... ثم هرب إلى المغرب واتصل بيهود كانوا
مع المعز وخرج معه إلى مصر » ، « وولى الوزارة للعزير نزار بن المعز وعظمت
منزلته عنده ، وأقبلت عليه الدنيا ، واتثال الناس عليه ولازموا بابه ؛ وهدد قواعد

(١) عمرب : ٨٥ . (٢) ابن الأثير ٨/٢٥٥ .

(٣) ص ١٤٧ ، والفرق بين الوزارتين أن وزير التفويض هو أن يفوض السلطان إلى
الوزير تدبير المملكة والدولة برأيه ، ويجعل إليه إمضاء أمورهما بمقتضى نظره ؛ وأما وزير
التنفيذ فسلطته تنفيذ ما يأمر به السلطان ، والأولى بالبداهة أهم .

الدولة وساس أمرها أحسن سياسة ، ولم يبق لأحد معه كلام»^(١) .
وكان ابن كلّس يأخذ من العزيز في كل سنة مائة ألف دينار ، ووجد له
من العبيد والماليك أربعة آلاف غلام ، ووجد له جوهر بأربعمائة ألف دينار ،
وبرّ من كل صنف بخمسمائة دينار^(٢) . وأكثر الشعر من مدائحه . قال ابن
خلكان : ولقد نظرت في ديوان أبي الرعمق الشاعر فوجدت أكثر مدحه في
الوزير المذكور ، وفيه يقول من قصيدة :

كل يوم له على نُوب الدهر وكرب الخطوب بالبذل غاره
ذو يدٍ شأنها الفرار من البخل وفي حومة الندى كراهه
فاستجره فليس يأمن إلا من تقيًا ظلاله واستجاره
وإذا ما رأته مطرقًا يُعمل فيما يريده أفكاره
لم يدع بالذكاء والدهن شيئًا في ضمير الغيوب إلا آثاره
لا ولا موضعًا من الأرض إلا كان بالرأى مدركا أقطاره
زاده الله بسطة وكفاهُ خوفه من زمانه وحذاره
« وفي أيام العزيز نزار كان بمصر شاعر اسمه الحسن بن بشر الدمشقي ، وكان
كثير الهجاء ، فهجى يعقوب بن كلّس وزير العزيز وكاتب الإنشاء من جهته
أبا نصر عبد الله الحسين القيرواني :

قل لأبي نصر صاحب القصر والمتأني لنقض ذا الأمر
انقض عرا الملك للوزير تفز منه بحسن الثناء والذكر
وأعط وامنع ولا تخف أحداً فصاحب القصر ليس في القصر

(١) ابن خلكان : ٤٩١/٢ وما بعدها .

(٢) ابن خلكان : ٤٤٩/٢ .

وليس يدري ماذا يُراد به وهو إذا مادري فما يدري
ثم قال أيضاً وعرض بالفضل القائد :

تنصّر فالتنصّر دين حقّ عليه زماننا هذا يدك
وقل بثلاثة عزّوا وجلّوا وعطلّ ما سواهم فهو عطلّ
فيعقوب الوزير أبّ وهذا الـ مزيان وروح القدس فضل^(١)

وقد ولّى العزيز نزار أيضاً عيسى بن نسطورس النصراني كتابته ، واستتاب
بالشام يهوديا اسمه منشا ، فاعتز بهما النصراري واليهود وآذوا المسلمين ، فعمد أهل
مصر وكتبوا قصة وجعلوها في صورة عملوها من قراطيس ، فيها : بالذي أعز اليهود
منشا ، والنصارى بعيسى بن نسطورس ، وأذل المسلمين بك إلا كشفت ظلامتي ؛
وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز والرقعة بيدها ؛ فلما رآها أمر بأخذها ،
فلما قرأ ما فيها ورأى الصورة من قراطيس علم ما أريد بذلك فقبض عليهما ،
وأخذ من عيسى ثلاثمائة ألف دينار ، ومن اليهود شيئا كثيرا^(٢) . ولكن الحاكم
بأمر الله اضطهد النصارى واليهود في بعض نزواته ، فأمرهم بشد الزنار ولبس
الغيار ، « وألبس اليهود العمام السود ، وأمر ألا يركبوا مع المسلمين في سفينة ،
وألا يستخدموا غلاما مسلما ، ولا يركبوا حمار مسلم ، ولا يدخلوا مع المسلمين حماما ،
وجعل لهم حمامات على حدة ؛ ولم يبق في ولايته دورا ولا كنيسة إلا هدمها »^(٣) ،
« وأمر النصارى بأن تعلق في أعناقهم الصلبان ، وأن يكون طول الصليب ذراعا
وزنته خمسة أرتال بالمصرى ؛ وأمر اليهود أن يحملوا في أعناقهم قرّام الخشب
في زنة الصلبان »^(٤) ، « ومنع النصارى من ركوب الخيل ، وأن يكون ركوبهم

(٢) ابن الأثير : ٤٢/٩ .

(١) ابن الأثير : ٤٣/٩ .

(٤) ١٧٨ .

(٣) النجوم الزاهرة : ١٧٧/٤ .

البغال والحمير بسروج الخشب ، والسيور السود بغير حلية ، وأن يشدوا الزناير ، ولا يستخدموا مسلماً ، ولا يشترؤا عبداً ولا أمة ، وتُتبع آثامهم في ذلك فأسلم منهم عدة»^(١) ؟ ومع هذا فكان الكتاب والأطباء في قصره من النصارى . وتولى الوزارة سنة ٤٣٦ للمسنصر بمصر « صدقة بن يوسف » وكان يهودياً فأسلم ، وكان معه أبو سعد التستري اليهودى يدبر الدولة ، فقال بعض الشعراء :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالمهم وقد ملكوا
العزيز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إني نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك^(٢)

هذه العناصر الجنسية من أتراك و فرس و عرب و روم و زنج و غيرهم ، وما تستلزم من عصبية ، وهذه العصبية المذهبية والطائفية من تسنن و تشيع ، ومن حنابلة و شافعية و حنفية ، ومن مسلمين و يهود و نصارى ، وغير ذلك كانت كلها حركات تموج بها المملكة الإسلامية ، تتعاون حيناً ، وتتفاعل حيناً ، وتؤثر في السياسة وفي الدين وفي العلم ، وتنشأ عنها المؤامرات السرية أحياناً ، والقتال الصريح أحياناً ؛ وكان لها كلها أثر واضح في كل ناحية من النواحي الاجتماعية : قد أثرت في الحالة المالية إما مباشرة وإما من طريق الحكم والسياسة ، فعمرت في ناحية وخربت في أخرى ، وعدلت في ناحية وظلمت في أخرى . وأثرت في اللغة والأدب بدخول الأعجم يتكلمون بلغاتهم ، ويتعلمون اللغة العربية ويحملونها أفكارهم وآدابهم .

(١) خطط القرظي : ٢٨٧/٢ .

(٢) حسن المحاضرة : ١١٧/٢ . وقد استغدت من إشارات للأستاذ متر إلى كثير

من هذه المصادر .

وأثرت في المرأة بكثرة الأجناس المختلفة ذوات الخصائص المختلفة ، وقد حمل النساء من هذه الأجناس خصائص الجمال والقبح في المظهر وفي الأخلاق وفي العادات ، وغزون البيوت بما كان يعرضه النخاسون منهن في سوق الرقيق ، وبما كان يحمله الغزاة معهم في حروبهم مع الروم ومع الترك ومع الفرس ومع الزنج ، وما كانوا يوزعون على الجنود وعلى الأهل والأقارب ، وما كانوا يتخلون عنه فيعرضونه في الأسواق .

وأثرت في الدين من كثرة الجدل بين الفقهاء ، ومن إثارة مسائل يدعو إليها هذا الجدل لم تكن معروفة من قبل ، ومن تدخل السياسة في الأمور الدينية والاتجاه إلى الفقهاء يسألونهم الحلول الفقهية فيما يعرض لهم من مشا كل سياسية واجتماعية ؛ وبما أثاره النزاع الشديد بين السنة والشيعة ، وغلبة التشيع في بعض الأماكن وتكوين دول شيعية لم تكن في العصور الماضية ، فدعاها ذلك إلى أن تبلور التشيع وتستعمل عقولها في إيجاد نظام الحكم والدعوة التي تتفق وأصول الشيعة كما حصل ذلك في الدولة الفاطمية — وبما كان من الاحتكاك الشديد بين المسلمين واليهود والنصارى ، وما كان بينهم من تسامح أحياناً ، وخصومة أحياناً ، وما كان من جدل ديني بين هذه الطوائف ، وما أثارته هذه الظروف المختلفة من مسائل طائفية تعرض على الفقهاء فيبدون فيها آراءهم في ضوء الحوادث الجديدة .

وأثرت في العلم بما كان يحمله النصارى واليهود والفرس والهنود من علوم آبائهم ، وجدهم في تقديم هذه الذخائر إلى الأمة الإسلامية باللغة العربية مما مكن الناطقين باللسان العربي أن يأخذ كل منهم حظه منها ، ويهضمه ما استطاع ويزيد عليه ما استطاع . وتتعاون على الاستفادة منها وترقيتها العقول العربية والتركية والفارسية والرومية والهندية ، ويؤلف بينها العلم بعد أن فرقت بينها

العصبيات الجنسية والمذهبية ؛ فيأخذ اليهودي والنصراني من العالم المسلم ، ويأخذ المسلم من العالم اليهودي والنصراني ، ويجلس الفارسي والتركي والهندي في حلقة العربي ، ويتعاون الجميع في بناء الدولة العلمية غير آبهين بما كان من السياسة في تهديم الدولة من ناحيتها السياسية .

كل هذا وأمثاله كان من آثار هذه الحركات المختلفة ، وكل ما ذكرته إشارة خاطفة لما كان لها من أثر قوي فعّال سنحاول بعد شرح بعضه .

الباب الثاني

أهم المظاهر الاجتماعية والسياسية في ذلك العصر

(١) انقسام الرونة — أهم مظهر يأخذ بالأبصار في ذلك العصر ما حصل للدولة الإسلامية من الانقسام ؛ فقد كانت المملكة الإسلامية كلها في العصر العباسي الأول — إذا استثنينا الأندلس وبعض بلاد المغرب — تكون كتلة واحدة ، وتخضع خضوعاً تاماً للخليفة في بغداد ؛ هو الذي يعين ولايتها ، وإليه يجبي خراجها ، وإليه ترجع في إدارتها وقضاؤها وجندھا وحل مشاكلها ، وتدعوله على المنابر وتضرب السكة باسمه ، ونحو ذلك من مظاهر السلطان . ثم أخذ هذا السلطان يقل شيئاً فشيئاً بضعف الخلافة حتى تمرقت المملكة كل ممزق ، وأخذت الأقطار الإسلامية تستقل عن بغداد شيئاً فشيئاً ، وأخذ يخشى ولايتها وأمرؤها بعضهم بأس بعض ، ويضرب بعضهم بعضاً ؛ فصارت المملكة الإسلامية عبارة عن دول متعددة مستقلة ، علاقة بعضها مع بعض علاقة محالفة أحياناً وعداء غالباً ؛ وأصبح لكل دولة مالها وجندھا وإدارتها وقضاؤها وسكاتها وأميرها ، إن اعترف بعضها بالخليفة في بغداد حيناً من الزمن ، فاعتراف ظاهري ليس له أثر فعلي ! وسودت صحف التاريخ بالقتال المستمر بين هذه الدول ، وشغلوا بقتال أنفسهم عن قتال عدوهم ؛ ومن أجل هذا طمع فيهم الروم يغزونها كل حين ويستولون على بلادهم شيئاً فشيئاً ، حتى الزنج والحبشة كانوا يغيرون على الدولة الفينة بعد الفينة فينبهون ويسلبون ، ولم تعد المملكة الإسلامية محشية الجانب كما كانت أيام وحدتها .

ففي سنة ٣٢٤ هـ كانت البصرة في يد ابن رائق ؛ وفارس في يد علي بن بويه ؛ وأصبهان والرى والجيل في يد أبي علي الحسن بن بويه ؛ والموصل وديار بكر وربيعة في أيدي بني حمدان ؛ ومصر والشام في يد الأخشيديين ؛ وإفريقية والمغرب في يد الفاطميين ؛ وخراسان وما وراء النهر في يد السامانيين ؛ وطبرستان وجرجان في يد الديلم ؛ وخوزستان بيد البريدي ؛ والبحرين واليمامة وهجر بيد القرامطة ، ولم يبق للخليفة إلا بغداد وما حولها ، وحتى هذه لم يكن له فيها إلا الاسم .

وقد أجاد المسعودي في ملاحظته وجه الشبه بين حالة المملكة الإسلامية بعد هذا الانقسام ، ومملكة الإسكندر المقدوني بعد وفاته فقال : « ولم نعرض لوصف أخلاق المتقي والمستكفي والمطيع ومذاهبهم ، إذ كانوا كالموتى عليهم ، لا أمر ينفذ لهم ، أما ما نأى عنهم من البلدان فتغلب على أكثرها المتغلبون ، واستظفروا بكثرة الرجال والأموال ، واقتصروا على مكاتبتهم بإمرة المؤمنين والدعاء لهم ؛ وأما بالخرقة (بغداد) فتفرد بالأمور غيرهم فصاروا مقهورين خائفين ، قد قنعوا باسم الخلافة ورضوا بالسلامة . وما أشبه أمور الناس في الوقت إلا بما كانت عليه ملوك الطوائف بعد قتل الملك الإسكندر بن فيلبس دأرا ملك بابل إلى ظهور أردشير بن بابك ، كلّ قد غلب على صقععه يحامى عنه ، ويطلب الازدياد إليه مع قلة العارة وانقطاع السبل ، وخراب كثير من البلاد ، وذهاب الأطراف ، وغلبة الروم وغيرهم من الممالك على كثير من ثغور الإسلام ومدنه »^(١) .

كان كثير من الدول يعترف بالخلافة وسلطتها الدينية ، فهي إذا استقلت سياسياً ومدنياً رأت مما يزيد لها سلطة وقوة اعترافها بالخليفة واعتراف الخليفة بها ،

(١) المسعودي في كتابه التنبيه والإشراف ص ٤٠٠ .

كما فعل عضد الدولة بن بويه مثلاً لما فتح كِرمَان ، فقد استرضى الخليفة فأفند إليه الخليفة عهده وخِلعَه من الطوق والسوارين^(١) .
ومع مضي الزمن وضعف الخلافة قطعوا هذه الصلة أيضاً وتلقبوا بإمرة المؤمنين أو بالخلفاء . وأول من فعل ذلك الفاطميون ، فبعد أن فتحوا القيروان سنة ٢٩٧ تلقبوا بالخلفاء ، وشجعهم على ذلك أنهم شيعة يقولون باغتصاب الأمويين والعباسيين حقهم في الخلافة ، فلما تملكوا حققوا نظريتهم في أحقيتهم فتمسّوا بالخلفاء — فلما رأى الأندلسيون ذلك قلدوهم مع أنهم سنيون ، فتلقب عبد الرحمن الناصر أمير الأندلس بأمير المؤمنين نحو سنة ٣٥٠ ، وكانوا يلقبون من قبله بالأمرء ، وبنى الخلفاء . قال المقرئ : « هو أول من تسمى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين عند ما التاث أمر الخلافة بالشرق ، واستبد موالى الترك على بنى العباس ، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة ٣١٧ ، فتلقب بألقاب الخلافة »^(٢) .

وهنا يصح لنا أن نتساءل سؤالين : الأول : هل كان انقسام المملكة الإسلامية إلى أقسام على النحو الذي أبتنا في مصلحة الأقطار الإسلامية أو في غير مصلحتها ؟ قد يبدو هذا السؤال غريباً ، لأن الناس اعتادوا أن يقيسوا رقي المملكة الإسلامية بوحدتها وضعفها بانقسامها ، وبعبارة أخرى ربطوا رقي المملكة الإسلامية بخليفة ؟ فإذا كان الخليفة قويا باسطة سلطانه على الأقطار كلها ، فالدولة قوية ، وإلا فهي ضعيفة .

وفي رأيي أن هذا مقياس غير صحيح ؛ فقد يضعف الخليفة وتصلح الأقطار

(١) تجارب الأمم : ٢٥٣/٦ .

(٢) فتح الطيب : ١٦٦/٢ ، ويلاحظ عليه أن قتل المقتدر كان سنة ٣٢٠ لا سنة

٣١٧ كما ذكره .

والعكس . وهذا ما حدث فعلا ، ففي رأي أن كثيراً من الأقطار الإسلامية كانت بعد استقلالها عن الخلافة في بغداد خيراً منها قبله ؛ فيظهر لي أن مصر تحت حكم الطولونيين والأخشيدين والفاطميين كانت حالتها أسعد منها أيام ولاية بغداد قبل الطولونيين ؛ وكذلك حكم السامانيين لفارس وما وراء النهر كان خيراً من حكم من سبقهم من ولاية العباسيين ، وربما كان شر أيام بغداد هو هذه الأيام التي كانت تخضع فيها للخلفاء ، وما حولها مستقل عنها .

فإذا قسنا الأمور بمصلحة الحكوميين لا الخلفاء — وهو في نظري أصح مقياس — كان هذا الانقسام في مصلحة الأقطار المستقلة في أغلب الأحوال ، وعلى الأقل كان في مصلحتهم نسبياً ، أعني بالنسبة للحالة السيئة التي كانوا عليها قبل استقلالهم ، فالإدارة وانتفاع كل قطر بماله يصرفه في مصالحه والعدالة النسبية في توزيع الثروة ونحو ذلك ، كلها كانت خيراً منها أيام سلطة الخلفاء الضعفاء ومن يتولاها من الأتراك الأقوياء .

والأندلس لما أتيح لها الاستقلال في بدء العصر العباسي ، ومنعتها قوتها وبعدها من أن يخضعها العباسيون لحكمهم ، أزهرت وتمدنت وساهمت في بناء المدنية ، في العلم والأدب والحضارة ، وما أظن أنها كانت تبلغ هذا المبلغ لو عاشت في أحضان الدولة العباسية .

نعم ! إنهم — وقد تفرقوا — أصبحوا أضعف أمام العدو الخارجي كالروم ، وصار يحمل العبء كله دويلة مستقلة كدولة الحمدانيين ، وكان يحمل العبء قبل الملكة الإسلامية ، فمن هذه الناحية كان هذا مظهر ضعف للدولة ، خصوصاً والدول المستقلة لم تستطع أن تتفاهم ، وترتب بينها نظاماً مشتركاً يضمن دفع غارة الأعداء الخارجيين ، لأن هذا النظام يتطلب رقياً في الفكر ، وضبطاً للعواطف ،

وتقدماً للمصلحة العامة على الخاصة ؛ وهي درجة لم يستطع المسلمون الوصول إليها حتى الآن ! إنما كانت علاقة كل دولة مسلمة بجارتها المسلمة علاقة عداء غالباً ، فلم يتمكنوا من التفاهم على مصالحهم الداخلية فضلاً عن المصالح الخارجية ، ولو استطاعوا — مع استقلالهم — أن ينظموا شؤونهم مع من بجوارهم ، وينظموا صفوفهم أمام عدوهم الخارجي لبلغوا الغاية . ولكنني مع هذه الشرور كلها أرى أن حالة كثير من البلدان الإسلامية نالت باستقلالها من الطمأنينة والرخاء ما لم تنعم به في الأيام الأخيرة لتبعتها بغداد .

والسؤال الثاني : ما موقف العلم والأدب بعد هذا الانقسام ، هل أثر فيهما أثراً حسناً أو سيئاً ؟ وهل انحط العلم والأدب بانحطاط خلفاء بغداد أو رقياً باستقلال الأقطار ؟

أرى أن العلم والأدب رقياً عما كانا عليه قبل ، وأنه لم يؤثر فيهما كثيراً ضعف خلفاء بغداد ؛ ذلك أن حركة الترجمة التي نقلت ذخائر الأمم المختلفة وخصوصاً الأمة اليونانية ، وضعت أمام أعين المسلمين ثروة علمية هائلة باللسان العربي ، فكانت الخطوة الثانية أن تتوجه إليها الأفكار العربية تفهمها وتشرحها وتهضمها وتبتكر فيها وتزيد عليها ؛ وهذا ما فعله عصرنا هذا كما سيأتي بيانه . ومن جهة أخرى كان وضع السلطة كلها في يد الخليفة يجعل بغداد المركز العلمي الوحيد ، أو على الأقل المركز العلمي والأدبي الهام ، وما عداه فآثر ضعيف ، فكان من تفوق في علم أو أدب فلا أمل في شهرته ونبوغه ، وذيوع صيته وثورته ، إلا إذا رحل إلى بغداد وتقرّب بعلمه وأدبه إلى خلفائها وأمرائها ؛ فلما استقلت الأقطار أصبحت كل عاصمة قطر مركزاً هاماً لحركة علمية وأدبية ، فأمرء القطر يعطون عطاء خلفاء بغداد ، ويحتلون عاصمتهم بالعلماء والأدباء ، ويفخرون

أمرء الأقطار الأخرى في الثروة العلمية والأدبية ، كما يتفاخرون بعظمة الجند وعظمة المباني . فبدل أن كان للعلم والأدب مركز واحد هام أصبحت لهما مراكز هامة متعددة ، وأصبح علماء مصر — مثلاً — يساجلون علماء بغداد ، وأدباء الشام يفخرون على أدباء العراق ، وهذا من غير شك يشجع الحركة العلمية والأدبية ويقويها ويرقيها .

وحتى نرى الأمراء الأتراك الذين لا يحسنون العربية يحبون أن تزين قصورهم بالعلماء والأدباء .

ومن ظريف ما يحكى في ذلك أن بجكم التركي كان بواسط ، وكان من المقرين إليه أبو بكر محمد بن يحيى الصولي ، وكان بجكم لا يحسن العربية ، فاستدعى يوماً الصولي وقال له : إن أصحاب الأخبار رفعوا إليّ أني لما طلبتكم من المسجد (وكان الصولي يقرأ درساً في المسجد) قال الناس : أعجله الأمير ولم يتم مجلسنا ، أفتراه يقرأ عليه شعراً أو نحواً أو يسمع من الحديث ؟ (يقولون ذلك تهكماً ببجكم لأنه لا يحسن العربية) ؛ ثم قال بجكم رداً على هذا : « أنا إنسان ، وإن كنت لا أحسن العلوم والآداب أحب ألا يكون في الأرض أديب ولا عالم ولا رأس في صناعة إلا كان في جنبتي وتحت اصطناعي وبين يدي لا يفارقتي » (١) .

ولعله بهذا القول يعبر عما في نفس كل أمير في كل إقليم .
ومن أجل هذا كان مؤرخ العلم والأدب قبل الاستقلال يجد نفسه أمام ثروة كبيرة علمية وأدبية في العراق ، ثم لا يجد إلا تنقلاً قليلة منها في تاريخ غيره ؛ أما بعد الانقسام فلكل إقليم شخصية متميزة في علمها وأدبها ، وإن كانت على اتصال بغيرها .

(١) الأوراق : أخبار الرضى والمتق للصولي ص ١٩٥ .

على أنا إن سلطنا فرضاً أن الحياة السياسية بعد الانقسام كانت شرّاً منها
قبله ، فلا نسلم ذلك في العلم والأدب . والتاريخ يرينا أن الحالة العلمية لا تتبع
الحالة السياسية ضعفاً وقوة ؛ فقد تسوء الحالة السياسية إلى حد ما وترهز بجانبها
الحياة العلمية ؛ ذلك لأن الحياة السياسية إنما تحسن بتحقيق العدل ونشر الطمأنينة
بين الناس ، ومع هذا فقد يحمل الظلم كثيراً من عطاء الرجال وذوى العقول
الراجعة أن يفروا من العمل السياسي إلى العمل العلمي ، لأنهم يجدون العمل
السياسي يعرضهم لمصادرة أموالهم ، وأحياناً إلى إزهاق أرواحهم ، على حين أن
العمل العلمي يحيطهم بجو خاص هادي مطمئن ، ولو كان الجو العام مأجماً مضطرباً .
وكذلك كان الحال في تاريخ كثير من علماء المسلمين ، جربوا الوزارة وولاية
الأعمال فتعرضوا للخطر فهربوا إلى العلم فنجحوا — وأيضاً فقد وقر في نفوس
الخلفاء والأمراء حرمة العلماء ، متى لم يتعرضوا للسياسة من قريب ولا بعيد ،
وهذا يمكنهم من بحمهم العلمي في هدوء وطمأنينة على الرغم مما يحيط بهم من فوضى
واضطراب . لقد كان الفارابي مثلاً في جو سياسي مضطرب ، سواء كان في حلب
بين الحمدانيين ، أو في بغداد في حكم الأتراك ، ومع ذلك خلق لنفسه ، ولبن حوله
من تلاميذه حمى يرقى فيه علمه وبحثه ، وإذا عصفت العواصف كانت حول
حماه ولا تغشاه ، لا يهيمه في حياته إلا علمه ؛ أما ما عداه من أفانين السياسة
والأعيانها ، وشؤون الدنيا وشهواتها فلا يأبه بها ويقول :

أخى خَلَّ حَيِّزٌ ذِي بَاطِلٍ وَكَانَ لِلْحَقِيقَةِ فِي حَيِّزٍ
فَمَا الدَّارُ دَارَ مَقَامٍ لَنَا وَمَا المرءُ فِي الأَرْضِ بِالمعْجَزِ
يَنَافِسُ هَذَا هَذَا عَلَيَّ أَقْلٌ مِنَ الكَلِمِ المَوْجَزِ
مِحِيطُ السَّمَاوَاتِ أَوْلَى بِنَا فَمَاذَا التَّنَافُسُ فِي مَرَكِزِ !

وأبو العلاء المعري يترك الدنيا مضطربة في المعرة وما حولها ، وفي بغداد وما حولها ، ويخلق لنفسه جواً علمياً فكرياً هادئاً لا نزاع فيه إلا على مسألة علمية أو مشكلة لغوية ؛ أو فكرة فلسفية ، لا علاقة له بأمر إلا أن يتشفع عنده في بلده فيشفع ، ولا علاقة له بوزير إلا أن يستفتيه في مسألة علمية فيجيب — وهكذا سيرة كثير من العلماء ، فلم لا يرقى العلم في هذه الأجواء الهادئة مهما أحاط بها من ظروف عاصفة !؟

وحتى الذين اکتبوا بالسياسة من قرب أو بعد ، كالصولي والصابي وابن العميد ، قد أفادوا العلم والأدب بانغماسهم في الحياة السياسية ، وإن احترقوا بنارها . وما لنا نذهب بعيداً ، وهذا عصر النهضة العلمية والأدبية في أوروبا كانت الأفكار فيه تبحث وتنتج وتبتكر ، والجو السياسي حولها أسوأ ما يكون نزاعاً وفساداً وظلماً ، فلما خبطت الأفكار العلمية والأدبية خطواتها كانت هي التي تصلح الجو السياسي ، لا أن الجو السياسي يخنقها .

والخلاصة أن الحالة العلمية في أواخر القرن الثالث وفي القرن الرابع ، كانت أنضج منها في العصر الذي قبله : أخذ علماء هذا العصر ما نقله المترجمون قبلهم فشرحوه وهضموه ؛ وأخذوا النظريات المبعثرة فرتبوها ؛ وورثوا ثروة من قبلهم في كل فرع من فروع العلم فاستغلوها ، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله .

(٢) الترف والبؤس ، واللهو والمجد — حينما نظرنا إلى كل قطر من أقطار العالم الإسلام في ذلك العصر رأينا الثروة غير موزعة توزيعاً عادلاً ولا متقاربا ، ورأينا الحدود بين الطبقات واضحة كل الوضوح ، فجنة ونار ، ونعيم مفترط ، وبؤس مفترط ، وإمعان في الترف يقابله فقدان القوت .

وهذا الترف والنعيم حظ عدد قليل هم الخلفاء والأمراء ومن يلوذ بهم من

لأدباء والعلماء ، وبعض التجار ؛ ثم البؤس والشقاء والفقراً أكثر الناس . وحتى
غنى الأغنياء في كثير من الأحيان ليس محصّناً بالأمان ، فهو عرضة لغضب
لأقران أو غضب ذى السلطان الأعلى ، فيصادرون في أموالهم ، ويصبح حالهم
أشدّ بؤساً من فقير نشأ في الفقر ؛ وقد مرت بنا أمثلة من هذا القبيل .

والآن نصور بعض صور توضح الحالين .

فقصور الخلفاء والأمراء وأمثالهم واسعة كل السعة ، مترفة كل الترف ؛
فابن المعتز يصف في ديوانه أبنية للخليفة المعتضد اسمها الثريا فيقول :

حلّت « الثريا » خير دار ومنزل فلا زال معموراً وبُورك من قصر
فليس له فيما بنى الناس مثبتهً ولا ما بناه الجن في سالف الدهر

جنانٌ وأشجار تلاقَت غصونها فأورقن بالأثمار والورق الخضر
ترى الطيرَ في أغصانهن هواتفاً تنقلُ من وَكرٍ لهن إلى وَكر

وبنيان قصر قد علت شرفاته كصفّ نساءٍ قد تربعن في الأزرق
وأنهار ماء كالسلاسل فُجرت لترضع أولاد الرياحين والزهر
وميدان وحش تركض الخيل وسطه فيؤخذ منها ما يشاء على قدر
عطايا إلهٍ منم كان عالماً بأنك أوفى الناس فيهن بالشكر

واشتهر من الأبنية كذلك قصر « التاج » ، ابتدأ في بناءه المعتضد أيضاً ،
ثم عدل عنه وبنى « الثريا » ؛ فلما تولى ابنه المكتفي أتم بناء « التاج » ،
واستعمل في بناءه الأجر من قصر كسرى الذى بقى منه إلى الآن إيوانه . وكانت

وجهة التاج مبنية على خمسة عقود كل عقد على عشرة أساطين ، وكانت غاية في السعة والضخامة .

وكلا البنائين : التاج والثريا ، كانا في الجانب الشرقي من بغداد^(١) . وقبل ذلك عظم البناء في سامرا ، وبنى المتوكل فيها الأبنية الضخمة ، حتى ليذكر ياقوت ثبثاً بيان ما بناه ونفقته فيقول :

« ولم بين أحد من الخلفاء بسر من رأى من الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل ، فمن ذلك القصر المعروف بالعرُوس أنفق عليه ثلاثين ألف ألف درهم ؛ والجعفرى عشرة آلاف ألف درهم ؛ والغريب عشرة آلاف ألف درهم ؛ والشيدان عشرة آلاف ألف درهم ؛ والبرج عشرة آلاف ألف درهم ؛ والصبح خمسة آلاف ألف درهم ؛ والمليح خمسة آلاف ألف درهم ؛ وقصر بستان الإيتاخية عشرة آلاف ألف درهم . . . » إلى آخر ما ذكر ، إلى أن قال : « فذلك الجميع مائتا ألف ألف وأربعة وتسعون ألف ألف درهم ؛ وقد قال علي بن الجهم في وصف الجعفرى أحد قصور المتوكل :

وما زلت أسمع أن الملو ك تبنى على قدر أقدارها
وأعلم أن عقول الرجا ل تُقضى عليها بآثارها
فما رأينا بناء الإمام رأينا الخلافة في دارها
بدائع لم ترها فارس ولا الروم في طول أعمارها
وللروم ما شيد الأولون وللفرس آثار أحرارها
وكنا نحس لها نخوة فطامنت نخوة جبارها
وأنشأت تحتج للمسلمين على ملحدتها وكفارها

(١) انظر معجم ياقوت في مادتي الثريا والتاج .

صُحُونُ تسافر فيها العيون إذا ما تجلّت لأبصارها
وقبّة ملك كأن النجوم تضيء إليها بأسرارها
نظمن الفسّافس نظم الحليّ لعون النساء وأبكارها
لو أن سليمان أدّت له شياطينه بعض أخبارها
لأيقن أن بني هاشم تقدمها فصل أخطارها

وللبحتري قصائد في وصف بركتها ومحاسنها .

وبلغت سامراً في الحضارة شأواً بعيداً حتى أفسدها وخرّبها الخلاف
والعصبية بين أمراء الأتراك ، وتحول عنها الخلفاء إلى بغداد ؛ وكان أول من
فعل ذلك المعتضد بالله ، فقد حول العمران إلى بغداد وبنى بها الثريا والتاج .
وقد وصف الخطيب البغدادي قصر المقتدر بالله ، الذي تولى من (٢٩٥ -
٣٢٠) ، بمناسبة زيارة رسول من الروم له ، فقال : إنه كان للمقتدر أحد عشر ألف
خادم خصي ، وكذا من صقلبي ورومي وأسود - وهذا جنس واحد ممن
تضمه الدار ، فدع الآن الغلمان الحجرية وهم ألوف كثيرة والحواشي من الفحول .
وقد أمر المقتدر أن يطاف بالرسول في الدار وفتحت الخزان ،
والآلات فيها مرتبة كما يفعل الخزان العروس . وقد علق الستور ، ونظم جوهر
الخلافة في قلايات على دُرُجٍ غشيت بالديباج الأسود . ولما دخل الرسول إلى
دار الشجرة ورآها كثر تعجبه منها ؛ وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة
ألف درهم ، عليها أطيّار مصنوعة من الفضة تصفر بحركات قد جعلت لها ،
فكان تعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده وكان
عدد ما علق في القصور من الستور الديباج المذهبة بالطرز الذهبية الجليلة ،
المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع والطرود ، والستور الكبار

البضغائية والأرمنية والواسطية والبهنسية السواذج والمنقوشة والديبقية المطرزة ثمانية وثلاثين ألف ستر... وأدخل رسل صاحب الروم إلى الدار المعروفة بخان الخليل ، وهي دار أكثرها أروقة بأساطين رخام ، وكان فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهباً وفضة بغير أعشيشة ؛ ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج بالبراقع الطوال ، وكل فرس في يد شاكري بالهزة الجميلة . ثم أدخلوا دار الوحش ، وكان فيها من أصناف الوحش التي أخرجت إليهم قطعان تقرب من الناس وتتشممهم وتأكل من أيديهم ؛ ثم أخرجوا إلى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشى ، على كل فيل ثمانية نفر من السند والزرايين بالنار ، فهال الرسل أمرها ؛ ثم أخرجوا إلى دار فيها مائة سبع : خمسون يمنة وخمسون يسرة... ثم أخرجوا إلى الجوسق المحدث ، وهي دار بين بساتين ، في وسطها بركة رصاص قلعي^(١) حوالها نهر رصاص قلعي أحسن من الفضة المجلوة ، طول البركة ثلاثون ذراعاً في عشرين ذراعاً ، فيها أربع طيارات لطاف بمجالس مذهبة... وحوالي هذه البركة بستان يميادين فيها نخل ، وعدده أربعمائة نخلة ، وطول كل واحدة خمسة أذرع ، قد لبس جميعها ساجاً منقوشاً من أصلها إلى حد الجمارة بحلق من شبه مذهبة... وفي جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ، قد ألبسوا الديباج وغيره ، وفي أيديهم مطارد على زماح يدورون على خط واحد في الناورد جنباً وتقريباً ، فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد ؛ وفي الجانب الأيسر مثل ذلك .

ثم أخرجوا — بعد أن طيف بهم ثلاثة وعشرين قصراً — إلى الصحن التسعيني ، وفيه الغلمان الحجرية بالسلاح الكامل .

(١) القلع نوع من المعدن ينسب إليه الرصاص .

ثم وصلوا إلى حضرة المقتدر بالله وهو جالس في « التاج » مما يلي دجلة ، بعد أن لبس بالثياب الدبيقية المطرزة بالذهب ، على سرير آبنوس قد فرش بالديبق المطرز بالذهب ، وعلى رأسه الطويلة ؛ ومن يمينه السرير تسعة عقود مثل السبح معلقة ، ومن يسرته تسعة أخرى من أفر الجواهر وأعظمها قيمة غالبه الضوء على ضوء النهار ؛ وبين يديه خمسة من ولده : ثلاثة يمينه ، واثنان يسرة (١) .

ولعل هذه الصورة خير وصف لتصور الخلفاء في ذلك العصر .
والخلفاء من أول العصر العباسي يعاين كل خليفة ما قبله درجة أو درجات في الترف والنعيم والإمعان في فنون الحضارة ، والأغنياء يتبعونهم في ذلك على قدر مواردهم ، سائرين على حكم الزمان .

ولذلك لما جاء المهتدي بالله (٢٥٥ - ٢٥٦) ، ونزع نزعته إلى الزهد استغرب منه ذلك ، ولم يطاوعه الناس وسئموا سيرته ، وأدى الأمر إلى قتله .

ذلك أنه جعل مثله الذي يجب أن يحتذى عمر بن عبد العزيز ، فحرم الشراب ونهى عن القيان ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وقرّب العلماء ورفع من منازل الفقهاء ، وأحسن معاملة الطالبين ، وقلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب ، وأخرج آنية الذهب والفضة من خزائن الخلفاء فكسرت وضربت دنانير ودرهم ، وعمد إلى الصور التي كانت في المجالس فحيت ، وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين يدي الخلفاء ، وكذلك فعل في الديوك ؛ وكانت الخلفاء قبله تنفق على موآئدها كل يوم عشرة آلاف درهم ، فأزال ذلك ، وجعل لمآئدته وسائر مؤنه في كل يوم نحو مائة درهم .

وكان يتهجد في الليل ويطيل الصلاة ، ويلبس جبة من شعر .

(١) انظر تاريخ الخطيب : ١٠٠/١ وما بعدها طبعة مصر .

قال المسعودي : « فقللت وطأته على العامة والخاصة بحمله إياهم على الطريقة الواضحة ، فاستطالوا خلافته وسَمُّوا أيامه ، وعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه » .
« ولما قبضوا عليه قالوا له : أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها ؟
فقال : أريد أن أحملهم على سيرة الرسول (ص) وأهل بيته والخلفاء الراشدين !
ف قيل له : إن الرسول كان مع قوم قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم ، وأنت إنما رجالك تركي وخزري ومغربي وغير ذلك من أنواع الأعاجم لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وإنما غرضهم ما استعجلوه من الدنيا ، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة !؟ » (١)
ولم يدم في خلافته إلا أحد عشر شهرا .

وهكذا كان تيار الترف شديداً جارفاً حتى ليكتسح من وقف في سبيله .
وقد أنشأ عضد الدولة البويهى بستانا بلغت النفقة عليه وعلى سَوِّق الماء إليه خمسة آلاف ألف درهم (٢) .

والوزير ابن مقله يربى الحيوانات في قصره ويعنى بها أكبر عناية ، « فكان له بستان عظيم عدة أجربة ، شجر بلانخل ، عمل له شبكة إريسم ، وكان يفرخ فيه الطيور التي لا تفرخ إلا في الشجر ، كالتقاري والدبَّاس والهزار والبيغ والبلابل والقَبَّج ؛ وكان فيه من الغزلان والنعام والأَيْل وحمر الوحوش . وبُشر مرة بأن طائراً بحرياً وقع على طائر برى ، فباض وققس ، فأعطى من بشره بذلك مائة دينار » (٣) .

« والوزير ابن الفرات كان يملك أموالاً كثيرة تزيد على عشرة آلاف ألف

(١) مروج الذهب : ٣٣٨/٢ وما بعدها . (٢) المصدر نفسه .

(٣) ابن الجوزي في المنتظم .

دينار ، وكان يستغل من ضياعه في كل سنة ألف دينار وينفقها . وكانت في داره حجرة شراب يوجه الناس على اختلاف طبقاتهم إليها غلمانهم يأخذون الأشربة والفمّاع والجلاب إلى دورهم»^(١) ؛ وكان ابن الفرات لا يأكل إلا بملاعق البلور ، وما كان يأكل بالملقعة إلا لقمة واحدة ، فكان يوضع له على المائدة أكثر من ثلاثين ملقعة .

« وكان راتب أبي طاهر وزير عز الدولة من الثلج في كل يوم ألف رطل . وكانت أم المقدر يشتري لها ثياب ديبقية يسمونها ثياب النعال ، وذلك أنها كانت صفاقا تقطع على مقدار النعال المحذوة ، وتطلى بالمسك والعنبر المذاب وتجمد ، ويجعل بين كل طبقتين من الثياب من ذلك المطيب ما له قوام . . . وكانت نعال السيدة من هذا المتاع ، لا تلبس النعل إلا عشرة أيام أو حوالها حتى تخلق وتتفتق وترمي ، فتأخذها الخزان وغيرهم ، فيستخرجون من ذلك العنبر والمسك»^(٢) .

« وكان الوزير المهلبى كثير الشغف بالورد ؛ روى من شاهده قال : شاهدت أبا محمد المهلبى قد ابتاع له في ثلاثة أيام وردّ بألف دينار ، فرش به مجالسه وطرحه في بركة عظيمة كانت في داره ، ولها فوارات عجبية ، يُطرح الورد في مائها فتنفسه على المجلس فيقع على رءوس الجالسين ؛ وبعد شربه عليه ، وبلوغه ما أَراد منه ، أنهبه»^(٣) .

وانشرت مجالس الشراب ، ووضعت لها القواعد والقوانين والآداب ، كالذى فعله «كشاجم» في تأليف كتابه «أدب النديم» ، وتفننوا فيما يكتب من الشعر

(١) ابن خلكان : ٥٣٠/١ . (٢) نشوار المحاضرة .

(٣) ياقوت .

على القناني والكاسات^(١) . واعتاد الخلفاء والوزراء والأمراء مجالس الشراب وبالغوا في الإسراف فيها . « يحكى أنه كان للوزير المهلبى ندماء يجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة ، وهم : ابن قريعة ، وابن معروف ، والقاضى التنوخى ، وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ؛ وكذلك كان الوزير المهلبى . فإذا تكامل الأئس وطاب المجلس ، ولد السماع ، وأخذ الطرب منهم مأخذه ، وهبوا ثوب الوقار للعقار ، وتقلبوا في أعطاف العيش ، بين الخفة والطيش ، ووضع في يد كل واحد منهم كأس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها مملوءة شراباً قطربلياً أو عكبرياً ، فيغمس لحيته فيها بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ، ويرش بها بعضهم على بعض ، ويرقصون أجمعهم ، . . . فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم في التزمت والوقار »^(٢) .

ونذكر هنا ثروة أحد الولاة لدلالاتها على مقدار الثروة ونوعها ، فقد مات في سنة ٣٠١ أبو الحسين على بن أحمد الراسبي عن سن كبيرة ، وكان يتقلد جنديسابور والسوس وماذاريا ، ومات أولاده قبله ، وكان له حفدة ، خلف :

ديناراً ذهباً عيناً .	٤٤٥٥٤٧
درهماً عيناً .	٣٢٠٢٣٧
مثقالاً وزن الأواني الذهبية .	٤٣٩٧٠
رطلاً وزن الأواني الفضية .	١٩٧٥
مثقالاً من العود المطرسي .	٤٤٢٠
« من العنبر .	٥٠٢٠
ناجحة من نوافج المسك .	٨٦٠

(١) كتب طرفاً من ذلك الموشى . (٢) يتيمة الدهر : ١٠٦/٢ .

مئقال من المسك المنشور .	١٦٠٠
مئقالا من البرمكية (نوع من الطيب) .	١٣٩٩
مئقالا من الغالية (نوع من الطيب)	٣٦٦
ثوبا من الثياب المنسوجة من الذهب .	٨٨
سرجا .	١٣
حجران عظيمان من الياقوت .	٢
حبة من اللؤلؤ .	٧٠
رأساً من الخيل .	١٣٥
من خدم السودان .	١١٤
من الغلمان البيض .	١٢٨
خادماً من الصقالبة والروم .	١٩
غلاماً بآلاتهم وسلاحهم ودوابهم .	٤٠
دينار قيمة أصناف من الكسوة .	٢٠٠٠٠
رأساً من المهارى والبغال .	١٢٨
خيمة من الخيام الكبار .	١٢٥
هودجا .	١٤
صندوقا من الغضائر الصينى والزجاج المحكم الفاخر .	١٤

وخلف عضد الدولة البويهى ٢٨٤ر٨٧٥ر٢ ديناراً ، ومن الورق والنقد والفضة ٧٩٠ر٨٦٠ر١٠٠٠ درهما ، ومن الجواهر والياقوت واللؤلؤ والماس والبلور والسلاح والمتاع شيئاً كثيراً^(١) .

(١) الصابى .

وتفننوا في الصناعات الجميلة من أنواع الحلبي والدقة في النسج وزركشة الثياب وأنواع العطور ، والنقش والتصوير ، وأصناف الأزياء والمأكول والمشروب ، والحداثق والبساتين ، والغناء والموسيقى ، مما يطول شرحه ، وكلها يستمتع بها طبقة الأشراف والموسرين .

و بلغوا من الأناقة في المعيشة أن جعلوا للظرف والظرفاء قوانين متعارفة من خرج عليها كان غير ظريف ، وأنفوا في ذلك الكتب كالموشى للوشاء ، و « حدود الظرف » له أيضاً ، و « ما يقدم من الأطعمة وما يؤخر » للرازي ، و « ترتيب أكل الفواكه » له أيضاً ، و « آداب الحمام » له أيضاً ، و « الزينة » لحنين بن إسحاق ، و « الهدايا والسنة فيها » لإبراهيم الحربي ، و « النبيذ وشربه في الولايم » لقسطا بن لوقا الخ ؛ فقال الموشى : « اعلم أن من كمال أدب الأدباء ، وحسن نظرف الظرفاء ، ضربهم على ما تولدت به المكارم ، واجتنابهم لخسيس المآثم ، فهم لا يداخلون أحداً في حديثه ، ولا يتطلعون على قارىء في كتابه ، ولا يقطعون على متكلم كلامه ، ولا يستمعون على مُسرِّس سره ، ولا يسألون عما وُورى عنهم علمه ، ولا يتكلمون فيما حجب عنهم فهمه » الخ . ووضعوا قوانين الظرف تفصيلاً كما وضعوها إجمالاً ، فقوانين الظرف في الزي ، وفي التعطر ، وفي الشراب ، وما هو ظرف في الرجال لا في النساء ، وما هو ظرف في النساء لا في الرجال ، وهكذا .

فإذا نحن جاوزنا العراق إلى غيره من الأقطار رأينا في الشام مثلاً آل حمدان ، وعلى رأسهم سيف الدولة مترفين معنيين في الترف .

« فيحكى أن سيف الدولة لما ورد إلى بغداد وقت توزون ، اجتاز وهو راكب فرسه وبيده رمحه ، وبين يديه عبد له صغير ، وقصد الفرجة وألا يعرف ، فاجتاز

بشارع دار الرقيق على دور بنى خاقان وفيها فتيان ، فدخل وسمع وشرب معهم
وهم لا يعرفونه وخدموه ؛ ثم استدعى عند خروجه الدواة فكتب رقعة وتركها
فيها ، ثم انصرف ؛ ففتحوا الدواة فإذا في الرقعة ألف دينار على بعض الصيارف ،
فتعجبوا ، وحملوا الرقعة وهم يظنونها ساذجة ، فأعطاهم الصيرفي الدنانير في الحال
والوقت ^(١) (وهذا هو نظام الحوالات) ؛ فسألوه عن الرجل ، فقال : ذلك سيف
الدولة بن حمدان ^(٢) .

وضرب للصلات خاصة دنانير في كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه
وصورته ^(٣) .

ودخل عليه شاعر وطرح من كفه كيساً فارغاً ودرجا فيه شعر استأذنه في
إنشاده فأذن له ، فأنشده قصيدة أولها :

حَبَاؤُكَ مَعْتَادٌ وَأَمْرُكَ نَافِذٌ وَعَبْدُكَ مَحْتَاجٌ إِلَى أَلْفِ دَرَاهِمٍ

فلما فرغ من إنشاده ضحك سيف الدولة ضحكا شديداً ، وأمر له بألف دينار ،
فجعلت في الكيس الفارغ الذي كان معه ^(٤) .

وقصوره كانت مملأى بالجوارى وخاصة من أسرى الروم . « وكانت له جارية
من بنات ملوك الروم لا يرى الدنيا إلا بها ، ويشفق من الرياح الهابة عليها ، فحسدتها
سائر حظاياها على لطف محلها منه » ^(٥) . وكان يركب في خمسة آلاف
من الجنود ، وألفين من علمانه ليزور قبر والدته ^(٦) .

(١) في هذا دليل على استعمال الصك أو الشيك في ذلك الوقت .

(٢) الهمداني : مخطوط بياريس . (٣) اليتيمة : ٢٨٢/١ .

(٤) ابن خلكان : ٤٦٢/١ . (٥) يتيمة : ١٩/١ — ٢١ .

(٦) الواحدي على المتنبي .

وكان الملوك والأمراء في مصر في منتهى الترف والنعيم . ففي العهد الطولوني كان الحلى الذي فيه الآن جامع ابن طولون وما حوله من القاعة إلى « زين العابدين » يزخر بالمباني الضخمة ، وفيها هذا المسجد الفخم والمستشفى الكبير ، والقصور الشاححة ، والميادين الفسيحة ، وآيات الفن ؛ فقد كان بجوار جامع ابن طولون ميدان فسيح ، فجعله خمارويه بن أحمد بن طولون كله بستاناً بديعاً ، زرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، وحمل إليه من البلدان المختلفة كل صنف من الشجر اللطعم وأنواع الورد ؛ وكان من بدعه أنه كسا أجسام النخل نحاساً مذهباً ، وجعل بين النحاس والنخل مواسير من الرصاص يجرى فيها الماء ، فكان الماء يخرج من النحاس الملبس في النخل فينحدر إلى فساقى ، ويفيض الماء من الفساقى إلى مجار تسقى سائر البستان ؛ وهندس البستان هندسة بديعة ، فعمل من الرياحين كتابة مكتوبة في البستان يتعاهدها البستاني بالمقاريض حتى لا تريد ورقة على ورقة ؛ وعمل في البستان برجا من خشب الساج منقوشا ومطعما ، وسرح فيه أصناف الحمام وأصناف الطيور المغردة ، وجعل في البرج أوكاراً لأفراخها ، وعيدانا مثبتة في جوانبه لتقف عليها إذا تطايرت ، حتى يجابو بعضها بعضا بالناغاة ؛ وسرح في البستان الطواويس والدجاج الحبشى ونحو ذلك ؛ وعمل فيه مجلساً سماه دار الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد ، وجعل في حيطانه مقدار قامة ونصف من خشب صورت فيه صورته ، والمغنيات التي تغنيه في أحسن تصوير وأبهج تزويق ، ولونت أجسامها بألوان تشبه ألوان الثياب من الأصباغ العجيبة . فكان هذا القصر من أعجب ما بنى في الدنيا .

وعمل فيه فسقية ملئت من الزئبق ، وطرح عليه فرش ملى بالهواء ، وشد بزنانير من حرير في حلق من الفضة ، فينام أحيانا عليه فيرتج ارتجاجاً ناعماً ؛

وكان يرى لها في الليالي القمرية منظر عجيب إذا ائتلف نور القمر بنور الزئبق .
وجعل في ناحية من نواحي القصر داراً للسباع ، لكل سبع بيت ، ولكل بيت باب يفتح من أعلاه ، ولكل بيت طاقة صغيرة يدخل منها الرجل الموكل به ؛ وفرش بيوت السباع وما حولها بالرمل يحدد من حين إلى حين .
وأكثر من الخدم ، ودرّب كثيراً منهم على التفتن في الطهي وتنويحه .
واشتهر عبيد مصر إذ ذاك بحسن الطهي كما عودهم خمارويه ؛ فكان الناس يأتون من مختلف الأقطار لشرايتهم لحسن سمعهم في هذا الباب .
ولعل أكبر ما يوضح هذا الترف والنعيم زواج « قَطْرَ الندى » بنت خمارويه .
وقد خطبها خليفة المسلمين في بغداد المعتضد بالله العباسي . فتفتن خمارويه وأنفق خزائن الدولة في جهازها يحمله من مصر إلى بغداد ، حتى تضعضعت حالة مصر المالية بعد ذلك الإسراف .
فكان من بين هذا الجهاز دَكَّة تتألف من أربع قطع من الذهب ، عليها قبة من ذهب مشبك ، في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف لها قيمة . وكان في الجهاز مائة هاون من ذهب . وقد عمل حساب نفقات الجهاز ، فكانت دفعة من نفقاته أربعائة ألف دينار .
وانتقلت العروس من مصر إلى بغداد ، والشقة بينهما بعيدة . فأمر خمارويه فبنى على رأس كل مرحلة من مصر إلى بغداد قصرأ تنزل فيه قطر الندى . وكانوا يسيرون بها سير الطفل في المهد ، فإذا أتمت مرحلة وجدت قصرأ قد فرش ، وأعدّ بكل أنواع المعدات ، فكانها في هذه الرحلة الطويلة في قصر أبيها حتى قدمت بغداد في أول الحرم سنة ٢٨٢^(١) .

(١) انظر تفصيل ذلك في خطط المقرئزي والنجوم الزاهرة .

وثروة آل الجصاص في العهد الطولوني كانت تقدر بملايين الدنانير .
ويحكى أحدهم وهو الحسن بن عبد الله الجصاص — وكان من أعيان التجار
في الجواهر — سبب ثروته فيقول : « كان بدء يسارى أنى كنت في دهليز أبى
الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، وكنت وكيله في ابتياع الجواهر وغيره مما
يحتاجون إليه ، وما كنت أفارق الدهليز لاختصاصى به ، فخرجت إلى قهر مائة لهم
في بعض الأيام ومعها عقد جوهر فيه مائة حبة لم أر قبله ولا بعده أفر ولا أحسن
منه ، كل حبة تساوى مائة ألف دينار عندى ؛ وقالت لىحتاج أن تخرط هذه حتى
تصغر فنجعلها في آذان اللعب وفي قلائدها . فكذت أطير ، وأخذتها وقد قلت
السمع والطاعة ؛ وخرجت في الحال وجمعت التجار ، واشترت مائة حبة من النوع
الذى طلبته . . . وقامت على المائة حبة بدون المائة ألف درهم ، وأخذت منهم
جوهراً بمائتى ألف دينار^(١) .

وفي العهد الفاطمى كان الترف أنم وأضحم وأخم . تقرأ في خطط المقرئى
وصف خزائن الفاطميين وحياتهم في القصور ، وتفنهم في أدوات الترف والنعيم
فيأخذك العجب العاجب ، فيقول : « إنه كان للخليفة خزانتان : ظاهرة وفيها الملابس
التي ينعم بها على الناس ؛ وباطنة وهي الخاصة بلباس الخليفة ، ويتولاها امرأة
تنتع بزىن الخزان وبين يديها ثلاثون جارية ، فلا يغير الخليفة أبداً ثيابه إلا
عندها . . . وكان يرسم هذه الخزانة بستان من أملاك الخليفة على شاطئ الخليج ،
يعنى أبداً فيه بالنسرين والياسمين ، فيحمل في كل يوم منه شىء في الصيف
والشتاء لا ينقطع أبداً برسم الثياب والصناديق .

(١) فوات الوفيات : ١٣٨/١ .

ولما كشف حاصل الخزان الخاصة للعاضد بالقصر كان الموجود فيها مائة صندوق كسوة فاخرة من موشى ومرصع ، وعقود ثمينة وجواهر نفيسة وغير ذلك من ذخائر عظيمة الخطر^(١) .

وفي أيام شدة المستنصر أخرج من بعض خزائن القصر صندوق كليل منه سبعة أمداد زمرد ؛ فسأل بعض من حضر من الوزراء الجوهريين : كم قيمة هذا الزمرد ؟ فقالوا : إنما تعرف قيمة الشيء إذا كان مثله موجوداً ، ومثل هذا لا قيمة له ! ... وأخرج عقد جواهر قيمته على الأقل من ثمانية آلاف دينار فصاعداً ؛ وأخرج ألف ومائتا خاتم ذهباً وفضة من سائر أنواع الجواهر المختلفة الألوان والقيم والأثمان ... وأحضرت خريطة فيها نحو وبيبة جواهر ، وأحضر الخبراء من الجوهريين فذكروا أن لا قيمة لها ولا يشتري مثلها إلا الملوك ، فقومت بعشرين ألف دينار . وأخرج طاووس ذهب مرصع بنفس الجواهر ، عيناه من ياقوت أحمر ، وريشه من الزجاج المينا المجرى بالذهب ، على ألوان ريش الطاووس ؛ وديك من الذهب له عرف مفروق كأ كبير ما يكون من أعراف الديوك من الياقوت الأحمر ، مرصع بسائر الدرر والجواهر ، وعيناه ياقوت ؛ وغزال مرصع بنفيس الدرر والجواهر ، وبطنه أبيض قد نظم من درر الخ الخ^(٢) . ونحو هذا ذكر المقرئ في خزائن القرش والأمتعة ، وخزائن السلاح والسروج والخيم والشراب والتوابل والبنود . ورووا أن المعز لدين الله فاتح مصر لما خرج من بلاد المغرب أخرج معه أموالاً كانت له بها ، وأمر بسبكها أرحية كأرحية الطواحين . وكان معه مائة جبل عليها هذه الطواحين من الذهب . وأمر المعز بها حين دخل إلى مصر فألقيت

(١) المقرئ : ٤١٣/١ .

(٢) انظر تفصيل ذلك في المقرئ : ٤١٤/١ وما بعدها .

على باب قصره ، ولم تزل على باب القصر إلى أن كان زمن الغلاء في أيام المستنصر
فلما ضاق الناس بالأمر أذن لهم أن يرددوا منها بمبارد ، وغرهم الطمع حتى ذهبوا
بأكثرها ، فأمر بحمل الباقي إلى القصر ، فلم تر بعد ذلك .

وقد عمل المعز عضادتي باب من أبواب قصره من تلك الأرحية ، واحدة
فوق أخرى فسمى باب الذهب ، وسميت القاعة التي يدخل إليها من هذا الباب
قاعة الذهب (١) .

ولما دخل صلاح الدين القصر الكبير للخلفاء الفاطميين ، وجد فيه
اثني عشر ألف نسمة ليس فيهم فحل إلا الخليفة وأهله وولده (٢) .

ومهما بالغ المقرئ ومن نقل عنهم في وصف غناهم فإن الأساس صحيح ،
وهو غنى القوم وإمعانهم في الترف إمعانا يزيد عما وصل إليه العباسيون
أيام الرشيد .

« وكان إقطاع الوزير ابن كلّس (وزير العزيز بالله) مائة ألف دينار في السنة ،
ووجد للوزير المذكور من العبيد والماليك أربعة آلاف غلام ، ووجد له جوهر
بأربعمائة ألف دينار ، وبرز من كل صنف بخمسمائة دينار » (٣) .

ويصف لنا عمارة اليمنى داراً بناها ابن رزّيك الوزير الفاطمي فيقول :
فتملّ داراً شيدتها همة يغدو العسير ببابها متيسراً
جملتها وتجملت مصر بها لما علت بك عزة وتكبراً
وسقيت من دؤب النضار سقوفها حتى لكاد نضارها أن يقطرا
لم يبد فيها الروض إلا مزهرا والنخل والرمان إلا مشرا

(٢) ٣٨٤/١

(١) المقرئى : ٤٣٢/١ ، ٣٨٥ .

(٣) ابن خلكان : ٤٩٩/٢ .

وبها من الحيوان كل مشهر لبس الشيخ العبقري مشهراً
وكان صوتك الخوفة أمنت أسرابها ألا ترع وتدعرا
أنشأت فيها للعيون بدائعا زفت فأذهل حسنها من أبصرا
فمن الرخام مسيراً ومسهماً ومنمنا ومدرها ومدنراً
والعاج بين الآبنوس كأنه أرض من الكافور تنبت عنبرا

قد كان منظرها بهياً رائقاً فجعلتها بالوشى أبهى منظراً
ألبتها بيض الستور وحرها فأتت كزهر الورد أبيض أحمر
فجالس كسيت رقياً أبيضاً ومجالس كسيت طمياً أصفراً
لم يبق نوع صامت أو ناطق إلا غدا فيها الجميع مصوراً الخ

وبعد؛ فقد كان المال وفيراً كثيراً، والترف والنعيم بالغاً أقصاه في بلاط
الخلفاء وقصور الأمراء والخاصة؛ أما الشعب فأكثره بأس فقير.

فقد كان هناك طبقتان متميزتان كل التميز، فالخليفة ورجال دولته وأهلهم
وأتباعهم طبقة الخاصة، وهم عدد قليل بالنسبة لمجموع الأمة. وبقية الناس —
وهم الأكثر — طبقة العامة من علماء وتجار وصناع ومزارعين ورعاع، وأغلب
هؤلاء فقراء إلا من اتصل منهم بالخلفاء والأمراء.

ذلك أن أكبر مصدر للمال هو الجزية والخراج، وهذه تدخل في بيت المال
تحت سلطة الخلفاء ومن إليهم، وينفق منها على مصالح الدولة؛ وما بقي — وهو
كبير — يصرف في رغبات الخلفاء والأمراء: من هبات للشعراء والمدائح، وشراء
ما يعرضه تجار الجواهر، وتجار الجوارى والتحف، وجوائز للمضحكين. والكريم

منهم يمد الموائد لفقراء الشعب ويطعمهم ويكسوهم ، فألوف الناس تأكل على الموائد وتنال صدقاتهم ؛ فلؤلؤ الحاجب في أيام الفاطميين يفرق في اليوم اثني عشر ألف رغيف مع قِدر الطعام ، فإذا دخل رمضان أضعف ذلك ، ووقف هو بنفسه ليفرقه^(١) ؛ وكان علي بن عيسى وزير المقتدر يعطى الطالبين والعباسيين وأبناء الأنصار^(٢) ؛ وكان ابن الفرات يعطى الفقهاء والعلماء والفقراء وأهل البيوتات أكثرهم مائة دينار في الشهر ، وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك^(٣) .

لهذا كله كانت كل أنظار الناس موجهة إلى الخلفاء والأمراء ؛ فالعلماء إن أرادوا الغنى لم يجدوه إلا في خدمتهم ؛ والشعراء إن أرادوا العيش لم يجدوه إلا في مديحهم ؛ والتجار إن وقع شيء ثمين في يدهم من جوهر أو جوار لا يجدون نفاقا لها إلا في قصورهم ؛ والصناع إذا أحسنوا صناعة شيء فهم مقصدهم . أما سائر الشعب فقير بأس قل أن يجد الكفاف ! فالعلماء إذا بعدوا عن القصور عزّ قوتهم ، والشعراء لا يشعرون لأنفسهم ولا لعواطفهم ، وإنما يشعرون للمال يَنشدونه من يد الخلفاء والأمراء ؛ ولهذا كان أكثر شعرهم مديحاً ، والفنانون والتجار كذلك . وكان أكثر مديح الخلفاء والأمراء بالكرم والسخاء لا بالعدل والحزم وضبط الأمور .

فإذا نفذ مال الخلفاء والأمراء صادروا الأغنياء ليسلبوهم مالهم ، ثم يوزعونه على شهواتهم وأتباعهم . فنشأ عن هذا إخفاء الأموال والتظاهر بالفقر ، وهرب بعيدى النظر من التقرب من الخلفاء وذويهم ، ونشأ في الأدب العربي كثير من الشعر والنثر يحمّد الفقر والبعد عن البلاط^(٤) ، كما نشأ شيوع التصوف والميل إليه .

(١) المقرئى : ٨٥/١ . (٢) تاريخ الوزراء : ٣٢٣ .

(٣) ابن خلكان : ٣٧٢/١ .

(٤) انظر العقد الفريد الجزء الأول في باب السلطان .

كان بجانب هذا الغنى المفرط ، والإيمان في اللذائذ ، فقر مدقع يقع فيه العلماء وعامة الشعب ممن لم يتصلوا بالخلفاء والأمراء ومن إليهم .

هذا « عبد الوهاب البغدادي المالكي » فقيه أديب شاعر له المصنفات الرائعة في الفقه ، لم يكن في المالكيين أققه منه في زمنه ؛ ولما نزل معرفة النعمان في رحلته أضافه أبو العلاء وقال فيه :

والمالكي ابن نصرٍ زارَ في سفر بلادنا فحمدنا النَّأى والسفرا
إذا تفقَّهَ أحيا مالكا جَدلاً وينشرُ المَلِكَ الضَّلِيلَ إنْ شعرا

هذا كله تضيق به المعيشة في بغداد حتى لا يجد قوت يومه ، ويخرج عنها طالباً للرزق ؛ ولما شيعه أكارها قال لهم : « لو وجدت بين ظهرا نيكم رغيقين كل غداة ما عدت عن بلدكم » . ثم أنشأ يقول :

سلامٌ على بغداد في كل موطنٍ وحق لها منى سلامٍ مضاعفٍ
فوالله ما فارقتها عن قَلِي لها وإني بشطِّي جانبيها لعارفٍ
ولكنها ضاقت على بأسرها ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وكانت كحلٍ كنت أهوى دُنُوهُ وأخلاقه تنأى به وتخالف

فلما وصل إلى مصر ، مات لأول ما وصلها من أكلة اشتهاها فأكلها ، فرعموا أنه قال وهو يتقلب : « لا إله إلا الله ، إذا عشنا متنا » (١) .

وهذا أبو حيان التوحيدى البغدادي ، وهو ما هو في علمه الواسع وأدبه الفياض ، وفلسفته ، وبلاغته ، وتصوفه ، واتصاله بالوزراء والعلماء ، وكده في الحياة بالوراقة ونسخ الكتاب ، وتأليفه الكثيرة ؛ كل هذا ويقول محدثاً عن نفسه : « ولقد اضطرت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى

(١) ابن خلكان : ٤٣١/١ .

أكل الخضر في الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، وي طرح في قلب صاحبه الألم»^(١) .

ولما أعيته الحيل تحول طلبه وملقه وريأؤه ونفاقه إلى غيظ من الناس وحقد عليهم ، فأحرق في آخر أيامه كتبه ، وقال : « إني جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة عندهم ، ولد الجاه عندهم ، فخرمت ذلك كله » .

وقد ملأ كتابه الإمتاع والمؤانسة شكوى من الفقر ومن سوء الحال ، ورفع صوته إلى الوزراء والأغنياء ، فعاد من ذلك كله صفر اليدين .

وهذا أبو سليمان المنطقي ، أعقل عقلاء بغداد وأوسعهم نظراً ، وأعمقهم فكراً ، ومن اطلع على الفلسفة اليونانية ، فأدرك أسرارها ، وعرف مراميها وأغراضها ، مع استقلال في الفكر ، وشخصية ممتازة في الحكم ، وكان أعور ، وكان به برص منعه من الاتصال بالناس ، وحمله على لزومه منزله ، فلم يتصل به إلا تلاميذه الذين عرفوا قدره ، ولم يجدوا بغيثهم عند غيره — كان فقيراً ، وقال فيه أبو حيان ، وهو من تلاميذه : « إن حاجته ماسة إلى رغيث ، وحوله وقوته قد عجزا عن أجرة مسكن ، وعن وجبة غدائه وعشائه » ، فلما من عليه الوزير ابن سعدان بمائة دينار ، سره ذلك غاية السرور ، وترقّل وتحنك .

وهذا أبو علي القالي البغدادي ، ضاقت به الحال قبل أن يرحل إلى الأندلس ، حتى اضطر أن يبيع بعض كتبه ، وهي أغز شيء عنده ، فباع نسخته

(١) الإمتاع والمؤانسة : ٣١/١ .

من كتاب الجهرة ، وكان كلفاً بها ، فاشتراها الشريف المرتضى ، فوجد عليها
بخط أبي علي :

أُنِستَ بها عشرين حَوَلاً وبعثها فقد طال وَجدي بعدها وحيني
وما كان ظنِّي أني سأبيعها ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكنْ لضعف وافتقار وصيبة صغار عليهم تستهلُّ جفوني
فقلت ولم أملك سوابق عِبْرَةٍ مقالة مكويّ الفؤاد حزين
(وقد تُخرج الحاجات يا أم مالك ودائع من ربِّ بهن ضنين)

وهذا أبو العباس المعروف بابن الخباز الموصلي ، كان من كبار النحويين
والأدباء ، قال في خطبة كتابه المسمى « بالفريضة في شرح القصيدة » : « ومن
علم حقيقة حالي عذرتني إذا قصّرت ، فإن عندى من الهموم ما يزع الجنان عن
حفظه ، ويكف اللسان عن لفظه .

ولو أن ما بي بالجبال لهدها وبالنار أطفأها وبالماء لم يجر
وبالناس لم يحيوا وبالدهر لم يكن وبالشمس لم تطلع وبالنجم لم يسر
وأنا أسأل الله العظيم أن يكفيني شر شكواي ، وألا يزيدني على بلواي ، فإنني
كلما أردت خفض العيش صار مرفوعا ، وعاد بالحزن سبب المسرة مقطوعا ، والله
المستعان في كل حال ، ومنه المبدأ وإليه المآل .

وهذا الزمخشري يقول :

ومما شجاني أن غرَّ مناقبي يعنى بها الركبان بين القوافل
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدى وسارت مسير النيرات رسائل
وكم من أمالٍ لي وكم من مصنّف أصاب بها ذهني تحز المفاصل
غنى من الآداب لكنني إذا نظرتُ فما في الكف غير الأنامل

فيا ليتني أصبحت مستغنياً ولم أكن في خوارزمٍ رئيس الأفاضل
ويا ليتني مرضُ صديقي ومُسَخِّطٌ عدوى وأنى في فهامة باقل
وما حق مثلي أن يكون مضيِّقاً وقد عظمت عند الوزير وسائلي
فلا تجعلوني مثل همزة واصل فيسقطني حذف ولا راء واصل
فكل امرئٍ أمثاله عدد الحصا وهاتِ نظيري في جميع المحافل
وهذا الأبيوردى الشاعر الفقيه ، حكى الخطيب البغدادي عنه ، أنه مكث
سنتين لا يقدر على جبة يلبسها في الشتاء ، ويقول لأصحابه : « بي علة تمنعني لبس
المحشو » ؛ يريد بالعلة علة الفقر .

وهذا الخطيب التبريزي كان له نسخة من كتاب التهذيب في اللغة للأزهري
في عدة مجلدات أراد تحقيق ما فيها وسماعها على عالم باللغة ، فدُل على أبي العلاء
المرعي ، فجعل الكتاب في مخللة وحملها على كتفه من تبريز إلى معرة النعمان ،
ولم يكن له من المال ما يستأجر به ما يركبه ، فنفذ العرق من ظهره إليها فأثر فيها
البلل ، ومن شعره :

فمن يسأم من الأسفار يوماً فإني قد سئمت من المقام
أقننا بالعراق على رجالٍ لئام ينتمون إلى لئام
وحكى لنا أبو حيان التوحيدي حادثة انتحار فظيعة فقال : « شاهدنا في هذه
الأيام شيخاً من أهل العلم ساءت حاله ، وضاق رزقه ، واشتد نفور الناس عنه ،
ومقت معارفه له ، فلما توالى عليه هذا دخل يوماً منزله ، ومد جبلاً إلى سقف
البيت واختنق به ؛ فلما عرفنا حاله جزعنا وتوجعنا وتناقلنا حديثه وتصرفنا فيه
كل متصرف » .

وأخذ أبو حيان وأصحابه يتجادلون في أن له الحق في الانتحار أو لا^(١) .
هذا شأن العلماء ، وعامة الشعب كانوا أسوأ حالا .
ذلك لأن النظام المالي للدولة كان نظاما سيئاً ؛ فنفقات البلاط قد بلغت
حداً لا يطاق من الإسراف والبدخ وصنوف الترف ، وجباية الخراج ، وسائر
الضرائب تباع لأشخاص على سبيل الالتزام ، فيعسفون بالناس حتى يبتزوا منهم
أضعاف ما دفعوا ؛ والقضاء قد اختل بتدخل الحكام وانتشار الرشوة ؛ والجيش
قد انقسم إلى شعب مختلفة من ترك وديلم ومغاربة وغيرهم ، وكل فرقة تتعصب
لجنسها ، وتضمر العدا لغيرها ، والسلطة مضطرة لإنفاق المال الكثير لاسترضاء
هؤلاء وهؤلاء ؛ والمناصب الحكومية ليست في استقرار ، فاليوم يولى وزير ،
وغداً يُصادر ، ولكل وزير أعوانه يحظون بتوليته ويُعسف بهم بعزله ؛ وغير
الوزراء شأنهم أهون .

كل هذا سبب فساد النظام المالي ، واستتبع فقر الشعب واضطرابه
وكثرة ثوراته .

وظاهرة أخرى نراها في الفنون ، وهي أنها كانت لا تنمو إلا في بلاط الخلفاء
والأمراء ، فلم يكن الشاعر يشعر لنفسه إلا قليلاً ، ولا الفنان يتفنن لنفسه إلا
نادراً ، فكلهم يقصد خليفة أو أميراً يعرض عليه سلعته من شعر أو فن ؛ ولذلك
تلون الشعر والنثر والفن بلون الاستجداء كثيراً ، لأن العصر لم يكن عصرًا ديمقراطياً
يستطيع فيه أن يعيش الفنان لنفسه أو للشعب ، كما هو الشأن في العصور الحديثة ،
بل كان عصرًا أرستقراطياً لا ينعم فيه إلا الأرستقراطيون ومن شاء أن يعيش على
موادهم ، بل من شاءوا هم أن يؤكلوه من موادهم ؛ ولذلك إذا أحصيت الأدب

الذي قيل في المديح ، رجحت كفته جداً على الأدب الذي قيل لباعث نفساني .
وكذلك العلماء كانوا قسمين : قسماً يتصل بالخلفاء والأمراء أو يشتغلون في
مناصب الدولة كالخطابة والقضاء ، وهؤلاء ميسورون نسبياً ؛ ولذلك نرى كثيراً
من تأليف العلماء في هذا العصر إنما ألفت بأمر وزير أو أمير أو نحوه ،
وصدّرت باسمه ونوّته فيها بذكره ؛ وأما من بعدوا عن القصور فكانوا فقراء غالباً
لا يكادون يجدون ما يسد رمقهم كما رأينا .

نشأ عن هذه الحالة الاجتماعية مظاهر متعددة — ترف لا حد له في بيوت
الخلفاء والأمراء وذوى المناصب ، وقر لا حد له في عامة الشعب والعلماء والأدباء
الذين لم يتصلوا بالأغنياء ؛ ثم المظاهر التي تنتج عادة من الإفراط في الترف كالتفنن
في اللذائذ والاستهتار والنعومة وفساد النفس ، وكل المظاهر التي تنشأ عن الفقر
كالخقد والحسد والكذب والخبث والخديعة . وكان من أثر هذا الفقر أيضاً انتشار
زعة التصوف ، فالفشل في الحياة قد يسلم صاحبه إلى الزهد ، وإقناع النفس بأن
نعيم الدنيا زائل ، وإذا حرم الدنيا فيطلب الآخرة . كما كان من آثاره انتشار
الدجل والتخريف وتعلق الناس بالأسباب الموهومة في الحصول على الغنى لعجزهم
عن تحصيله بالوسائل المعقولة ؛ فتنجيم واعتقاد في الطوالع التي تسعد وتشقى ،
وانصراف إلى الكيمياء التي تقلب النحاس والقصدير ذهباً ، والاتجاه إلى دعوات
الأولياء لعل دعوتهم تتحقق فينقلب فقرهم غنى ، هذا إلى الاعتقاد في السحر
والطليسمات والبحث عن الكينوز الخبوءة ، ونحو ذلك .

وعلى الجملة فالحياة المالية مضطربة أشد الاضطراب ؛ فمع سوء التوزيع
والاختلاف الشديد بين درجة الغنى والفقر ، والبذخ وشدة الحاجة ، نرى عدم
الطمأنينة على المال من عدم احترام الملكية ، وذلك بسبب شهوات الحكام

وطمعهم فيما في أيدي الناس ؛ فالوزير إذا عزل صادر أمواله من يخلفه ، والتاجر الكبير الثرى عرضة لمصادرة الوالى له طمعاً في ماله ، والغنى إذا مات كانت أمواله عرضة للسلب والنهب ، إما بادعاء أن ليس له ورثة معروفون ووضع العقبات في سبيل إثبات الورثة ، أو الجاهية بالمصادرة من غير ذكر أسباب . فالأخشيد في مصر كان إذا توفى قائد من قواده أو كاتب من كتابه تعرض لورثته ، وأخذ منهم وصادرهم ؛ وكذلك كان يفعل مع التجار المياسير .

والوزير المهلبى لما مات قبض معز الدولة تركته وصادر عياله ، وكذلك فعل بابن العميد ، وهكذا . ثم إن اضطراب الحالة المالية وعدم أمن الناس على أموالهم يُنتج حتماً عدم انتظام الدخل والخروج فتسوء حالة الدولة ، فيعاجلونها بفرض الضرائب القاسية ، والإمعان في المصادرات والنهب لكثرة ما يُطلب من نفقات الجيوش وأمثالها ، فيكون ذلك علاجاً يضاعف المرض . وهو ما حدث فعلاً ، وكما ساءت الحال كثر العزل والتولية ، وقرب إلى الخلفاء والسلاطين من ضمن تعادل الميزانية ، وإنما يضمن ذلك بالعسف الذى يؤول إلى الخراب .

كان الناس طبقات مختلفة ، طبقة تعزز بشرفها ونسبها ودمها ؛ من ذلك العلويون والعباسيون ، وكلاهما معتز بالقرابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالأولون يعتزون بالنسبة لأولاد على من فاطمة ؛ والآخرى للعباس ، وبينهم حزازات غالباً . ويفخر الأولون بأنهم أقرب نسباً ؛ ويعتز الآخرون بالخلافة في أيديهم ؛ وكان ذلك كله — على كل حال — مصدراً للاعتزاز ومبعثاً لتقدير الناس ، وكانت تُجرى عليهم أرزاق خاصة ، وتسند إليهم بعض المناصب الرفيعة كنقابة الأشراف . ومن المعتزين بالنسب من كان يعتز بأصله من أنه من البيوتات القديمة ، كأولاد المهلب بن أبي صفرة الأمير الأموى الكبير ، وكانت لهم في هذا العصر

العباسي دُور بالبصرة ؛ وتولى الوزارة منهم لعضد الدولة البويهى الوزير المهلبى ،
وسياتى ذكره ؛ وكأولاد البَنَوِيِّين وهم أبناء الخراسانيين الذين حاربوا لإسناد
الدولة إلى بنى العباس — ومنهم من كان يعتز بنسبه الفارسى إلى بيت من بيوت
الملك أو البيوتات العظيمة فى الفرس كآل بويه ؛ وقد يكون من هذه الطبقة
الأغنياء ؛ وقد يكون منهم من أخنى عليه الدهر بعد العز ، فكان فقيراً يكتفى
بالاعتزاز بالنسب .

وهناك طبقة تعتز بمناصب الدولة كالوزراء ورؤساء الدواوين ونحو ذلك ،
ويعتز بذلك أسرهم وأقاربهم ؛ وهؤلاء فى هذا العهد كان اعتزازهم وقتياً ، فيكونون
فى القمة حيناً ، ثم لا يلبثون أن يكونوا فى الحضيض حيناً آخر لكثرة ما يعرض
لهم من عزل ومصادرة أموال وقتل وتشريد ؛ ثم طبقة الأغنياء من الإرث
والتجارة والأعمال ، وقد كانوا نسبياً عدداً محدوداً .

وهؤلاء المعتزون بالمنصب يعيشون فى ترف مفرط ، وهم الذين نعثر فى كتب
الأدب والتاريخ على وصف بذخهم وترفهم وإسرافهم ، ولكنهم لا يمثلون
الشعب ، ويتبعهم الأوساط يقلدونهم على قدر استطاعتهم ، ويطمحون إلى أن
يحدوا حدوهم ما أمكنهم دخلهم .

وبجانب ذلك اعتزاز بالعلم أو الدين ، ولكنه اعتزاز فى أوساط خاصة ؛
فالعلماء يعتز بهم أمثالهم وتلاميذهم ووسطهم المحدود ، وهم يتعززون عن فقرهم بهذا
الاعتزاز الأدبى ؛ ورجال الدين من الصوفية والوعاظ والفقهاء كذلك يعتزون فى
أوساطهم الخاصة ، وعند العامة الذين يلتمسون منهم البركة . ثم سائر الشعب بعد
ذلك فقير لا يعتز بمال ولا نسب ولا جاه ، ويصفهم ابن الفقيه بأنهم « زَبَدُ جُفَاء ،
وسيل غثاء ، لُكْعٌ وَلُكَاعٌ ، وريطة اتضاع ، هم أحدهم طعامه ونومه » .

وليسوا كما قال . بل هم عماد الأمة وسوادها الأعظم ، ومقياس الرقي الحقيقي لها ، وما ذنبهم أن همهم طعامهم ونومهم وهم يجددون ثم لا يجدون ! لقد كان التوازن الاجتماعي في هذا العصر مختلا في الناحية المالية ، فلا تقارب ، وما نجده من وصف الإمعان في الحضارة والإسراف في الترف والتفنن في النعيم ، إنما هو وصف فئة قليلة العدد وهي قد أسرفت في الترف على حساب إمعان السواد الأعظم في البؤس . وفي الناحية الخلقية انحلال بين الأغنياء ، وتكبر وتجبير من الساسة وأولى الأمر ، وذلة وضعة في الفقراء البائسين ؛ وما يروى لنا من عزة وإباء ، وتمسك بالحق وبالفضيلة ، فصفات الأقلين النادرين .

الرفيق :

كثر الرفيق في هذا العصر كثرة بالغة ، وامتلات القصور به ، وكان له أثر كبير في الحياة الاجتماعية ، فكثر نسل الجوارى واختلطت الدماء ، حتى انخلفاء أنفسهم كانوا في هذا العصر من نسل السرارى . قال ابن حزم في نقط العروس : « لم يل الخلافة في الصدر الأول من أمه أمة حاشا يزيد وإبراهيم ابني الوليد ، ولا وليها من بني العباس من أمه حرة حاشا السفاح والمهدى والأميين — ولم يلبها من بني أمية بالأندلس من أمه حرة أصلا »

وكثر تعليم الجوارى الغناء ، واتخذ أصحابهن هن بيوتا معدة للسماع في الأحياء المختلفة ، وكثرت هذه البيوت في بغداد في هذا العصر ، حتى قال أبو حيان التوحيدي : « وقد أحصينا — ونحن جماعة في الكرخ — أربع مائة وستين جارية في الجانبين (جانبى بغداد) ، ومائة وعشرين حرة ، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور ، يجمعون بين الخلق والحسن والظرف والعشرة — هذا سوى

من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته وحرسه ورقبائه ، وسوى ما كنا نسمعه
من لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط في وقت ، أو ثمل في حال ، أو خلع
العدار في هوى قد حالقه وأضناه» (١)

وهذه المجال العامة للمغنيات كان يتردد عليها الناس للسمع ، ولم يتخرج منها
حتى العلماء والأدباء والقضاة والأعيان والصوفية ؛ فابن فهم الصوفي يسمع مغنية
اسمها « نهاية » جارية ابن المغنى ، وابن غيلان التاجر يسمع غناء « بلور » جارية
ابن اليزيدى ، وأبو الحسن الجراحى القاضى يسمع غناء « شعلة » ، وأبو سليمان
المنطقى الفيلسوف الكبير وشيخ أبى حيان يسمع غناء صبي موصلى فتن الناس
في عصره ، وهكذا .

والظاهر من قولهم أن مجال الغناء كان منها المتهتك الذى يناسب العربدين ،
ومنها المتحفظ بعض الشيء الذى يناسب المتحفظين .

وما روى لنا يدل على أن الغناء في هذا العصر كان بالشعر العربى السهل
القريب المعنى السائغ اللفظ والوزن ؛ فقد روى أن قنوة البصرية كانت
تعنى مثلاً :

يا ليتنى أحيأ بقرهمو فإذا فقدتهم انقضى عمري
و « سندس » تعنى :

مجلس صبين عميدين ليسا من الحب بخلوين
قد صيرأ روحهما واحداً واقتسام بين جسمين
تنازعا كأساً على لذة قد مزجاها بين دمعين
الكأس لا تحسن إلا إذا أدرتها بين محبين

(١) الإمتاع والمؤانسة ١٨٣/٢ .

و « درة » تغنى :

لست أنسى تلك الزيارة لَمَّا طرقتنا وأقبلت تتشَّى
طرقت « ظبية » الرصافة ليلاً فهي أحلى من جَسِّ عوداً وغنى
كم ليال بتنا نلذ ونلهو ونسقى شرابنا ونغنى
هجرتنا فما إليها سبيل غير أنا نقول : كانت وكنا
وإذا بلغت « كانت وكنا » زلزلت الأرض « فرأيت الجيب مشقوقاً والدمع
منهلاً ، ومكتوم السربادياً » .

و « علوة » تغنى في « درب السلق » ببغداد :

بالورد في وجنتيك مَنْ لطمك ! ومن سقاك المدام ، لم ظلمك
خلاك لا تستفيق من سُكر توسع شتما وجفوة خدَمك
معرب الصدغ ! قد ثملت فما يمنع من ثم عاشيق فك
أظل من حيرة ومن دهش أقول لما رأيت مبتسمك
بالله يا أقحوان مضحكك على قضيب العقيق من نظمك ؟

و « روعة » جارية ابن الرضى تغنى في الرصافة :

وحق محل ذكرك من لسانى وقلبي حين أخلو بالأمانى
لقد أصبحت أغبط كل عين تعانيتها فتسعد بالعيان
وهكذا شعر سهل ومعان قريبة كلها تدور حول العشق والغرام والهجر
والوصال .

وكانوا في هذه المجالس يطربون طرباً صاخباً ، فمنهم من يشق إزاره ، ومن
يضرب بنفسه الأرض ، ومن يحملق عينيه ، ومن يستغيث ؛ ومن يحوقل (١) الخ .

(١) انظر المصدر نفسه .

وكانت هذه البيوت تسمى « بيوت القيان » . والقينة في اللغة الأمة مغنية كانت أو غير مغنية ، ولكنها في العرف لا تطلق إلا على الأمة المغنية .

ومن هؤلاء القيان من كن يتاجرن بالعشق والغناء ، فيوقعن في أحباهن الشبان الموسرين حتى يستزفن ما لم يلفظنهم . وقد وصف واصف هذه الحالة أدق وصف فقال : « إن القينة منهن إذا رأت في مجلسٍ فتى له غنى وكثرة مال ويسار وحسن حال مالت إليه لتخضعه ... ومنحته نظرها وأشارت إليه بكفها ، وغمزته بطرفها ، وغنت على كاساته ، ومالت إلى مرضاته ، حتى توقع المسكين في جبالها ، وتحويه بلطف تملقها ، وتستعين بالمكر والخداع ، ثم ترسل إليه من يخبره عن سهرها وقلقها ، وتبعث إليه بخاتمها ، وخصلة من شعرها ، وكتاب قد نمتته بظرفها ، ونقطت عليه قطرات من دمعها ، وختمته بالغالية والعنبر ... حتى إذا حوت عقله ، وسلبت قلبه ، أخذت في طلب الهدايا من ثياب وحلى ، وشكت من غير ألم ، لتتوالى عليها هداياه ، حتى إذا نفذ اليسار ، وتلف المال ، وأحست بالإفلاس أظهرت الملل ، وأعلنت البدل ، وتبرمت بكلامه ، وضجرت بسلامه ، وأخذت في الجفاء والعتاب ، وصرفت عنها هواه ، ومالت إلى سواه » .

وقد قال أحد الشعراء في مثل هذا الوصف :

صحت فأبصرت الغواية من رُشدى	وأيقنت أنى كنت جُرت عن القصد
فلا يعشقتن من كان يعشق قينة	فما هو منها في سعيد ولا سعد
تودك ما دامت هـداياك حمة	وتفدك عشقا ما بقيت أخوا رقد
إذا مارأت في مجلس من تخاله	غنياً حبتـه بالتحية والود
فذا دأبها حتى يعود من الهوى	سقيم فؤاد ما يُعيد ولا ييـدى
فتنقصد لا من حاجة لفصاها	ولكن لتكليف الهدية في الفصد

فن بين خلخال يُصاغ وخاتم ومن دملج يُهدى على أثر العقد
فذا فعلها حتى إذا عاد مفلساً تجتت وأبدت جانب الحجر والصد
فقولاً لمن يهوى القيان تفهّموا مقالى فإني قد نصحت لكم جهدى^(١)
ونشأ عن هذا جدل في أيهما خير: عشق القيان أو عشق الحرائر؟ فيقول
بعض الظرفاء:

ليس عشق الإمام من شكل مثلى إنما يعشق الإمام العبيد
صل إذا ما وصلت حرة قوم قد حماها أبؤها والجدود
ويقول غيره: « عليك بالقيان فإن لمن فطناً وعقولا ليست لكثير
من النساء » .

وقد كان من أثر الطابع العلمى الذى طبع هذا العصر أن تعرض العلم لهؤلاء
الإمام يؤلف فيهن الكتب، فألف ابن بطلان كتابه العلمى فى تجارة الرقيق^(٢) .
وتبعه غيره، فذكروا أجناس العالم وأوصاف الرقيق من كل جنس، وما يمتز
به، وما يعاب عليهن، والأعضاء وأوصاف الحسن فيها وأوصاف عيوبها،
ودلائل الفراسة على حال الغلام أو الجارية، وحيل النخاسين، وكيف يسترون
العيوب الخ.

كما فلسفوا الكلام فى الحُسن، وحاولوا وضع قواعد للجمال، ووجد من
يسمى « جهابذة النقد » وهم الخبراء فى الجمال. قال أبو الفرج: « أكثر البصراء
بجواهر النساء الذين هم جهابذة النقد، يقدمون المجدولة التى تكون بين السمينه

(١) الموشى ص ٩٣ وما بعدها باختصار .

(٢) عنوانه رسالة جامعة لفنون نافعة فى شراء الرقيق وتقليب العبيد لابن بطلان الطبيب
النصرانى، عاش فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى، والكتاب مخطوط منه صورة
فوتوغرافية فى مكتبة الجامعة .

والمشوقة ، ولا بد أن تكون كاسية العظام» الخ .
وتكلموا في الألوان وحسنها ، وقال أبو الفرج الأصفهاني^(١) : « يمازج
البياض لونان يزيدانه حسناً ، الحمرة والصفرة ؛ فأما الحمرة فتعتري البياض من
رقة اللون وصحة الدم ؛ وأما الصفرة فتعتري البيض لاستتارهن وملازمتهن السكن
والنعمة والخفض والدعة ، وتعترين أيضاً ملازمتهن التضمخ بالطيب — ويقال
إن المرأة إذا كانت عتيقة الحسن ناعمة البدن فإن لونها يكون من أول النهار إلى
ابتداء العشية يضرب إلى الحمرة ، ومن ابتداء العشية إلى آخر النهار يضرب إلى
الصفرة» . وأفاضوا في ذكر محاسن كل عضو وعيوبه من الشعر والجبين والحواجب
والعيون والأنوف والحدود والشفاه والثغور والأعناق والمعاصم والأعضاء ، والأناامل
وتطريفها بالحمرة والسواد ، والنحور والصدور والثدي ، واختلاف الأذواق في
كبرها أو صغرها ، والنحور والسوق والأقدام ، ومرجوا ما قيل في كل ذلك من
التعبير الدقيق في اللغة بما قيل من عيون الأدب بما قاله جهاذة النقد .

كما تفننوا في دقة الفروق بين الغنيات ، وفلسفة الغناء ، « فعلاوة » أحسن
ما تكون إذا رفعت عقيرتها ، و « نهاية » إذا اندفعت في شدوها ، و « بلور » إذا
رجعت ، و « قلم » إذا تناوأت في استهلالها ، وتضاجرت على ضجرتها ، وتذكرت
شجوها الذي قد أضناها وأنضأها ، و « سندس » إذا تشاجت وتدللت وتفتلت
وتفتلت وتكسرت .

وتفلسفوا هل الغناء لذة الحس أو لذة العقل ، ولم يكون الغناء ألد وأطيب
إذا سند المغنى آخر؟ وهكذا^(٢) .

(١) في كتابه النشاء .

(٢) الإمتاع والمؤانسة : ٨٢/٢ وما بعدها .

وكان الرقيق صنفين متميزين : صنف أبيض ، وصنف أسود ويشمل الحبشان . فالصنف الأبيض كان من الترك والصقالبة ، والأرمن واليونان ، وكانت أكثر أسواقه سوق سمرقند ويأتي إليها رقيق تركستان وما وراء النهر والبلغار ، وسوق شرق أوروبا وهو يخرق ألمانيا إلى الأندلس ، وإلى موانئ إيطاليا وفرنسا إلى الشرق ؛ والصنف الأسود كان يجلب من السودان والحبشة وما إليهما .

وكان الرقيق الأبيض أغلى ثمناً وأكثر قابلية لتعلم الفن والموسيقى ، وكلما مهرت في فنها بولغ في ثمنها ، وكانت هناك أسواق في كل مدينة كبيرة للرقيق ، سوق كبيرة فيها حُجّر يسكنها الرقيق المعرض للبيع ، وهذا شأن الرقيق الشعبي . أما الرقيق الخاص الممتاز فيعرضه التجار على الأمراء والأغنياء ، أو يعرضونه في بيوتهم الخاصة ؛ كما كان أصنافاً من نساء وقتيان ورجال .

وقد قام هذا الرقيق على اختلاف أنواعه بأعمال كثيرة ، وتغلغل في الحياة الاجتماعية . فمنهم من كانوا جنوداً وقواداً تستعين بهم الدولة في حروبها ، حتى لقد بلغ بعضهم أرقى المناصب ، مثل مؤنس في العراق ، وجوهر الصقلي في المغرب ومصر ، وكافور الأخشيدي بمصر ، وسبكتكين في الأفغان .

ومنهن القيان في محال الغناء العامة ، ومنهن أمهات الأولاد ، وملاك اليمين ، يتغلغلن في بيوت الخلفاء والأمراء ، والأغنياء والأوساط ، ومنهن من يقمن في الخدمة في البيت ، وقد يبلغن منزلة عالية .

ومن الرجال الأرقاء من يقوم بالأعمال الصناعية والتجارية لسادتهم ، ومنهم طبقة الخصيان ، وقد انتشرت في هذا العصر انتشاراً كبيراً .

وقد كثر الخصاء في عهد الأمين ؛ فقد قالوا إنه بلغ من كلفه بالخصيان أنه

« طلبهم وابتاعهم ، وغالى بهم ، وصيرهم مخلوته فى ليله ونهاره ، وقوام طعامه وشرابه ، وأمره ونهيه »^(١) .

وقد عقد الجاحظ فصلاً ممتعاً فى كتابه الحيوان للخصاء وتأثيره فى الجسم والصوت والشعر والأعصاب ، وفى الذكاء ، كما عرض لأصناف الخصيان من السند والحبشة والنوبة والسودان . ويقول إن الروم أول من ابتدع الخصاء ... الخ^(٢) .

وكان الخصاء فى البيض والسود ، وقل أن كان المسلمون يقومون بالخصاء ، ولكنهم يشترونهم بعد أن يُحصوا ، وقد ارتفعت أثمانهم لتعرضهم للموت من هذا العمل .

وكثر فى عصرنا الذى نؤرخه استخدامهم فى بيوت الخلفاء والأغنياء ، حرصاً على النساء ؛ ومنهم من نبغ فى القيادة الحربية ، كمؤنس القائد ، وفائق قائد السامانيين ؛ وبلغ بعضهم منزلة عالية فى الإشراف على القصور والحظوة عند الأمراء ، كشكر غلام عضد الدولة .

ثم الغلمان فى الأوساط المستهتره ، حتى وعند بعض الأدباء والعلماء ، ونلاحظ ندره هذا أيام سلطة العنصر العربى فى صدر الإسلام . ويحكى الجاحظ أن هذا الولع بالغلمان نشأ فى الخراسانيين ، إذ كانوا يخرجون فى البعوث مع الغلمان ، وذلك حين سن أبو مسلم الخراسانى ألا يخرج النساء مع الجند ، خلافاً لبني أمية الذين كانوا يسمحون بخروج النساء مع العسكر^(٣) .

فلما جاء هذا العصر نجد الكثير من أحاديث الغلمان فى كتب الأدب ،

(١) الطبرى فى سيرة الأمين . (٢) الحيوان جزء أول .

(٣) انظر حضارة الإسلام فى القرن الرابع : ١٣٥/٢ .

وتراجم الرجال والأدباء . ويحدثنا أبو حيان التوحيدى ، أنه كان فى بغداد
حمسة وتسعون غلاماً جميلاً يغنون للناس ، وأنه كان بها صبى موصلى مغن ،
ملاً الدنيا عيارةً وخسارة ، وافتضح أصحاب النسك والوفار ، وأصناف الناس
من الصغار والكبار ، بوجه الحسن ، وشره المبتسم ، وحديثه الساحر ، وطرفه
الفاتر ، وقده المديد ، ولفظه الحلو ، ودله الخلوب ... يسرقك منك ، ويردك
عليك ... فخاله حالات ، وهدايته ضلالات ، وهو فتنة الحاضر والبادى^(١) ؛ كما
يحدثنا عن علوان غلام ابن عرس ، فإنه إذا حضر وألقى إزاره ، وحل أزواره ،
وقال لأهل المجلس : اقترحوا واستفتحوا فىنى ولدكم ، بل عبدكم لأخدمكم بغنائى
وأقرب إليكم بولائى ... لا يبقى أحد من الجماعة إلا وينبض عرقه ، ويهش فؤاده ،
ويدكو طبعه ، ويفكه قلبه ، ويتحرك ساكنه ، ويتدغدغ روحه الخ^(٢) .

وتفننوا فى أسماء الغلمان بما يدل على مقصدهم ، فسموا بـ «فاتن» و «رائق»
و «نسيم» و «وصيف» و «ريحان» و «جميلة» (هكذا بأداة التأنيث) وبشرى .
ومن هذا نرى كيف أثر الرقيق أثراً كبيراً من الناحية الاجتماعية والحربية
والمالية والأخلاقية .

الأدب وتصوير الحياة الاجتماعية :

كان النتاج الأدبى فى هذا العصر من نظم ونثر صورة صحيحة للحياة
الاجتماعية فى غناها وترفها من جانب ، و فقرها وبؤسها من جانب ، وفى اضطراب
الشؤون السياسية والحياة الاجتماعية ، وفى حياة اللهو وحياة الجد ، وفى انحلال

(٢) المصدر نفسه ص ١٧٨ .

(١) الإمتاع : ١٧٤/٢ .

الأخلاق ، وانغماس الأدباء فيها ، ونعى بعضهم عليها ، إلى غير ذلك من المظاهر .
ولعل خيراً مما يمثل أدب هذا العصر كتاب يتيمة الدهر للثعالبي .

وربما كان أكبر من يمثل كتاب النثر ابن العميد ، وابن عباد ، والخوارزمي
وبديع الزمان الهمداني ، وأبو حيان التوحيدى ، كما كان أكبر من يمثل
الشعر ، المتنبي ، وابن حجاج ، والشريف الرضى ، وأبو العلاء المعرى ،
والصنوبرى .

لقد كان من أعلام الكتاب من هم من الطبقة العليا فى المجتمع ، كان
العميد ، وابن عباد ، والوزير المهلبى ، والخصيبى ، والإسكافى وزير السامانيين ،
ويلحق بهم أمثال إبراهيم بن هلال الصابى الذى كاد يكون وزيراً .

فهؤلاء بحكم جاههم وعزهم وترفهم ، كان نتاجهم الأدبى مترفاً يتأنق فى فنه ؛
فأناقة اللبس والمأكل والمعيشة جديرة بأن تحمل أصحابها على التأنق فى الأدب .
فأدب هذا العصر تقدم خطوات فى السجع والمحسنات اللفظية ، والمبالغة البلاغية .
فالصابى وابن عباد أفرط فى السجع ، وكادا يلتزمانه ، وغيرهما يسجع وإن كان
لا يلتزم ؛ هذا إلى الإمعان فى الاستعارات والمجازات والتشبيهات ، وتفننوا فى
تزيين الكتابة تفنن أصحاب الطُرف فيما يصنعون من حليّ وأدوات زينة . وإذا
كانوا فى مركز رئيسى فى الحياة الاجتماعية كان طبيعياً أن يكون نتاجهم هو
المثل يقلد ويحتذى ، فمن كان أدبياً فقيراً تشبه بهم وحذا حذوهم ، وهم بذلك قد
خلقوا ذوقاً عاماً فى الأدب يستحسن طريقتهم ، فجارى الأدباء هذا الذوق ، كما
تراه عند الثعالبي فى كتبه فيما يُنبئنى وفيما يروى .

وأبو حيان يصف الصاحب بن عباد بقوله : « كان كلفه بالسجع فى الكلام
والقلم ، عند الجد والهزل ، يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد . قلت

لابن المسيبي: أين يبلغ ابن عبّاد في عشقه للسجع؟ قال: يبلغ به ذلك لو أنه رأى سبعة ينحل بموقعها عمروة الملك، ويضطرب لها حبل الدولة، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقيل، وكلفة صعبة، وتجشم أمور، وركوب أهوال، لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها، بل يأتي بها ويستعملها، ولا يعاباً بجميع ما وصفت من عاقبتها.

هذا إلى الإمعان في المبالغة كقول الصابي: «وصل كتاب قاضي القضاة بالألفاظ التي لو مازجت البحر لأعذبتة، والمعاني التي لو واجهت دجى الليل لأزاحتها وأذهبتة».

ويقول بديع الزمان الهمداني لرجل طلب إليه نسخة من رسائله: «ولو قدرت جعلت الورق من جلدي، بل من صحن خدي، والقلم من بناني، والمداد من أحفاني».

وإلى السجع والمبالغة ضروب من التزاويق، ككثرة التشبيه والاستعارة من مثل قول صاحب في وصف مجلس: «قد تفتحت فيه عيون الترجس، وتوردت فيه حدود البنفسج، وفاحت مجامر الأترج، وفتقت فارات النارج، وانطلقت أسنة العيدان، وهبت رياح الأقداح، ونفتت سوق الأنس، وامتدت سماء الند».

هذا إلى مثل عمل قطع أدبية خالية من بعض حروف الهجاء، أو تقرأ طرداً وعكساً الخ.

فهذه التزاويق اللفظية صدى للتزاويق في الحياة الاجتماعية، ونرى كثيراً من الأدب في هذا العصر شكلاً تنقصه الروح، كما كانت الحياة الاجتماعية المترفة كذلك شكلاً بلا روح.

ويتصل بهذا شيوع المقطوعات الشعرية القصيرة بجانب القصائد الطويلة ،
ويقابله في الموسيقى الميل إلى ما نسميه « الطقايق » بجانب « الأدوار » .
ولعل هذا نشأ من كثرة المجالس الأدبية غير الرسمية في منازل الأصدقاء
والأغنياء والأدباء ، وحبهم للملح والتنادر ووصف ما يعرض ، فأبيات قصيرة في
الغزل تحوى معنى واحداً رشيقياً ، وأبيات فيما يعرض من النوادر : كأبيات في إنسان
ساقط يلبس عمامة سرّية^(١) ، وفي إنسان شريف الأصل وضع النفس^(٢) ،
وإنسان تولى أقطاعاً فوجدها خربة ، وفي المهادة بالنبيذ ، وفي وصف مجلس أنس ،
وفي شكر على هدية ، وفي هجاء بخيل أو ثقيل ، وفي وصف زهر أو تمر^(٣) ، وفي

(١) مثل : يا من تعمم فوق رأس فارغ
حسنت وقتبّح كل شيء تحتها
لما بدا فيها أطلت تعجبي
لو أنني مُكنت مما أشتهى
لجعلت موضعك الثرى وجعلتها

(٢) مثل : قل للشريف المنتمى
آبائه وجدوده
وهو الوضع بنفسه
لا تجرين من الفخا
شاد الأولى لك منصبا
إن الشريف النفس لي
والعود ليس بأصله
وأحق من نكسته
من مجده من غيره

(٣) كقوله في وصف تمر :
أما ترى التمر يحكي
مخازناً من عقيق
كأنما زعفران
يشف مثل كووس

في الحسن للنظائر
قد قمت بنضار
فيه مع الشهد جارى
مملوءة من عقار

معنى عَرَضَ ، أو حادث حدث^(١) ؛ ونحو ذلك — وقد أكثروا من هذه المقطوعات حتى زاحمت القصائد^(٢) .

هذه ناحية ، وناحية أخرى وهي قوة أثر الرقيق في الناحية الاجتماعية ، وانعكاس صورتها في الأدب ؛ فقد ملئ أدب ذلك العصر بوصف القيان والجواري البيض والسود والعلمان ، حتى لا نكاد نجد شاعراً إلا وله شعر في هذا الباب .

فقليل الكثير في وصف الجواري البيض وحسنهن ، وكان هذا شيئاً مألوفاً ، وسموا النساء البيض الحسان الحُمُر ؛ وقال شاعرهم :

• هِجَانٌ عَلَيْهَا حَمْرَةٌ فِي بِيَاضِهَا يَرُوقُ بِهَا الْعَيْنِينَ ، وَالْحَسَنُ أَحْمَرُ
وشبهوهن بالنار من أجل ذلك ؛ ولكن هام بعض الشعراء بالجواري
السود ودافعوا عن جهن ، فأكثر من ذلك الشريف الرضي ، فقال من قصيدة :
أحبك يا لول الشَّبَابِ فإني رأيتكما في العين والقلب توأما
سواد يودّ البدر لو كان رقعةً بجهته أو شقّ في وجهه فما
سكنت سواد القلب إذ كنت مثله فلم أدر من عزّ من القلب منكما
وما كان سهم العين لولا سواده ليبلغ حبّات القلوب إذا رمى
إذا كنت تهوى الظبي ألمى فلا تلم جنوني عن الظبي الذي كله لمى
وله قصيدة أخرى في هذا المعنى منها :

لاموا ولو وجدوا وجدى لقد عذروا وذنّب من لام ذنب غير معتد

(١) كالذي يشكو من الزمان حظه ، فيقول :
في كل يوم لنا في الدهر معركة هام الحوادث في أرجائها قلق
حظي من العيش أكل كله غصص مر المذاق وشرب كله شرق
(٢) انظر نماذج منها كثيرة في كتب الثعالي .

لما تَمَادَوْا عَلَى عَذَابِي أَجَبْتَهُمْ
أَهْوَى السَّوَادِ بِرَأْسِي ثُمَّ أَمَقْتَهُ ؟ !
بَعِزٌّ مُعْتَرِفٌ لَا ذُلَّ مُعْتَذِرٌ
إِنِّي عَلِقْتُ سَوَادَ اللَّوْنِ بَعْدَكُمْ
فَكَيْفَ يَخْتَلِفُ اللَّوْنَانُ فِي نَظْرِي
لَوْلَمْ يَكُنْ فَوْقَ لَوْنِ الْبَيْضِ مَارِقَتٌ
عِلَاقَةٌ تَشْمَتُ الظُّلْمَاءُ بِالْقَمَرِ
وَاللَّيْلِ أَسْوَدٌ لِلْخَالِي بِلَذْتِهِ
صَنَعَ الْغَوَالِي عَلَى الْأَجْيَادِ وَالْعُدْرُ
وَاللَّقَى فِي ضَلَالِ اللَّيْلِ مُعَذَّرَةٌ
وَمَا لَهُ فِي الضَّحَى إِنْ ضَلَّ مِنْ عَذْرِ
وَكَيْفَ يَذْهَبُ عَنِ قَلْبِي وَعَنْ بَصْرِي
مَنْ كَانَ مِثْلَ سَوَادِ الْقَلْبِ وَالْبَصْرِ

وقبله استوفى هذه المعاني ابن الرومي في قصيدة طويلة منها :

أَكْسَبَهَا الْحَسَنَ أَنهَا صُبِغَتْ
صِبْغَةَ حَبِّ الْقُلُوبِ وَالْحَدَقِ
يَفْتَرُّ ذَاكَ السَّوَادُ عَنِ يَقْقِ
مَنْ نَغَرَهَا كَاللَّامِي النَّسِقِ
كَأَنَّهَا وَالْمَزَاحُ يَضْحَكُهَا
لَيْلٌ تَقْرَى دَجَاهُ عَنِ فَلَاقِ

وقال السَّلامِي :

يَا رَبِّ غَانِيَةٌ بِيضَاءُ^(١) تَصْحَبُنِي
مَنْ الْعَتَابُ كَوُوسًا لَيْسَ تَنْسَاغُ
أَشْتَاقُ طَرَّتْهَا أَمْ صَدَعْتُهَا وَمَعِي
مَنْ كَلِمَاتُ طُرِّ سَوَادٍ وَأَصْدَاغُ
وَقَدْ قَالُوا إِنَّ ابْنَ سَكْرَةَ الشَّاعِرِ قَالَ فِي قَيْنَةِ سَوَادٍ اسْمُهَا « خَمْرَةٌ »
عَشْرَةَ آلَافِ بَيْتِ الْخِ الْخِ .

كما تفننوا في وصف القيان وغنائهن وأكثروا ؛ وزعيمهم في ذلك ابن الرومي
كقصيدته في « وحيد » الغنية :

ظُبِيَّةٌ تَسْكُنُ الْقُلُوبَ وَتَرَعَا
هَا وَقَمْرِيَّةٌ لَهَا تَعْرِيدُ

(١) يريد بالبيضاء السوداء ، كما نادى نحن الأسود يا أبيض .

حسنها في العيون حسن جديد فلها في القلوب حُب جديد
تتغنى كأنها لا تُغنى من سكون الأوصال وهي تجيد
مدًا في شأو صوتها نَفْسٌ كا في كأنفاس عاشقها مديد الخ
ويقول في وصف قينة مغنية وراقصة :

فتاة من الأتراك ترمي بأشهرهم يُصبن الحشا في السلم لا في المعارك
ظللنا لها نُصبا تشكُّ قلوبنا بذاك الشجا الفتان لا بالنيازك
تطامن عن قد الطوال قوامها وأرّبي على قد القصار الحواتك
إذا هي قامت في الشفوف أضاءها سناها فشفّت عن سبيكة سابك

وتبعه الشعراء في هذا العصر الذي نورّخه ، وتفننوا في وصف القينات ،
فقال ابن زريق الكوفي في قينة تسمى « دبسية » حسنة الغناء قبيحة المنظر :

أبا سعيد أصبح لي يا سيدي ونديمي
مُنيت أمس بأمرٍ من الأمور عظيم
حصلت عند صديق حر ظريف كريم
أُسقي على شدة « دبسية » فتتفي همومي
فكنت حين تغنى لدى جنان النعيم
وإن نظرتُ إليها ففي العذاب الأليم
وإن شربت بصوت فالراح بالتسليم
وإن شربت بلحظ فالمهل بالزقوم
فكان سمعي بخير ومقلتي في الجحيم
الخ الخ .

والطامة الكبرى ما غشى المجتمع من حب للعلمان ظهر صداه في الأدب .

لقد كان أبو نواس يفتي في هذا الباب وحده أو مع فئة قليلة ؛ فلما جاء هذا العصر كان أكثر الشعراء يطرقون هذا الباب ، ويفيضون فيه ، في تحفظ حيناً ، وفي استهتار أحياناً ، كأبي تمام والبحتري والصنوبري ، وكشاجم وأبي الفتح البستي وابن حجاج ، وابن سكرة ، والقاضي التنوخي ، والثعالبي ، وأبي فراس ، والصابي ، كلهم له أشعار كثيرة في هذا الباب تفننوا فيها ، حتى الوزير المهلب لم يمنعه منصبه أن يقول في مملوك تركي جميل قاد جيشاً لمحاربة بني حمدان :

ظي يرقّ الماء في وجناته ويروق عوده
ويكاد من شبه العذا رى فيه أن تبدو نهوده
ناطوا بمعقد خصره سيفاً ومنطقة تؤوده
جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومن يقوده

وكان هؤلاء الغلمان مملوكين كما تملك الجوارى ، يقومون بالخدمة في البيوت وفي الأعمال التجارية ، وهؤلاء الشعراء يتغزلون فيمن يملكون أو يملكه غيرهم . ومن أشهر قصائد ذلك العصر قصيدة سعيد الخالدي التي يصف فيها غلامه بأنه معشوقه ، وخازن داره ، ومدبر ماله ، وناقد شعره ، وطاهيه ونديمه ، وغدت القصيدة مضرب المثل في هذا الباب :

ما هو عبدٌ لكنه ولد خولنيه المهيمن الصمد
شد أزرى بحسن خدمته فهو يدي والذراع والعضد
صغير سن كبير منفعة تمازج الضعف فيه والجلد

أنسى ولهوى وكل ما ربي مجتمع له فيه ومنفرد

خازن ما في داري وحافظه فليس شيء لديه يفتقد
ومنفق مشفق إذا أنا أسرفت وبذرت مقتصد
ويعرف الشعر مثل معرفتي وهو على أن يزيد مجتهد
وصيرفي القريض وزان دنانير المعاني الرقاق منتقد
يصون كتي فكلها حسن يطوي ثيابي فكلها جد
وأبصر الناس بالطبيخ فكلها كالمسك القلايا العنبر الثرد الخ
بل نرى من هذا ظاهرة غريبة ، وهي عدم تخرج ذوى المناصب الكبيرة
كالوزراء والقضاة من كثرة القول في هذا الباب ، مما يدل على أن الرأي العام
قد فتر استنكاره له ، وعده من باب الظرافة والمجون إلا في الأوساط المتشددة ؛
كالذى ذكر أبو حيان التوحيدى من أن أبا عبد الله البصرى كان يسمع غلاما يغنى :
أنسيت الوصل إذا بتنا على مرقد ورد
واعتنقنا كوشاح وانتظنا نظم عقد
وتعطفنا كفضنين فقدانا كقد
فطرب أبو عبد الله طربا شديداً ، فعابوه على ذلك ، وقد حوا في دينه
وألصقوا به الريبة (١)

وظاهرة أخرى وهي أن كثرة المجون ، والخلاعة ، والهجو واللعب في هذه
الأوساط الاجتماعية أنتجت شاعرين يمثلان هذا أشنع تمثيل ، وهما : ابن حجاج
وابن سكرة ؛ فابن حجاج قال فيه الثعالبي : « إنه في شعره لا يستتر من العقل
بسجف ، ولا يبنى جل قوله إلا على سخف . . . يمد يد المجون فيعرك بها أذن

(١) الإمتاع والمؤانسة : ١٧٥/٢ .

الحزم ، ويفتح جراب السخف فيصنع بها قفا العقل » . وقد استعمل في شعره بعض ألفاظ العوام ، وشبهه أفضع التشبيهات وأشنعها ، ومع هذا كله راج شعره رواجاً كثيراً ، فكان يباع ديوان شعره من خمسين ديناراً إلى سبعين ، ونفق شعره عند العامة والخاصة « فكانت تتفككه الفضلاء بثمار شعره ، وتستلمح الكبراء بينات طبعه ، وتستخف الأدياء أرواح نظمه ، ويحتمل المحشمون فرط رفته وقذعه . . . ولقد مدح الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء ، فلم يُخل قصيدة فيهم من سفاتج هزله ، ونتائج فحشه ، وهو عندهم مقبول الجملة ، غالى مهرب الكلام ، موفور الحظ من الإكرام والإنعام » .

ومثله ابن سكرة ؛ قال فيه الثعالبي أيضاً : « فائق في قول الملاح والظرف ، أحد الفحول الأفراد ، جار في ميدان المجون والسخف ما أراد » .

ولم يتحرجا من أن يقولوا أقبح المعاني في أصرح لفظ ، ومع ذلك جرى شعرهما في الناس ، واختار الثعالبي منه أخفه ، وهذا الأخف مقذع شنيع ؛ فرواج هذا الشعر أكبر دليل على ما وصل إليه الانحلال الخلقى في هذا المجتمع .

هذه صورة للأدب تصور الحياة الاجتماعية في نعيمها وترفها ، ولهوها ومجونها .
وتم وجه آخر هو الفقر والبؤس والتحايل على كسب العيش انعكست صورته على الأدب أيضاً .

من ذلك أن جماعة رأوا حياة الأغنياء والتجار والأدباء والعلماء في حرج وشدة ، فالأغنياء يصادرون ، والتجار ترهقهم الضرائب ، والأدباء والعلماء لا يجدون ما يأكلون إلا إذا اتصلوا بأمير ، فاتخذوا وسيلتهم في كسب العيش التسول عن طريق الأدب الشعبي أحياناً ، والنصب والاحتيال أحياناً ؛ ووجدت طائفة كبيرة

من هذا القبيل سمو الساسانيين ، أو بنى ساسان ، أو أهل الكدية .
وساسان هذا قد رووا فيه أقوالاً مختلفة ؛ فمن قائل إنه ساسان بن اسفنديار ،
كان من حديثه أنه لما حضر أباه الوفاة فوض أمر الحكم إلى ابنته ، فأنف
ساسان من ذلك ، واشترى غنماً وجعل يرعاها ، وعُيِّرَ بأنه راعي الغنم ، فقيل
ساسان الراعي ، وساسان الكردي ؛ ثم نسب إليه كل من تكدَّى (تسوّل) ،
فيقال فلان من بنى ساسان . وقيل كان ساسان ملكاً من ملوك العجم حاربه
دارا ملك الفرس ، ونهب كل ما كان له ، واستولى على ملكه فصار رجلاً فقيراً
يتردد في الأحياء ويستعطي ، فضرب به المثل . وقيل إنه كان رجلاً فقيراً بصيراً
في استعطاء الناس والاحتيال ، فنسبوا إليه ..

وكانت طائفة يتجول أفرادها في البلاد يستجدون ويحتالون ، وكان عند
بعضهم مقدرة أدبية يحتالون بها على الناس كشأن مانسبهم في مصر «الأدبانية» ،
وعند بعضهم دهاء وحيل لا يتراز المال .

هذه الطائفة كان من صداها في هذا العصر ظهور نوع من الأدب جديد ،
هو مقامات بديع الزمان الهمداني ، ثم الحريري ، وكلها حكايات قصيرة تدور
كل منها حول حيلة يحتالها رجل لكسب شيء من المال عن طريق التكدى
صيغت في أسلوب أدبي . وكل مقامات البديع بطلها أبو الفتح الإسكندري ،
وكل مقامات الحريري بطلها أبو زيد السروجي ، والبطل يحتال لقنص المال في
كل مقامة .

وقد ورد ذكر الساسانيين في مقامات بديع الزمان ، وأوضح لنا الحريري
في مقامته المسماة بالمقامة الساسانية كثيراً من البواعث الدافعة على التسول فقال :
« سمعت أن المعاش إمارة ، وتجارة ، وزراعة ، وصناعة ، فمارست هذه الأربع ،

لأنظر أيها أوفق وأنفع ، فما أهدت منها معيشة ، ولا استرعدت عيشة ، أما فرص
الولايات ، وخلس الإمارات ، فكأضغاث الأحلام ، والفي المنتسخ بالظلام ،
وناهيك غصة بمرارة الفطام ؛ وأما بضائع التجارات فعرضة للمخاطر ، وطعمة
للغارات ، وما أشبهها بالطيور الطائرات ؛ وأما اتخذ الضياع ، والتصدي للزدرع ،
فنهكة للأعراض ، وقيود عاتقة عن الارتكاض ، وقلم خلا ربها عن إذلال ،
أورزق رَوْح بال ؛ وأما حرف أولى الصناعات فغير فاضلة عن الأقوات ،
ولا نافقة في جميع الأوقات . . . ولم أر ما هو بارد المغنم ، لذيد المظم ، وافي
المكسب ، صافي المشرب ، إلا الحرفة التي وضع ساسان أساسها ، ونوع أجناسها ،
وأضرم في الخاقين نارها ، وأوضح لبني غبراء منارها . . . إذ كانت المتجر الذي
لا يبور ، والمنهل الذي لا يغور ، . . . وكان أهلها أعز قبيل ، وأسعد جيل ، لا يرهقهم
مس حيف ، ولا يقلقهم سل سيف . . . ولا يرهبون ممن برق ورعد ، ولا يحفلون
بمن قام وقعد . . . أينما سقطوا لقطوا ، وحينما انخرطوا خرطوا ، لا يتخذون أوطانا ،
ولا يتقون سلطانا . . . ثم بين شروط النجاح فيها ، وقال إنها تحتاج إلى النشاط
والحركة ، وإلى الفطنة ، وإلى القحة ، وإلى المكر والحيلة ، وروى أنه كان
مكتوبا على عصا شيخنا ساسان : « من طلب ، جلب ، ومن جال نال » ، كما أنها
تحتاج إلى الخلب بصوغ اللسان ، وسحر البيان ، والصبر ، وعدم اليأس ،
وتفضيل الدرّة المنقودة على الدرّة الموعودة الخ .

واشتهر من شعراء بني ساسان في القرن الرابع شاعران كبيران يعاصران
البديع ، ويسبقان الحريري ، وهما الأحنف العكبري ، وأبودلف الخزرجي .
فالأحنف كان أدب بني ساسان ببغداد ، وقد اشتهر بالظرف والشعر الرقيق في
الحرفة الساسانية كقوله :

قد قسم الله رزقي في البلاد فما يكاد يُدْرِكُ إلا بالتفاريق
ولست مكتسباً رزقاً بفلسفة ولا بشعر ولكن بالمخاريق
والناس قد علموا أني أخو حَيْلٍ فلست أنفق إلا في الرساتيق
ووضع قصيدة دالية في هذه الحرفة يقول فيها :

على أني بحمد الله في بيت من المجد
ياخواني بني ساسا ن أهل الجِدِّ والجَدِّ
لهم أرض خراسا ن ققاشان إلى الهند
إلى الروم إلى الزنج إلى البلغار والسند
إذا ما أعوز الطرق على الطراق والجند
حذاراً من أعاديهم من الأعراب والكرد
قطعنا ذلك النهج بلا سيفٍ ولا غمد
ومن خاف أعاديه بنا في الروع يستعدى^(١)

وأبو دلف كان من الواردين على صاحب بن عبّاد في الري ؛ وقد طوف
البلاد مكديا ، وحاكى الأحنف العكبري في داليتة الساسانية برأية مثلها مطلعها :
جفون دمعها يجري لطول الصد والهجز
ومنها :

على أني من القوم البهاليل بني الغر
بني ساسان والحامي السحمي في سالف العصر

(١) يقول — في البيت الأخير — إن ذوى الثروة إذا وقع أحدهم في يد قطاع الطريق
وأحب التخلص ، قال : إني من بني ساسان .

فنعن الناس كل النا س في البر وفي البحر
أخذنا جِزِيَةَ الخلق من الصين إلى مصر
إلى طنجة بل في كل أرض خيلنا تسرى
لنا الدنيا بما فيها من الإسلام والكفر
فمصطاف على الثلج ونشتو بلد التمر الخ

وقد استعمل في هذه القصيدة الألفاظ الاصطلاحية لبني ساسان ، وأبان كثيراً من أنواع حيلهم ، وطريقة ابتزازهم أموال الناس ، فمن باب استعمال الألفاظ — مثلاً استعماله دَوَّرَ إذ دار على السكك والدروب وسخر بالنساء ؛ ورَعَسَ بمعنى طاف على حوائت الباعة فأخذ من هنا جوزة ومن هنا لوزة ؛ و«الكذّابات» بمعنى العصبات يشدونها على جباههم يوهمون بها أنهم مرضى الخ . واستعمال الحيل مثل إيهام الناس أنه يُجمع الصدقة للخروج إلى الغزو ، أو يحتمل على من أصيب بوجع الضرس فيجعل دود الجبن فيما بين أسنانه ثم يخرجها ويوهم أنه أخرجه بالرقية ، أو يتعامى وهو بصير ، أو ينظر في الفال والزجر والنجوم ، أو يعطى قوماً دراهم حتى يأتوا ويسألوا عن نجمهم تحميساً للناس أن يحدوا حدوهم الخ .

ولهم لغة خاصة وأدب خاص واصطلاحات لا يكاد يفهمها غيرهم ، وتسمى «مناكاة بني ساسان» .

قال الثعالبي في وصف الصاحب بن عباد : « وكان الصاحب يحفظ مناكاة بني ساسان حفظاً عجيباً ، ويعجبه من أبي دلف وفور حظه منها ، وكانا يتجادبان أهدابها ، ويجريان فيما لا يفتن له حاضرهما » (١) .

(١) يتيمة : ١٧٥/٣ .

ولعل المناكاة مفاعلة من نكي بمعنى أتى عملاً لإغضاب الغير وقهره ، ومنه
« ضعيف النكايه أعداءه » ، فيظهر أنه كان من حيلهم أنهم يتهاجون
ويتسابون ويتخاصمون تصنعاً حتى يستلبوا مال الناس ؛ ولعل المقامة الدينارية
في مقامات البديع — التي تمثل رجلين يتسابان بأقبح السباب من هذا الضرب .
وقد جمع فيها كل سبِّ كان في عصره من مثل : يا برد العجوز ، يا وسخ الكوز ،
يا درهما لا يجوز ، يا سنّة البوس ، يا كوكب النحوس الخ ؛ فرد عليه الآخر بقوله :
يا قراد القرود ، يا لبود اليهود ، يا عدماً في وجود الخ ؛ وقد ذكر البديع في هذه
المقامة أنهما كانا من بنى ساسان .

فترى من هذا أن هذا الضرب من الحياة الذي جر إليه سوء الحالة الاقتصادية
وعدم التوازن الاجتماعي ، والإفراط في البؤس بجانب الإفراط في الترف ، قد
انعكست صورته على الأدب ، فأخرج المقامات وغيرها من أدب التكدي ، كما
أخرج شعراً كثيراً في شكوى الزمان وسوء الحال ، من مثل ما نراه في شعر ابن
لنكك البصرى كقوله :

يا زماناً ألبس الأحرار ذلاً ومهانة
لست عندى زمان إنما أنت زمانه
كيف ترجو منك خيراً والعلا فيك مهانه
أجنون ما نراه منك يبدو أم مجانه

وقوله :

جار الزمان علينا في تصرفه
عندى من الدهر ما لو أن أيسره
وأى دهر على الأحرار لم يجر
يلقى على الفلك الدوار لم يدّر

وقوله :

نحن والله في زمان غشوم
لو رأيناه في المنام فرعنا

يصبح الناس فيه من سوء حال حقٌ من مات منهم أن يهتأ
الح الخ .

وله في ذلك الشيء الكثير بين جد وهزل .

* * *

وكانت في هذا العصر مجموعة من الشعراء تمثل صور الحياة الاجتماعية المختلفة ؛
فالتنويري الحلبي يمثل الترف والنعيم والعيش الرغد ، ينعم بالقصر الفخم والحديقة
الفناء ، ويتغنى بجمال الأزهار وجمال الطبيعة ، فله شعر في الورد ، وشعر في حديقة
يعتز بها ويقول فيها :

لو كنت أملك للرياض صيانة يوما لما وطئ اللئام ترابها
وقطع في وصف الورد والترجس والأقحوان والنمام والسوسن والشقيق
والبنفسج والياسمين الخ ؛ ثم غزل قليل .

ويقيم مناظرة بين الورد والترجس فيقول :

زعم الورد أنه هو أبهى من جميع الأنوار والريحان
فأجابته أعين الترجس الغض بذلٍّ من فوقها وهوان
أيُّمًا أحسنُ التورّد أم مقلّة ريم من فضة الأجفان ؟
أم فإذا يرجو بحمرته الخد إذا لم يكن له عينان ؟ !
فرها الورد ثم قال مجيبًا بقياس مستحسنٍ وبيان
إن ورد الخلدود أحسن من عين بها صفرة من اليرقان
والذي مكن له في هذا غناه ؛ فقد كان له بمدينة حلب قصر فخم حوله الغروس
والرياحين وشجر النارج ، إلى ذوق فني يغني في جمال الأزهار .
يقابله الشاعر ابن لنكك الذي كان يصور البؤس والفقر وعبث الأقدار ؛

وقد قال فيه الثعالبي : « كانت حرفة الأدب تمسه وتحمشه ، ومحنة الفضل تتركه فتخدشه ، ونفسه ترفعه ، ودهره يضعه » ، فأفاض في شكوى الزمان ، وجوره ، وعجائبه :

نحن من الدهر في أعاجيبِ فنسأل الله صبرِ أيوبِ
أفقرت الأرض من محاسنها فأبك عليها بكاء يعقوبِ
وقد سبق أن ذكرنا بعض شعره في هذا الباب .

وإذ كانت الحياة الاجتماعية بين بئس ومجذود ، غنى ذلك نعمةً مرحمةً في ترفه ونعيمه وزهوره ، وغنى هذا نعمةً حزينةً في بؤسه وقفره وخذلان زمانه له . والمتنبى يمثل في مجتمعه ما كان من أحداث في الحروب بين الحمدانيين والروم ؛ فقد كان شاعر سيف الدولة ، وكان شاعراً فارساً يغشى الحروب مع سيف الدولة ، ويسجل حوادثها تسجيلاً أديباً في النصر والهزيمة ، والضرب والطعان ، والأسر والسبي ، فشعره في هذا وصف لمعمعة القتال والمعيشة الحربية . ثم هو يمثل الأدب الأرستقراطي ، فهو يمثل الأدب الذي يعيش على موائد الملوك ، فلم يكن يمدح إلا ملكاً أو شبه ملك ؛ وقد ترفع عن مدح الصحاب بن عبّاد وهو ما هو في منزلته وجاهه . فشعره ينقسم إلى سيفيات في سيف الدولة ، وكافوريات في كافور ، وعضديات في عضد الدولة ، ولكنه في مديحه هذا يرفع نفسه إلى مرتبة من يمدحه ، فيكون صديقاً أو حبيباً لا عبداً مستجدياً ؛ فيقول في كافور :

وما أنا بالباغى على الحبّ رشوة ضعيفُ هوى يُبغى عليه ثوابُ
وما شئتُ إلا أن أدلّ عواذلى على أن رأيتُ في هواك صوابُ

إذا نلت منك الودَّ فللال هين وكل الذي فوق التراب تراب
ويقول في ابن العميد :

تفضلت الأيام بالجمع بيننا فلما حمدنا لم تدمنا على الحمد
فجد لي بقلب إن رحلت فإني مخلف قلبي عند من فضله عندي
وفي سيف الدولة :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

سيعلم الجمع ممن ضمَّ مجلسنا بأنني خيرٌ من تسعى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمنت كلماتي من به صمم
أنام ملء جنوني عن شواردها ويسهر الخلق جرَّها ويختصم
ونقد المجتمع نقداً مرأً ، ولكن لا من ناحية أنه لم يجد ما يأكل
كابن لنكك ، ولا من ناحية أن مجتمعه في نفسه فاسد كأبي العلاء ، ولكن
من ناحية أنه وازن بين نفسه وكفايتها في الحرب والأدب وطلب المجد ، وبين
ملوك زمانه وأمرائه ، فرأى أنه أحق بالملك أو بالإمارة منهم ، فهجا المكان
والزمان والدنيا .

لحا الله ذى الدنيا مناخا لراكب فكل بعيد لهم فيها معذب

ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جُثث ضخام
وما أنا منهمو بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
فشبه الشيء منجذب إليه وأشبهنا بديانا الطغام

إذا ما الناس جرَّهم ليب فإني قد أكتهمو وذاقا

فلم أر ودّهم إلا خـداعاً ولم أر دينهم إلا نفاقاً
يقولون لى ما أنت فى كل بلدة وما تتبغى؟ ما أتبغى جَلَّ أن يُسمى (١)
كأن بنينه عالمون بأننى جلوبٌ إليهم من معادنه اليتما
وما الجمع بين الماء والنار فى يدي بأصعب من أن أجمع الجَدَّ والفهما

وإنى لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما
ويرى علة فساد المجتمع فساد ملوكه ، ولا يصلح للعرب إلا ملوك من العرب
وهو يرشح بذلك لنفسه :

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القزَمُ
أغاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمةً ضحكت من جهلها الأمم
ألا فتى يورد الهندى هامته كىما تزول شكوك الناس والتهم

ردى حياض الردى يانفس وأتركى حياض خوف الردى للشاء والنعم
إن لم أذكرك على الأرماع سائلة فلا دعيت ابن أم المجد والكرَم
أيملك الملك والأسياف ظامئة والطير جائعة لحم على وضم؟

ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً ومن عصى من ملوك العرب والعجم
فهو بذلك كله ينقد المجتمع ويذم الدهر من ناحيته الشخصية ، وهو أنه
لم يُنله مقصده .

كما أنه يمثل مجتمعه من ناحية أخرى دقيقة ؛ فقد كان فى الشام والعراق

(١) يريد قتل الولاة والاستيلاء على ملكهم .

ومصر بدو وحضر ، وثقف المتنبي ثقافة بدوية وحضرية ؛ وأقام في البدو حيناً وعاش عيشتهم واستفاد من ألفاظهم وأساليبهم ؛ ثم خالط سيف الدولة وكافوراً وعضد الدولة ، وأكل على موآئدهم ، ورأى ترفهم ونعيمهم ، فكان لذلك صدى في شعره ؛ فهو بدوى حضرى : بدوى في لفظه وأسلوبه وقوته وجزالته ، وفى كثير من معانيه وأوصافه كوصف الخيل والسلاح ؛ حضرى فى بعض معانيه كوصف الفأزة من الديباج عليها صورة ملك الروم وصور وحش وحيوان ، ويصف بطيخة من الندى فى غشاء من خيزران عليها قلادة لؤلؤ وعلى رأسها عنبر قد أدير حولها الخ .

ويحى إلى الأعرابيات ، ويتشبه بهن ، ويفضلهن على الحضريات :
مَنْ الْجَادِرُ فِي زِي الْأَعْرَابِ حُمْرَ الْحَيِّ وَالطَّيَا وَالْجَلَابِيبِ

ما أوجه الحضرة المستحسناتُ به كأوجه البدويات الرعايب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب
أين المعيز من الأرام ناظرة وغير ناظرة فى الحسن والطيب
أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة أوراكن صقيلات العراقيب
ومن هوى كل من ليست مموهة تركت لون مشيبي غير مخضوب
ومن هوى الصدق فى قولى وعادته رغبت عن شعر فى الرأس مكذوب
فهو يمثل أيضاً ما كان فى عصره من بداوة وحضارة ، وبساطة فى العيش وتركيب .

وابن حجاج ، وابن سكرة يمثلان الأدب الشعبي ، وحالة العصر فى مجونه

وهزله ، وفساده وأخطائه ، وأدبه المكشوف الذى لا يرعى خلقاً ولا ذوقاً ، فكل
لفظة مهما تعرت وسقطت صالحة لأن تكون فى الشعر ، وأن تقال فى حضرة
الملوك والوزراء والقضاة ، وتختار فيما يختار للمتأدين ، كما فعل الثعالبي فى اليتيمة ؛
وقد سبق القول فيهما .

والشريف الرضى يمثل طبقة الأشراف المثقفة الواسعة العلم ، المعترزة بجهاها
ونسبها ومنصبها ، تعيش عيشة الترف ، وتجالس الخلفاء والوزراء من ناحية ،
وتتصل بحكم منصبها بالشعب — إذ كان نقيب الأشراف — من ناحية أخرى .
فيقول الشعر اعتزازاً بالجاه والنسب ، ويخاطب الخليفة القادر :

عظفاً أمير المؤمنين فإننا فى دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوتت أبداً كلانا فى العلاء معرّق
إلا الخلافة ميزتك فإننى أنا عاطل منها وأنت مطوق

وهو لمركزه يقيد كثيراً من أحداث التاريخ العظمى التى شاهدها ؛ وقد
شاء القدر أن يكون فى مجلس الخليفة الطائع يوم فتك الفرس به ، كما كان
البحترى فى مجلس المتوكل يوم فتك الترك به ، وخرج هذا — كما خرج
ذاك — هائماً ، وقال (الشريف) فى ذلك قصيدته التى مطلعها :

« لواعج الشوق تحظيهم وتصميني » وقد تقدمت نبذة منها .

وله فى ذلك قصيدة أخرى منها :

إن كان ذلك الطود خراً فبعد ما استعلى طويلاً

لهنى على ماض قضى ألا ترى منه بديلاً

وزوال مُلكٍ لم يكن يوماً يقدر أن يزولا

وقال قصيدته الأخرى :

أى طودٍ ذُكِّ من أى جبالٍ لفتح أرض به بعد جبال
ما رأى حتى نزارٍ قبلها جبالاً سار على أيدي رجال

عقروا ليشاً ولو هاهوا به كان بعد العقر أرحى للصيال

وكأنى خلل الغيب أرى نغرة من جرحها بعد اندمال
وإذا الأعداء عدوك لها سلموا فضلك من غير جدال
لأضاعوا رايئاً في قولة كلاً المجد وقد نام الكوالي^(١)
يوم للشعب دهان من دم والمواضى للمقاديم^(٢) فوالى

فاتنى منك انتصار يميني فتلافت انتصاراً بمقالى الخ
وقد كانت ثورة البحترى أقوى وأصرح وأعنف ، إذ لم تكن النفوس
اعتادت « التقية » من كثرة ما أصابها من ظلم .

هذا إلى ما يسجله من أحداث كثيرة من رجال الدولة البويهية .

كما أنه كان شاعر الشيعة يشكو الزمان لعدم إنصافهم ، ويعدد مزاياهم
واستحقاقهم ، ويرثى لما أصابهم ، ويرثى الحسين الخ ، فهو لسان العلويين

(١) الرايئ : الناشئ . والكوالي : الحراس .

(٢) مقاديم جمع مقدم .

والطالبين ، وباعث الأمل فيهم في استرداد حقوقهم ، ونيل ما فاتهم .
ثم له الناحية الخاصة في حياته ، التي يمثل في شعره فيها حياة الأدباء والظرفاء
الموسرين من غزل في الحرائر والإماء ، من مثل قوله :

وتيس بين مزرعفر ومعضفر ومعتبر وممسك ومصندل
وإذا سألت الوصل قال جماها جودى ، وقال دلالها لا تفعل
وفي الغلمان على عادة عصره ، مثل قوله في غلام لا يحسن التكلم بالعربية :
حبيبي ما أزرى بحبيك في الحشا ولا غضّ عندي منك أنك أعجم
بنفسى من يستدرج اللفظ عجمة كما يعضغ الظبي الأراك ويبغم
وله الأبيات الكثيرة في وصف الزهور ، والساء والنجوم ، وحمامة وفرخها ،
والبرق والفجر الخ .

ويظهر أنه كان ضعيف الصحة ، مصاباً بالأمراض ، معرضاً للأخطار ،
فارتاع من الشيب وأكثر من وصفه ، وأجاد في مرأى أصدقائه وأقربائه إجابة
فائقة ؛ وقد كان صديقاً لكثير من علماء عصره وأدبائهم سبقوه إلى الموت ، فخلد
عواطفه نحوهم في شعر رقيق .

وأبو العلاء المعرى في لزومياته ناقد للمجتمع لا لما جناه المجتمع على شخصه
كما فعل المتنبي ، ولكن لما جناه المجتمع على نفسه .
فالملوك في وضعهم الحقيقي خدام الرعية ، ولكنهم بالفعل ظالموها ومستغلوها :
مُلّ المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدّوا مصالحها وهم أجراؤها
وهؤلاء الولاة المسيطرون على الناس لا عقل لهم ، ولا عدل عندهم ، شياطين

في ثياب ولاة ، لا يهتمهم جوع الناس إذا ملئت بطونهم ، وخرت رؤوسهم
ساس الأنام شياطين مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفلُ خصم الناس كلهم إن بات يشرب خمراً وهو مبطن
وحول هؤلاء الولاة بطانة قد جدت عواطفهم كأنها الحجارة أو أشد قسوة ،
لا يرحمون دمة مظلوم ، ولا يجيئون صرخة مستغيث :

يجور فينفي الملك عن مستحقه فتسكب أسراب العيون الدوامع
ومن حوله قوم كأن وجوههم صفاً لم يلبس بالغيوث الهوامع
والقضاة لا عقل ولا عدل :

وأى امرئ في الناس ألقى قاضياً فلم يُمضِ أحكاماً لحكم سدوم ؟
وقفهاء ، صناعتهم الكلام ولا روح ولا أحلام :

كأن نفوس الناس والله شاهد نفوس فرأش ما هن حلوم
وقالوا فقيهه والقيه موهة وحلف جدال والكلام كلوم
ووعاظ ، يقولون ما لا يفعلون ، ويأتون ما يتكرون :

رويدك قد غررت وأنت حرّ بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصبأ صباحا ويشربها على عميد مساء
وشعراء ، ليسوا إلا لصوصاً يعدون على من قبلهم في سرقة أقوالهم ، ويعدون
على الأغنياء بمديحهم لسلب أموالهم :

وما شاعر أو كم إلا ذئب تلصص في المدائح والشباب
أضرّ - لمن تودّ - من الأعدى وأسرق للمقال من الزباب (١)
وقوم تسودهم الخرافة فيلجئون إلى المنجمين والعرافين والمعزّمين ، وما لهؤلاء

(١) الزباب : الفأر العظيم .

من علم ، ولكنها شباك تنصب لاستدرار الأموال من المغفلين والمغفلات .
متكهن ومنجم ومُعزّم وجميع ذلك تحيّل لعاش

لقد بكرت في خفها وإزارها لتسأل بالأمر الضرير المنجما
وما عنده علم فيخبرها به ولا هو من أهل الحجا فيرجما
ويوم جهال المحلة أنه يظل لأسرار الغيوب مترجماً
ولو سأله بالذي فوق صدره لجاء بمين أو أرم وجمما

سألت منجمها عن الطفل الذي في المهدي كم هو عأش من دهره
فأجابها مائة ليأخذ درهما وأتى الحام وليدها في شهره
وبعد أن تقدم طبقات ، من الملوك إلى القضاة إلى الوعاظ إلى التجار إلى
النساء ، تقدم جملة ، فكل الناس في كل زمان ومكان لا يصلحون إلا للفناء :
وهكذا كان أهل الأرض مذفطروا فلا يظن جهول أنهم فسدوا

لو غربل الناس كما يُعدّموا سَقَطاً لما تحصل شيء في الغرايل
أو قيل للنار خُصّي من جني ، أكلت أجسادهم وأبت أكل السرايل

يحسنُ مرأى لبني آدم وكلهم في الذوق لا يعذب
ما فيهم برّ ولا ناسك إلا إلى نفع له يجذب
أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب
وسبب فسادم أنهم منحوا العقل فلم يُصغوا إليه ولم يلتفتوا له ، وتجادبهم

عقلٌ يُرشد وطبعٌ يُغوي ، فجروا وراء طبعهم وأهلوا عقلم .
فأوسعُ بني حواء هُجراً فإنهم يسرون في نهج من الغدر لا حب
وإن غيرَ الإيمِ الوجوهَ فما ترى لدى الحشرِ إلا كلَّ أسودٍ شاحب
إذا ما أشار العقل بالرشد جرهم إلى الغيِّ طبعٌ أخذه أخذ ساحب

واللب حاول أن يهذب أهله فإذا البرية ما لها تهذيب
من رام إنقاذ الغراب لكي يرى وضح الجناح أصابه تعذيب

إلى الله أشكو مهجةً لا تطعني وعالمٌ سوء ليس فيه رشيد
حجى مثلُ مهجور المنازل دائرٌ وجهلٌ كمسكون الديار مشيد

العقل إن يضعف يكن مع هذه الدنيا كعاشق مومسٍ تقويه
أو يقو فهي له كحرة عاقلٍ حسناء يهواها ولا تهويه

فطبعك سلطان لعقلك غالبٌ تداوله أهواؤه بالتشخص
سُقيت شراباً لم تهناً ببردته فُعنت من بعد الصدى بالتغصص

وهكذا أفاض في نقد المجتمع ومظاهره ونظمه وأخلاقه ، وكان في كل ذلك موقفاً كل التوفيق ، ومظهر توفيقه أنه استطاع في مهارة أن يدرك عيوب المجتمع في جملتها وتفصيلها ، ويعالج ظواهرها ، ويعمق في النفس الإنسانية في دقة وتحليل ، فيصل إلى دخالها .

وأبو حيان التوحيدى يمثل فى أدبه وكتابه علاقة الأدباء والعلماء بالولاية والوزراء والأغنياء ، فإن أعطوا حسنت حالهم ، وإلا ساء عيشهم ؛ إذ لا مورداً آخر لهم . وقد كان أبو حيان غير موفق فى استجدائه ، ولعل سبب ذلك أنه لم يكن لبقاً ولا ما كراً — إلى طول لسان ، وإقذاع فى الهجو لمن لا يعطيه ، فعاش بأسأ فقيراً ؛ ومثل ذلك فى أدبه فيقول : « فقدت كل مؤنس وصاحب ، ومرفق ومشفق ، ووالله لربما صلّيت فى المسجد ، فلا أرى إلى جنبى من يصلى معى ، فإن اتفق فبقال أو عصار أو نداف أو قصاب ، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرنى بصنانه ، وأسكرنى بنتنه ؛ فقد أمسيت غريب الحال ، غريب النحلة ، غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، محتملاً للأذى ، بأسأ من جميع ما ترى ، متوقفاً ما لا بد من حلوله ، فشمس العمر على شفا ، وماء الحياة إلى نضوب ، ونجم العيش إلى أفول » .

وقد خاب ظنه فيمن أمّ لهم من مثل ابن العميد ، وابن عباد ، وابن سعدان . وأبى الوفاء الموزنجاني ، فملاً كتبه : الصداقة والصديق ، والإمتاع والمؤانسة ، والمقاسبات ، بالشكوى منهم ، ثم لم يحظ بطائل .

هذا هو الأدب فى ذلك العصر يصور المجتمع فى شتى نواحيه .

الباب الأول
مصر والشباب

الكتاب الثاني

مراكز الحياة العقلية في ذلك العصر

الباب الاول

مصر والشام

توالى على مصر والشام في هذا العهد الدولة الطولونية (٢٤٥ - ٢٩٢) ،
ثم الأخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨) ، والدولة الحمدانية في حلب والموصل (٣١٧ -
٣٩٤) ، والفاطمية من (سنة ٣٦٢ - سنة ٥٦٧) .

وكانت الحركة العلمية فيها تنمو تبعاً لسنة النشوء والارتقاء .
وأظهر الحركات العلمية فيهما الحركة الدينية من تفسير وحديث وقرآن
وقراءات ؛ إذ كانت هي الحركة العلمية الغالبة في المملكة الإسلامية ، وكان
رجالها أنشط العلماء ، وأميلهم إلى الرحلة للإفادة والاستفادة ، للوازع الديني القوي
عندهم . فكان يرد على مصر والشام كثيرون من العلماء الدينيين من العراق
وفارس والحجاز والمغرب ، فينشرون علمهم ويأخذون ما ليس عندهم ؛ فكان
مسجد عمرو بن العاص في القسطنطينية ، ومسجد أحمد بن طولون ، والأزهر فيما
بعد مصدراً لثقافة دينية واسعة . كما كان المصريون والشاميون يرحلون إلى
الأقطار الأخرى لأخذ العلم من علماءها .

فكان من أشهر المحدثين والفقهاء في العهد الطولوني وقبله الربيع بن سليمان
المُرَادِيُّ بالولاء ؛ وقد امتاز بسعة الحفظ وجمع الرواية ، وإن لم يمتاز بالذكاء . له
الفضل الأكبر في حفظ مذهب الشافعي وروايته ؛ فقد كان تلميذه ، وكان مقرباً
إليه ؛ وقد نفعته قلة ذكائه في اعتماده على الضبط والتثبت أكثر مما يعتمد على
الذكاء والاستنتاج ؛ وأدرك الشافعي هذه الميزة فيه فقر به إليه ، وعنى بتحميله

علمه . وأفاد مصر كثيراً فإنه عُمر طويلاً ، إذ عاش نحو ست وتسعين سنة (١٧٤ — ٢٧٠) ، فيكون قد عُمر في العهد الطولوني نحو ستة عشر عاماً . وكان يدرس في جامع الفسطاط ؛ ثم استدعاه أحمد بن طولون إلى التدريس في مسجده لما بناه ، وقد نشر في مصر أحاديث الشافعي وفقهه ، كما روى أحاديث كثيرة رواها عن غير الشافعي كعبد الله بن وهب ، ويحيى بن حسان ، وأسد بن موسى . وكان قبلة أنظار المحدثين من الأقطار المختلفة ، فيرحلون إلى مصر يأخذون عنه وعن أمثاله ، فروى عنه من جامعي الكتب الصحيحة أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، وغيرهم ؛ وعلى الجملة فكان الربيع بن سليمان مصدر حركة علمية دينية كبيرة .

وكما كان الربيع بن سليمان إمام الشافعية في مصر ، كان أبو جعفر الطحاوي إمام الحنفية فيها ، وكان من طحا وهي بلدة قديمة كانت في الوجه القبلي من أعمال « المنيا » . كان الطحاوي من عرب الأزدي الذين نزلوا بها ، وتفقه على خاله المُرزني صاحب الشافعي ، ثم تحول إلى مذهب أبي حنيفة ، وتعلم على من كان بمصر من العلماء ، ومن دخلها من الغرباء ؛ وكان مجتهداً في المذهب يضارع أبا يوسف ومحمداً ، استفاد من جمعه بين فقه الشافعية والحنفية ، فكان يجتهد ، ويخالف أبا حنيفة عند قيام الدليل ، وينقد الحديث نقد معني وإن صحح السند في نظر المحدثين ؛ فكانت شخصيته غير شخصية الربيع بن سليمان ، إذ كان هذا عمدة في الرواية ؛ وذلك عمدة في الدراية . وكان من أسبق المؤلفين المصريين في فنون مختلفة : ألف « معاني القرآن » ، ومشكل الآثار ، وشرح بعض كتب محمد بن الحسن ، وألف في التاريخ والنوادر الفقهية . عاش من سنة ٢٢٩ — سنة ٣٢١ ، فعاصر الدولة الطولونية كلها ، وترك في مصر حركة حنفية تسير حركة الربيع الشافعية ، وتمتاز بإعمال العقل في التشريع بجانب النقل .

كما اشتهر من المالكية روح بن الفرج أبو الزنباغ الزبيرى المتوفى سنة ٢٨٢ ،
وأحمد بن الحارث بن مسكين المتوفى سنة ٣١١ . وأمثال هؤلاء كثيرون
لا نطيل بذكرهم .

وهذه الدراسة كانت تعتمد على تفهم معانى القرآن ورواية الحديث ، وأقوال
الأمّة ، واستنباط الأحكام ، كل على أصول مذهبه ؛ وكانت على نمط الدراسة في
العراق موضوعاً ومنهجاً ، إذ كانت رحلة العلماء في حركة مستمرة كأن المملكة
الإسلامية كلها على اتساع رقعتها بقعة واحدة .

وكان النابغون في مصر من علماء الدين إما من أصل عربي يرجع نسبه إلى
القبائل العربية الفاتحة أو الوافدة ، أو من أصل مصرى أصله قبضى وأسلم هو
أو أسلم أجداده ، كما نرى في عثمان بن سعيد الملقب بورش أحد القراء المشهورين ،
فأصله قبضى ، وانتهت إليه رئاسة الإقراء بالديار المصرية ؛ وقد مات بمصر
سنة ١٩٧ ، وخلف من حمل علم القراءة بعده واستمرت حركته إلى هذا العصر
الذى نؤرخه .

وربما كان أكبر من يمثل الثقافة الدينية في هذا العصر أيضاً أبو بكر بن
الحداد ؛ فقد وصفوه بأنه عالم بالقرآن والحديث ، والأسماء والكنى ، والنحو
واللغة ، وسير الجاهلية ، والشعر والنسب ، واختلاف الفقهاء ، وكان أعلم أهل
وقته ، وولى القضاء للأخشيذ ، وعاش تسعاً وسبعين سنة ، ومات سنة ٣٤٤ ،
وكان يلقب ببقية مصر وفصيحا وعابدها ؛ وكان يدرّس في جامع عمرو ، وأخذ
عنه أعلام الجيل الذى بعده .

ويصف ابن زولاق سيبويه المصرى ، فيقول : « كانت فيه صفات تشبه
التصدرين : يحفظ القرآن ، ويعلم كثيراً من معانيه وقراءته ، وغريبه وإعراجه

وأحكامه ، عالماً بالحديث وبغريبه ومعانيه وبالرؤاة ، ويعرف من النحو والغريب ما لقب بسببه سيويوه ، ويعرف صدرًا من أيام الناس ، والنوادر والأشعار ، وتفقه على قول الشافعي .

فيكاد يكون هذا برنامجاً عاماً لهذا النوع من الثقافة الدينية .

ولم تكن هناك مدارس في العهد الطولوني والأخشيدي ، إنما تلقى الدروس في المساجد كمسجد عمرو ، وابن طولون ، وفي بيوت الأمراء والوزراء والعلماء ، وكانت هناك سوق تسمى « سوق الوراقين » تباع فيها الكتب ، وأحياناً تدور في دكا كينها المناظرات^(١) .

وكان بجانب الحركة الدينية حركة تعنى بتدوين أحداث مصر وتاريخها ، وتسلك في منهجها مسلك المحدثين ، غاية الفرق أن المحدثين يجمعون ما روى عن رسول الله والصحابة والتابعين فيما يتعلق بالأحكام الدينية ونحوها ، وهؤلاء يروون ما قيل في أحداث التاريخ ؛ إنما الأسلوب واحد في الرواية رجلاً عن رجل « حدثنا فلان عن فلان قال » ؛ وقد لا يدققون في هذا الباب دقهم في باب الأحاديث الدينية ، ولذلك نرى من تخصص في التاريخ أيضاً من كانت دراستهم أساسها الحديث والفقه ، ولنسق مثلاً لذلك — حدثنا أبو الأسود النضر بن عبد الجبار ؛ قال : حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب قال : « كان عمر بن الخطاب قد أشفق على عمرو (بن العاص عند فتحه لمصر) فأرسل الزبير في أثره في اثني عشر ألفاً ، فشهد معه الفتح^(٢) — والمؤرخون من هذا النوع أوثق فيما نقلوه عن الفتح الإسلامي وبعده منهم فيما نقلوه عن تاريخ قبل الفتح ، فهذا مملوء

(١) انظر أخبار سيويوه المصري لابن زولاق ص ١٨ .

(٢) من كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم .

بالخرافات لجهلهم بالمصادر الصحيحة في تاريخ اليونان والرومان ومن قبلهم إلى قدماء المصريين .

وقد اشتهر من هؤلاء ثلاثة مؤرخين في هذا العصر .
(١) ابن يونس : وهو أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى من بيت عرف بالحديث والفقہ ، عربي الأصل من قبيلة الصّدْف ؛ كان جده من أصحاب الشافعي ، وقد قال فيه (الشافعي) : « ما رأيت بمصر أعدل من يونس » . وانتهت إليه رياسة العلم بمصر — فجاء حفيده هذا يعني بتاريخ مصر بعد أن تتقف بالفقه والحديث ، وقرأ ما كتبه مؤرخو مصر قبله كابن عبد الحكم وغيره ؛ وقد عاش في العهد الطولوني والأخشيدي ، عاش من (٢٨١ — ٣٤٧) ، ووُجِدَت عنده العصبية لمصر يؤرخها ويعني بحوادثها ورجالها ؛ وقد جمع لها تاريخين : أحدهما وهو الأكبر يختص بالمصريين منشأ ؛ والآخر صغير فيمن ورد على مصر من الغرباء ؛ وقد غنى بجمع أحوال الناس ، مطلعاً على ما ألف فيها لعصره ، واشتهر بين المصريين بذلك ، فقد قال أحد شعرائهم في رثائه :

مازلت تلهج بالتاريخ تكتبه حتى رأيناك في التاريخ مكتوبا
نشرت عن مصر من سكانها علماً مبعجلاً بجمال القوم منصوبا
كشفت عن فخرهم للناس ما سبجت وُرُق الحمام على الأغصان تطريباً
أعربت عن عرب ، تقبت عن نجب سارت مناقبهم في الناس تنقيباً
أشرت ميتهم حيّاً بنسبته حتى كأن لم يمت إذ كان منسوباً
ومهما كان هذا الشعر ضعيفاً فقيه دلالة على تقدير هذا المؤرخ واتجاهه في نشر مفاخر مصر ورجالها .

(٢) الكندي : محمد بن يوسف من كندة ، كان من أعلم الناس بتاريخ

مصر ، وأهلها وأعمالها وثغورها ، وهو مصري نشأ بمصر ومات بها (٢٨٣ — ٣٥٠) .
وقد تفتت ثقافة محدّثين ، وكان أشهر أساتذته ابن قديد ، والنسائي أحد
مؤلفي الصحاح ؛ وقد زار النسائي مصر إذ كان عمر الكندي سبعة عشر عاما ،
وأقام بها زمناً فأخذ عنه الكندي ؛ ثم غنى بتاريخ مصر ، وألف في ذلك كتباً
كثيرة ، ألف في ولاية مصر وقضايتها (وقد وصل إلينا هذا الكتاب) ، وألف
في خطط مصر ، وكتاباً في موالى مصر ؛ وقد كانت هذه الكتب مما اعتمد عليها
المقريزي في خطّطه . وكتابه الذي وصل إلينا عن قضاة مصر وولاتها يلقى لنا
ضوءاً كبيراً على حالة مصر السياسية والاجتماعية والأدبية ؛ إذ يعرض للأحداث
التي حدثت في عهد كل وال ، وكيف تصرف فيها ، وما قيل فيها من الشعر .

(٣) ابن زولاق : وهو الحسن بن إبراهيم الليثي بالولاء . غنى كذلك
بتاريخ مصر ، فأكمل أخبار قضاة مصر للكندي إلى سنة ٣٨٦ ، أي
قبل وفاته بسنة ، فقد مات سنة ٣٨٧ ؛ وعنى بخطط مصر فألف فيها ،
وكانت خطّطه أساساً لمن أتى بعده من مؤلفي الخطّط كالقضاعي ، وابن بركات ،
ثم المقريزي .

كما ألف لنا كتاباً في أخبار سيويه المصري أحد عقلاء المجانين ، فروى
لنا طرفاً من جيد أقواله ، وغريب أحداثه ، وأفادنا به فوائد كثيرة عن الحالة
الاجتماعية في العهد الأخشيدي .

وجاء مصر في العصر الأخشيدي المؤرخ المشهور « المسعودي » بعد أن رحل
إلى فارس والهند ، وسيلان والصين . وطاف المحيط الهندي ، ورحل رحلة أخرى
إلى ما وراء أذربيجان وجرجان ، ثم إلى الشام ، ثم إلى مصر ، ونزل القسطنطينية
وأقام بمصر نحو سنتين إلى أن توفي سنة ٣٤٦ — وكان مؤرخاً ممتازاً على من

سبقه بكثرة تجاربه من رحلاته ومشاهداته ، ودقة نظره ، وسعة اطلاعه ، والتفاته إلى آفاق واسعة في التاريخ ، كالحياة الاجتماعية والاقتصادية ، والمذاهب الدينية ، وأصول الحضارة ، وغير ذلك ؛ وقد بُعد في التاريخ عن أسلوب المحدثين ، فانتقل به خطوة أخرى . ولا شك أن وجوده بمصر ونشر كتبه فيها كان له أثر كبير في الثقافة التاريخية .

وانتقلت من العراق إلى مصر صورة من خلافت المتكلمين ، وذلك على أثر أمر المأمون بأخذ العلماء والقضاة بالقول بخلق القرآن ، وإرسال منشور لولاية الأمصار بتنفيذ ذلك ، فجاء المنشور مصر في جمادى الثانية سنة ٢١٨ ، فامتحن والى مصر قاضيا ، فقال : بخلق القرآن ، وامتحن الشهود والمحدثين ، وكانت الحركة عنيفة عذب فيها خلق كثير ، وخاصة في عهد الواثق . قال الكندي : « إن أمر الحنة (حنة خلق القرآن في مصر) كان سهلا في ولاية المعتصم ، لم يكن الناس يؤخذون بها شاءوا أو أبوا حتى مات المعتصم ؛ وقام الواثق سنة ٢٢٧ فأمر أن يؤخذ الناس بها ، وورد كتابه على محمد بن أبي الليث (قاضي مصر) بذلك ، وكأنها نار أضرمت ... فلم يبق أحد من فقيه ولا محدث ، ولا مؤذن ولا معلم ، حتى أخذ بالحنة ، فهرب كثير من الناس ، وملئت السجون ممن أنكر الحنة . وأمر ابن أبي الليث بأن يكتب على المساجد : « لا إله إلا الله رب القرآن الخالق » ، فكتب ذلك على المساجد بفسطاط مصر ، ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المسجد ، وأمرهم ألا يقربوه . »

وكان طبيعياً أن تثير هذه المسألة في الجو المصري الجدل في الاعتزال وأصوله ، واعتنقه قوم ورفضه آخرون . ولما جاء المتوكل وأغلق هذا الباب ظل

قوم يعتقدون مذهب الاعتزال ، ويدعون إليه في العصر الطولوني والأخشيدي ،
ولكن في شيء من الخفية ، فيذكر ابن زولاق أن أبا علي محمد بن موسى
القاضي الواسطي كان وجه المتكلمين بمصر ، وكان يعلم الاعتزال ، وأنه كان بها
أبو عمران موسى بن رباح الفارسي أحد شيوخ المعتزلة^(١) ، وأن ميبويه المصري
كان معتزلياً ، وكان يتكلم على أصول المعتزلة ، ويقول بخلق القرآن ، والناس
يحتملون منه ما لا يحمّلونه من سواه للوثة كانت فيه .
وكل ذلك في العهد الأخشيدي .

ثم ظهر في جو مصر مظهر ديني من نوع جديد على يد ذى النون المصري
أحد مؤسسي التصوف ، والذي أحدث ضرباً من الكلام لم يعرف قبل في مصر
— أصله من إخميم من صعيد مصر من أبوين نوبيين ، وأخذ العلم المعروف
في مصر من حديث وقفة ؛ ووصف بأنه كان يعرف الكيمياء ، ويقراً الخط
الهيروغليفي على البرابي ، ورحل إلى بلاد كثيرة كتاهرت بالمغرب ، وبيت المقدس
وأطاكية ، واليمن وبغداد ، ومكة والمدينة ، وقابل الرهبان وتحدث إليهم ؛ ثم
طلع على الناس في مصر بكلام لم يألفوه ، من الكلام في الأحوال والمقامات
والحب الإلهي ، وأن مصادر المعرفة النقل والعقل ، وشيء آخر زاده هو وهو
الكشف ، وأن هناك علماً ظاهراً ، وعلماً باطناً ، ويعرض هذه الأقوال في
أسلوب شعري جذاب .

وطبيعي أن تلاقى هذه التعاليم معارضة من الفقهاء الذين لا يؤمنون إلا
بالنقل فإن تجاوزوه فبالعقل ؛ أما الكشف وعلم الباطن والحب والفناء فشيء

(١) سيبويه المصري : ١٨ .

لم يسمعوا به ، فعارضوه . وكان على رأس المعارضين عبد الله بن الحكم شيخ المالكية ، وابن أبي الليث قاضي مصر الحنفي القوي الجبار ؛ فكلاهما لم يرض عن ذى النون وتعاليمه ، فاضطهد واتهم بالزندقة ، وأخيراً أرسل إلى دار الخلافة ببغداد فسجن في المطبق ، ولكن مساعي الصوفية ببغداد واتصالهم برجال المتوكل جعلت المتوكل يستدعيه ويسمع منه ويتأثر بمواعظه ، فيرسله إلى مصر مكرماً ، ويعيش بعد ذلك تسع سنوات ينشر فيها تعاليمه آمناً مطمئناً حتى يموت سنة ٢٤٥ . ومن ذلك الحين وجدت بمصر الحركة الصوفية ، وقويت حتى كان لها دخل في عزل بعض الولاة . وتتابع في مصر بعد ذى النون أقطاب الصوفية ، مثل أبي الحسن بنان بن محمد بن حمدان بن سعيد الجمال ، أصله من واسط ، وصحب الجنيد ووفد على مصر ، ورأس الحركة الصوفية ، وأنكر على ابن طولون تصرفاته ، وأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر في غير مبالاة ؛ فرووا أنه قدمه لأسد فلم يؤذ ، فشاع ذكره في مصر ، ولما مات خرج في تشييع جنازته أكثر أهلها . ومن كلامه : « أجَلَّ أحوال الصوفية الثقة بالمضمون ، والقيام بالأمر ، والمراعاة للسر ، والتخلي من الكونين ، والتعلق بالحق » ؛ مات بمصر سنة ٣١٦ .

هذه هي الحركة الدينية في مظاهرها المختلفة ، وبجانبيها كانت حركة لغوية ونحوية عُنى بها لأنها مفتاح لفهم القرآن والسنة ، وأداة لفهم الأحكام ؛ وقد نبغ في هذا العصر ابن ولّاد ، وأبو جعفر النحاس .

فأما ابن ولّاد أحمد بن محمد بن الوليد فمصرى أصله من تميم ، وكان من أسرة عرفت بالنحو هو وأبوه وجده ، وقال عنه المبرد إنه شيخ الديار المصرية في العربية ؛ وقد درس النحو ببغداد على الزجاج ، ثم أتى مصر ينشر النحو

على طريقة العراق ، وألف كتاب « الانتصار لسيبويه » ، وكتاب « المقصور والممدود » ، وهو يذكر فيه ما ورد من الكلام مقصوراً وممدوداً ، فيقول — مثلاً — الانى : واحد ساعات الليل ، مقصور يكتب بالياء ... وإنى الشيء : بلوغه وإدراكه ، كذلك مقصور ، قال تعالى : « إلى طعام غير ناظرين إناه » أى بلوغه وإدراكه . . . وأما الأناة بفتح أوله فممدود ، وهو الانتظار والتأخير ؛ قال الخطيئة :

وآنت العشاء إلى سهيل أو الشعري فطال بي الأناة

والأناة : واحد الآنية — والأناة : من قولهم رجل ذو أناة وهي التؤدة ؛ قال : النابغة : « الرفق يُمّن والأناة سعادة » .

ويقال : امرأة أناة ، وهي التي فيها فتور عند القيام ، والأصل وناة لأنها من ونى ينى ؛ قال تعالى : « ولا تنيا في ذكرى » .

وهكذا يأتي بكل الكلمات اللغوية التي ورد فيها القصر والمد ويشرحها ويستشهد لها ويصرفها — وهو اتجاه لغوى طريف .

مات سنة ٣٣٣ في الدولة الأخشيديّة .

وأما أبو جعفر النحاس فمصرى عربى الأصل من مُراد ؛ وقد تعلم النحو كذلك في العراق ، وأخذ عن الأخص الصغير والمبرد والزجاج ؛ وكان هو وابن ولاد متعاصرين ، زميلين في التعلم ببغداد وفي التعليم بمصر . وقد ألف « إعراب القرآن » ، و « معانى القرآن » ، و « المهج في اختلاف البصريين والكوفيين » وشرح المعلقات ، وشرح المفضليات ، وشرح أبيات الكتاب (كتاب سيبويه) ، والاشتقاق ، وأدب الكتّاب الخ .

فكانا بعلمهما مصدراً لحركة قوية لغوية ونحوية في مصر ، وتعلم عليهما

كثيرون . وقد مات النحاس سنة ٣٣٨ بعد ابن ولاد بست سنوات .
وقد ذكر لنا المتنبي في شعره في كافور أنه كان يدرّس بمصر فن «الأنساب» ،
وعدّ من مضحكات مصر أن الذي كان يدرّس أنساب العرب نبطى من أهل
العراق فقال :

بها نبطى من أهل السواد يدرّس أنساب أهل الفلا
وقد ذكروا أنه يريد ابن حنزابه ، وهو متحامل عليه ؛ فابن حنزابه هذا
من أفضل الناس وعلمائهم ، وهو ابن وزير العراق الخطير ابن الفرات . وكان
ابن حنزابه وزيراً للدولة الأخشيدية ؛ وكان عالماً محبباً للعلماء يقرّبهم ويشجعهم
ويصلهم بماله ، حتى قصده من علماء الأقطار الأخرى كثيرون . وكان يملى الحديث
بمصر وهو وزير ، ويقصد إليه المحدثون يسمعون روايته ، وله تأليف في أسماء
لرجال والأنساب . وقد أراد المتنبي أن يمدحه فعمل فيه قصيدته : « بادِ هَوَاكَ
صبرت أم لم تصبرا » ، ولكنه لم ينشدها ، فلما غضب على كافور ، وغضب على
وزيره وخرج من مصر حوّلها في مدح ابن العميد ، وعرض بابن حنزابه .

أما الحركة الأدبية فقد كان الشعر فيها هزيباً . ومنذ الفتح الإسلامي إلى
هذا العهد الطولوني والأخشيدى لم تُخرج مصر شاعراً كبيراً يضاهى شعراء
العراق أمثال أبي تمام والبحتري وابن الرومي ، وهي ظاهرة تستحق النظر ؛ فقد
كانت الفنون راقية ، كما يتجلى ذلك في عمارة القسطنطينية ومسجد ابن طولون ؛
وكما كان فن الغناء لا بأس به ، كما يتجلى في وصف القيان في العهد الطولوني ؛
وكانت هناك العناية باللبساتين والأزهار ، ولكن مع هذا كله لم تنبع الشعاعية
لا في العرب الذين وفدوا إلى مصر وأبنائهم ، ولا في المصريين الصميمين ممن

تعلموا العربية ؛ فوجد الفقيه المصري الذي يضاهاى أئمة العراق كالليث بن سعد ،
ونجد المحدث الذي يشابه أكبر محدثى العراق كإبن هبيرة ، والنحوى الذى
يضاهاى نحوى البصرة والكوفة كإبن ولاد ، ونجد أتباع الأئمة فى هذه العلوم
يشبهون الأتباع فى العراق ، ولكن لا نجد الشاعر النابغ هنا الذى يساوى الشاعر
النابغ هناك ، فهل هذا لأن الشعر كان لا يرقى إلا فى بلاط الخلفاء ؟ أو أن
نبوغ الشعراء كنبوغ العطاء والزعماء خاضع لقوانين لم تستكشف بعد ، أو لغير
ذلك من أسباب ؟

على كل حال كان أشهر شعراء مصر فى العهد الطولونى الحسين بن عبد السلام
المعروف بالجل ، لم يصلنا شعره كاملاً ، وإنما هى تتف هنا وهناك ؛ قال فى مديح
أحمد بن طولون :

له يدٌ كم خَلَّتْ من يدٍ سحابة عمت بأنوائها
وهو لدى الهيجاء ليثٌ إذا ما ثقلت قامت بأعبائها
انظر إلى مصر بسلطانه تر الهدى فاض بأرجائها

وربما تظهر مصريته فى ميله إلى الفكاهة ، كقوله فى ابن المدبّر صاحب
خراج مصر ، وكان الشاعر إذا مدحه ولم يرتض شعره أمر من يحمّله إلى المسجد ،
 ويفرض عليه أن يصلّى عدداً معلوماً من الصلاة ، فقال الجمل :

قصدنا فى أبى حسن مديحاً كما بالمدح تُنتَجَعُ الولاية
فقالوا يقبل المدح لكن جوائزهم عليهم الصلاة
قللت لهم وما تغنى صلاتى عيالى ؟ إنما الشأن الزكاة
فيأمر لى بكسر الصاد منها فتصبح لى الصلاة هى الصلات

وله شعر رواه الكندى فى أخبار القضاة ، كان يقوله فى المناسبات عندما
يحدث فى مصر بعض الأحداث .

كما كان هناك شعراء آخرون في العهد الطولوني والأخشيدي في مثل منزلة
الجميل ؛ ولذلك لما جاء المتنبي مصر في عهد كافور ابتلعهم كما يبتلع الحوت الكبير
السماك الصغير ، ولم يستطع أن يجاريه منهم أحد .

وربما كان حظ النثر الفني أكبر من حظ الشعر ، كما يتجلى ذلك فيما بقي
لنا من رسائل « ابن عبدكان » ككتابه الذي كتبه على لسان أحمد بن طولون
لابنه لما خرج عليه ؛ ففيه المسحة العراقية ، جمعت بين طول نفس الجاحظ ،
وجزالة عمرو بن مسعدة ، مع ميل إلى السجع كثيراً ، والمزاوجة دائماً ، وإطناب في
اللفظ ، وتكرار المعنى من مثل قوله : « واعلم أن البلاء ياذن الله قد أظلك ،
والمكروه إن شاء الله قد أحاط بك ، والعساكر بحمد الله قد أتتك كالسيل في
الليل ، تؤذن بحرب وويل ، فإننا نقسم ، ونرجو ألا نجور ونظلم ، ألا ثنى عنك
عنانا ، ولا تؤثر على شأنك شانا ، ... منفقين كل مال خطير ، ومستصغرين
بسببك كل خطب جليل ، حتى تستمر من طعم العيش ما استحليت ، وتستدفع
من البلايا ما استدعيت الخ » (١) .

وكما يتجلى في كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف المعروف بابن الداية ؛ فقد
ألفه في العهد الطولوني ، وبناه على قصص لمن عملوا الجميل فكوفئوا عليه
بالجميل ؛ فموضوعه طريف ، وعرضه في أسلوب قوى جزل متين .

إلى جانب هاتين الحركتين الدينية والأدبية ، كانت حركة العلوم الفلسفية
التي تشمل الطب والنجوم والإلهيات وما إليها ، وهي بقية من بقايا مدرسة
الإسكندرية ؛ وقد كانت لا تزال باقية في مصر ، وإن ضعفت بالفتح الإسلامي ،

(١) الكتاب بطوله في صبح الأعشى : ٥/٧ وما بعدها .

وإقبال الناس على الثقافة العربية يتعلمون لغتها ، ويبحثون فيما أتت به من دين .
فالتجته أكثر الثقافة إلى الاشتغال بالدين الإسلامي وعلومه ، واللغة العربية
وعلومها ، وبقيت بقية قليلة للفلسفة وما إليها ، كان أكثرها من رجال الدين
النصراني لامتزاج النصرانية بالأفلاطونية الحديثة ، عندما اختلف النصراني
في عقائدهم ، وتجادلوا في مذاهبهم ، والتجأ كل مذهب إلى الاستعانة بالفلسفة
اليونانية في تأييد رأيه .

وكان أمراء مصر وولايتها يحتاجون إلى الأطباء والمنجمين ، وقل أن
يجدوم إلا في النصراني . والطب والتنجم فرعان من فروع الفلسفة اليونانية ،
كان من اشتغل بهما مضطراً أن يقرأ الفلسفة اليونانية في إلهياتها
وطبيعتها وكيمياءها .

فاشتهر من هؤلاء : سعيد بن نوفل النصراني طبيب ابن طولون ؛ كما اشتهر
سعيد بن البطريق ، « وكان طبيباً نصرانياً من أطباء فسطاط مصر ، وكانت له
دراية بعلوم النصراني ومذاهبهم . . . وقد عين بطريقاً على الإسكندرية ومات
سنة ٣٢٨ ، وله كتب في الطب ، والجدل بين المخالف والنصراني الخ »^(١) .
وقد ترجم كتاب الحيوان لأرسطو ، وكتاب السماء والعالم لأرسطو أيضاً .
على أن بعض علماء المسلمين المصريين كان يتصل بهذه الحركة ويتصل
برجالها ويقرأ كتبها ؛ فابن الداية الذي سبق ذكره كان — كما يقول ياقوت
« أحد وجوه الكتاب الفصحاء والحساب والمنجمين ، مجسطى ، إقليدسى ،
حسن المجالسة ، حسن الشعر » ، ونجده ينقل في كتابه المكافأة عن أفلاطون ؛
ونجد ذا النون المصري الصوفي المشهور يتحدث عن الرهبان ، ويروون

(١) انظر طبقات الأطباء : ١٦/٢ .

في ترجمته أنه كان يعرف : السحر ، والطلسمات ، والكيمياء . ويعقد الأستاذ نيكلسون ما في بعض أقواله من شبه بينها وبين أقوال « الأفلاطونية الحديثة » . من هذا نفهم أنه كانت هناك حركة فلسفية في مصر من أثر مدرسة الإسكندرية ، ومن أثر الوافدين من العراق ، بما ترجموا من كتب ، وأن بعض العلماء المصريين اشتغل بها وتأثر وتثقف ؛ وإن كان ذلك في دائرة ضيقة إذا قيست بدائرة علوم الدين واللغة .

وكانت الحركة العلمية في الشام في العهد الطولوني والأخشيدي صورة للحركة في مصر ، وربما كانت أصغر منها ، لأن مركز الولاة الطولونيين والأخشيديين في مصر ، ولأن مصر كانت أغنى ؛ وكثيراً ما كان يزدهر العلم في ظل البلاط وتشجيع الأمراء وكثرة المال ؛ إلا أن الشعر فقد كان في الشام أرقى منه في مصر ، كما سيأتي .

فكان في الشام طائفة كبيرة من المحدثين والفقهاء والصوفية والقراء — أمثال إخوانهم في مصر ؛ فالإمام الأوزاعي البيروتي المتوفى سنة ١٥٧ كان له من الأثر في الشام في الحديث والفقهاء ما ليلث بن سعد والشافعي بمصر . واشتهر بها كثير من المحدثين والفقهاء في هذا العصر كزكريا بن يحيى السَّجَزِي المتوفى سنة ٢٨٩ ، وكان يعرف بخياط السنّة ؛ ومحمد بن عوف الطائي الحمصي المتوفى سنة ٢٦٩ ، وكان أعرف الناس بالأحاديث التي رويت في الشام ؛ وأبي بكر محمد بن بركة الحميري اليحصبي التفسريني وأمثالهم كثير .

وانتشرت حركة التصوف من مصر إلى الشام عن طريق ذى النون المصري وأصحابه ؛ فظهر في الشام طاهر المقدسي ، أخذ التصوف عن ذى النون المصري وغيره

وسماه الشبلي « حبر الشام » ، ورويت عنه أقوال كثيرة في التصوف كقوله :
« المفاوز إليه منقطعة ، والطرق إليه مطمسة ، والعاقل من وقف حيث وقف
العوام » . كما ظهر أبو عمرو الدمشقي ، أخذ التصوف عن أصحاب ذى النون
وغيرهم ، مات سنة ٣٢٠ ، وكان يقول : التصوف غض الطرف عن كل ناقص ،
ليشاهد من هو منزّه عن كل نقص . وأبو إسحاق الرقي كان من أكبر
مشايخ الشام ومتصوفيا ، مات سنة ٣٢٦ الخ .
ويكاد يكون الطابع لحركة الحديث والفقهاء والتصوف في مصر والشام ،
طابعاً واحداً تقرب القطرين ، وتبادل العلماء الزيارة والرحلة ، حتى كان كثير
منهم يصعب عده مصرياً أو شامياً لتوزع عمره وحياته العلمية بين القطرين .

وكما كان لمصر فضل في اتجاه بعض العلماء لتدوين تاريخها وخطتها على يد
ابن عبد الحكم ثم ابن يونس ثم الكندي ثم ابن زولاق ، كان للشام فضل من
نوع آخر على يد أبي عبد الله محمد بن أحمد المقدسي (٣٣٦ إلى نحو سنة ٣٨٠) ،
فقد رأى أن المملكة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لم توصف وصفا كافياً
لا من ناحيتها الجغرافية ، كوصف المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار والمدن
والأمصار والنبات والحيوان ، ولا من الناحية الاجتماعية كاللغات والألوان
والمذاهب والنقود والمزايا والعيوب ، والسعة والخصب والضيق والجذب — ولم
يعجبه ما كتبه من قبله ، وشعر بقصور المؤلفات في ذلك فجرد نفسه لهذا وطاف
أكثر البلاد الإسلامية ، وكتب كتابه : « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » ،
وكان فيه من أصدق الرحالين ملاحظة ، وأدقهم نظراً ، وأحسنهم لموضوعه
ترتيباً ؛ وقد عمل كل حيلة والتحق بكل صناعة ، وتحمل كل مشقة ، وأنفق فوق

عشرة آلاف درهم وعرض نفسه لكل خطر في سبيل الحصول على المعرفة ، وجاءته فكرة « الخرائط » فعملها في كتابه هذا . بل جاءتته فكرة الخرائط الملونة ، واختيار الألوان المناسبة ؛ فالحدود والطرق بالحمرة ، والرمال بالصفرة ، والبحار بالخضرة ، والأنهار بالزرقة ، والجبال بالغبرة .

وقد ساح في جزيرة العرب والعراق والشام ومصر والمغرب ، ثم بلاد فارس والسند والهند . وألف كتابه هذا بعد هذه الرحلة سنة ٣٧٥ ، فكان له الفضل الأكبر في هذا الباب .

ولكن لعل أكبر حركة في الشام وأعظمها في الأدب واللغة وعلومها ، كانت في ذلك العصر في بلاط الأمراء الحمدانيين في حلب ، وخاصة أيام سيف الدولة — فقد فاقت حركة الشعر واللغة والنحو وما إليه نظيرتها في مصر ، ووربما في العراق أيضاً ؛ قال الثعالبي : « لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها — في الجاهلية والإسلام — والكلام يطول في ذكر المتقدمين منهم ؛ فأما المحدثون فخذ إليك منهم : العتّابي ، ومنصور النعمري ، والأشجع السلمي ، ومحمد بن زرعة الدمشقي ، وربعة الرقي — على أن في الطائيين (يعني أبا تمام والبحتري) اللذين انتهت إليهما الرياسة في هذه الصناعة كفاية ، وهما هما . . . فأما العصريون ففياً أسوقه من غرر أشعارهم أعدل الشهادات على تقدم أقدامهم . والسبب في تبرز القوم — قديماً وحديثاً — في الشعر قرّبهم من خطط العرب ، ولاسيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومدخلتهم إياهم ؛ ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين

فضاحة البداوة ، وحلاوة الحضارة ، ورزقوا ملوكاً وأمرءاً من آل سَهمان وبنى
ورقاء ، هم بقية العرب والشغوفون بالأدب ، والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين
آداب السيف والقلم ، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينقده ، ويثيب على
الجيد منه فيجزل ويفضل ، انبعثت قرائحهم في الإجابة فقادوا محاسن الكلام
بألين زمام ، وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا . وأخبرني جماعة من أصحاب الصاحب
ابن عباد أنه كان يُعجَب بطريقتهم المثلى التي هي طريقة البحترى في الجزالة
والعذوبة ، والفضاحة والسلاسة ، ويحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم ،
ويستلمى الطارئین عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من تلك البدائع واللطائف
حتى كتب دفترًا ضخم الحجم عليها ، وكان لا يفارق مجلسه ولا يملأ أحد منه
عينه غيره ، وصار ما جمعه فيه على طرف لسانه ، وفي سن قلمه ، فطوراً يحاضر به
في مخاطباته ومحاوراته ، وتارة يحله أو يورده كما هو في رسائله^(١) . وقد ذكر
أنه تخرج في هذه المدرسة الحلبية الحمدانية أبو بكر الخوارزمي ، والقاضي
أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني مؤلف «الوساطة بين المتنبي وخصومه» .
كانت ميزات سيف الدولة — وإن شئت فقل وعيوبه أيضاً — مشجعة
على النهوض بالشعر والأدب والعلم إلى غاية بعيدة ؛ فهو عربي من تغلب يعز
بنسبه ومجد يته ، وفيه الطباع العربية التي في البيوتات الكبيرة ، يطمح كل
الطموح لحسن الأحداث ، ولذلك كان يهمله أن يكون حوله أعظم الشعراء
يشيدون بذكره ويسير شعرهم في الآفاق مدحاً فيه ؛ ثم هو فارس فيه صفات
الفروسية من إباء وفخر ونصرة للضعيف ، ومعونة للباس والفقير ، يرى المجد والمروءة
في الزهادة في المال للاعتزاز بالمجد ، والإغداق على الأصدقاء والشعراء وسيلة

(١) يتيمة الدهر : ٦/١ وما بعدها .

للمطمح؛ يهيمه جانب الإنفاق كيف يغدق أكثر مما يهيمه جانب العدل في تحصيل المال كيف يجمع، ولهذا يوم مات أكثر البكاء منه والبكاء عليه، كما وصفه بعضهم — الصفتان البارزتان فيه هما مجد العرب: الشجاعة والكرم، وهما عنصرا المروءة التي أكثر تمدح العرب بها، إلى ملكة جيدة في تقدير الشعر وتذوقه، والإعجاب بجيده إعجاباً لا قيمة للمال بجانبه.

عرف الشعراء والأدباء والعلماء ذلك كله منه فقصده من كل جانب، وبالغوا في تحسين بضاعتهم وتجويد فهمهم، وإحسان عرضهم، فنالوا منه ما تمنوا، وكان ذلك نعمة على الفنون والعلوم، وثروة بقيت على الزمان، وإن ضاعت به ثروة آل حمدان.

فهو يصوغ دنانير خاصة للصلوات وزن كل دينار عشرة مثاقيل، عليها اسمه وصورته، ويعطى منها الببغاء الشاعر فيقول:

نحن بجود الأمير في حرمٍ نرتع بين السعود والنعم
أبدع من هذه الدنانير لم يجرّ قديماً في خاطر الكرم
فقد غدت باسمه وصورته في دهرنا عؤذة من العدم

فيعطيه سيف الدولة عشرة أخرى.

ولما عزم أبو إسحاق الصبّابي على الرحيل من حلب طلب إليه أن يقول شيئاً في سيف الدولة، فقال ثلاثة أبيات، فأعطاه كيساً مختوماً بختم سيف الدولة فيه ثلاثمائة دينار^(١) — وجاء إليه القاضي أبو نصر محمد النيسابوري، فطرح من كفه كيساً فارغاً ودُرْجاً فيه شعر استأذنه في إنشاده فأذن له، فأنشده قصيدة أولها:

حَبَاؤُكَ معتاد وأمرُكَ نافذٌ وعبدك محتاج إلى ألف درهم

(١) اليتيمة ١٤/١.

فأمر له بألف دينار فجعلت في الكيس الفارغ الذي كان معه (١)

ولما أنشده المتنبي قصيدته التي يقول فيها :

يا أيها المحسن المشكور من جهتي والشكر من قبل الإحسان لا قبلي

أقل أنل أقطع أجل علّ سلّ أعدّ زد هسّ بشّ تفضّل أدنّ سرّ صيل

وقع سيف الدولة تحت كل كلمة من هذه ، فوقع تحت أنل : نحمل إليك من

الدراهم ما تحب ؛ وتحت « أقطع » : أقطعناك ضيعة كذا بياض حلب ؛ وتحت سر :

قد سررناك . فقال المتنبي : إنما أردت من التسرى ، فأمر له بجارية (٢) الخ .

وذاع صيته بالعباء والجود في سائر الأقطار الإسلامية ، فقصده الفقراء

والمعوزون ، فكان يكتب إليه في حوائج المحتاجين من العلماء ومن نكبتهم

الدهر بعد عزة . ووضع بديع الزمان الهمداني مقامة من مقاماته سماها المقامة

الحمدانية ، أسسها على أن سيف الدولة قد حضر مجلسه جماعة من الأدباء . وقد

عُرض عليه فرس جميل ، فقال سيف الدولة للأدباء : « أيكم أحسن صفته جعلته

صلته » ، فوصفه أبو الفتح الإسكندري (بطل مقامات البديع) فأعطاه له ،

والقصة بالضرورة خيالية ، ولكنها تمثل صورة سيف الدولة في أذهان الأدباء .

ثم كان مجلسه مجلساً ممتازاً ؛ فقد منح ذوقاً وقدرة على فهم الأدب وإدارة

الحديث في المجالس ، واستخراج أفضل ما عند العلماء والأدباء بالعباء والتنافس ،

فأحياناً يقول البيت ويطلب من الشعراء أن يجيزوه ، فيقول مرة : من يجيز

هذا البيت :

لك جسمي تُعَلِّه فدمي لم تُحِلِّه ؟

(١) ابن خلكان : ٥٢١/١ . (٢) العكبري : ٧٩/٢ .

فيجيزه أبو فراس :

أنا إن كنت مالكا فلي الأمر كله

وينقد المتنبي مرة في قوله :

وقفت وما في الموت شكُّ لواقف كأنك في جنن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلِّمى هزيمة ووجهك وضاح وثرعك باسم

ويفضل سيف الدولة أن يكون نظام البيتين هكذا :

وقفت وما في الموت شكُّ لواقف ووجهك وضاح وثرعك باسم

تمر بك الأبطال كلِّمى هزيمة كأنك في جنن الردى وهو نائم

ثم يتجدلان في ذلك ، كلُّ يؤيد وجهة نظره (١) .

وسأل جماعة من العلماء بحضرته يوماً : هل تعرفون اسماً ممدوداً وجمعه مقصور ؟ فقال ابن خالويه : إنى أعرف اسمين لا أقولها إلا بألف درهم ، لثلا يؤخذ بلا شكر ، وهما : صحراء وصحارى ، وعذراء وعذارى .

وكتب الأدب فيها الكثير مما دار في مجلس سيف الدولة بين المتنبي وخصومه مما سبب رحيله .

فلا عجب أن يكون بلاطه أزهى بلاط في عصره . يقول الخوارزمي ، حينئذ لأيام قضاها فيه : « وقد رأيت في هذه الحضرة (حضرة أبي محمد العلوي بأصبهان) أقواما كنت شاهدتهم على باب سيف الدولة ومنهل الصفا عذب ، وعود الشباب رطب ، وذكرت بهم مآرب هنالك ، وأياما سُلِّبَتْها سلبا ، ونزعت من يدي غضبا ، ودعها كأنى كنت أقطعه وثباً » (٢) .

(١) انظر اليتيمة : ١٣/١ . (٢) رسائل الصابي : ١٧١ .

فالمثنبي قال فيه أحسن شعره وأقواه وأصدقه عاطفة ، لأن سيف الدولة كريم
يغدق على الشعراء كما قال الشاعر :

لئن جاد شعر ابن الحسين فإنيما لأجل العطايا ، والله تفتح الله
ولأن أبا الطيب وجد في سيف الدولة إلى جانب كرمه فروسية واعتزازاً بالعربية
وحياة حربية ، وطموحاً إلى المجد ، وكلها صفات ينزع إليها المثنبي ويراها مثله ؛
فكان المثنبي يتغنى بمثله محققاً في سيف الدولة ، ولو لم يكن سيف الدولة لكان
المثنبي شيئاً آخر . وشعره بعد أن فارقه شعر صناعة إلا ما كان من عتبه على
الزمان وحديثه عن نفسه . وقد صدق إذ قال بعد أن مدح سيف الدولة :

لا تطلبنَّ كريماً بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يداً ختموا
وهذا أبو فراس ابن عم سيف الدولة ، والذي يصغره بنحو عشرين عاماً ،
قد نشأ في حضنة سيف الدولة ورعايته بعد أن قتل أبوه ، وتعلم في ساحته وغزا معه
بعض غزواته ؛ فقد قال أبو فراس : « غزونا مع سيف الدولة وفتحنا حصن
العيون في سنة ٣٣٩ ، وسنى إذ ذاك تسعة عشر عاماً » . وقد أخذ أسيراً في
إحدى غزواته للروم وأرسل إلى القسطنطينية ، وبقى فيها أربع سنوات قال
فيها أحسن شعره ؛ وقد أرسل أكثره إلى سيف الدولة طالباً منه أن يفديه ،
عائناً أحياناً ، شاكياً أحياناً . وإنما كان أحسن شعره لأن وقوعه في الأسر وبعده
عن وطنه أهاج شاعريته ورقق عاطفته ، فامتلاً شعره برقة الحنين ، وحلاوة
الحب ، وذلل الأسر :

دعوتك للجفن القريح المسهد لدى وللنوم القليل المشرّد
وما ذاك بخلاً بالحياة وإنها لأولُ مبدول لأولُ مجتدى
ولكنني اختار موت بني أبي على سروات الخليل غير موسّد

وَأَبِي وَتَأْبَى أَنْ أَمُوتَ مُوسِداً بِأَيْدِي النُّصَارَى مَوْتِ أَكْداً أَكْداً

فَلَا تَقْعُدَنَّ عَنِّي وَقَدْ سِيمَ فِدَيْتِي فَلَسْتَ عَنِ الْفَعْلِ الْكَرِيمِ بِمُقْعَدِ
فَكَمْ لَكَ عِنْدِي مِنْ أَيْادٍ وَأَنْعَمَ رَفَعْتَ بِهَا قَدْرِي وَأَكْثَرْتَ حُسْدِي

أَقْلَنِي أَقْلَنِي عَشْرَةَ الدَّهْرِ إِنَّهُ رَمَانِي بِنَصْلِ صَائِبِ النَّحْرِ مُقْصِدِ
وَلَوْ لَمْ تَتَلْ نَفْسِي وَوَلَاءَكَ لَمْ أَكُنْ لِأُورِدْهَا فِي نَصْرِهِ كُلِّ مَمُورِدِ
وَلَا كُنْتُ أَلْقَى الْأَلْفَ زُرْقاً عِيُونِهَا بِسَبْعِينَ ، فِيهَا كُلُّ أَشْأَمِ أَنْكَدِ

وَإِنَّكَ لِلْمَوْلَى الَّذِي بَكَ أَقْتَدِي وَإِنَّكَ لِلنَّجْمِ الَّذِي بَكَ أَهْتَدِي
وَأَنْتَ الَّذِي عَرَّفْتَنِي طَرِقَ الْعَلَا وَأَنْتَ الَّذِي أَهْدَيْتَنِي كُلَّ مَقْصِدِ الْخ
وِيرثِي لِحَالِ أُمِّهِ فِي قَصِيدَتِهِ :

مِصَابِي جَلِيلٍ وَالْعِزَاءُ جَلِيلٍ وَظَنِي بِأَنَّ اللَّهَ سَوْفَ يُزِيلُ
وَيَبْكِي وَطَنَهُ :

وَمِنْ مَذْهَبِي حُبُّ الدِّيَارِ وَأَهْلِهَا وَاللِّنَّاسِ فِيهَا يَعْتَقُونَ مَذَاهِبَ
الْخ... الخ

فَإِنْ اسْتَخْرَجَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ مِنَ الْمُتَنَبِّيِّ مَدِيحاً رَائِعاً ، فَقَدْ اسْتَخْرَجَ مِنْ
أَبِي فِرَاسٍ أَسَى رَائِعاً .

وَكَانَ فِي بِلَاطِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ أَبُو الْعَبَّاسِ النَّاعِمِيُّ ، وَكَانَ مِنْ خَيْرِ الشُّعْرَاءِ ،
وَكَانَتْ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ تَلُو مَنْزِلَةَ الْمُتَنَبِّيِّ ، يَقُولُ فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ :

إِذَا مَا عَلَيَّ أَمْطَرْتِكَ سَمَاوَهُ رَأَيْتَ الْعَلَا ، أَنْوَأُوهَا تَتَحَلَّبُ

يرجى ويخشى ضره وهو نافع كذا البحر في أزاته متهيب
يروع ويبدو الأنس منه كأنه الهوى لذعه بين الجوانح يعذب
وأزهر يبيض الندى منه في الرضا وتحمر أطراف القنا حين يغضب
ثم كذلك أبو الفرج الببغاء أمضى شبابه وزهرة عمره في بلاط سيف الدولة،
ثم آخر عمره في بغداد .

كذلك كان من شعرائه الوأواء الدمشقي ، وهو شاعر مطبوع ، عذب العبارة
حسن الاستعارة ، جيد التشبيه .
ومن شعره في سيف الدولة :

من قاس جدواك بالغمام فما أنصف في الحكم بين الاثنين
أنت إذا جُدت ضاحك أبدا وهو إذا جاد باكي العين
ومن شعرائه « الخالديان » ^(١) أبو بكر محمد بن هاشم ، وأبو عثمان سعيد بن
هاشم ، وهما أخوان . وقد كانا قِيَمين على مكتبة سيف الدولة . قال ابن النديم :
« قال أبو بكر (وهو أحد الخالديين) — وقد تعجبت من كثرة حفظه وسرعة
بديهته ومذاكراته — إنني أحفظ ألف سمر ، كل سمر في نحو مائة ورقة . وكانا
مع ذلك إذا استحسننا شيئاً غضبناه صاحبه حياً أو ميتاً ، لا عجزاً منهما عن قول
الشعر ، ولكن كذا كانت طباعهما » ^(٢) — وقد ألفا في اختيار شعر بشار ،
وابن الرومي ، والبحتري ، ومسلم بن الوليد .

كما كان من شعرائه ابن نباتة السعدي ، وله فيه مدائح كثيرة .
ويطول بنا القول لو عددنا كل ما كان في بلاطه من شعراء ، وحسبنا أن
نقول إن هذا الجو الذي خلقه سيف الدولة حث كل من كان عنده شاعرية

(١) النسبة إلى الخالدية بلدة بالموصل . (٢) فهرست ابن النديم : ١٦٩ .

على قول الشعر والإجادة فيه ؛ فقيماً المكتبة وهما الخالديان صاروا شاعرين ، وبائع
البطيخ وهو الوأواء الدمشقي صار شاعراً كبيراً ، وكشاحم (وهي كلمة مركبة من
الكاف من كاتب ، والشين من شاعر ، والألف من أديب ، والجيم من جواد ،
والميم من منجم) قالوا إنه كان طباح سيف الدولة ومع هذا كان شاعراً ظريفاً ، له
ديوان ، وله كتاب «أدب النديم» ، و«خصائص الطرب» ، و«المصايد والمطارد» .
ثم كان من أشهر خطباء سيف الدولة ابن نباتة الفارقي صاحب الخطب
المشهورة — وهو غير ابن نباتة السعدي الذي تقدم ذكره — وامتلات خطبه
بالدعوة إلى الجهاد ليحث الناس على نصرته سيف الدولة في غزواته للروم .

ثم كان في بلاطه من يعدّ من أشهر اللغويين والنحويين في زمانه ، أبو علي
الفارسي ، وابن خالويه ، وابن جنّي ؛ فأما أبو علي الفارسي فكان أكبر نحوي عالم
بالعربية في زمنه ، عاش في حلب مدة وفي العراق مدة ، ويعدهو وتلميذه ابن
جنّي مؤسس مدرسة في النحو والصرف تستخدم القياس إلى أقصى حد ولا
تقف عند النص ، فالفرق بينها وبين غيرها كالفرق بين الحنفية في اعتمادهم
الكبير على القياس ، والمالكية في الاعتماد على الحديث .

لقد رحل أبو علي إلى حلب سنة ٣٤١ ، ونزل في ساحة سيف الدولة وشارك
في اجتماعاته الأدبية ، وكان بينه وبين المتنبي مناظرات في مسائل نحوية ولغوية .
وإن جنّي تلميذ أبي علي الفارسي ، وموسّع مبادئه النحوية والصرفية ؛
وإذا عبرنا في النحو والصرف تعبيرنا في الفقه ، قلنا إنه مجتهد فيهما له آراء مبتكرة
واتجاهات انفرد بها^(١) .

(١) انظر ما كتب عنه في هذا الجزء قبل .

وقد توثقت الصلة بين ابن جنى والمنتبي في بلاط سيف الدولة ، فكان يناظره فيما يرد في شعره (المنتبي) مما يشبه أن يكون خروجاً على النحو أو اللغة ، حتى قال فيه المنتبي : « هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس » . وقد شرح ديوان المنتبي شرحاً استفاد منه كل من شرح الديوان بعده ، لاتصاله بالمنتبي ومعرفته بظروف شعره التي كثيراً ما تحدد المعنى ، وتمنع التأويلات .

وابن خالويه من أكبر الأئمة في زمنه في اللغة والنحو والأدب وعلوم القرآن . وقد دخل حلب في أيام سيف الدولة ، وكان إمام مجلسه . وله مع المنتبي مناظرات كانت في بعضها حادة ، ولم تكن العلاقة بينهما حسنة ؛ فالمنتبي لم يقدر علمه التقدير الجليل ، وابن خالويه لم يقدر شعره التقدير الواجب ، ثم كانا يتحاسدان ويتغياران على قرب المنزلة من سيف الدولة ، فكان في القصر حزبان : حزب للمنتبي منه ابن جنى النحوى وأبو الفرج البغاء الشاعر ، وحزب عليه منه ابن خالويه اللغوى وأبو فراس الشاعر .

ثم كان في بلاط سيف الدولة الفيلسوف الكبير الفارابي ، درس في بغداد ، ثم جذبته شهرة بلاط سيف الدولة في حلب ، فرحل إليه وأقام في كنفه لا يأخذ منه من المال إلا ما يسد رمقه (أربعة دراهم في اليوم) ، ويعيش عيشة التصوف ، ويعلم طلابه في الحدائق التي حول حلب ، ويكتب كتبه في المنطق والإلهيات والسياسة والرياضة والكيمياء والموسيقى — وقد بقي في الشام إلى أن مات سنة ٣٣٩ .

وكان حوله أطباء يعنون بالطب والفلسفة ، إذ كان الطب فرعاً من فروعها . ويذكر ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء أن سيف الدولة كان له أربعة وعشرون

طبيباً منهم عيسى الرقي . وكان سيف الدولة يعطى عطاء لكل عمل ، وكان عيسى الرقي يأخذ أربعة أرزاق ، رزقا بسبب الطب ، ورزقا بسبب ترجمة الكتب من السرياني إلى العربي ، ورزقين بسبب علمين آخرين (١) .

هذا بلاط سيف الدولة يزخر بالشعر والمناظرات اللغوية والنحوية ، ويزينه الفارابي بفلسفته ، ويشع هذا النتاج في المملكة الإسلامية كلها وخاصة الشام .

ومنه يستشق أبو العلاء المعري أول عهده بالدراسة ؛ فقد ولد بالمعرة سنة ٣٦٣ وهي بلدة تابعة لحلب . ولئن كان سيف الدولة قد مات قبل ولادة أبي العلاء بثمان سنين ، فإن الحركة العلمية والأدبية بها لم تكن ماتت ، ف شعر الشعراء يُروى ، وتلاميذ ابن خالويه وابن جنى يروون علمهما باللغة والأدب والنحو والصرف ، وتلاميذ الفارابي يروون فلسفته . فلما انتقل أبو العلاء من المعرة إلى حلب للدرس وجد كل ذلك مهياً فاستفاد منه ؛ وجد الناس يروون شعر أبي الطيب ويعجبون به فسمع منهم ، وسمع محمد بن عبد الله بن سعد النحوي راوية أبي الطيب . وسمع من تلاميذ ابن خالويه ، فيقول في بعض رسائله : « حدثني أبو القاسم المبارك عن ابن خالويه » ؛ ولا بد أن يكون لقي بعض تلاميذ الفارابي وأخذ عنهم . وقد أقام أبو العلاء في حلب نحو عشر سنوات ينهل من موارد العلم ؛ فحركة الأدب واللغة والفلسفة التي أحيها سيف الدولة لها فضل على أبي العلاء وغيره من العلماء والأدباء .

(١) طبقات الأطباء : ١٤٠/٢ .

ثم جاءت الدولة الفاطمية فبسطت سلطانها على مصر والشام ، والحق أنها أتت بحركة علمية عظيمة نشيطة ، وقدمت العلم والأدب والفن في مصر والشام خطوات ، حتى لا يعد شيئاً بجانبها ما كان في العهد الطولوني والأخشيدي ، ويصح أن تقارن وتساوى بما كان في العراق وخاصة العلوم العقلية والفلسفية فإنها نبغت فيها . ويرجع ذلك إلى أمور :

أولها : أن الفاطميين جاءوا بمذهب شيعي له أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة في مصر والعراق ، كعصمة الأئمة ونحو ذلك ، وتأتي بشعائر ظاهرة مخالفة لشعائر السنيين كذلك ، كالأذان بحى على خير العمل ، والاحتفاء بعاشوراء وعيد الغدير ؛ فإتيان الفاطميين بهذا أوجد حركة عنيفة للتأييد من جهة والتفنيد من جهة ، فهب علماء من مصر يفندون هذه الآراء ، وكان العراقيون أجراً لأنهم غير خاضعين لسلطانهم كالمصريين والشاميين . ولجأ الخليفة العباسي إلى العلماء يستحثهم على القول بفساد النسب الباطني ، كما لجأ إلى الغزالي يستدعيه لتأليف كتاب « فضائح الباطنية » ؛ وهكذا كل هذه العقول تتحرك وتجتهد وتتولف وتجادل وتناضل ، فكان من هذا النشاط العقلي الكبير ، واستتبع ذلك نشاط الفاطميين في إيجاد المكاتب ومجالس الدعاة في القصر والمساجد وبيوت العطاء ، وتأليف الكتب ، وتنظيم الدعوة وغير ذلك .

وكان أن التجأ الفاطميون إلى الفلسفة اليونانية يستعينون بها على تأييد الدعوة الشيعية ، ويستمدون الآراء من أقوال أفلاطون وأرسطو ، وسائر حكماء اليونان ، كما فعلت الأديان الأخرى عند اشتداد الجدل ، كالنصارى واليهود عند افتراقهم فرقا ، وكما فعل المعتزلة عند جدالهم مع اليهود والنصارى ، وهذا سبب من أسباب تشجيع الفاطميين للفلسفة .

ثم كان أن رأينا عهد الفاطميين في مصر والشام مصحوباً بتسامح شديد مع اليهود والنصارى، واستخدامهم في أدق شؤون الدولة وتسلطهم على كثير من أمورها؛ ولعل أس دعوتهم كان توحيد العالم الإسلامي تحت سلطانهم من غير مراعاة عصبية دينية ولا جنسية ، فكانوا يخاطبون كل قوم بما يقر بهم إلى الدعوة ، وكان من ذلك تسامحهم مع اليهود والنصارى واستخدامهم ، وإطلاق الحرية لهم إلا إذا أحسوا ثورة من الشعب لهذا التسامح فيتراجعون ، كل هذا لأن أغراضهم السياسية والاجتماعية كانت أقوى من أغراضهم الدينية . فيعقوب بن كلس يهودى الأصل ماهر ماكر مثقف ثقافة واسعة ، حسن التدبير واسع الحيلة ، باذل المال ، راغب في الجاه ، لمع اسمه في العهد الإخشيدى ، وأسلم وتعلم القرآن والحديث والأدب العربى ، وسافر إلى المغرب واتصل بجوهر القائد مولى المعز لدين الله ، وبذل له علمه عن مصر ، وأعانه بأرائه في وسائل فتحها ، ورجع بصحبة الجيش الفاتح ، وخدم المعز وارتقى حتى كان وزيراً للعزير بن المعز ، وهو الذى وضع قواعد الدولة ونظمها ؛ وكان له إلى هذا الجانب السياسى الإدارى جانب علمى ، فشجع العلماء ، ورتب المجالس ، وبذل العطاء لكل فروع العلم ، وربط بين العلم والتشيع ، وبين التشيع والفلسفة ، وله مجالس لعامة العلماء ، ومجالس خاصة من العلماء ، وهؤلاء هم الذين يفلسفون هذه الأمور ؛ ووضع كتاباً فى فقه الشيعة يقول إنه مما سمعه من المعز والعزير ، كان يقرؤه فى المسجد ، ويقرؤه العلماء ويفتون منه ؛ وكاد يكون كل شىء فى الدولة ، يوجه سياستها وإدارتها . ولما مات صلى عليه العزير بنفسه ، وأخلده بيده ، وأمر بغلق الدواوين أياما بعده (١) .

فيظهر لى أنه كان له دخل كبير فى تأسيس الحركة العلمية على هذا النمط وإدماج

(١) انظر ابن خلكان : ٤٩٥/٢ .

الفلسفة فيها وتوجيهها الجهة التي توجهتها، وتشجيعه اليهود والنصارى على الاشتغال العلمى والمشاركة فى الإدارة، وفلسفة الدعوة .

وكانت زوجة «العزيز» نصرانية على مذهب الملكية، وكان لها أخوان أحدهما اسمه «أرميس» صيره بطركا على بيت المقدس، والآخر «أرسانيس» صيره بطركا للملكية على القاهرة ومصر، وكان لهما من العزيز جانب لأنهما أخوة ابنته^(١). وكان لهذه السيدة نفوذ عظيم على العزيز فى تسامحه مع النصارى والسماح بإعادة بعض الكنائس .

وقد ولدت هذه الزوجة النصرانية من العزيز بنتاً هى المسماة بست الملك، وكانت — كما يصفها النويرى — قوية العزم بصيرة بالأمر، وكان لها أثر كبير فى أيها، وفى توجيهه نحو سياسة التسامح مع النصارى، كما كانت فى عهد أخيها الحاكم بأمر الله ذات أثر فعال فيما وقع من أحداث . وقد سمح العزيز هذا لبطريك الأشمونين أن يناظر رجال الدين مثل القاضى ابن النعمان فى العقائد الدينية .

وفى السنتين الأخيرتين لحكم العزيز تولى الوزارة بعد يعقوب بن كلس عيسى بن نسطورس النصرانى .

ثم مما شجع على اشتغال الفاطميين بالفلسفة ما كان لهم من رأى فى أن للدين ظاهراً وباطناً ومعنى صريحاً ومعنى مؤولاً، فهذا يترك للخيال المجال، ويجعل الفكر يسبح فى الفلسفة يأخذ منها ويلصقها بالدين، كما نرى ذلك بوضوح فى رسائل إخوان الصفا وهم شيعيون باطنيون؛ ولذلك كانت الفلسفة ألصق بالتشيع منها بالتسنن؛ نرى ذلك فى العهد الفاطمى، والعهد البويهى؛ وحتى

(١) المكين ابن العميد .

في العصور الأخيرة كانت فارس أكثر الأقطار عناية بدراسة الفلسفة الإسلامية ونشر كتبها . ولما جاء جمال الدين الأفغانى مصر في عصرنا الحديث — وكان فيه نزعة تشيع ، وقد تعلم الفلسفة الإسلامية بهذه الأقطار الفارسية — كان هو الذى نشر هذه الحركة في مصر .

ثم إن المقرئ يقول : كان الفاطميون يتدرجون في دعوتهم ؛ فإذا تمكن المدعو من التعاليم الأولى «أحاطه على ما تقرر في كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات وما بعد الطبيعة والعلم الإلهي وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية ؛ حتى إذا تمكن المدعو من معرفة ذلك كشف الداعي قناعه ، وقال إن ما ذكر من الحدوث والأصول رموز إلى معاني المبادئ ، وتقلب الجواهر . وإن الوحي إنما هو صفاء النفس ، فيجد النبي في فهمه ما يُلقى إليه ويتنزل عليه فيبرزه إلى الناس ، ويعبر عنه بكلام الله الذى ينظم به النبي شريعته بحسب ما يراه من المصلحة في سياسة الكافة ، ولا يجب حينئذ العمل بها إلا بحسب الحاجة من رعاية مصالح الدهماء . . . ثم قال : ومن جملة المعرفة عندهم أن الأنبياء النطقاء أصحاب الشرائع إنما هم لسياسة العامة ، وأن الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة . . . ثم يقول : إن لهم في هذا مصنفات كثيرة اختصرت منها ما تقدم ذكره» (١) .

ويروى صاحب الفرق بين الفرق ، أن عبيد الله بن الحسن القيروانى أحد زعماء الإسماعيلية ، كتب إلى أحد دعاة المذهب (سليمان بن الحسن أبى سعيد الجنابى) يقول : « وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة معولنا » ، ويقول الشهرستانى : « إن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة ، وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج » ، ويفيض فى بيان ذلك . ويقول دوزى : « إن

(١) خطط المقرئ ١/٣٩٥ .

ابن ميمون (وهو واضع الأساس للتعاليم الباطنية والإسماعيلية) لم يكن يبحث في أنصاره المخلصين بين الشيعة الخالص ، إنما كان يبحث عنهم بين الثنوية والوثنيين ، وتلاميذ الفلسفة اليونانية ، وخاصة الأخيرين ، فإليهم وحدهم أفضى بسره ، وكنه عقيدته ، وهو أن الأئمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالاً وهزواً ، وأن العامة ليسوا أهلاً لفهم هذه المبادئ ، إلا أنه كان يستعين بهم ، ولا يصددهم . وكان دعواته يظهر في أثواب مختلفة ، ويجادون كل طبقة باللغة التي يفهمونها .

والواجب ألا يلصق هذا بكل الشيعة ، ولا كل الفاطمية ، ولا كل قواد الحركة ، وإنما يصح أن يلصق بفتة من زعمائهم استغلت التشيع لأغراض في أنفسهم — وعلى كل حال كان هذا سبباً آخر لاشتغال الخاصة بالفلسفة وتعليل انتشارها في العهد الفاطمي مع ضعف الاشتغال بها قبلهم في العهد الطولوني والإخشيدي وبعدهم في العهد الأيوبي .

ثم كثرة المال في العهد الفاطمي ، وميل الخلفاء إلى الإمعان في الترف والنعيم ، شجعت الفنون على الرقي ، فما خلفه الفاطميون من صناعة راقية ، وفن دقيق ، قل أن يبارى .

على كل حال نشطت الحركة العقلية في العصر الفاطمي في مصر والشام نشاطاً كبيراً ، وكان أهم الحركات الحركة الدينية ، إذ أراد الفاطميون تشجيع المصريين والشاميين ، وكان هؤلاء يريدون أن يتمسكوا بالسنية فجد الفاطميون في دعوتهم جداً كبيراً .

لقد حرص المصريون أول الأمر على البقاء على سنتهم ، واشتروا عند المفاوضات في تسليم القطر المصري هذا الشرط ، وكتب لهم جوهر بأمر المعز كتاباً

يتضمن التزام حرية العقيدة ، فلا يجبرون على التشيع . وجاء فيه : « ثم إنكم ذكرتتم وجوهاً التمستم ذكرها في كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم وتطمينا لأنفسكم ، — فلم يكن لذكرها معنى ، ولا في نشرها فائدة ، إذ كان الإسلام سنة واحدة ، وشريعة متينة — وهي إقامتكم على مذهبكم ، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض في العلم ، والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة ، رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ، وقفهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجرى الأذان والصلاة ، وصيام شهر رمضان وفطره وقيام ليلاليه ، والزكاة والحج والجهاد ، على ما أمر الله في كتابه ، ونصّه نبيه في سننه » الخ^(١) .

ولكن لما دخل الجيش وتمكن من مصر ، وانتقل المعز إلى القاهرة ، لم يعمل بهذا العهد ، وجدّد الفاطميون في تشيع المصريين ، فزيد في خطبة الجمعة : « اللهم صل على محمد النبي المصطفى ، وعلى علي المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول ، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً ، اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين »^(٢) .

« وفي يوم الجمعة لثمان خلون من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ صلى جوهر الجمعة في جامع ابن طولون ، وأذن المؤذنون ، حى على خير العمل ، وهو أول ما أذن به في مصر »^(٣) .

« ولما وصل المعز إلى القصر خر ساجداً ، ثم صلى ركعتين ، وصلى بصلاته كل من دخل معه — (وكان ذلك سنة ٣٦٢) . وفي غد هذا اليوم خرج

(١) اتعاظ الحنفاء : ٦٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٧٧ .

(٣) ص ٧٩ .

جماعة الأشراف والقضاة والعلماء والشهود ووجوه أهل البلد وسائر الرعية ،
لتهنئة المعز . . وأمر المعز بالكتاب على المشايخ في سائر مدينة مصر : خير الناس
بعد رسول الله (ص) أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام» (١) .

« ولثمان عشرة من ذى الحجة من هذه السنة وهو يوم « غدير خم » (٢)
تجمع خلق من أهل مصر والمغاربة للدعاء ، فأعجب المعز ذلك ، وكان هذا أول
ما عمل عيد الغدير بمصر» (٣) .

ثم اتخذوا يوم عاشوراء يوم بكاء على الحسين ، وكانوا يجتمعون عند قبر
كثم بنت محمد بن جعفر بن محمد الصادق ، وقبر نفيسة .

وضربت الدنانير في أيام المعز ، وعلى أحد وجهيها « لا إله إلا الله محمد
رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .
على أفضل الوصيين ، وزير خير المرسلين » .

وفي أيام العزيز أبطل سنة ٣٦٣ صلاة التراويح من جميع مساجد مصر .
وكانت تحدث قنن ومصادمات بين المصريين السنيين والشيعة في
المناسبات المختلفة .

فقد روى أنهم قطعوا لسان من احتج على منع صلاة التراويح . وفي سنة

(١) ص ٩٠ .

(٢) غدير خم : موضع على ثلاثة أميال من الجحفة ، وهو مجتمع ماء تصب فيه عين
وحوله شجر كثير . وسبب الاحتفال به ما يرويه الشيعة عن البراء بن عازب قال : « كنا
مع رسول الله في سفر لنا فنزلنا بغدير خم ، ونودي الصلاة جامعة فصلى الظهر ، وأخذ بيد
علي بن أبي طالب ، فقال : أستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا : بلى ، فقال :
من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه . وعاد من عاداه » . وأول من اتخذ عيداً
معز الدولة البويهى سنة ٣٥٢ ، ثم في مصر سنة ٣٦٢ .

(٣) ص ٩٤ . (٤) ٧٦ .

٣٨١ ضرب رجل من أهل مصر ، وطيف به في المدينة لأنهم وجدوا عنده كتاب الموطأ للمالك بن أنس^(١) .

وفي سنة ٣٩٣ عوقب رجل بدمشق وطيف به في المدينة ، ونادوا عليه : « هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر »^(٢) .

ولكن هذه السياسة لم تكن ثابتة مطردة ، بل كانت قلقة مضطربة كاضطراب سياسة الفاطميين ، فأحياناً يبالغون في اضطهاد أهل السنة ، وأحياناً يسمحون لهم بحريتهم ، كما كانوا أحياناً يضطهدون اليهود والنصارى إلى أقصى حد ، وأحياناً يبالغون في إكرامهم إلى أقصى حد .

وقد رتب الفاطميون الدعوة ، وقووها وأحكموها ، وجعلوا عليها رئيساً سموه « داعي الدعوة » ، ومنزلته تلى قاضي القضاة ، ويتزيا بزيه ، واشترطوا فيه أن يكون عالماً بجميع مذاهب أهل البيت ، وتحتة اثنا عشر نقيباً ، وله نواب كنواب الحكم في سائر البلاد ؛ ويحضر ما يقال في الدعوة ويقره داعي الدعوة ثم يقره الخليفة ، ويتلى ما يحضر يوم الاثنين والخميس على الرجال في مكان ، وعلى النساء في مكان — وهناك مجالس للعامة ، ومجالس للخاصة ، وكانت تسمى مجالس الدعوة مجالس الحكمة^(٣) .

واتخذت المساجد الكبيرة مركزاً لهذه الدعاية كمسجد عمرو في القسطنطينية ، ومسجد ابن طولون ، والأزهر ، والمساجد الكبرى في البلدان .

وبجانب هذه الدعوات الظاهرة دعوات سرية لا تقال إلا لخاصة المخلصين ، يقول الخليفة لداعي الدعوة في كتاب له : « واتل مجالس الحكم التي تخرج إليك

(١) خطط القرظي : ٣٤١/٢ . (٢) النجوم الزاهرة : ٩١/٢ .

(٣) انظر خطط القرظي : ٣٩١/١ .

في الحضرة على المؤمنين والمؤمنات ، والمستجيبين والمستجيبات في قصور الخلافة
الزاهرة ، والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة ، وصن أسرار الحكم إلا عن أهلها ،
ولا تبذلها إلا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ،
ولا تستقلُّ أفهامهم بتقبله » ، ويقول : « ولا تُلقِ الوديعَةَ إلا لحفاظ الودائع ،
ولا تلقِ الحب إلا في مزرعة لا تُكْذِي على الزارع ، وتوخَّ لغرسك أجل
المغارس » الخ (١) .

وجاء قوم من العلماء المغاربة في ركب المعز ، وهم ماهرون في الدعوة ،
واقفون على أسرار تعاليم أهل البيت — لعل من أشهرهم النعمان بن محمد بن
حيّون الذي تولى القضاء في مصر على مذهب أهل البيت هو وأولاده وأسرته
عهداً طويلاً في الحكم الفاطمي ؛ وكانت هذه الأسرة تقوم بالقضاء وبال دعوة
وبالتأليف في المذهب الشيعي . وكان النعمان هذا مالكي المذهب ، ثم انتقل
إلى مذهب الإمامية ، وألف فيه تصانيف كثيرة . قال ابن زولاق : إنه ألف
لأهل البيت من الكتب آلاف أوراق بأحسن تأليف وأملح سجع ، وكان
في غاية الفضل ، من أهل القرآن والعلم بمعانيه ، وعالماً بوجوه الفقه ، وعلم اختلاف
الفقهاء ، واللغة والشعر والمعرفة بأيام الناس ، مع عقل وإنصاف ، وله ردود على
المخالفين له ، رد على أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن سريج (٢) ؛ ثم ابنه محمد
ابن النعمان قاضي المعز والعزير ، وكان واسع العلم في الفقه والتاريخ والنجوم ،
يقضى بين الناس ، ويقرأ في القصر علوم آل البيت ، ويزدحم الناس على سماعه
حتى يموت بعضهم من الزحام ؛ كما كان من أشهرهم عبد العزيز بن محمد بن النعمان ،
كان من أعلم الناس بفقه الإمامية . قال ابن كثير : إنه ألف في العقائد الشيعية

(١) صبح الأعشى : ٤٣٦/١٠ . (٢) وفيات الأعيان : ٢٤٦/٢ .

الكتاب المسمى البلاغ الأكبر والناموس الأعظم . وقد رد على هذا الكتاب أبو بكر بن الباقلاني .

كان في مصر والشام كثير من الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية ، وكانوا لا يرون التشيع ، فكانوا يستنكرون تعاليمهم ، ولكن في تحفظ لأن الدولة للتشيع . ولهذا نرى قلة الفقهاء المالكية والشافعية والحنفية في مصر والشام في هذا العصر ، وخاصة في أول عهد الفاطميين أيام قوتهم — ومع هذا نرى أمثال أبي بكر محمد النعالي المالكي إمام المالكيين في عهده ، كانت حلقاته في جامع القسطنطينية تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها ، توفي سنة ٣٨٠ . ولا بد أن يكون ذلك في فترة فترت فيها حدة التشيع .

ولكن على كل حال أنتجت هذه الحركة حياة فكرية نشيطة . وكما ذكرنا كانت الحركة الفلسفية تشايع التشيع ، فامتزجت الفلسفة بالدعوة الشيعية .

واستتبع الدعوة للتشيع تنظيم وسائل الدعاية من إنشاء المساجد ودور الكتب .

فالمساجد كانت لهذا العهد هي المدارس وهي المحاكم ، وهي أمكنة العبادة ، وهي مكان الخطب السياسية فيما يجد من الأحداث ، فكانت تقوم بوظائف اجتماعية أكثر جداً مما تقوم به الآن .

فلما كان المسجدان الكبيران في مصر ، مسجد القسطنطين ومسجد ابن طولون ، وكانا مركزى التعليم السننى قبل الفاطميين ، دعا الأمر عند إنشاء القاهرة إلى إنشاء مساجد تقام فيها الصلوات ، وتنتشر منها الدعوة الشيعية . يجب تلوين مسجدي مصر بالتشيع أيضاً ، وتكون أيضاً مركزاً لنشر المبادئ

السياسية والاجتماعية التي يراد نشرها ، فأسس الأزهر لهذا الغرض ، بنى جوهراً قائداً المعز ، وأقيمت فيه أول جمعة في شهر رمضان سنة ٣٦١ ، وكان الخليفة الفاطمي يخطب فيه بنفسه كل جمعة إلى أن أنشأ الحاكم جامعاً سنة ٣٨٠ ، فوزعت الخطبة على المساجد الأربعة ؛ وكان الخليفة يخطب في الجامع الحاكمي خطبة ، وفي الأزهر خطبة ، وفي جامع ابن طولون خطبة ، وفي جامع عمرو بن العاص خطبة ، محفوفاً بالوزير والقاضي وداعي الدعاة .

واتخذ الأزهر كغيره مدرسة لدراسة المذهب الشيعي ، قال المقرئزي : « إن أول ما درس بالأزهر الفقه الفاطمي على مذهب الشيعة ، فإنه في شهر صفر سنة ٣٦٥ جلس على بن النعمان القاضي بجامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر وأملى مختصر أبيه في الفقه عن أهل البيت ، ويعرف هذا المختصر « بالافتصار » وكان جمعاً عظيماً ، وأثبت أسماء الحاضرين » — وألف يعقوب بن كلس الوزير السابق الذكر كتاباً في الفقه يتضمن ما سمعه من المعز ، وهو مبوّب على أبواب الفقه يشتمل على فقه الطائفة الإسماعيلية ، وكان له مجلس في يوم الثلاثاء يجتمع فيه الفقهاء وجماعة من المتكلمين وأهل الجدل ، وكان يجلس أيضاً في يوم الجمعة فيقرأ مصنفاته على الناس بنفسه . وأجرى العزيز بالله الأرزاق لجماعة من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير ، وأمر العزيز أيضاً لهؤلاء الفقهاء ببناء دار إلى جانب الجامع الأزهر ؛ فإذا كان يوم الجمعة تحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تصلى صلاة العصر ، وكان عدتهم خمسة وثلاثين رجلاً .

وبقي الأزهر مركز الفقه الفاطمي إلى أن بنى الحاكم جامعاً ، فتحلق فيه الفقهاء الذين يتحلقون في الجامع الأزهر .

ووقف الحاكم الأوقاف على الأزهر ، وعلى جامع راشد ، وجامع

المقس ، وعلى دار الحكمة ، من عقار وكتب .
ثم عنيت الدولة الفاطمية بالكتب عناية كبيرة ، فكان من أشهر خزائن
القصور الفاطمية خزانة الكتب . وقد نقل المقرئ عن المسبّح مؤرخ الدولة
الفاطمية ، والذي عاش في كنفها ، أنه كان بخزانة العزيزيف وثلاثون نسخة من
كتاب العين للخليل بن أحمد ، وما ينيف على عشرين نسخة من تاريخ
الطبري ، ومائة نسخة من الجهرة لابن دريد — ثم قال : إنه كان في سائر
العلوم بالقصر أربعون خزانة من جملتها خزانة فيها ثمانية عشر ألف كتاب من
العلوم القديمة (يعنى الفلسفة والطب والإلهيات وما إليها) ، هذا إلى العناية بالناحية
الأثرية من اقتناء الكتب بخطوط المؤلفين ، وما عني فيها بحسن الخط والتجليد .
وينقل المقرئ أيضاً عن ابن الطوير أن كل خزانة تحتوى على عدة رفوف ،
والرفوف مقطعة بجواجز ، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل ، وفيها
من أصناف الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المجلدات ويسير من
المجردات ، فمنها الفقه على سائر المذاهب ، والنحو واللغة ، وكتب الحديث ، والتواريخ
وسير الملوك والنجامة والروحانية والكيمياء — من كل صنف النسخ — ومنها
النواقص التي ما تمت — كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة^(١) .
وقد ذكر المقرئ أيضاً أنه دخل هذه المكتبة (مكتبة الفاطميين) أحد
السياح ، فرأى فيها مقطوعاً من الحرير الأزرق غريب الصنعة فيه صورة أقاليم
الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسكنها ، وجميع المواطن المقدسة
مدينة للناظر ، مكتوبة أسماء طرائقها ومدنها وجبالها وبلادها وأنهارها وبحارها
بالذهب ، وغيرها بالفضة والحرير .

(١) خطط المقرئ : ٤٠٨/١ وما بعدها .

ثم أسس الحاكم بأمر الله دار الحكمة سنة ٣٩٥ . وقد اختار هذا الاسم رمزاً إلى الدعوة الشيعية ، لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة^(١) . وكانت تسمى هذه الدار أيضاً دار العلم ، وصفها المسبّحى فقال : « فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة ، وجلس فيها الفقهاء ، وحملت إليها الكتب من خزائن القصور المعمورة ، ودخل الناس إليها ، ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمس ، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها ، وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء ، بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت ، وعلقت على جميع أبوابها الستور ، وأقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها . وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك ، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها . . . وحضرها الناس على طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعليم . وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر . . . وفي سنة ٤٠٣ أحضر (الحاكم) جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة من الأطباء إلى حضرته ، وكانت كل طائفة تحضر على انفراد للمناظرة بين يديه ؛ ثم خلع على الجميع وصرّهم . . . ووقف الحاكم بأمر الله أما كن في فسطاط مصر عليها . وقد استمرت على هذا الوضع إلى سنة ٥١٦ ، حيث كثرت فيها المناقشات الدينية التي سببت فتناً ، فأغلقت ثم أعيد فتحها^(٢) .

(١) الخطط : ٣٩١/١ .

(٢) الخطط : ٤٥٨/١ .

فهى بهذا الوصف مكتبة قيمة ، ومدرسة تدرس فيها العلوم المختلفة ،
وقاعة مناظرات .

كان بجانب الحركة الدينية من سنية وشيعة حركات أخرى مدنية ، من
ذلك حركة تاريخية ؛ فقد نبغ من مؤرخى هذا العصر الشابِثى وهو أبو الحسن
على بن محمد ، وكان فى عهد العزيز بن المعز ، وكان نديمه وجليسه ، والقيم على
خزانة كتبه ، اشتهر بكتابه الديارات ، ذكر فيه كل دير بالعراق والموصل والشام
والجزيرة ومصر ، وجميع الأشعار التى قيلت فى كل دير وما جرى فيه ، وكان من
حسن الحظ بقاء هذا الكتاب إلى عصرنا هذا مخطوطاً ينتظر من ينشره ، توفى
سنة ٣٨٨ .

كما نبغ من المؤرخين فى العصر الفاطمى « المسبحى » ، وهو عز الملك
محمد بن عبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز الحرانى الأصل المصرى
المولد ، وكان من أقطاب مصر فى العلم والسياسة والإدارة ؛ تولى للحاكم بأمر الله
بعض ولايات الصعيد ، ثم تولى ديوان الترتيب ، وعنى بتاريخ مصر ، وألف فيها
تاريخه الكبير ، قال هو فيه : « إنه التاريخ الجليل قدره ، الذى يُستغنى
بمضمونه عن غيره من الكتب الواردة فى معانيه ، وهو أخبار مصر ومن حلها
من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء ، وما بها من العجائب والأبنية ، واختلاف
أصناف الأطعمة ، وذكر نيلها ، وأحوال من حل بها إلى الوقت الذى كتبنا
فيه تعليق هذه الترجمة ، وأشعار الشعراء ، وأخبار المغنين ، ومجالس القضاة
والحكام والمعدلين (الشهود) ، والأدباء والمتغزلين وغيرهم ، وهو ثلاثة عشر
ألف ورقة»^(١) . فكان ينظر إلى التاريخ نظرة اجتماعية . ومن الأسف

(١) ابن خلكان : ٧٣٦/١ .

أن لم يصلنا من هذا الكتاب إلا قطعة مخطوطة ، وقد مع ماقد من آثار الفاطميين الجلييلة . ويدلنا ما نقله المقرئى والنجوم الزاهرة عن هذا الكتاب أنه جليل القدر ، دقيق النظر ، مفىض فى الوصف ، جميل التعبير .

وله كتب أخرى كثيرة ، منها : كتاب درك البغية فى وصف الأديان والعبادات ٣٥٠٠ ورقة ، وكتاب الأمثلة للدول المقبلة (يتعلق بالنجوم والحساب) فى ٥٠٠ ورقة .

إلى كثير من الكتب الأدبية فى النوادر والغزل ، والأغانى ومعانيها وغير ذلك ، عاش المسبحى من (٣٦٦ — ٤٢٠) .

ثم القضاء أبو عبد الله محمد بن سلامة تولى القضاء بمصر ؛ وقد اشتهر بوضعه كتابا فى خطط مصر سماه المختار فى ذكر الخطط والآثار ، كان عوناً للمقرئى على خطه ؛ وقد أوفده المستنصر الخليفة الفاطمى إلى تيودورا إمبراطورة القسطنطينية سنة ٤٤٧ ليتحدث فى الصلح بينهما ؛ وقد مات سنة ٤٥٤ .

ثم كانت حركة أخرى طبية فلسفية رياضية علمية ، اشتهر فيها محمد بن أحمد ابن سعيد التيمى ؛ أصله من بيت المقدس ، ودخل مصر فى العهد الفاطمى واشتهر بالطب وخاصة فى خواص العقاقير وتركيب الأدوية ؛ وصحب يعقوب بن كلس والخليفة العزيز ، وصنف له كتابا كبيرا فى عدة مجلدات سماه « مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء ، والتحرز من ضرر الأوباء » ، ولقى الأطباء بمصر وحاضرهم وناظرهم ، واختلط بأطباء الخاص القادمين من أرض المغرب فى صحبة المعز عند قدومه ، والمقيمين بمصر من أهلها ، وكان منصفاً فى مذاكراته ، غير راد على أحد إلا بطريق الحقيقة . وكان التيمى هذا موجوداً بمصر فى حدود سنة ٣٧٠ (١) .

(١) القفطى ص ١٠٦ .

ثم أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر كان نصرانياً ، وكان طبيب
الحاكم بأمر الله ، ومن الخواص عنده ، وكان متقدماً في الدولة ، وتوفي في أيام
الحاكم ، فاستطب بعده إسحاق بن إبراهيم بن نسطاس^(١) .

وعلى بن سليمان ، وكان طبيباً للعزير بالله وولده الحاكم ؛ وقد نقل بعض
الكتب في الطب لأبقراط وجالينوس ، كما ألف فيما بعد الطبيعة .

وأبو علي بن الهيثم وأصله من البصرة ، ثم انتقل إلى مصر في أيام الحاكم
بأمر الله ، وأقام بها إلى آخر عمره . برع في الرياضيات والطبيعات ، وله مشاركة
في الطب . وقد أتى مصر باستدعاء الحاكم لما بلغه أن له نظرية هامة في توزيع
مياه النيل ، ولكنه لما حضر وسافر إلى الشلال وخبر النيل هناك ودرسه أدرك
خطأ نظريته ، واعتذر للحاكم . ولكنه كان مصدر حركة فلسفية كبيرة وخاصة
في الطبيعات والرياضيات ، وكان لا يهيمه المال والجاه بجانب ما يهيمه العلم
والوقوف على الحقيقة ، قال في بعض كتبه : « إني لم أزل منذ عهد الصبا مروياً
في اعتقادات هذا الناس المختلفة ، وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأي ،
فكنت متشككاً في جميعه ، موقناً بأن الحق واحد ، وأن الاختلاف فيه إنما
هو من جهة السلوك إليه ، فلما كملت لإدراك الأمور العقلية انقطعت إلى طلب
معدن الحق ، ووجهت رغبتى وحرصى إلى إدراك ما به تنكشف تموهيات
الظنون ، وتنقش غيابات المتشكك المفتون » الخ .

وقد ألف نحو مائتي كتاب في الرياضة والطبيعة والفلسفة ظلت عماد الناس
في الشرق والغرب ، وخاصة كتاب « المناظر » — وما زال يؤلف ويلخص
ويشرح في حركة دائبة مستمرة ، وفي كل مرحلة من عمره يقيد أسماء ما ألف ،

(١) طبقات الأطباء : ١٩/٢ .

ويقول : « وإن أطل الله لى فى مدة الحياة ، وفسح فى العمر ، صنفت وشرحت وخلصت من هذه العلوم أشياء كثيرة تتردد فى نفسى ، ويبعثنى ويحثنى على إخراجها إلى الوجود فكرى » . وظل وفياً لهذا العهد حتى مات حول سنة ٤٣٠ بعد ماملأ الدنيا تأليف فى الهندسة والحساب والفلك والمساحة ، ومنطق أرسطو ، وكتابه فى الشعر والنفس ، وفى الطب ، وفى البصر ، ووقوع الإبصار به ، والضوء ، والبصريات ، والمرايا المحرقة الخ الخ ، يعكف على عمله هذا فى قبة على باب الجامع الأزهر^(١) .

وكان للمبشر بن فاتك ، وهو أمير من أمراء مصر فى العهد الفاطمى ، ولع بالعلوم الفلسفية يقتنى كثيراً من كتبها ، ويتبحر فيها ؛ ويستفيد ابن الهيثم من علمه فى الهيئة والرياضة .

واشتهر من هذه الطائفة على بن رضوان رئيس أطباء الحاكم ، وهو مصرى الأصل من الجيزة ، وكان أبوه فرانا ، ولاقى فى تعلمه أهوالا حتى برع فى الطب ، وصار له الذكر والسمعة العظيمة ، والثراء الواسع — وقد قامت بسببه حركة فكرية نافعة تحركت بها الأفكار فى مصر وبغداد ؛ إذ دخل ابن رضوان المصرى فى مناظرة حادة مع ابن بطلان الطيب النصرانى البغدادى ، وتبودلت بينهما الرسائل ، « ولم يكن أحد منهما يؤلف كتابا ، ولا يتدع رأياً إلا ويرد الآخر عليه » — وكان ابن رضوان طويل اللسان يكثر التشنيع على من يخالفه ، وتعدت المناظرة من المسائل العلمية إلى التعبير بقبح الشكل . وكان ابن رضوان قبيح الشكل ، فتناظرا أيضاً فى أيهما خير : أن يكون الطيب جميلاً أو لا ! ولما طالت المناظرات سافر ابن بطلان من بغداد إلى مصر ليرى مناظره ، وأقام بها ثلاث

(١) انظر طبقات الأطباء : ٢/٩٠ وما بعدها .

سنين ، واستمرت بينهما المناظرات . ويقول ابن أبي أصيبعة في المقارنة بينهما :
كان ابن بطلان أعذب ألفاظاً ، وأكثر ظرفاً ، وأميز في الأدب وما يتعلق به ،
وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكيمية وما يتعلق بها — وقد ألف ابن
رضوان كتباً كثيرة في الطب والفلسفة .

وكانت في مصر أيضاً حركة في النحو ، من أشهر رجالها أبو بكر الأديني
تلميذ أبي جعفر النحاس الذي تقدم ذكره ، برع في علوم القرآن والنحو ؛ له كتاب
في علوم القرآن في مائة وعشرين مجلداً مات سنة ٣٨٨ .
ثم ابن بابشاذ أحد أئمة النحو والأعلام في فنون العربية وفصاحة اللسان .
ورد العراق تاجراً في اللؤلؤ ، وأخذ عن علماءها ورجع إلى مصر ، واستخدم في
ديوان الإنشاء والرسائل مراجعاً يراجع ما يخرج من الديوان من الإنشاء ، ويصلح
ما يراه من الخطأ في الهجاء والنحو واللغة ، ثم تزهد . وقد ألف شرحاً على كتاب
الجمل للزجاجي ، والمحتمس في النحو ، وتعليقاً في النحو يقارب خمسة عشر مجلداً .
مات سنة ٤٦٩ .

ثم كانت الحركة الأدبية . وفي الحق أن الشعر في العهد الفاطمي في مصر
كان أول شعر مصري قيم من عهد فتح العرب لمصر ؛ إذ كان قبل ذلك
ليس له من قيمة إلا للوافدين على مصر من الخارج ، أما شعر المصريين أنفسهم
فكان محاولات أولية ، حتى إذا جاء الفاطميون جاء الشعر ووجد ، ويرجع ذلك
إلى أمور :

(الأول) أن العصر الأول لفتح مصر كان عصر دهشة أعقبت الفتح

فلما استقرت الأمور وبدأ الشعر ينهض ، تولى الحكم أترك من مثل
الطولونيين والأخشيديين ، وليس لهم من الذوق العربي الراقى ما يستسيغون به
الشعر ؛ والشعر العربي بطبيعة موضوعاته التي كانت من مديح ونحوه لم يكن
يزهر إلا على باب قصور الخلفاء والأمراء ، فإن تذوقوه وشجعوه نما وازدهر ،
وإلا ضعف وانحدر ؛ فلما جاء الفاطميون وهم عرب لهم الذوق العربي ، والثقافة
العربية ، وخاصة في أول عهدهم ، إذ كان فيهم أيضاً الذوق البدوي ، نما الشعر على
بابهم ، ولما جاءوا مصر جاءوا بذوقهم وشعراتهم ، وتتابعت الموجات .

(والثاني) أن الدولة الفاطمية كان أساسها الدعوة والدعاية بأوسع ما تدل
عليه هذه الكلمة ، حتى قل أن نرى لها مثيلاً في تنظيم دعوتها سرّاً وجهرّاً ، والدقة
في اختيار الأساليب المختلفة التي تناسب العامة والخاصة ، والجاهل والعالم ،
والمثدين والملحد ، والغبي والفيلسوف ؛ فرأت بصائب نظرها أن الشعراء من
أصلح الدعاة لمذهبهم ، إذ هم يقومون في زمنهم مقام الجرائد السيارة في عصرنا ،
فاحتضن الخلفاء الفاطميون ووزرائهم وأمراءهم الشعراء ينفحونهم بالمال الكثير ،
والعطاء الوفير ، ليطلقوا ألسنتهم بالقول في مدحهم ومدح مذهبهم . وقد وضع
ابن هانيء الأندلسي أول خطة لذلك وهو بالمغرب عندما اتصل بالمعز فأتى مصر
ومؤسس القاهرة ، فمدحه بغرر المدائح وعيون الشعر ، وبالعز في الإنعام عليه ،
ولم يكن هناك ممدوح أعز شاعره كما أعز المعز ابن هانيء ؛ فلما أنشده بالقيروان
قصيدته التي أولها :

هل من أعقّة عالج يبرين أم منهما بقر الحدوج العين

أمر له بدست قيمته ستة آلاف دينار ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! مالي
موضع يسع الدست إذا بسط . فأمر له ببناء قصر غرم عليه ستة آلاف دينار ،

وحمل إليه آلة تشاكل القصر والدست قيمتها ثلاثة آلاف دينار . ولما بلغه خبر وفاته وهو بمصر تأسف عليه كثيراً ؛ وقال : « لا حول ولا قوة إلا بالله ، هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك »^(١) .

وقد أسس ابن هاني في شعره عقائد الإسماعيلية ، وصاغها صياغة شعرية ، وعلم الشعراء كيف يمدحون الخلفاء الفاطميين من ناحية عقائدهم ، كما يمدحونهم من ناحية خلافتهم ؛ فيقول مثلاً :

أنت الوري فاعمر حياة الوري باسم من الدعوة مشتق^(٢)
ويقول :

قد كان يُنذر بالوعيد لطول ما أَصغى إليك ويعلم التأويل^(٣)

أهل النبوة والرسالة والهدى في البيئات وسادة أطهار
والوحي والتأويل والتحليل والتحريم لا خلف ولا إنكار
ويقول :

ماذا تريد من الكتاب نواصب وله ظهور دونها وبطن
وهو بذلك يؤكد عقيدة الشيعة في أن للشريعة ظاهراً وباطناً ، وأن التأويل لا يعلمه إلا الله ورسوله وخلفاؤه المنصوبون من قبله ، إماماً بعد إمام إلى آخر الأئمة المعصومين ، يعلم الماضي منهم من يأتي بعده ، وسائر الناس يستفيدون علم التأويل منهم بقدر استعدادهم .

(١) ابن خلكان في ترجمة ابن هاني .

(٢) أي أنت الناس فاعمر أعمارهم بمجموعة ، وأنت داع إلى الله يدعوهم إلى سبيل الهداية فيؤسس بذلك نظرية الدعوة .

(٣) الضمير في كان يعود على السيف . يقول : كاد سيفك ينذر بالوعيد ، ويعلم التأويل لطول مصاحبتك إياك واستماعه لبياناتك .

ويقول مؤيداً لهذه التعاليم :

إذا كان أمن يشمل الأرض كلها فلا بد فيها من دليل مقدم

ويقول :

لولاك لم يكن التفكير واعظا والعقل رُشداً والقياس دليلا

لو لم تكن لسكن البلاد تضععت وترايلت أركانها تزيلا

وهكذا يؤسس في شعره الدعوة ، ونظرية الإمامة وعصمة الأئمة ، وعلم الإمام بالحقائق ، وأنه مظهر نور الله . فعلم الشعراء كيف يمدحون ، وكيف يقولون (١)

فلحاجة الفاطميين للدعوة قربوا الشعراء ، فكثرت الشعر وحسن وجاد ، فرأينا شعراء ممتازين في هذا العصر لم يكن مثلهم قبلهم في مصر ؛ شعراء أتوا من المغرب مع المعز وبعده ، وشعراء وافدون من العراق والشام واليمن ، وشعراء من المصريين أنفسهم ؛ وراج الشعر لكثرة الدوافع وقوتها ، فنوع الشعر الغالب على الأدب العربي — وهو شعر المديح — إنما يكثر ويزدهر على باب القصور السخية . والفاطميون كانوا من أسخى الناس في هذا الباب . ثم هم أكثروا من الحفلات العامة . مما لم يكن له نظير في مصر لا قبلهم ولا بعدهم ، وهذه الحفلات والأعياد كانت في غاية من الفخامة والضخامة ؛ قد أقرروا الأعياد التي كانت قبلهم ، وزادوا عليها : فهو سم رأس السنة ، ويوم عاشوراء ، ومولد النبي ، ومولد علي ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد فاطمة ، ومولد الخليفة

(١) انظر ديوان ابن هاني الذي نشره الدكتور زاهد على .

الحاضر ، وليلة أول رجب ، وأول شعبان ونصفه ، وعرة رمضان ، وسماط رمضان
وليلة الختم ، وعيد الفطر ، وعيد النحر ، وعيد الغدير ، وكسوة الشتاء ، وكسوة
الصيف ، وفتح الخليج ، ويوم النيروز ، ويوم الفطاس ، ويوم الميلاد ، وخميس
العدس الخ . مما بقي أثر بعضه عند المصريين إلى اليوم .

وكان في كثير من هذه الأعياد ، يركب الخليفة بزيه المفعم ، وهيبته
العظيمة ، وتوزع الخلع والجوائز ، وتمد الأسمطة ، فتكون كل هذه المظاهر
حافزة للشعراء على أن يقولوا ويكثروا ويحيدوا في هذا الباب من القول الذي
بعده الفاطميون دعاية لهم لا بد منها .

روى المقرئ عن الشريف أبي عبد الله الجواني ، أن الخليفة الأمر
بأحكام الله بنى منظره من خشب مدهونة ، فيها طاقات تشرف على خضرة
ركبة الحبش ، وصور فيها الشعراء كل شاعر وبلده ، واستدعى من كل واحد
منهم قطعة من الشعر في المدح ... وكتب ذلك عند رأس كل شاعر ، وبجانب
صورة كل منهم رف لطيف مذهب . فلما دخل الأمر وقرأ الأشعار ، أمر أن
يخط على كل رف صرة محتومة فيها خمسون ديناراً ، وأن يدخل كل شاعر
ويأخذ صرته بيده ، ففعلوا ذلك ، وأخذوا صرهم ، وكانوا عدة شعراء (١) .

وقد أسس هذه الخطة ، (خطة الاحتفاء بسماع الشعر ورعايته والمكافأة
العظيمة عليه) الخليفة المعز ووريه يعقوب بن كلس ، ثم صارت تقليداً فاطمياً
متبعاً — فالمعز أسس له ابن هانيء منهج الشعراء في المديح ؛ ويعقوب بن كلس
قرب الشعراء وشجعهم وأغناهم ، وكان من أولهم في ذلك الشاعر أبو حامد
الأطحاكي المعروف بأبي الرقعمق ، وأكثر شعره وقف على مدح المعز والعزير

(١) خطط المقرئ : ٤٨٦/١ .

والحاكم بأمر الله ، وجوهر القائد ، وخاصة الوزير ابن كلس من مثل قوله فيه :
كل يوم له على نوب الدهر وكر الخطوب بالبذل غاره
ذويد شأنها الفرار من البخل وفي حومة الندى كرهه
هي فلتت عن العزيز عداه بالعطايا وكثرت أنصاره
هكذا كل فاضل يده تمسى وتضحى نفاة ضراره
فاستجره فليس يأمن إلا من تفتيا ظلاله واستجاره
وإذا ما رأته مطرقا يعمل فيما يريد أفكاره
لم يدع بالذكاء والذهن شيئاً في ضمير الغيوب إلا آثاره
لا ولا موضعاً من الأرض إلا كان بالرأى مدركاً أقطاره
زاده الله بسطة وكفاه خوفه من زمانه وحذاره

وقد أفرد العماد الأصفهاني في كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر »
جزءاً خاصاً لشعراء مصر ، بلغ عددهم نحو المائة ، ترجم لكل منهم وذكر
شيئاً من شعره (١)

ويمكننا أن نقسم الشعر المصري الفاطمي أقساماً ثلاثة : قسم في المدح وهو
أكبر الأقسام كعادة الشعر العربي ، وكما رأيت في شعر أبي الرقعق ، ويمتاز عما
قبله من شعر مصر بالجزالة والقوة للأسباب التي ذكرناها . ومن أشهر هؤلاء
المهذب بن الزبير ، وكان أكثر مديحه في الصالح بن رزّيك ، ومن أشهر قصائده
فيه قصيدة نونية يمدحه بها بعد انتصار أسطول مصر على أسطول الروم ، مطلعها :
أعلمت حين تجاور الحيات أن القلوب مواعد النيران
ومثل المهذب الموصلي ، وعمارة اليميني .

(١) وهذا الجزء هو الجزء الثاني ، ومنه نسخة مخطوطة في دار الكتب .

ويصح أن نلاحظ أن هذا الشعر الذي قيل في مدح الفاطميين شعر فرح معتبط ، إذ كان الشيعة لأول أمرهم قد نجحوا في تأسيس دولة ضخمة ، وتبوؤوا فيها كرسى الخلافة بعد أن طال أمدهم في اضطهاد وتعذيب على يد الأمويين والعباسيين ، فكان شعر شعرائهم حزيناً أسفاً ك شعر السيد الحميري ، والكميت ودعبل الخزاعي .

ثم شعر تعليمي في الدعوة ، وقد بدأه ابن هانيء الأندلسي في بعض شعره ، وقد عرضنا قبل نماذج منه ، وبلغ قمته المؤيد الشيرازي داعي الدعاة ، فأكثر من الشعر في هذا الباب وأفاض ، وله ديوان في ذلك ؛ منه في تأييد علم الباطن :

ورب معنى ضمّه كلام كمثل نور ضمّه ظلام

باق بقاء الحبّ في السنايل في معقل من أحرز المعائل

وإنما باب المعاني مُثقل وأكثر الأنام عنه غفّل

مفتاحه أضحى بأيدي خزّنه بهم إلهي علمه قد خزّنه

كما يلوذ الخلق طرّاً بهم خصوا لهذا العلم من ربهم

فما أبو حنيفة والشافعي — حيث هم قد نفقوا — بنافع

أولئك الأبرار آل المصطفى ومن بهم مروّة عزّت والصفاء

هم البذور والنجوم اللّمع وللهدى وللعلوم المنبع

هم الثقات والنفاة للشبه والمنقذون الناس من كل عمه

لهم سمعنا ولهم أطعنا فبدّلونا بعد خوفٍ أمنا

فما علينا مشكلٌ بمشكل بهم كُفينا كل خط معضيل

وأرشدونا سبل الصواب وعلمونا علم ذا الكتاب

مبرّاً من هجنة التناقض مسلماً من خوض كل خائض

وهكذا كل ديوانه في الدعوة وما إليها^(١).

ثم شعر هو أرقى أنواع الشعر وأصدق ، ينبع من مشاعر الشاعر ، ويتدفق في رقة وسلاسة ، وكان على رأس الشعراء من هذا النوع شاعران فاطميان :
تميم بن المعز ، والمعتزلي .

فأما تميم ، فهو ابن الخليفة المعز فاتح مصر ، ولم يل الخلافة لأن المعز جعل ولاية عهده لابنه العزيز زرار دون تميم ، فحرم الخلافة ، ولكنه تنبأ عرش الأدب فكان شاعراً ماهراً لطيفاً ظريفاً ، يشعر بخلجات نفسه ، ونبضات قلبه ، ولم تر مصر شاعراً من هذا القبيل قبله مثله ، يصف حياته الالهية من حبه وعشقه وليالي غرامه ونحو ذلك في قول عذب ؛ وفي أعماقه شعور بالحزن ، إما لطبيعة مزاجه ورقة جسمه ، أو لخروج الخلافة من يده وهو يرى أنه أولى بالفضل ، أو لأنه عذبه الحب فأضناه ، أو لكل ذلك مجتمعاً . فمن قوله :

أما والذي لا يملك الأمر غيره ومن هو بالسر المكنم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلماً لإعلانها عندي أشد وألم
وبى كل ما يبكي العيون أقله وإن كنت منه دائماً أتبسم

وتميم بن المعز أشبه شيء بـابن المعتز في قرابة الكنية ، والنشأة في بيت الملك ، وقوة الشاعرية ، وسوء الحظ في دنيا المناصب ، وإن تخالفاً في أن ابن المعتز سئى عباسى يدعو للعباسيين ويرد على الشيعة ، فيرد عليه ابن المعز في مثل قوله ، وعلى روى قصيدته . يقول ابن المعتز في الإشادة بالعباسيين ورد دعوة الشيعة قصيدة مطلعها :

أى رسم لآل هند ودار درسا غير ملعب ومنار

(١) انظر ديوانه مخطوطاً في مكتبة جامعة فؤاد .

يقول فيها :

هاشمي إذا نسبت ومحضو ص بيت هاشم ، غير عار
أخزن الفيظ في قلوب الأعادي وأحلّ الجبّار دار الصغار
أنا جيش إذا غدوت وحيداً ووحيد في الجحفل الجرّار الخ
فيرد تميم بن المعز بقصيدته :

يا بني هاشم ولسنا سواء في صغار من العلا وكبار
إن نكن نتمى لجدِّ فإنا قد سبقنا كمو لكل فخار
ليس عباسكم كمثل عليّ هل تقاس النجوم بالأقمار الخ
ولكن دعنا من هذا ، فزينة تميم الكبرى في رقة شعره ، وصدق شعوره
وسلاسته ، فكان في ذلك أستاذ البهاء زهير بعده ، كقوله :

يا دهر ما أقساک من متلّون في حالتیک وما أقلک منصفاً
أتروح للنکس الجهول ممهداً وعلى اللیب الحر سيفاً مرهفاً
فإذا صفوت کدرت ، شیمه باخل وإذا وفیت نقضت أسباب الوفا
لا أرتضیک وإن صفوت لأنّی أدری بأنک لا تدوم على الصفا
زمن إذا أعطی استرد عطاءه وإذا استقر بدا له فتحرفاً
ما قام خیرک یا زمان بشره أولى بنا ما قلّ منك وما کفی
وقوله :

قالت وقد نالها للبين أوجعه والبين صعب على الأحباب موقمه
اجعل يديك على قلبي فقد ضعفت قواه عن حمل ما فيه وأضلعه
كأنّی يوم ولّت حسرة وأسى غریق بحر یرى الشاطی ويمنعه

وله الأوزان الشعرية الظريفة كقوله :

دم العشاق مطول ودين الحب ممطول
وسيف اللحظ مسلول ومُبْدَى الحب معذول
وإِن لم يُصغِرِ لِلْأَمِّ

وأحورَ ساحر الطَّرْفِ يفوق جوامع الوصف
مليح الدَّل والظرف جنت الحَاظِه حقيق
فمن يُعدي على الظالم

يعنفني على حبي ويهجرني بلا ذنب
كأني لست بالصب لقهوة ريقه العذب

أما في الحب من راحم ؟ الخ

وقد مات سنة ٣٧٤ في خلافة أخيه ، ولم يعمر طويلاً ؛ إذ كان عمره يوم وفاته نحواً من سبع وثلاثين سنة ، وهذه سنة القلب المحترق (١) .

وأما العقيلي ، فهو أبو الحسن علي بن الحسين بن حيدر العقبلي ، كان في المائة الخامسة ، وكان من الأشراف ، وكان له متنزعات بجزيرة القسطاق ، ولم يكن خليفة أو أمير ، بل غنى لنفسه في حبه ومتنزعاته ؛ وكان يعد من أئمة المدرسة التي تعنى بالتشبيه وتحيده ، أمثال ذي الرمة أولاً ، وابن المعتز أخيراً ؛ ثم سلك مسلك أبي نواس في الخمر وتوليد المعاني منها ، وأولع بالطبيعة الجميلة يستجليها ويستمتع بها ، كقوله :

الروض في ديباجة خضراء والجو في فرجة دكنا

(١) له ديوان شعر مخطوط بمكتبة الجامعة .

والأرض قد نظم الربيع لجيدها
والراح ينثر في مُذاب عقيقتها
عِنداً من الصفراء والحمرء
دَرَرَ الفواقع جوهرئ الماء
أحببت سكنى جنة السراء
وقوله في وصف صديق :

ظللني بظله الظليل
يسير في المجد بلا دليل
أخ نَداه واضح السبيل
مهذب الجملة والتفصيل
أخلاقه تنضح بالجميل
كأنه عافية العليل
لأحسن من مصافحة الصّاح
ومن وقع الرماح على الرماح
بقاع ترقص الأمواج فيها
على النغمات من رمى الرماح
وأغصانٌ يذهبها بهار
وغيطان يفضضها أقاح

وإن جنح الشباب إلى التصابي
فصلّ عنانه طوعَ الجماح
فصبح العيش سوف يعود ليلا
إذا ما الليل نعص بالصباح^(١)
أنطمع بعد شبك في سرور
محال أن تطير بلا جناح^(٢)

ثم ما بقى لنا من النثر الفنى الفاطمى ولو كان قليلا ، كـبعض الكتب الرسمية
التي ذكرها القلقشندى فى صبح الأعشى ، ورسالة ابن القارح لأبى العلاء (وقد
عاش ابن القارح فى زمن الحاكم) ، ورد عليها أبو العلاء برسالة الغفران ، وكرسالة
داعى الدعاة إلى أبى العلاء ، وجداله معه فى ذبح الحيوان ، إلى غير ذلك من رسائل
منشورة هنا وهناك ؛ كل هذا على قلته يدل على تقدم النثر الفنى ، وميله إلى الزينة
من سجع وبديع واقتباس ، مما هو ظل حياة الترف فى قصور الخلفاء ، كما يدل
على تأثر بسعة الثقافة التى عظمت فى هذا العصر .

(١) يريد إذا نزل الصيب بالرأس .

(٢) انظر مجموعة من شعره فى كتاب المغرب ص ٥٢ وما بعدها .

الباب الثاني

العراق وجنوبي فارس

ظلت هذه البلاد محكومة بالخلفاء اسماً ، وبسلطة الأتراك فعلاً ، من عهد المتوكل إلى أن جاءت الدولة البويهية الفارسية فبسطت نفوذها على جنوبي فارس والعراق من سنة ٣٢١ إلى سنة ٤٤٧ ؛ ولما تغلبوا على بغداد لم يكن للخليفة العباسي معهم إلا الاسم ، والدعاء له على المنابر ، وكتابة اسمه على سكة الدراهم والدنانير . وأما جباية الأموال وتجهيز الجيوش وأمور الدولة كلها ففي أيديهم ، قد جعلوا للخليفة مرتباً ثم تصرفوا في كل مالية الدولة ، وكان لقبهم « أمير الأمراء » لقبهم به الخلفاء : وقد كان البويهيون شيعة ؛ وقد فكر معز الدولة البويهى عند ما فتح بغداد أن يعزل الخليفة وهو سني ويقيم مكانه أحد الأئمة العلويين ، كما فعل الفاطميون ، وكان ذلك هيناً عليه ، ولكن نصحه بعض خاصته ألا يفعل ؛ وقال : « ليس هذا رأي ، فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله قتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلس بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لعلوه ، فأعرض عن رأيه ، وأقام المطيع لله خليفة بدل المستكفي الخلوغ » .

وقد كانوا قرساً متشيعين يقولون إنهم من نسل ملوك فارس — وقد قسموا العراق وجنوبي فارس فيما بينهم ، وامتد نفوذ بعضهم أحياناً ، وانكش نفوذ بعضهم ، فمنهم من حكم العراق والأهواز وكرمان ، ومنهم من حكم كرمان

وحدها ، ومنهم من حكم فارس وحدها ، ومنهم من حكم الرّى وهَمْدان وأصفهان ،
ومنهم من مد سلطانه على ذلك جميعاً كهضد الدولة ، وكان بين بعضهم وبعض
خصومات ومنازعات ليس هنا موضع شرحها .

إنما نستطيع أن نقول إنهم مع فارسيتهم شجعوا الأدب العربي ، واللسان
العربي ، والعلوم العربية ، وكان ممن نبغ من العلماء والأدباء والفلاسفة في عهدهم
من يُعد بحق فخر المملكة الإسلامية في العصور المختلفة

وقد كانت هناك مدن كثيرة في هذا الإقليم أثناء هذا العهد وقبله تيزت
بقوة الحركات العلمية والأدبية مثل بغداد والبصرة والكوفة في العراق ، والرى
وأصفهان في فارس . وقد زار المقدسى هذه البلاد كلها في العهد البويهى ، وملخص
ما قال من الناحية العلمية : « إن إقليم العراق إقليم الظرفاء ، ومنبع العلماء ،
لطيف الماء ، عجيب الهواء ، مختار الخلفاء ، أخرج أبا حنيفة فقيه الفقهاء ،
وسفيان سيد القراء ، ومنه كان أبو عبيدة والقراء ، وحمزة والكسائى ، وكل
فقيه ومقرئ وأديب ، وسرى وحكيم وداه وزاهد ونجيب ، وظريف وليب —
أليس به البصرة التي قوبلت بالدنيا ، وبغداد المدوحة في الورى ، والكوفة
الجليلة وسامر^(١) .

« والكوفة قصبة جليلة حسنة البناء جليلة الأسواق كثيرة الخيرات . . .
وهو بلد مختل قد خرب أطرافه ، وكان نظير بغداد^(٢) .

« والبصرة قصبة مريية . . . والبلد أعجب إلى من بغداد لرفعتها ، وكثرة
الصالحين بها . وكنت بمجلس جمع فقهاء بغداد ومشايخها ، فتذاكروا بغداد

(١) أحسن التقاسيم : ١١٣ . (٢) ص ١١٧ .

والبصرة ففرقوا على أنه إذا جمعت عمارات بغداد وأندِر خرابها لم تكن أكبر من البصرة^(١).

« وبغداد (لأهلها) الخصاص والظرافة ، والقرايح واللطافة ، هواء رقيق ، وعلم دقيق ، كل جيد بها ، وكل حسن فيها ، وكل حاذق منها ، وكل قلب إليها ، وكل حرب عليها ، وهي أشهر من أن توصف ، وأحسن من أن تنعت ، وأعلى من أن تمدح^(٢) » .

ولكنه في موضع آخر قال : « واعلم أن بغداد كانت جليلة في القديم ؛ وقد تداعت الآن للخراب ، واختلت وذهب بهاؤها ، ولم أستطعها ، ولا أعجبت بها ، وإن مدحناها فللمتعارف ؛ وفسطاط مصر اليوم كبغداد ، ولا أعلم في الإسلام بلداً أجمل منه^(٣) » .

« (العراق) كثيرة الفقهاء والقراء والأدباء والأئمة والملوك ، بخاصة بغداد والبصرة . . . وبه مجوس كثيرة ، وذمته نصارى ويهود . . . وقد حصل به عدة من المذاهب ، والغلبة ببغداد للحنابلة والشيعة ، وبه مالكية وأشعرية ومعتزلة ونجارية ، وبالكوفة الشيعة إلا الكُتَّاسة فإنها سنة . . . وبالبصرة مجالس وعوام السَّلمية ، وهم قوم يدعون الكلام والزهد (وسالم كان غلام سهل ابن عبد الله التستري الصوفي) . . . وأكثر أهل البصرة قَدْرية وشيعة ، وثم حنابلة ، وببغداد غالبية يفرطون في حب معاوية ، ومشبهة . . . والقراءات السبع مستعملة في العراق . . . ولغاتهم مختلفة ، أصحها الكوفية لقربهم من البادية ، وبعدهم عن النبط ، ثم هي بعد ذلك خشنة وفسادة ، بخاصة في بغداد . وأما البطائح فنبط لالسان ولا عقل^(٤) » .

(١) ص ١١٨ . (٢) ص ١١٩ . (٣) ص ٣٦ . (٤) ص ١٢٨ .

« وتقع عصبيات وحشة بالبصرة بين الربيعين وهم شيعة ، وبين السعديين وهم سنة ، ويدخل فيها أهل الرساتيق ، وقلد بلاد الأوبه عصبيات على غير المذاهب .
 « وأما القسم من إيران الذي كان يحكمه البويهيون فقسمه الشمالي كان يسمى بلاد الجبال ، وأهم مدنه أربع : كرمشاه (وكانت تسمى في ذلك العهد قرمسين) ، والري ، وهمدان ، وأصفهان — وسمى هذا الإقليم في العهد السلجوقي بالعراق العجمي — وكانت عاصمة هذا الإقليم في العهد البويهي هي « الري » ؛ قال الإصطخرى : « والري مدينة ليس بعد بغداد في المشرق أعمر منها » . وقال الأصبغى : « الري عروس الدنيا وإليه متجر الناس ، وهو أحد بلدان الأرض » ، والنسبة إليها رازي . وقد خرّجت كثيراً من العلماء المعروفين بهذه النسبة كما سيجيء ، وموقعها على بعد أميال من طهران ، ومحليها الآن خرائب ، ولما وصف المقدسي هذا الإقليم في العهد البويهي قال : « إن به الرىّ الجليّة ، وهمدان ، والكورة النفيسة أصهبان ^(١) .

« فأما الري فإنها كورة نزيهة كثيرة المياه ، جليّة القرى ، حسنة القواكه واسعة الأرض ، خطيرة الرساتيق ^(٢) . . . علماء سراة ، وعوام دهاة ، ونسوان مدبرات ، لهم جمال وعقل وآيين . وبه مجالس ومدارس ، وقرائح وصنائع وخصائص ، لا يخلو المذكور من فقه ، ولا الرئيس من علم ، ولا المحتسب من صيت ، ولا الخطيب من أدب ، هو أحد مفاخر الإسلام ، وأمّهات البلدان ، به مشايخ وأجلة ، وقراء وأئمة ، وزهاد وغزاة . . . وأئمة الجوامع فيها مختلفة ، يوم للحنفيين ، ويوم للشفيعيين ^(٣) .

« وأما همذان فهي إقليم كبير حسن قديم . . . والري أطيّب وآهل وأعمر

(٣) ٣٩١ .

(٢) ٣٨٥ .

(١) ٣٨٤ .

منها ، قد انجلى أهلها ، وقلّ العلماء بها ، وأذهبت الري دولتها .
وأما أصفهان ، فأخذت بحظ من فارس ، وحظ من الجبال ، وقصبتها
« اليهودية » وهي كبيرة عامرة أهلة كثيرة الخيرات ، أهل سنة وجماعة ، وأدب
وبلاغة ، كم أخرجت من مقرئ وأديب ، ووقيه ولبيب^(١)

« ومذاهب هذا الإقليم مختلفة ؛ أما بالري فالغلبة للحنفيين ، وبها جنابة
كثيرون لهم جلبة ، والعوام قد تابعوا الفقهاء في خلق القرآن ؛ وأهل « قم »
شيعة غالبية . . . وهمذان وأجنادها أصحاب حديث إلا الدينور ، فإن بها جلبة
لمذهب سفيان الثوري ، والإمامة في الجامع مثنى (يوم لمذهب ويوم لمذهب) ،
وعلى ذلك كان أهل أصفهان في القديم^(٢) .

« ويقع بالري عصبية في خلق القرآن^(٣) ، وفي أهل أصفهان بله وغلو
في معاوية^(٤) » .

وقد اشتهر من بلاد الجبل في العلم والأدب « دينور » التي ينسب إليها ابن
قتيبة الدينوري ، وأبو حنيفة الدينوري ، وغيرها من فحول العلماء والأدباء .

وإلى الجنوب من إقليم الجبال كان إقليم « فارس » ، وكان اسماً لإقليم
خاص ، ثم أطلق على إيران كلها . وقد اشتهر من هذا الإقليم في العلم والأدب
إصطخر ، وسيراف ، وشيراز ، وأرجان ، وشعب بونان ، وشهرستان ، وقد
حازت شيراز مركزاً ممتازاً في العهد البويهى ، وخاصة في عهد عضد الدولة ،
وكانت هي قسبة إقليم فارس ينزل بها ملوك البويهيين . قال المقدسى : « وهذا

. ٣٩٥ (٢)

. ٣٨٩ (١)

. ٣٩٩ (٤)

. ٣٩٦ (٣)

الإقليم (إقليم فارس) العمل فيه على مذهب أصحاب الحديث ، وأصحاب أبي حنيفة
كثيرون ، ولداوودية (أهل الظاهر) دروس ومجالس وغلبة ، ويتقلدون القضاء
والأعمال^(١) . والصوفية بشيراز كثيرون - وكما يُرفع بالمشرك العلماء تُرفع
هنا الكتب^(٢) .

نعود إلى وصف الحركة العلمية في العراق ، ثم في الجزء الجنوبي من
بلاد الفرس .
فالعراق من عهد المتوكل إلى آخر الدولة البويهية لم تزل لها الصدارة في العلم
والأدب والفلسفة .

ويدل ما جمعه الخطيب البغدادي من تراجم علماء بغداد على ثروة واسعة
في العلم والعلماء من جميع الفروع كالتفسير والحديث والفقه والشعر والأدب .
نعم إن المتوكل نصر أهل الحديث على المعتزلة واضطهدهم ، وكان في هذا
خسارة كبيرة على الحركة الفكرية ؛ ولكن مع ذلك ظل الجدل في علم
الكلام قوياً .

فقد نبغ أبو علي الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٣) ، وكان إمام المعتزلة في بغداد ،
وتلمذ له أبو الحسن الأشعري (٢٧٠ - ٣٣٠) ، وكان مولده بالبصرة ، وانتقل
إلى بغداد ، وأخذ مذهب الاعتزال على الجبائي ، ثم خرج على الاعتزال وحاربه
وألف في ذلك الكتب الكثيرة ، وخالف المعتزلة في كثير من أصولهم لقولهم
بالاختيار المطلق ووجوب العدل على الله ، وأن القرآن مخلوق ، وكوّن مذهباً له
دعا إليه ، وناصر مذهبه جماعة من أكبر العلماء من أشهرهم الباقلاني ، وابن

فورك ، والإسفرائيني ، والقشيري ، وإمام الحرمين الجويني ، ثم الغزالي —
فأبو حامد الإسفرائيني كان يحضر إليه أكثر من ثلثائة فقيه ، وانتهت إليه
الرياسة في بغداد ، وكان شافعيًا كأبي الحسن الأشعري ، وما زال يدرس ببغداد
من سنة ٣٧٠ إلى وفاته سنة ٤٠٦ .

والباقاني كذلك كان من أنصار الأشعري في بغداد ، وصنف التصانيف
الكثيرة في علم الكلام ، وكان موصوفًا بالإطباب وقوة الجدل ، مات سنة
٤٠٣ الخ الخ .

واشتد الجدل بين الأشعرية والمعتزلة ، وإن خفت بعض الشيء صوت
المعتزلة لقوة المحدثين ، ونصرة ذوى السلطان لهم .

واستمر المعتزلة في العراق يعلمون ويدرسون ويدعون ؛ وقد اشتهر منهم
أمة عظماء كأبي علي الجبائي الذي مر ذكره ، ثم تلميذه في الاعتزال محمد بن عمر
الصيمري ، ثم قاضي القضاة عبد الجبار ، كان أشعريًا ثم تحول إلى الاعتزال ونبغ
فيه ؛ قالوا : « وهو أول من فتح علم الكلام ونشر بروده ، ووضع فيه الكتب
الجليلة التي بلغت المشرق والمغرب ، وضمنها من دقيق الكلام وجليله ما لم يتفق لأحد
مثله ؛ وطال عمره مواظبًا على التدريس والإملاء (ببغداد) حتى طبق الأرض بكتبه
وأصحابه ، وبعُد صوته ؛ وإليه انتهت الرياسة في المعتزلة حتى صار شيخها وعالمها
غير مدافع ، وصار الاعتماد على كتبه ومسائله ؛ واستدعاه صاحب بن عباد إلى الري
سنة ٣٦٠ فبقي فيها مواظبًا على التدريس إلى أن توفي سنة ٤١٥ أو سنة ٤١٦ »^(١) .
وهو الذي يلقبه المعتزلة بقاضي القضاة .

وهكذا ظلت حركة الاعتزال في العراق يناهضها الأشاعرة وغيرهم ،
ويؤسسون بذلك علم الكلام ويوسعونه .

(١) النية والأمل .

كما نمت الحركة الفقهية في العراق نمواً كبيراً ، وظهر كثير من المجتهدين وكبار أتباع المذاهب المختلفة . فكان من المجتهدين داود الظاهري الأصفهاني الأصل البغدادي الدار . وقد أسس مذهباً عماده إنكار القياس ، وأن في الكتاب والسنة من العمومات ما يفي بمعرفة الواجبات والمحرمات ، وتقديم ظواهر آيات القرآن والحديث على التعليل العقلي للأحكام . وقد كثر أتباع هذا المذهب في العراق وفارس والأندلس . وقد انقرضوا بعد المائة الخامسة ؛ وقد مات داود صاحب المذهب سنة ٢٧٠ ببغداد ، ونشر مذهبه بعده ابنه محمد المتوفى سنة ٢٩٧ .

ثم من أشهر الأئمة المجتهدين محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والحديث ومن أعلم الناس بفقهِ المذاهب المختلفة ، وألّف في اختلاف الفقهاء ، وكان من أكثر العلماء تأليفاً ، وكان مجتهداً في مذهبه لم يقلد أحداً ، توفي سنة ٣١٠ ببغداد . وكان له أتباع على مذهبه انقطعوا بعد المائة الرابعة .

وقد نبغ في هذا العصر كثير من علماء المذاهب المختلفة كذلك . فاشتهر من الحنفية في العراق أبو الحسن عبيد الله الكرخي رئيس الحنفية في العراق في عصره ، توفي سنة ٣٤٠ . وقد أصابه الفالج ، فكتب أصحابه إلى سيف الدولة الحمداني يستمنحونه ما ينفق عليه ؛ فلما علم الكرخي بذلك بكى ، وقال : اللهم لا تجعل رزقي إلا من حيث عودتني ، ومات قبل أن تصل إليه صلة سيف الدولة .

وكان من أكبر تلاميذ الكرخي هذا أبو بكر الجصاص البغدادي رأس المذهب بعد الكرخي ، وألّف الكتب الكثيرة على مذهب أبي حنيفة ، مات سنة ٣٧٠ . وقد وصل إلينا من تأليفه كتابه العظيم المطبوع ، أحكام القرآن .

ثم أبو الحسين أحمد القدوري رئيس الحنفية في العراق في زمنه ؛ وقد ألف كتاباً وصل إلينا بعضها منها المختصر ، وكان يناظر الإسفرائيني الفقيه الشافعي المشهور ، مات سنة ٤٢٨ .

واشتهر من فقهاء المالكية العراقيين أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن حماد ، تفقه عليه أهل العراق من المالكية ، وألف الكتب الكثيرة في الفقه المالكي وعلوم القرآن ، وكان من نظراء المبرد في النحو ، وولى قضاء بغداد ، وعنه انتشر مذهب مالك في العراق ، وأقام على القضاء نيماً وخمسين سنة ، « وكان بيت آل حماد أشهر بيت في العراق لكثرة رجاله المشهورين بالعلم والثراء ، أئمة الفقه ومشيخة الحديث ، رؤساء نباء أصحاب سنة وهدى ودين ، روى عنهم علماء انتشروا في أقطار الأرض ، فانتشر ذكركم في المشرق والمغرب ، وبقى العلم في بيتهم نحو مائة عام » ، مات إسماعيل بن حماد هذا سنة ٢٨٢ .

ثم أبو الحسن علي بن أحمد البغدادي المشهور بابن القصار ، كتب كتاب مسائل الخلاف المشهور عند المالكية ، وقد تولى أيضاً قضاء بغداد ، ومات سنة ٣٩٨ .

واشتهر من رجال الشافعية ، أبو علي الكرايسي البغدادي ، رئيس الشافعية ببغداد ، المتوفى سنة ٢٤٥ ؛ وأبو علي الزعفراني البغدادي المتوفى سنة ٢٦٠ ؛ وأبو علي الحسن بن القاسم الطبري البغدادي ، له كتاب المحرر في النظر ، وهو من أوائل الكتب في الخلاف بين الفقهاء ، وله كتاب الإفصاح في الفقه ، وكتاب في الأصول ، وكتاب في الجدل ، توفي سنة ٣٠٥ .

ثم أحمد بن عمر بن سريج القاضي بشيراز ثم ببغداد ، أحد عطاء الشافعية

ألف نحو أربعين كتاباً ، توفي سنة ٣٠٦ .

وأبو إسحاق المروزي إمام عصره في العراق بعد ابن سريج ، أقام بالعراق
دهراً طويلاً ينشر مذهب الشافعي ، توفي سنة ٣٤٠ .

وأبو الحسن علي بن عمر البغدادي الدارقطني ، المحدث الكبير ، وكان
فقيهاً شافعيّاً ، عارفاً باختلاف الفقهاء ، رحل إلى مصر ، ونزل ضيفاً على ابن
حزبابة وزير كافور الأحمدي ، ثم عاد إلى بغداد ، وألف كتباً كثيرة ،
ومات ببغداد سنة ٣٨٥ ، ونسبته إلى دار قطن محلة ببغداد .

ثم أبو الحسن الماوردي علي بن محمد بن حبيب البصري من أكبر فقهاء
الشافعية ، تولى القضاء في بلدان كثيرة ، واستوطن بغداد ؛ وألف الحاوي وهو
من أهم الكتب في الفقه الشافعي ، وله الكتاب المشهور المفيد كتاب « الأحكام
السلطانية » شرح فيه مناصب الدولة من الناحية الدينية كالإمامة وشروطها ،
والوزارة وأقسامها ، والقضاء والحسبة وولاية الخراج ، إلى آخره ؛ وكان عمدة
كل من تعرض لهذا الموضوع من بعده ، وله كتاب آخر في قانون الوزارة
وسياسة الملك .

وله كتاب أدب الدنيا والدين في الأخلاق على الأصول الدينية لا كتهذيب
الأخلاق لمسكويه ، فإنه كتاب أخلاق على الأصول الفلسفية .

ومات ببغداد سنة ٤٥٠ .

وكان للحنبالية سلطان كبير في العراق ، واشتهر من علمائهم عبد الله بن
الإمام أحمد بن حنبل ، روى عن أبيه المسند والتفسير توفي سنة ٢٩٠ .

وأبو بكر أحمد بن هاني الطائي البغدادي أحد الأعلام في الفقه على مذهب

ابن حنبل ، مات بعد السبعين ومائتين .

وأبو إسحاق إبراهيم الحرّبي إمام كبير في الحديث مات سنة ٢٨٥ .
وأبو بكر عبد الله بن داود الأزدي السجستاني من أكابر حفاظ الحديث
ببغداد ، وانتهت إليه رئاسة الحنابلة بها ، مات سنة ٣١٦ .
وأبو القاسم عمر بن الحسين الحرّقي صاحب المختصر في فقه الحنابلة ، خرج من
بغداد لما ظهر بها سب السلف ، وتوفي سنة ٣٣٤ .

وقد أتعب الحنابلة الحكومات المتعاقبة أكثر من غيرهم من أهل المذاهب
الأخرى لشدة عصبيتهم والميل إلى تنفيذ آرائهم بالقوة ، من إراقة الخمر ومحاربة
المنكرات ، والتعدى على خصومهم من أهل المذاهب ، وصبرهم على ما يلقون من
محن تقليداً لأستاذهم الأكبر أحمد بن حنبل .

وفي هذا العصر نما في العراق التصوف ، والدعوة إلى الاهتمام بباطن النفس
لا بالظواهر ، وحقيقة الشريعة لا بمجرد أعمال الجوارح ، ورياضة النفس عن
طريق الزهد والعبادة ، والوصول إلى المعرفة عن طريق الوحي والإلهام ، وإدراك
العالم العلوي بالذوق والشعور ، لا بما يدركه العقل بالمنطق والتجارب والقياس .
وقد ظهر التصوف في العراق في القرن الثاني ، واشتهر من أعلامه رابعة العدوية
المتوفاة سنة ١٣٥ ، وهي القائلة : استغفارنا يحتاج إلى استغفار ، والقائلة : إلهي
أحرق بالنار قلباً يحبك !؟

ثم إبراهيم بن أدهم (١٦٢) ؛ وشقيق البلخي (١٩٥) ؛ ومعروف الكرخي
(٢٠٠) ، وهو القائل : التصوف الأخذ بالحقائق ، واليأس مما في أيدي الناس ؛
ثم بشر الحافي (٢٢٦) ، وهو القائل للمحدثين : أدوا زكاة هذا الحديث . قالوا :
وما زكاته ؟ قال : أن تعملوا بخمسة أحاديث من كل مائتين .

وفي أواسط القرن الثالث تفلسف التصوف ، واستمد من الفلسفة اليونانية والفلسفة الهندية ، فظهر بالعراق الحارث المحاسبي وهو بصرى الأصل ، وأستاذ أكثر البغداديين ، ومفلسف التصوف ، ألف كتباً كثيرة ؛ وكان يقول : خيار هذه الأمة هم الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ، ولا دنياهم عن آخرتهم . وكانت تأليفه من الأصول التي اعتمد عليها الغزالي في كتبه ، توفي سنة ٢٤٣ . ثم سهل بن عبد الله التستري البصرى المتوفى سنة ٢٨٣ .

ثم أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادي الخراز المتوفى سنة ٢٨٦ ، وهو أول من تكلم في الفناء والبقاء .

ثم ظهر إمام الصوفية الجنيد ، أصله من نهاوند ، ومولده ومنشؤه بالعراق ، توفي سنة ٢٩٧ ببغداد ؛ ومن قوله : التصوف صفاء المعاملة مع الله — إن الله يُخلص إلى القلوب من برّه على حسب ما تُخلص إليه القلوب من ذِكره ، فانظر ماذا خالط قلبك — المرید الصادق غنى عن علم العلماء — التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة .

ومن تلاميذ الجنيد أبو منصور الحلاج الذي نقلت عنه مقالات في الحلول أفنى فيها العلماء بإباحة دمه ، فقتل ببغداد سنة ٣٠٩ .

وأخذ المتصوفة يضعون الكتب في التصوف محاذة لكتب الفقهاء ، ومن أشهر هذه الكتب قوت القلوب لأبي طالب المكي ، أصله من إقليم الجبل وسكن مكة فنسب إليها ، وأقام ببغداد مدة وبالْبصرة مدة ، وشطح في كلامه ؛ وقد مات ببغداد سنة ٣٨٦ .

وكان طبيعياً أن يثور الخلاف بين الفقهاء والمتصوفة لاختلاف الزعتين .

فالمتصوف يعتمد على القلب وعلى الذوق وعلى المعرفة من طريق الإلهام وعلى
الباطن ؛ والفقهاء يعتمدون على ظاهر القرآن والسنة ، وعلى الاستنباط منهما من
طريق المنطق والعقل ، وليس عندهم باطن ولا حقيقة وراء ظاهر النصوص وفهم
معانيها . والصوفي يعنى بالروح والنفس ؛ والفقهاء يعنى بالجانب الظاهري والعملي .
والصوفي روحاني نفساني ؛ والفقهاء قانوني . والصوفي يعنى بالحب الإلهي ،
ولا يعنيه كثيراً أمر الثواب والعقاب ؛ والفقهاء يعنى بأداء العبادات ، ويعتمد
كثيراً على الثواب والعقاب الخ . فلا عجب إذن إذا اصطدمت الطائفتان ، ولا
عجب إن كان أكبر اصطدام لهما في العراق إذ كان الموطن الأكبر للمتصوفة ،
وخصوصاً في البصرة حيث كانت منزل الهنود القادمين إلى العراق ، وبغداد
حيث تلتقى الثقافات .

وكانت الخصومة أشد ما تكون بين الخنابلة والصوفية لشدة تمسك الخنابلة
بظاهر النصوص ، ولأثر أحمد بن حنبل نفسه في ذلك ، فقد أنكر أحمد بن حنبل
على الحارث المحاسبي الصوفي كلامه في التصوف حتى اختفى المحاسبي ، ولما مات
لم يحضر جنازته إلا أربعة ؛ وعاب عليه ابن حنبل وتلاميذه كلامه في الخواطر
والوساوس ، وقال إن هذه بدعة ، ورمى الخنابلة الصوفية بالزندقة وأثاروا الناس
عليهم ، وكان من أشهر الحوادث في ذلك الحنة المعروفة بمحنة « غلام الخليل » ،
وكان ذلك سنة ٢٦٢ ، إذ جاء « غلام الخليل » . وكان حنبلياً معروفاً بالحديث
والفقه والوعظ ، وقد وصفه أبو داود السجستاني بأنه دجال بغداد — واتهم
الصوفية بالزندقة ، وشعب عليهم العامة ، وسعى عند الخليفة ، وعند والده
الموفق ، فأمر بالقبض على عدد كبير من الصوفية بلغوا نيفا وسبعين . واتهم
الحنة بقتل بعضهم ، وهرب بعضهم وتبرئة بعضهم .

ثم كانت فتنة الحلاج الكبرى فاتهم بالكفر ودعوى الألوهية ، وصدرت فتوى من محمد بن داود الظاهري بتكفيره سنة ٢٩٧ ، ثم قبض عليه وحوكم ؛ وصدرت الفتوى بإباحة دمه من أبي عمر بن يوسف الأزدي وأبي الحسين بن الأشناني ، ووقع الخليفة بموته ، فقتل الحلاج وصلب وقطعت أطرافه ، وأحرق سنة ٣٠٩ .

قبري من هذا شدة ما كان بين الصوفية والفقهاء في العراق من نزاع .

ونشطت حركة الفلسفة والنقل في العراق في العهد البويهي نشاطا كبيرا ، فكان من أكبر فلاسفة بغداد أبو سليمان النطقي محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني ، شيخ رجال الفكر في بغداد ، وقد وصفه تلميذه أبو حيان بأنه « أدق (العلماء) نظرا ، وأقهرهم غوصا ، وأصفاهم فكرا ، وأظفرهم بالدرر ، وأوقفهم على الغرر ، مع تقطع في العبارة ، ولكنة ناشئة من العجمة ، وقلة نظر في الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز »^(١) .

وكان مجلسه في بيته مدرسة فكرية تثار فيها أدق المسائل ، ويدلى فيها آكار العلماء بأرائهم ، ولأبي سليمان الكلمة الأخيرة فيما يعرضون .

فيجتمع عنده أمثال أبي زكريا الصيمري ، وأبي حيان التوحيدى ، والنوشجاني والقومسي ، وغلان زحل ، ويتجادلون - مثلا - في هل هناك تأثير للنجوم في الحوادث الأرضية ؛ وفي أفعال الله هل هي ضرورة أو اختيار ؛ وفي السماع والغناء . ولم يؤثران في النفس ؛ والعلاقة بين المنطق والنحو ؛ ونعيم أهل الجنة وكيف يكون ؛ والفرق بين طريقة المتكلمين والفلاسفة ؛ والحظوظ والأرزاق ، والدهر وحقيقتها .

(١) الإمتاع : ٣٣/١ .

فكان بيته مدرسة تنشط فيها الحركات الفكرية ، وتثار فيه أعقد المسائل
أحيانا ارتجالا وأحيانا بقراءة رتيبة ؛ فقد درّس في بيته — مثلا — كتاب
النفس لأرسطو وحضره عليه أبو حيان التوحيدى .

ويطلعنا أبو حيان التوحيدى في كتابه « المقابسات » والإمتاع والمؤانسة
على محاضر لهذه الجلسات وغيرها مما كان يدور بين العلماء في بغداد ، فيدلنا على
نشاط ذهنى فلسفى عجيب ، وحرية في التفكير عظيمة ، وثروة في رجال الفكر
والنشاط العقلى كبيرة ؛ فيروى لنا — مثلا — مناظرة كبرى بين أبى سعيد
السيرافى النحوى وبين متى بن يونس القنّائى في المنطق اليونانى والنحو العربى
سنة ٣٢٠ ، وكانت في بغداد ، واحتشد لهذه المناظرة كثير من العلماء ورسول
للأخشيديين بمصر ورسول للسامانيين . وكان أساس المناظرة أن متى يقول
لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب ، والخير من الشر ،
والحجة من الشبهة ، والشك من اليقين إلا بالمنطق حسبما رسمه أرسطو ؛ وكان
أبو سعيد يرى أن هذه الأمور تعرف بالعقل الفطرى من غير حاجة إلى المنطق ،
وليس علم المنطق إلا أشكالا ؛ فهب أن الأشكال صحيحة فبم تعرف جوهر
الأشياء وحقيقتها ؟ أليس من طريق العقل ؟ ! وتحورت المناقشة بعد ذلك إلى
مسائل فرعية لا نطيل بها ، كدعوى أنه لا حاجة بالمنطق إلى النحو والنحو
حاجة إلى المنطق الخ .

ويحكى مجلسا عند الوزير ابن سعدان حضره جماعة من متفلسفة النصارى
جرى فيه البحث فى الإصلاح الخلقى وتقسيمه إلى سهل وعسير كالإصلاح البدنى .
ومحضر جلسة أخرى عند عيسى بن على بن عيسى الوزير فى السبب الذى
من أجله يولع كل ذى علم بعلمه .

ومناظرة بين ماني الجوسى وأبي الحسن محمد بن يوسف العامرى فى النفس
بعد الموت هل تبقى أولا تبقى .

ومناقشة فى أن معرفة الله هل هى ضرورية أم استدلالية ، إلى كثير من
أمثال ذلك مما يدل على جو مملوء بالأفكار الفلسفية ، وميل عقلى إلى فلسفة
الأشياء ، والعمق فى التفكير فيها .

واشتهر بالطب والفلسفة فى بغداد ابن بطلان وهو أبو الحسن المختار بن
الحسن بن عبدون النصرانى ، وهو الذى كان له المساجلات الطويلة المفيدة مع
ابن رضوان المصرى ، فلما طالت سافر إلى مصر لزيارة منافسة سنة ٤٣٩ وعرج
على حلب ، ثم وصل مصر سنة ٤٤١ وأقام بها ثلاث سنين ، ثم عاد إلى بغداد .
وقد تقدم طرف مما كانت تدور حوله المناظرة عند ترجمة ابن رضوان . وقد وصل
إلينا من كتبه كتاب شراء العبيد وكتاب دعوة الأطباء — وقد صنف أيضا فى
تقويم الصحة ، وكيفية دخول الغذاء فى البدن وهضمه ، والمدخل إلى الطب الخ .
وكان من أشهر المشتغلين بالفلسفة فى بغداد يحيى بن عديّ النصرانى ، كان
رئيس المناطقة فى زمانه ، أخذ العلم عن بشر بن متى وعن الفارابى ، وكان كثير
الإنتاج بما ينقل من السريانية إلى العربية وبما يؤلف وبما ينسخ ؛ وقد عمّر
إحدى وثمانين سنة كان فيها حركة دائبة ألف مقالات كثيرة فى المنطق وفى
الإلهيات ، ومات ببغداد سنة ٣٦٤ ؛ وصفه أبو حيان التوحيدي بأنه « كان
شيخا لين العريكة ، مشوه الترجمة ردى العبارة ، وكان مبارك المجلس ، وكان
ينبهر فى الإلهيات ويضل فيها » .

ومن اشتهر بالفلسفة أيضا أبو على بن زرعة النصرانى ، اشتهر بالمنطق وعلوم
الفلسفة ، والنقل إلى العربية ، اختصر كتاب أرسطو فى العمور من الأرض

وألف كتاب أغراض كتب أرسطو المنطقية ، ومقالة في العقل الخ . مات ببغداد سنة ٣٩٨ وقد فضله أبو حيان على يحيى بن عدى فقال : « إنه كان حسن الترجمة صحيح النقل ، كثير الرجوع إلى الكتب ، محمود النقل إلى العربية ... ولولا توزع فكره في التجارة ومحبه في الربح وحرصه على الجمع لكانت قريحته تستجيب له » . وهو يشير إلى أنه كان مفتونا بالتجارة مع القسطنطينية فاعتنى ولكن صودرت أمواله ووقع في محن حتى أصيب بالفالج .

كما اشتهر نظيف القسى الرومى ، وكان خبيراً باللغات ، ينقل من اليونانى إلى العربى ، واستخدمه عضد الدولة البويهى فى البيمارستان الذى أنشأه ببغداد ؛ قال أبو حيان : إن نظيفاً كانت يده فى الطب أطول ، ولسانه فى المجالس أجول ، ومعه رفق وحذق فى الجدل .

وغير هؤلاء كثيرون عنوا بالفلسفة فى بغداد كابن السمع ، وأبى بكر القوسى ، وابن الخمار ، وأبى الوفاء البوزجاني الرياضى المشهور ؛ قال فيه ابن خلكان : إنه أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ، قدم العراق سنة ٣٤٨ ، ومات به سنة ٣٨٧ .

ومن هذه الطبقة أبو على أحمد بن محمد مسكويه ، كان حازناً لكتب عضد الدولة ، واختص من الفلسفة بالناحية الخلقية ، ألف تهذيب الأخلاق ، كما ألف فى التاريخ كتابه تجارب الأمم جرى فيه على نسق خاص ، وهو الاهتمام بمواضع العبرة فى الأحداث التاريخية ، والتعليق عليها تعليق الحكيم الجرب .

وظهر بالبصرة فى القرن الرابع للهجرة جماعة إخوان الصفاء ، وكان مهمم — كما حدث أبو حيان التوحيدى — زيد بن رفاعه ، وأبو سليمان محمد بن معشر البستى المعروف بالمقدسى ، وأبو الحسن على بن هارون الزنجاني ، وأبو أحمد

المهرجاني ، والوعفي ، وغيرهم ، « وكانت هذه الجماعة قد تألفت بالعشرة ، وتضافت بالصدّاقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله ؛ وذلك أنهم قالوا إن الشريعة قد دنست بالجهالات ، واحتلطت بالصلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية ، فقد حصل الكمال — وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علمها وعملها — وأفردوا لها فهرستاً وسموها رسائل إخوان الصفا ، وكتبوا فيها أسماءهم ، وثوها في الوراقين ووهبها للناس» (١).

وعلى الجملة فقد كانت الحركة الفلسفية في العراق من أرقى الحركات الفلسفية في المملكة الإسلامية .

* * *

وقد نبغ في العراق في ذلك العصر كثير من الشعراء والأدباء ، من أشهرهم في بغداد ابن نباتة السعدي مداح الملوك والرؤساء والوزراء ، مدح سيف الدولة في حلب كما تقدم ، ومدح عضد الدولة والوزير المهلب في العراق ، وابن العميد في الري ، وله مقطوعات كثيرة في الغزل وشكوى الزمان ، وأكثر من الوصف وأجاد ، فوصف كرامة الحرب وأسرى الروم ، والفرس ، والمغني ، والسكين ، وطيب الهواء ، وخوالج نفسه الخ . وقد جمع شعره بين الرقة والسهولة وحسن السبك ، ومات سنة ٤٠٥ ببغداد .

ثم أبو الحسن السلامي نسبة إلى دار السلام ، شاعر عربي الأصل من بني

(١) الإمتاع والمؤانسة .

مخزوم ، ولد في كرخ بغداد ، مدح الصاحب بن عباد بأصفهان ، وابن العميد في الزى ، وعضد الدولة بشيراز ، وسلك مسلك أبي نواس في التشبيب بالغلمان ، وجرى على سنة عصره في الإكثار من المقطوعات ؛ ووصف ما يعرض من الأشياء . وقد وصف شعب بَوَّان وصفاً لم يستطع الوصول فيه إلى ما وصل له المتنبي في وصفه ، ويفحش أحياناً فيفرط في الفحش ، ويهجو فيقذع في الهجاء ، على عادة كثير من شعراء هذا العصر .

ثم ابن سكرة ، وابن حجاج ؛ وقد سبق طرف من الكلام عليهما . وقد وصف أبو حيان التوحيدي بعض المشهورين من الشعراء في وقته ببغداد ، فكان مما قال : « إن ابن نباتة شاعر الوقت ، لا يدفع ما أقول إلا حاسد أو جاهل أو معاند ، قد لحق عصابة سيف الدولة وعدا معهم ووراءهم ، حسن الخدو على مثال سكان البادية ، لطيف الائتمام بهم ، خفي المغاص في واديهم ، ظاهر الإطلال على ناديمهم ، هذا مع شعبة من الجنون ، وطائف من الوسواس . وأما ابن حجاج فسخيف الطريقة ، بعيد من الجد ، قريع في الهزل ، ليس للعقل من شعره منال ، ولا له في قرضه مثال ، على أنه قويم اللفظ ، سهل الكلام . . . وهو شريك ابن سكرة في هذه الغرامة (الخسارة) ، وإذا جد أقمى ، وإذا هزل حكى الأقمى .

وأما السلامي فهو حلو الكلام ، متسق النظام ، كأنما يبسم عن ثغر الغمام ، خفي السرقة ، لطيف الأخذ ، واسع المذهب ، لطيف المغارس ، جميل الملابس ، لكلامه لَيِّطَةٌ بالقلب ، وعبث بالروح ، وبرد على الكبد .

وأما الحاتمي^(١) ، فغليظ اللفظ ، كثير العقد ، يجب أن يكون بدوياً قحاً ،

(١) هو محمد بن الحسين الحاتمي ، صاحب الرسالة الحاتمية فيما جرى بينه وبين المتنبي مات سنة ٣٨٨ .

وهو لم يتم حضريا ، غزير المحفوظ ، جامع بين النظم والنثر على تشابه بينهما في الجفوة ، وقلة السلاسة .
وأما ابن جَلَبَات^(١) فمجنون الشعر ، متفاوت اللفظ ، قليل البديع ، واسع الخيلة ، كثير الزَوَق (التزويق) ، قصير الرشاء ، كثير الغناء .
وأما الخالِع^(٢) فأديب الشعر ، صحيح النحت ، كثير البديع ، مستوى الطريقة ، متشابه الصناعة ، بعيد من طفرة المتحير ، قريب من فرصة المتخير .
وأما مسكويه^(٣) فلطيف اللفظ ، رطب الأطراف ، رقيق الحواشي ، سهل المآخذ ، قليل السكب ، بطيء السبك ، مشهور المعاني ، كثير التواني ، شديد التوقى ، ضعيف الترقى ، يرد أكثر مما يصدُر ، ويتناول جهده ثم يقصر^(٤) .
كما كان من أكبر شعراء هذا العصر في بغداد الشريف الرضى ، وقد تقدم القول فيه .

واشتهر من شعراء البصرة في هذا العصر البويهى ابن لَنَكِّك البصرى .
وقد رأى غيره من الشعراء ينفق سوقه وهو خامل ، مع أدبه وظرفه ، فأكثر من ذم الدهر ، وشكوى الزمان ، وهجاء من ينجح من الشعراء ، وهو في المقطوعات القصيرة أجود منه في القصائد الطويلة .

(١) هو أبو القاسم على بن جلبات ، شاعر عراقي مدح الخليفة القادر بالله والوزير سابور بن أردشير .
(٢) هو أبو على الحسن بن على الخالِع من شعراء الوزير سابور بن أردشير .
(٣) عده أبو حيان من الشعراء أيضاً كما هو من الفلاسفة والمؤرخين .
(٤) انظر الإمتاع : ١٣٤/١ وما بعدها ، وتجد نماذج لهؤلاء الشعراء ماعدا مسكويه في الجزء الثانى من اليتيمة للثعالى .

ونبع في العهد البويهى أربعة من كبار الكتاب ، اثنان في الجزء
الفارسى الجنوبى ، وهما : ابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وسيأتى الكلام
فيهما ، واثنان في العراق ، وهما : أبو إسحاق الصابى ، وأبو القاسم عبد العزيز
ابن يوسف .

فأما الصابى فهو إبراهيم بن هلال الحرّانى الصابى ، صاحب الرسائل
المشهورة المطبوعة ، كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة
البويهى ، وتقد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ ، وقد ظل محافظاً على دينه الوثنى ،
رغم ما خوطب ومتى ووعد بالوزارة إذا هو أسلم ، في ملاطفة للمسلمين ومجاراتهم
والاحتفال بشعائرهم ، فكان يصوم رمضان ، ويحفظ القرآن — كان مع
صابئته محبوباً من عطاء المسلمين ، مقرباً إليهم ، منجلاً موقراً ، كالصاحب
ابن عباد ، والوزير المهلبى . وقد حكى ياقوت عنه أنه قال : « راسلت المنبى في
أن يمدحنى بقصيدتين وأعطيه خمسة آلاف درهم ، ووسطت بينى وبينه رجلا
من وجوه التجار ، فقال المنبى للوسيط : قل له والله ما رأيت بالعراق من يستحق
المدح غيرك ، ولكن إن مدحتك تنكر لك الوزير (يعنى الوزير المهلبى) وتغير
عليك ، لأنى لم أمدحه ، فإن كنت لا تبالى هذه الحال فأنا أحييك إلى ما التمتست
وما أريد عن شعرى عوضاً » .

وقد كان الصابى يناصر عز الدولة على عضد الدولة ، فلما انتصر عضد الدولة
وقتل عز الدولة قبض على الصابى وحبسه وأراد إلقاءه تحت أرجل القبيلة ،
فتشفوا له فشفع ، ولكن لم يزل في نفسه منه ، وأمره عضد الدولة أن يؤلف
له كتاباً في أخبار الدولة البويهية ، فعمل له الكتاب « التاجى » . وقد وشى
بعض الناس إلى عضد الدولة أن الصابى سئل وهو يكتب هذا التاريخ : ماذا

تصنع؟ فقال: «أباطيل أمقها وأكاذيب ألقها»، فقبض عليه، وحبس أربع سنين، ثم خرج وقد ساء حاله، ومات ببغداد سنة ٣٨٤ عن إحدى وسبعين سنة.

وقد كان يعد من أعظم كتاب عصره، وأسلوبه — كما تدل عليه رسائله — فقرات متساوية، مسجوعة أحياناً، مزدوجة أحياناً. وقد وصفه ابن الأثير بأنه إمام الكتاب في عصره، وأنه يجيد في الكتابة الرسمية (السلطانيات)، ويقصر في الإخوانيات، وأخذ عليه تكراره الفقرات في معنى واحد كقوله: «لا تخلقه العصور بمرورها، ولا تهرمه الدهور بكرورها».

ولما مات رثاه الشعراء، ومنهم الشريف الرضي في قصيدته المشهورة:

أرأيت من حملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادي

يقول فيها:

شككتك أرض لم تدلك ثانياً أنى ومثلك مُعوز الميلاذ

من للمالك لا يزال يلها بسداد أمر ضائع وسداد

من للجحافل يستزل رماحها ويرد رَعْلتها^(١) بغير جِلاذ

وصحائف فيها الأراقم كمن مرهوبة الإصدار والإيراد

حمر على نظر العدو كأنما بدم يخط بهن لا بسداد

يقدمن إقدام الجيوش وباطل أن ينهزمن هزائم الأجناد

إن الدموع عليك غير بخيلة والقلب بالسُلوان غير جواد

وأما أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، فكان يعد من أكبر كتاب

عصره، تقلد ديوان الرسائل لعضد الدولة، وتقلد الوزارة بعده عدة مرات

(١) الرعلة: القطعة من الفرسان.

لأولاده ، وهو في أسلوبه أقل التزاماً للسجع وإن كان يزوج ، وفي إخوانياته
يمزج شعره بنثره (١) .

ومن أشهر الكتاب البويهيين أبو حيان التوحيدى ، وقد كان من نوع
آخر ، فكتابته يعنى فيها بالموضوع كما يعنى بالشكل ؛ وهو غزير العقل واسع العلم
حسن الصياغة ، جيد السبك ، وبحق لقبوه بالجاحظ الثانى ، وقد وصل إلينا من
كتبه الإمتاع والمؤانسة ، والمقاسبات ، والبصائر ، ورسالة فى الصداقة ، وأسلوبه
فيها أسلوب أدبى راق ، يحب الأزواج ويطنل البيان ، ويولد المعانى حتى
لا يدع لقائل بعده قولاً ، كثير المحفوظ ، واسع المعرفة ، له اتصال تام بالفلسفة ،
والتصوف والأدب من شعر ونثر ، والتاريخ والسير ، خبير بأحوال الزمان . حملة
البؤس على أن ينتقل فى الأمصار ، ويتصل بالعامّة ، وممكنه أدبه أن يتصل
بالوزراء كابن العميد ، وابن عباد ، وابن سعدان ، فعرف من أخلاق الناس على
اختلاف طبقاتهم الشئ الكثير ، ودون ذلك فى كتبه — وفى أسلوبه
بعض الغموض إذا تعرض للمسائل الفلسفية لطبيعية الموضوع وعمقه ، واضح
كل الوضوح إذا تعرض للمسائل الأدبية والاجتماعية . وقد اتجه اتجاهها لطيفا فى
تدوينه فى كتاب الإمتاع والمؤانسة ما دار فى المجلس بينه وبين الوزير ابن سعدان
وزير صمصام الدولة البويهى ، كما دون فى كتابه المقاسبات محاضر جلسات
لكثير من العلماء وخاصة أبا سليمان المنطقى .

ونبغ فى الأدب واللغة أبو بكر محمد بن دريد الأزدي ، ولد بالبصرة سنة ٢٢٣
ثم مكث بعمّان اثنتى عشرة سنة ، ثم عاد إلى البصرة ، ثم ذهب إلى فارس

(١) انظر نماذج من كتاباته فى الجزء الثانى من اليتيمة .

وصحب ابنى ميكال وكانا واليين على فارس ، ثم عاد إلى بغداد سنة ٣٠٨ ، وظل بها إلى أن مات سنة ٣٢١ وهى السنة التى تسلط فيها البويهيون على العراق . وكان من أكبر علماء العربية ، مقدما فى اللغة والأدب ، ونبغ من تلاميذه . كثيرون أشهرهم أبو على القالى وأبو سعيد السيرافى . وعنه يروى أبو على القالى فى أماليه قصصاً أدبية رائعة ، هى أشبه أن تكون من وضع ابن دريد ، ويعدها « الحُضرى » أساساً لمقامات بديع الزمان . وله كتاب الجهرة فى اللغة ، والمقصورة ، وكتاب الاشتقاق الخ ، وتفوق فى نواح كثيرة فى الأدب — فهو شاعر قصاص — وفى اللغة ، وفى النحو والصرف والأنساب .

وقد انطبعت صورته العلمية فى مؤلفين كبيرين تتلمذوا له ، وهما أبو على القالى صاحب الأمالى ناشر علم اللغة والأدب فى الأندلس ، وأبو الفرج الأصفهانى صاحب الأغانى ، وكان من خاصة تلاميذه .

ثم أبو بكر بن الأنبارى كان من أعلم البغداديين لغة وأدباً ، وأكثر الناس حفظاً للشعر والشواهد ، كما يعد من علماء القرآن والسنة ، وألف فى ذلك كله الكتب الكثيرة فى علوم القرآن ، وغريب الحديث ، والوقف والابتداء ، وفى اللغة كتاب الأضداد . وقد وصل إلينا من كتبه الدالة على غزارة علمه بالأدب واللغة شرحه للمفصلات . مات سنة ٣٢٨ ، وكان كذلك شيخاً من أكبر الشيوخ الذين استفاد منهم أبو الفرج الأصفهانى .

وقد نبغ من مؤلفى الأدب فى العصر البويهى فى العراق أبو الفرج الأصفهانى مؤلف كتاب الأغانى ، متعة الأدباء على اختلاف العصور . ينتهى نسبه إلى آخر

خلفاء الأمويين مروان بن محمد . وقد ولد بأصهان سنة ٢٨٤ ، ونشأ ببغداد ، وأخذ العلم والأدب والتاريخ عن ابن دريد ، وابن الأنباري ، وابن جرير الطبري وغيرهم ، وامتاز باطلاعه الواسع على الشعر والأغاني ، والأخبار والنسب ، كما كان ملماً بالآلات الطرب ، وطرف من الطب والنجوم والأشربة ، ويقرأ الكتب المخطوطة ، ويأخذ عنها فيقول : نقلت من كتاب كذا .

وقد اتصل بالوزير المهلب ، وحظي عنده . وألف كتباً كثيرة منها كتاب الأغاني وهو أمتعها . وقد قال : إنه ألفه في خمسين سنة ، وكتاب القيان ، ومقاتل الطالبين ، والإملاء الشواعر والديارات الخ ، ومات في بغداد سنة ٣٥٦ أو بعد ذلك . وقد حظي كتابه الأغاني في عصره وبعده إلى اليوم ؛ فقد أهدى أول نسخة منه إلى سيف الدولة فأجازه بألف دينار ، وأعجب به الصاحب بن عباد ، وكان يستصحبه في أسفاره ، وقال أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف : « لم يكن كتاب الأغاني يفارق عضد الدولة في سفره ولا حضره » .

كما كان من كبار رجال الأدب القاضي التنوخي ، وهو أبو القاسم علي بن محمد التنوخي من أعيان أهل العلم والأدب ، تولى قضاء البصرة والأهواز بضع سنين ، وكان إلى فقهه أديباً وشاعراً ظريفاً ، وكان من ندماء الوزير المهلب وسماه ، « وكان الوزير المهلب وغيره من رؤساء العراق يميلون إليه ، ويتعصبون له ، ويعدون له ريحانة الندماء ، وتاريخ الظرفاء ، وكان في جملة الفقهاء والقضاة الذين ينادمون الوزير المهلب ، ويجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على أطراح الحشمة والتبسط في القصف والمخالعة » الخ^(١) ، وكان فقيهاً على مذهب أبي حنيفة

(١) ابن خلكان : ٥٠٣/١ .

معتزلياً له شعر كثير ، ومنه مقصورة عارض بها مقصورة ابن دريد ، ومات بالبصرة سنة ٣٤٢ .

وقد أنجب ابنه أبا عليّ المحسن التنوخي ، وكان أديباً شاعراً أخبارياً ؛ وهو صاحب كتاب « نشوار المحاضرة » ، أراد به أن يحقق فكرة لطيفة وهي أن يدون تاريخ الأحداث التي تدور في المجالس وعلى السنة الرواة ولم تدون في الكتب ، كما أنه ألف كتاب الفرج بعد الشدة ، وكتاب المستجاد من فعلات الأجواد ؛ وقد مات ببغداد سنة ٣٨٤ .

وقد أنجب هذا أيضاً أبا القاسم عليّ بن الحسن التنوخي ، وكان مثل أبيه وجدّه فقيهاً شاعراً أديباً ؛ وكان هو والخطيب التبريزي يصحبان أبا العلاء المعري ويأخذان عنه . تولى عليّ بن الحسن القضاء في عدة نواح ، وإليه كتب أبو العلاء قصيدته التي أولها :

* هات الحديث عن الزوراء أوهيتا *

مات سنة ٤٤٧ .

فأسرة التنوخي من خير الأسر العراقية علماء وأدبا وتأليفاً .

ثم الشريف المرتضى عليّ بن الطاهر ، كان نقيب الطالبين في بغداد ، وهو أخو الشريف الرضي ؛ وكان إماماً في علم الكلام والأدب والشعر . وقد وصل إلينا من أهم تأليفه كتاب « أمالي المرتضى » ، وهو ستة وخمسون مجلساً ، مملوء بالفوائد القيمة في التفسير والحديث وعلم الكلام والأدب ممزوج بعضها ببعض ، ناهج فيه منحنى الاعتزال والتشيع معاً ، ويستطرد لذكر تراجم لرجال المعتزلة وبعض الشعراء والأدباء ؛ ويظهر أنها دروس أملاها على بعض تلاميذه ، وهي تفيدنا فائدة كبرى في مناهج الدروس في ذلك العصر .

وقد توفي ببغداد سنة ٤٣٦ .

ثم أبو سعيد السيرافي ، وكان من أوسع العلماء ثقافة في علوم القرآن والحديث والنحو واللغة والفقه والفرائض والحساب والكلام والشعر .

كان أبوه مجوسياً فأسلم — وكان أبو سعيد هذا من أعلم الناس بالعربية مع زهد وصلاح وعفة ؛ صنف تصانيف كثيرة أكبرها شرح كتاب سيوييه ، وكثر تلاميذه والأخذ منه ، والانتفاع به في فروع العلم المختلفة — وكان يميل إلى مذهب الاعتزال ، « وكان بينه وبين أبي الفرج الأصفهاني ماجرت العادة بمثله بين الفضلاء من التنافس »^(١) ، ومات ببغداد سنة ٣٦٨ — وتلمذ له أبو حيان التوحيدى ، وهو يحكى عنه في كتابه الإمتاع والمؤانسة بعض علمه في اللغة والنحو ، ويروى ما يرويه عنه في إجلال وتوثيق .

وقد كان أبو سعيد وهو في بغداد مقصد الأمراء والعطاء في الأمصار المختلفة يبعثون إليه يسألونه عما أشكل عليهم ؛ فكتب إليه نوح بن نصر الساماني سنة ٣٤٠ كتابا خاطبه فيه بالإمام ، وسأله عن مسائل تزيد على أربعمائة أغلبها ألفاظ لغوية ، وأمثال يسأله فيها عن صحة نسبتها إلى العرب — وكتب إليه الوزير البلعمى كتابا خاطبه فيه بإمام المسلمين سأله فيه عن مسائل في القرآن — وكتب إليه المرزبان بن محمد ملك الديلم من أذربيجان كتابا خاطبه فيه بشيخ الإسلام سأله فيه عن مائة وعشرين مسألة أكثرها في القرآن والحديث .

وكتب إليه ابن حنزابة الوزير المصرى كتابا خاطبه فيه بالشيخ الجليل ، سأله فيه عن ثلثائة كلمة من فنون الحديث .

وكتب إليه أبو جعفر ملك سجستان كتابا يخاطبه فيه بالشيخ الفرد ، سأله

(١) وفیات الأعيان .

عن سبعين مسألة في القرآن ، ومائة كلمة في العربية ، وثلاثمائة بيت من الشعر ،
وأربعين مسألة في الأحكام ، وثلاثين مسألة في الأصول على طريق المتكلمين —
فأجاب عنها كلها ؛ وتقع الأسئلة والأجوبة في نحو ألف وخمسمائة ورقة .
ثم هو صاحب المناظرة الكبرى التي جرت بينه وبين أبي بشر متى في
الفاضلة بين النحو والمنطق . وقد حكاها كلها أبو حيان التوحيدي في الجزء
الأول من الإمتاع . وقد وصل إلينا من كتبه كتاب أخبار النحويين البصريين .
وكان نظير أبي سعيد السيرافي وقرينه في النحو والصرف أبو علي الفارسي
وهو من أعلام الدولة البويهية ، ولد بفارس وأتى بغداد سنة ٣٠٧ ، وأقام بها
يشغل بالعلم ؛ ثم رحل إلى حلب وأقام عند سيف الدولة في حلبته ، وله مع
المتنبي مناظرات ، ثم انتقل إلى فارس وصحب عضد الدولة وعلت منزلته عنده ،
وألف أبو علي له كتاب الإيضاح والتكملة في النحو . وله كتاب الحجّة في
القراءات ، ومنه نسخة مخطوطة في دار الكتب ، وله كتب أخرى كثيرة . وقد
رحل إلى بلاد كثيرة ، وكان يدون في كتاب ما يجري له من مناظرات في كل
بلد ، فكتاب المسائل الحلبيات ، والبغداديات ، والشيرازيات الخ .
وقد وازن أبو حيان التوحيدي بينه وبين أستاذه أبي سعيد السيرافي ،
ففضل السيرافي لسعة علمه ودينه وتقواه ، وقال : إن أبا علي كان يشرب ويتخالع
 ويفارق هدى أهل العلم .
وفي الحق أن السيرافي كان أشبه بالمحافظين ، يروى ما يسمع ، ويحفظ ما يروى
على كثرة ما يروى وما يحفظ في ثقة وأمانة ، وأن أبا علي كان حراً مبتكراً
قياساً ، فتح للناس هو وتلميذه ابن جنى أبواباً جديدة في النحو والتصريف
لم يسبقا إليها كما تقدم ؛ وقد توفي أبو علي الفارسي في بغداد سنة ٣٧٧ .

وثالث الثلاثة المشهورين في هذا الباب أبو الحسن الرّمثاني جمع بين النبوغ في النحو وعلم الكلام ، وهو تلميذ ابن دريد أيضاً في الأدب . وقد قال فيه أبو حيان عند الموازنة إنه على الرتبة في النحو واللغة والكلام والعروض ، والمنطق ، وعيب به ، إلا أنه لم يسلك طريق واضح المنطق ، بل أفرد صناعة وأظهر براعة . وقد عمل في القرآن كتاباً نفيساً ، هذا مع الدين والعقل الرزين ؛ توفي سنة ٣٨٤ .

ومن خير ما أخرجته بغداد في هذا العصر ابن النديم ، وهو محمد بن إسحاق النديم — كان وراقاً ، وكان عالماً ، فاستخدم علمه وصناعته في ناحية لم نعرف أن التفت إليها أحد قبله ، وهي أن يحصى جميع الكتب العربية المنقولة من الأمم المختلفة ، والمؤلفة في جميع أنواع العلوم ، ويصفها ويبين مترجمها أو مؤلفها ، ويذكر طرفاً من تاريخ حياتهم ، ويعين تاريخ وفاتهم ؛ فكان الكتاب على هذا النمط أجمع كتاب لإحصاء ما ألّف الناس إلى قريب من نهاية القرن الرابع ، وأشمل وثيقة تبين ما وصل إليه المسلمون في حياتهم العقلية والعلمية في ذلك العصر ، وأكثر هذه الكتب التي وصفها قد ضاعت بتوالي النكبات المختلفة على المملكة الإسلامية ، ولا سيما في غزو التتار لبغداد ، ولولا كتاب الفهرست لضاعت أسماؤها وأوصافها أيضاً كما ضاعت معالمها .

والناظر في كتاب الفهرست يعجب لهذا النشاط العلمي الذي قام به المسلمون في هذه العصور ، وكثرة المؤلفين والمترجمين في جميع نواحي العلم ، كما يعجب بسعة اطلاع ابن النديم وجبه للوقوف على كل شيء حتى في أدق مسائل الأديان المختلفة ، والمذاهب المتنوعة ، ويستقصى البحث عن أحوال الصين والهند ، كما يستقصى البحث عن الشام والعراق ، وهو في كل ذلك يقابل أصحاب النحل المختلفة ويسألهم ويدقق في أخبارهم ، ثم يدوّن ما يصل إليه عمله .

وأسلوبه في كتابته أسلوب موجز يكره الغو والمقدمات ، ويجب أن يهجم على موضوعه من غير مواربة ولا تمهيد ، حتى لا تستطيع أن تحذف جملة لأن معناها مكرر أو عبارتها مترادفة . ثم هو يتحرى الصدق ، ويميز بين ما رأى وما لم ير ، وينقل ذلك إلى القارئ في أمانة .

وقد نص المؤلف على أنه ألف كتابه هذا سنة ٣٧٧ ، وفي الكتاب ذكر لعلماء ماتوا بعد الأربعمائة كابن نباتة التميمي — فلا بد أن بعض العلماء زادوا في نسخته ، لأنه مات سنة ٣٨٥ كما ذكر ابن النجار ، أو سنة ٣٧٨ كما ذكر المرزباني^(١) .

* * *

فإذا نحن انتقلنا من العراق إلى الجزء الجنوبي من فارس ، وهو الجزء الذي حكمه البويهيون أيضاً ، وجدنا ثروة كبيرة في العلم في جميع فروعه ، وفي الأدب والشعر ؛ فشيراز في الجنوب والري في الشمال ، كانا من أهم العواصم السياسية والعلمية والأدبية ؛ واشتهر من بلاد الجنوب سيراف ، وفيروزباد ، وأرزنجان ، واصطخر ، وعاصمتها شيراز ؛ كما اشتهر من بلاد الشمال وهي بلاد الجبل أصهان ونهاوند ، وهمدان ، ودينور ، وقومس ، وبسطام وعاصمتها الري ، وأخرجت هذه البلاد من المحدثين والفقهاء والنحاة والفلاسفة والصوفية والأدباء ما لا يحصى كثرة . فاشتهر من المحدثين والفقهاء أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابي الرازي (نسبة إلى دولاب قرية بالري) . له تأليف في الحديث والتاريخ اعتمد عليها المحدثون ؛ وتوفي سنة ٣٢٠ .

وأبو محمد عبد الله بن حَيَّان الأصفهاني محدث أصفهان ، وهو إمام في الحديث ، له كتاب السنة وفضائل الأعمال ، توفي سنة ٣٦٧ .

(١) انظر ما كتبه عنه في مقدمة فهرست ابن النديم الطبعة المصرية .

وأبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مَنده الأصفهاني ، كان
يلقب بمحدث الشرق ؛ توفي سنة ٣٩٥ .

وأبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم بن إدريس الخنظلي حافظ الرى له المصنفات
الكثيرة في الحديث والفقه ؛ توفي سنة ٣٢٧ .

والقاضي يوسف بن أحمد بن كَجَّ الدينوري أحد أئمة الشافعية ، قدم إليه
أبو علي السنجي بعد أن رأى أبا حامد الإسفرائيني في بغداد ؛ فقال له أبو علي :
إن الاسم لأبي حامد ، والعلم لك ؛ فقال له : ذاك رفعته بغداد وحطنتي الدينور ،
قتل بها سنة ٤٠٥ .

ويطول بنا القول لو عددنا مشاهير المحدثين والفقهاء في هذا الإقليم ؛ ثم كان
لعضد الدولة قبل انتقاله إلى بغداد ، وابن العميد في إقامته بالرى وزيراً ، وابن
عباد كاتباً ووزيراً في أصفهان والرى ، أثر كبير في نشاط الحركة الأدبية والعلمية
نشاطاً عجيباً .

لقد تقسم الأمراء الثلاثة البويهيون مملكتهم ، فكان عماد الدولة صاحب
بلاد فارس والأهواز ، وركن الدولة صاحب بلاد الرى والجبل ، ومعز الدولة
صاحب العراق ؛ وجاء عضد الدولة بن ركن الدولة فضم العراق إلى ملكه ، كما
ضم إليه ملك البويهيين جميعاً تقريباً ، وضم إليه الموصل وبلاد الجزيرة وسمى
بالملك ، وهو أول من سمي بذلك في الإسلام ، وكان يقيم أحياناً في الرى ،
وأحياناً في شيراز ؛ فلما فتح العراق كانت عاصمة ملكه بغداد .

وابن العميد كان وزيراً لركن الدولة صاحب بلاد الرى والجبل ، وكان ابن
العميد مركزه الرى ، واستمر وزيراً نحو اثنتين وثلاثين سنة حتى مات سنة ٣٦٠ .
وابن عباد كان كاتباً عند ابن العميد ، ولأجل تلمذته لابن العميد وصحبته

له سمي الصاحب ، وظل الصاحب يكتب لابن العميد في الري ؛ ثم اختاره ابن العميد ليكون مريباً لمؤيد الدولة ابن ركن الدولة وولى عهده ، وكانت إقامته في أصفهان ؛ ثم أصبح وزيراً لمؤيد الدولة إلى سنة ٣٧٣ ، ثم وزيراً لأخيه فخر الدولة إلى أن توفي سنة ٣٨٥ ، وخلف ابن العميد في مركزه في الوزارة وفي إقامته في الري .
فهؤلاء الأعلام الثلاثة : عضد الدولة البويهى ، والوزيران ابن العميد ، وابن عباد ، جعلوا هذا القسم من فارس في منتهى الخصب العلمى والأدبى ؛ إذ كان كل منهم على إمارته أو وزارته عالماً أديباً ، يرى أول ما يجب عليه أن يزين بلاطه ويجلسه بالعلماء والأدباء .

فعضد الدولة كان إلى ملكه الواسع مثقفاً ثقافة واسعة ، يأخذ علم النحو واللغة عن أبي على الفارسى ، وهذا يؤلف له كتاب الإيضاح والتكملة في النحو ، وله معه مناقشات طريفة ؛ ويقصده الشعراء فيجيدون الشعر لمعرفتهم بتذوقه له ، وقصده المتنبي أيام كان عضد الدولة بشيراز ، وقال فيه :

وقد رأيت الملوك قاطبة وسرت حتى رأيت مولاها
ومن منايهم براحتهم يأمرها فيهم وبينها
أبا شجاع بفارس عضد الد ولة فتناخسرو شهنشاهها
أساميا لم تزده معرفة وإنما لذة ذكرناها

ثم أنشده قصيدة نونية ذكر فيها شعب بوان ، وهو موضع نزه قرب شيراز :

يقول بشعب بوان حصانى أعن هذا يسار إلى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصى وعلمكم مفارقة الجنان
فقلت إذا رأيت أبا شجاع سلوت عن العباد وذا المكان
فإن الناس والدنيا طريق إلى من ما له فى الناس ثان

ثم مدحه بقصائد أخرى . وآخر شعره أيضاً كافيته التي يقول فيها :

أروح وقد ختمت على فؤادي بحبك أن يحل به سواكا

ومدحه غير المتنبي كثير من الشعراء .

وعضد الدولة هو الذي بنى البيارستان العسدي ببغداد ، وعزم عليه المال الكثير ، وأعد له من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه^(١) .

وابن العميد تفوق في علوم كثيرة منها الهندسة والمنطق ، وعلوم الفلسفة والإلهيات والطبيعة والتصوير ، وكان أديبا واسع الرواية لأشعار العرب .

قال مسكويه في كتابه تجارب الأمم ، وكان قيم دار كتب ابن العميد في بعض وقته : « كان هذا الرجل (ابن العميد) ... أكتب أهل عصره ، وأجمعهم لآلات

الكتابة حفظ اللغة والغريب ، وتوسعا في النحو والعروض ، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وحفظا للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام ... فأما تأويل

القرآن ، وحفظ مشكله وتشابهه ، والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار ، فكان منه في أرفع درجة ، وأعلى رتبة ؛ ثم إذا ترك هذه العلوم ، وأخذ في الهندسة والتعاليم

لم يكن يدانيه فيها أحد ؛ فأما المنطق ، وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة ، فما جسر أحد في زمانه أن يدعيها بحضرتة ... ثم كان يختص بغرائب من العلوم

الغامضة كعلوم الحيل (الميكانيكا) التي يحتاج إليها في أواخر علوم الهندسة والطبيعة ، والحركات الغريبة ، وجر الأثقال ، وعمل آلات غريبة لفتح القلاع ، والحيل على

الحصون ... ثم معرفته بدقائق علم التصاوير ؛ ولقد رأيتني يتناول من مجلسه — الذي يخلو فيه بثقاته وأهل أنسه — التفاحة وما يجري مجراها فيعيب بها ساعة ،

ثم يدحرجها ، وعليها صورة وجه قد خطها بظفره لو تعمد لها غيره بالآلات المعدة ،

(١) وفيات الأعيان في ترجمته .

وفي الأيام الكثيرة ما استوفى دقائقها ، ولا تأتي له مثلها .

وقد قصده المتنبى أيضاً ، ومدحه وقال فيه :

مَنْ مُبْلِغ الأعراب أنى بعدهم شاهدت رسطاليس والإسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكا متبديا متحضرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الإله نفوسهم والأعصرا
نسقوا لنا نسق الحساب مقدا وأتى فذلك إذ أتيت مؤخرا
بأبي وأمي ناطق في لفظه ثمن تباع به القلوب وتشتري
قطف الرجال القول وقت نباته وقطفت أنت القول لما نوراً

والصاحب بن عباد كان يعتقد مذهب الاعتزال وينصره ، وبذلك اعتنق كثير من أهل هذه البلاد الاعتزال ، ولم يكن كأستاذه ابن العميد في حبه للفلسفة وأهلها ، إنما كان متبحراً في العلوم الشرعية واللسانية والأدبية ؛ تعلم الحديث كأهل الحديث ؛ وكان عالماً بالتوحيد والأصول وألف فيهما ؛ وكان علمه بالغة واسعاً ، قالوا إنه ألف فيها كتاب المحيط في عشرة مجلدات .

وكان له المنزلة العظمى في الوجاهة والصدارة ، فاجتمع له من الأدباء ما قل أن يجتمع لغيره ، قال الثعالبي : « احتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر من يربي عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنه في الأخذ برقاب القوافي وملك رق المعاني » .

أنجبت هذه البلاد بتشجيع هؤلاء وأمثالهم نوابغ من العلماء والأدباء .
ففي الفلسفة كان علي رأس الفلاسفة أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (نسبة إلى الري) مولده ومنشؤه بالري ولذلك عددناه منها ، وإن تنقل في بلاد كثيرة ،

وهو من أكبر فلاسفة المسلمين ومتفوقهم في الطب النظري والعملية والإلهيات والكيمياء والأخلاق .

وقد ألف في كل ذلك كتباً كثيرة أوصلها بعضهم إلى ما يقرب من مائتين . وله فضل اكتشاف الكحول وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) أثناء بحثه في إمكان تحويل المعادن إلى ذهب ؛ كما ألف في الطب كتاب الحاوي والطب لمنصوري^(١) الخ . وكانت كتبه عمدة من تعلم بعده — وكانت أكثر إقامته في الري وأقام زمناً عند السامانيين ، كما عهد إليه في الإشراف على البيمارستانات وتنظيمها ، وقد اشتهر بين أهل زمانه بالإتيان بالعجائب في الطب .

وقد بقي لنا من كتبه نحو سبعة عشر كتاباً ؛ وأخيراً نشر الأستاذ كراوس مجموعة رسائل فلسفية تدل على جانب آخر من جوانبه العلمية ، فمنها رسالة في الطب الروحاني ، ويعنى به تهذيب الأخلاق ، وهو لا شك كان من أكبر ما اعتمد عليه مسكويه في كتابه تهذيب الأخلاق ، وقد قال في صدره إنه سماه بالطب الروحاني ليكون قريناً للكتاب المنصوري الذي غرضه في الطب الجسماني ؛ وقد قسمه إلى عشرين فصلاً منها فصل في فضل العقل وقمع الهوى وردعه ، وتحليل لبعض الرذائل : كالحسد والغضب والبخل ، وختمه بفصل في رسم السيرة الفاضلة ، ثم في الخوف من الموت .

ومن رسائله هذه القيمة رسالة في اللذة وتحليلها معتمداً في ذلك على ما كتبه فلاسفة اليونان فيها .

ومن هذه الرسائل رسالة في مناظرة بين الرازيين وهما : أبو بكر الرازي هذا وأبو حاتم الرازي ، وكلاهما من الري ، ولكن كانت طبيعة أبي بكر الرازي

(١) ألفه منصور بن إسحاق بن أحمد بن أسد حاكم الري من سنة ٢٩٠ للمؤ سنة ٢٩٦ .

طبيعة فلسفية حرة التفكير مؤمنة بسلطان العقل ، وكان أبو حاتم الرازي من كبار دعاة فرقة الإسماعيلية الشيعية ، « واشتهر بدعوته إلى المذهب الفاطمي ، ولعب دوراً عظيماً في الشؤون السياسية في طبرستان وأذربيجان وفي الديلم ، ولا سيما في أصفهان والري حتى استجاب له جماعة من كبار الدولة » .

وقد ألف أبو حاتم الرازي كتاباً أسماه « أعلام النبوة » للرد على أبي بكر الرازي ، وقد رماه فيه بالإلحاد ؛ وكانت المناظرة تدور حول النبوة ، وهل هي ضرورية — هذا في أحد المجالس — وفي مجلس آخر كانت المناظرة تدور حول ما ذهب إليه أبو بكر الرازي من قدم الأشياء الخمسة : الباري ، والنفس ، والهوى والمكان ، والزمان ، فرد عليه أبو حاتم في ذلك الخ الخ .
وقد كانت هذه المناظرات في مجالس بالري .

وعلى الجملة فقد كان أبو بكر الرازي شخصية ممتازة قل نظراًؤها ؛ وقد اختلف في سنة وفاته على أقوال متباينة أقربها سنة ٣٢٠ ، وقال ابن خلكان إنه مات سنة ٣١١ .

كما اشتهر من الفلاسفة في هذه البلاد أبو الخير الحسن بن سوار المعروف بابن الخمار ، وكان نصرانياً ؛ وقد نقل كتباً كثيرة من السريانية إلى العربية ، واشتهر بالطب ، كما ألف في المنطق والطب والإلهيات .

ثم الفيلسوف الأديب أبو الفرج علي بن الحسين بن هندو ، كان من تلاميذ ابن الخمار ، ألف في الطب ، وألف المدخل في علم الفلسفة ، ووصل إلينا من كتبه « الكلم الروحانية » ، وهي مجموعة لطيفة من الحكم اليونانية ، كما كان شاعراً معدوداً من رجال البلاغة الممتازين .

ثم إن ابن العميد وابن عباد أوجدا في هذا الإقليم حركة أدبية رائعة ؛ فقد
جمعا بين وجاهة المنصب ووجاهة الأدب ، فهما وزيران خطيران وسياسيان
كبيران ، وأديبان عظيمان ، فاستخدما كل ذلك في إعلاء شأن الأدب .
فكان ابن العميد مولعاً بالأدب ، وله مذهب في الكتابة أخذ عنه وقد
فيه ، عماده التأنق في اختيار الألفاظ ، والتكلف في البديع ، ومحاربة التطبع
بالتصنع ؛ وهذا النوع من الأسلوب قد يحسن في الجمل القصار ، والقول الموجز ،
ولكن ابن العميد كان يطنب ، والإطناب مع التصنع يستوجب الملل ، فالإسهاب
في الجاحظ حلو سائغ لأنه يجرى مع النفس ، ولكنه عند ابن العميد يُتجرع
لأنه يتصنع ؛ ومع هذا فالناس في زمنه وبعد زمنه كانوا يعدون هذا الأسلوب
هو المثل الأعلى ، لأن حياتهم الاجتماعية كما أسلفنا حياة مصطنعة متكلفة ، ولأن
الرياسة والعظمة السياسية والمنصب الكبير تسبغ على الأدب الذي يصدر من
رجالها ثوبا من الأبهة والعظمة ، فلا يستطيعون التمييز في دقة بين قيمة الأدب
الذاتية ، وقيمه المستمدة من وجاهة صاحبها ؛ وهذا يصدق على ابن العميد ،
والصاحب بن عباد ، ثم من بعد علي القاضى الفاضل ، ولهذا العظمة المزدوجة
قالوا : « بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد » ، والناس بعد قد
قلدوا هذا الأسلوب ، وعدوه المثل الذي يحتذى .

ومهما يكن ، فقد كان ابن العميد مصدر خير على الحركة الأدبية ، فكان
كريمًا يغدق على الأدباء والشعراء ، ويقترح موضوعات الأدب عليهم ، وينافس
بينهم ، ويجزل العطاء لمن أحسن منهم ، فيجتمع في مجلسه بالرى أبو الحسين بن
فارس ، وأبو عبد الله الطبرى ، وأبو الحسن البديهي ، ويعرض في المجلس
أثرجة حسنة ، فيعرض عليهم ابن العميد أن يتباروا في وصفها ، ويشترك معهم
في ذلك ، وهكذا .

ويقصده المتنبي ، وابن نباتة السعدي ، وغيرهما من الشعراء بمدائحهم .
وينشئ مكتبة عظيمة كانت أعز شيء عليه ، يجعل عليها قيماً عالماً كبيراً
هو مسكويه .
كذلك كان الصاحب بن عباد ، نصر الاعتزال ، وقرب إليه المعتزلة ، إذ كان
معتزلياً ، ومن شعره :

تعرفت بالعدل في مذهبي ودان بحسن جدالي العراق
فكُلِّفت في الحب ما لم أطق فقلت بتكليف ما لا يطاق

وكان يكتب إلى البلاد التابعة له يدعو فيها إلى الاعتزال .
هذه ناحية ؛ وناحيته الأخرى الناحية الأدبية ، وكان على طريقة أستاذه
ابن العميد في أسلوبه ، وفي كرمه وإغداقه على الأدباء ، فاجتمع له من الشعراء
أبو الحسن السَّلَامِي ، والبديهي ، وأبو سعيد الرستمي ، وأبو حسن الجوهري ،
وابن القاشاني الخ ؛ وكذلك يقترح عليهم ما يعرض من موضوعات ، فيغتم في
موقعة حربية فيلا ، فيجمع الشعراء ويطلب إليهم أن يقولوا القصائد في وصفه
على وزن وقافية عمرو بن معد يكرب .

أعددت للحَدَثَانِ سَابِغَةَ وَعَدَاءَ عِلْنَدِي

فيكون من ذلك شعر كثير في الفيل ، كما يقترح بعض الموضوعات الهزلية ؛
فقد مات بردون أبي عيسى بن المنجم ، فاقترح على الشعراء القول فيها ، فكان
من ذلك مجموعة سميت البرذونيات^(١) .

(١) انظر البرذونيات والقبليات في بنية الدهر : ٥٥/٣ ، وانظر كتابي ابن العميد ،

وابن عباد لحليل بك مردهم .

واشتهر في هذه البلاد من علماء اللغة والنحو أبو الحسين أحمد بن فارس الرازي ، كان إماماً في اللغة وله كتاب المجمل ، وكتاب حلية الفقهاء ، وله مسائل في اللغة تعابى بها الفقهاء (كألغاز) ، ومنها اقتبس الحريري أسلوبه فيما وضع من المسائل الفقهية في المقامة الطيبية^(١) ، وأقام مدة بالري ، ومدة بهمدان ، وهو أستاذ بديع الزمان ، ومات بالري سنة ٣٩٠ ، وكان من رجالات ابن العميد . وقد وصل إلينا من كتبه كتاب الصاحبى ، نسبة إلى الصاحب بن عباد ، وهو كتاب يتحوى بحوثاً قيمة في أصل اللغة العربية وخصائصها ، واختلاف لغاتها باختلاف القبائل إلى غير ذلك .

كما كان من رجال البلاغة والأدب في هذا الإقليم أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني ، أصله من جرجان ، وطوف في صباه في كثير من البلاد ، واقتبس العلوم والآداب ؛ قال فيه الثعالبي : « هو حسنة جرجان ، وفرد الزمان . . . يجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحترى » . وبعد أن طوف في بلاد العراق والشام وغيرها يأخذ من علوم أهلها نزل في ساحة الصاحب ابن عباد ، فقلده قضاء جرجان ، ثم قضاء الري ، فلم يزل قاضى الري حتى مات . ولما أعرض الصاحب بن عباد عن المتنبي لأنه أبى أن يمدحه كما مدح عضد الدولة وابن العميد ، وعمل الصاحب رسالته في إظهار مساوى المتنبي ، ألف أبو الحسن الجرجاني هذا كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه ، كان فيه قاضياً عادلاً ، وأديباً فاضلاً ، وناقداً بارعاً .

ومن أكبر حسنات علي بن عبد العزيز هذا تلميذه ومواطنه عبد القاهر الجرجاني صاحب كتاب دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، وهو مؤسس علم البلاغة في هذين الكتباين على نمط لم يعرف قبله . وقد استفاد من أستاذه علي

(١) وفيات الأعيان : ١ / ٤٩ .

ابن عبد العزيز قوة الأسلوب وجزالته ، وبصره بضروب النقد ؛ قال ياقوت :
« وكان (عبد القاهر) إذا ذكر أستاذه في كتبه تبخبخح به ، وشمخ بأنفه
بالانتفاء إليه » .

وكذلك كان من هذا الإقليم أبو هلال العسكري (نسبة إلى عسكر مُكرّم)
وهي بلد من بلاد (خوزستان) قريبة من أصفهان . وقد أخذ عنه العلم في الري
حيناً وفي الأهواز حيناً وفي العسكر حيناً ، وله التأليف القيمة : ككتاب
الصناعتين ، وديوان المعاني ، وجمهرة الأمثال ، والأوائل ، والتفضيل بين بلاغة
العرب والعجم الخ ، مات نحو سنة ٣٩٥ .

وعلى الجملة فقد خدمت الدولة البويهية العلم والأدب خدمة كبرى ؛ ومع أنهم
فرس الأصل وأكثرت زراعتهم كابن العميد وابن عباد من الفرس ، فقد كانوا
يتعصبون في العلم والأدب للسان العربي .
وكان كثير من البويهيين أدباء مثقفين ثقافة واسعة ، أشهرهم في ذلك عضد
الدولة ؛ فكان يشارك في عدة فنون منها الأدب ، وكذلك عن الدولة أبو منصور
بختيار ؛ وتاج الدولة ابن عضد الدولة ، ولهم أشعار أورد بعضها الثعالبي في اليتيمة .
ثم نجد ظاهرة في هذه الدولة واضحة ، وهي أن أساس الاختيار للوزارة كان عماده
شيتين : القدرة الإدارية ، والقدرة البلاغية ؛ فكان الوزراء فحول أدب أيضاً ،
فكان من أشهر وزراء هذه الدولة ابن العميد ، وابن عباد ، والوزير المهلبي ،
وسابور بن أردشير ، وابن سعدان ، وكل من هؤلاء كان عماداً عظيماً للأدب
والأدباء والعلماء ، وكانت لهم مجالس تتوج بالعلم والأدب ؛ فابن العميد وابن عباد
قد رأينا أدبهما ومجالسهما ومن كان يحتف بهما من العلماء والأدباء .

والوزير المهلبى كان وزيراً لمعز الدولة وهو من نسل المهلب بن أبي صفرة ،
« وكان من ارتفاع القدر واتساع الصدر وعلو الهمة وفيض الكف على ما هو
مشهور به ، وكان غاية في الأدب والمحبة لأهله »^(١) ، وله مجالس تروى في كتب
الأدب ، فيها الشراب وفيها الشعر وفيها التفنن في الأناقة والترف ، وحسبه فخر أن
كان من رجاله أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني ، والقاضي التنوخي .
وابن سعدان وزير صمصام الدولة ، كان له مجلس يجمع ابن زرعة الفيلسوف
ومسكويه صاحب تهذيب الأخلاق ، وأبا الوفاء المهندس الرياضى الكبير ،
وابن حجاج الشاعر الماحن ، وأبا حيان التوحيدى ، الذى كان له من السمر
مع هذا الوزير ما جمعه في كتابه الإمتاع والمؤانسة ، وله ألف رسالة الصداقة
والصديق — وكان ابن سعدان يباهى بمجلسه هذا ويفخر به على مجالس
الكبراء الآخرين ، أمثال المهلبى وابن العميد وابن عباد ، فيقول فى أصحابه هؤلاء :
« ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ... وإن جميع ندماء المهلبى لا يفون
بواحد منهم ، وإن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل من فيهم ، وإن ابن عباد
ليس عنده إلا أصحاب الجدل » ؛ ومن هذا ترى أن هؤلاء الوزراء كانوا
يتنافسون فى اختيار خيرة العلماء والأدباء ليكونوا حولهم — وحسبنا ما فى كتاب
الإمتاع والمؤانسة ، نعرف منه مقدار ثقافة الوزراء وما يشغلهم من مسائل
العلم والأدب .

وسابور بن أردشير كان وزيراً لبهاء الدولة بن عضد الدولة ، فكان هو
نفسه أديباً شاعراً ، وقصده الشعراء أمثال أبى الفرج البغاء ، وأبى إسحاق
الصابى ؛ وقد أنشأ ببغداد دار كتب قيمة ، قال فيها ياقوت : « لم يكن فى الدنيا

(١) ابن خلكان : ٢٠٠/١ .

أحسن كتبها منها ، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولها المحررة ؛ وهذه الدار هي التي أشار إليها أبو العلاء المعري بقوله في قصيدته :

وغنمت لنا في دار سابور قينة من الورق مطراب الأصائل مهياب
ففضل البويهيين ملوكهم ووزرائهم على الحركة العلمية والأدبية لا يقدر ،
لولا أن ما كان بين بعضهم وبعض من خصومات وحروب قسم العلماء والأدباء
كذلك ، والتجأ كل فريق إلى رئيس ، فكان إذا انهزم نكل الغالب بأتباع
المغلوب ، فلقى كثير من أهل الفضل والأدب من المصادرة والتعذيب والقتل
ما يطول ذكره .

وكان على حدود الدولة البويهية في فارس الدولة الزيارية ، أول ملوكها
مرداويج بن زيّار ، ملكت جرجان وطبرستان ، وكانت في خصومة مع البويهيين .
واشتهر من رجالها في خدمة الأدب أمير كان كابد العميد وابن عباد في أنه أديب
كبير ، ومثقف واسع الثقافة ، ومشجع بمنصبه وجاهه للعلماء والأدباء ، وهو
الأمير قابوس بن وشمكير ؛ وكان أميراً كبيراً أبوه وشمكير ، وعمه مرداويج كانا
ملوك الري وأصبهان قبل بني بويه ، ثم كان قابوس والياً على جرجان وطبرستان ،
وأنفذ إليه الخليفة الطائع العهد ، ولقبه شمس المعالي ، وكان جباراً قويا يسرف
في القتل ويتجاوز الحد ، سفاكاً للدماء وخاصة في حاشيته وجنوده ، فكان
لا يسمع شكوى في أحد منهم إلا قتله . فلوه وعزلوه ، ومع هذا كان يجب
العلماء والأدباء ويشجعهم ، وكان فيه فضيلة لم نسمع مثلها من ملوك عصره
وأمرائه ، وهو أنه لم يكن يميز إنشاد المدائح في وجهه وبين يديه ؛ فكان يجتمع
الشعراء على بابه في النيروز والمهرجان ، فكان يقول لأبي الليث الطبري : « وزع

عليهم الهدايا بحسب رتبهم ، لكنني لا أستطيع سماع أكاذيبهم التي أعرف من
نفسى خلفها» (١).

وقد طبع في مصر « كمال البلاغة » وهي جملة رسائل أدبية له ، وهو فيها
متأنق ، كل كلمة فيها توزن قبل أن توضع ، وكل جملة تقاس بالقياس الدقيق
لتكون لفق أختها ، وروحه عندي أقرب إلى روح بديع الزمان منها إلى ابن
العميد وابن عباد ، وله المقطعات الشعرية الرقيقة كقوله :

خطرات ذكرك تستثير صابتي فأحس منها في الفؤاد ديبيا
لا عضو لى إلا وفيه صباية فكأن أعضائي خلقت قلوبا
وألف رسالة في الإصطلاب .

وقدمت محصوراً في قلعة ، وحمل تابوته إلى جرجان ، ودفن في مشهد
عظيم كان بناه لنفسه ، وذلك سنة ٤٠٣ .

(١) معجم الأدباء : ١٤٩/٦ .

الباب الثالث

خراسان وما وراء النهر

ازدهرت هذه البلاد في عهد الدولة السامانية التي حكمت من سنة ٢٦١ إلى ٣٨٩ ، فمدة ملكهم ١٢٨ سنة .

والمملوك السامانيون أصلهم فرس من بلخ من أسرة نبيلة تنتسب إلى بهرام جور . وقد عرف المأمون منزلتهم ونبيلهم فاصطنعهم ، وكان رأسهم أسد بن سامان . وقد خلف أسد هذا أربعة أبناء كلهم كانوا في خدمة المأمون وحكامه في هذه البلاد ؛ فكان نوح على سمرقند ، وأحمد على فرغانة ، ويحيى على بلاد الشاش ، وإسماعيل على هراة ؛ ثم عظم ملكهم حتى امتد من الصحراء الكبرى إلى الخليج الفارسي ، ومن حدود الهند إلى العراق ، وأهم ملكهم خراسان وما وراء النهر — وقد اشتهرت دولتهم بالعدل والصلاح وتشجيع العلم .

وخراسان كانت تطلق على الإقليم الواسع الذي ينقسم إلى أربعة أرباع : ربع عاصمته نيسابور ، وربع عاصمته مرو ، وثالث عاصمته هراة ، ورابع بلخ . ومن أشهر مدن خراسان نيسابور ، وبُوشَنج ، وبُست ، وسجستان ، وهراة ، ومرو ، وسرخس ، ونسا ، وطوس ، وأبيورد الخ .

والقسم الثاني من ملك السامانيين ما وراء النهر ، أي ما وراء نهر جيحون ، وكان هذا الإقليم ينقسم إلى خمسة أقسام . (١) الصغد ، وله عاصمتان : بخارى وسمرقند . (٢) وإلى الغرب من الصغد خوارزم المسماة اليوم خيوه أو كيوه . (٣) صغانيان . (٤) فرغانة . (٥) الشاش المسماة اليوم تشقند .

ومن أشهر بلاد ما وراء النهر فرغانة ، وأسييجان ، والشاش ، وأشروسنة ،
وسمرقند ، وبخارى ، وفاراب ، وترمد ، وصغانيان وقاشان ؛ ثم خوارزم ،
وفيها زرخشر والجرجانية .

والمقدسى يسمي إقليم خراسان وما وراء النهر « إقليم المشرق » . وقد رحل
إلى هذه البلاد في هذا العهد الساماني ، ونحن ننقل بعض ما يهمننا الآن منه .
قال : إنه أجل الأقاليم وأكثرها أجلة وعلماء ، وهو معدن الخير ومستقر العلم
وركن الإسلام المحكم وحصنه الأعظم ، ملكه خير الملوك ، وجنده خير الجنود ،
فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك . وقد قال محمد بن عبد الله لدعاته : « عليكم بخراسان
فإن هناك العَدَدَ الكثير والجدَّ الظاهر ، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم
تتقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النحل ولم يقدح فيها فساد ، وهم جند لهم أبدان
وأجسام ، ومناكب وكواهل ، وهامات ولحى وشوارب ، وأصوات هائلة ،
ولغات فحمة » ؛ وهم كانوا عدة الانقلاب والثورة على الأمويين ، ونقل الخلافة
إلى العباسيين .

ويقول المقدسى : قرأت في كتاب بخزانة عضد الدولة « خراسان في غذاء
الهواء ، وطيب الماء ، وصحة التربة ، وإحكام الصنعة ، وتمام الخليفة ، وجودة
السلاح والتجارة والعلم والعفة والدراية ، ترس في وجه الترك » ؛ وأهل خراسان
أشد الناس تفقها ، وبالحق تمسكا — وهم بالخير والشر أعلم ، وإلى إقليم العرب
ورسومهم أقرب . وإقليمهم أكثر أجلة وعقلاء ، مع العلم الكثير ، والحفظ
العجيب ، وللمال المديد ، والرأى الرشيد — به مرو التي قامت بها الدنيا ،
وبلخ وإليها المنتهى ، ونيسابور فلا تُنسى ^(١) .

(١) أحسن التقاسيم : ٢٩٤ ، وما بعدها .

ثم قال : « وهو أكثر الأقاليم علماً وفقهاً ، وللمذكرين به صيت عجيب ، ولهم أموال جمّة ؛ وبه يهود كثيرة ، ونصارى قليلة ، وأولاد على رضى الله عنه فيه على غاية الرفعة ، ولا ترى به هاشمياً إلا غريباً ، ومذاهبهم مستقيمة ؛ غير أن الخوارج بسجستان ونواحي هراة كثيرة ؛ وللمعتزلة بنيسابور ظهور بلا غلبة ، وللشيعة والكرامية بها جلبة ، والغلبة فى الإقليم لأصحاب أبى حنيفة إلا فى كورة الشاش ، وطوس ، ونسا ، وأبيورد . . . فإنهم شفعية ، ولهم جلبة بهراة وسجستان وسرخس .

ورسومهم تخالف رسوم أقاليم العرب فى أكثر الأشياء ، فلمؤذنين سرير قدام المنبر يؤذنون عليه بتطريب وألحان ، ويذكرون بلا دفاتر^(١) . . . وبنيسابور رسوم حسنة ، منها مجالس المظالم فى كل يوم أحد وأربعاء بمحضرة صاحب الجيش أو وزيره ، فكل من رفع قصة قدّم إليه فأنصفه ، وحوله القاضى والرئيس والعلماء والأشراف ؛ ومجلس الحكم كل اثنين وخميس فى مسجد « رجاء » لا ترى فى الإسلام مثله .

وألسنتهم مختلفة ؛ أما لسان نيسابور ففصيح مفهوم ، غير أنهم يكسرون أوائل الكلم ، وفيه رخاوة ؛ وأهل طوس ونسا أحسن لساناً ؛ وفى كلام سجستان تحامل وخصومة يخرجونه من صدورهم ، ويجهرون فيه ، ولسان بست أحسن ؛ ولسان هراة وحش ، تراهم يتكلمون ويتحاملون ؛ ولسان بلخ أحسن الألسن إلا أن لهم فيه كلمات تستقبح الخ .

وبهذا الإقليم عصبية بين الشيعة والكرامية ، وبين الشافعية والحنفية . وقد يهراق فى هذه العصبية الدماء ، ويدخل بينهم السلطان .

(١) أى يعطون من غير قراءة فى كتاب .

والولايات والخطبة في هذا الإقليم كله لآل سامان ... وهم من أحسن الملوك سيرة ونظراً وإجلالاً للعلم وأهله ؛ ومن أمثال الناس : « لو أن شجرة خرجت على آل سامان ليست » ، ألا ترى إلى عضد الدولة وتجبره وتمكنه ، وكال دولته وفتوة أمره ، خطب له باليمن والسند ، وفتح عمان ، وملك ما ملك ، فلما تعرض لآل سامان ، وطلب خراسان أهلكته الله ، وشتت جمعه ، وفرّق جيوشه ... وهم لا يكلفون تقبيل الأرض لهم ، ولهم مجالس عشيات تُجمع شهر رمضان للمناظرة بين يدي السلطان ، فيبدأ هو فيسأل مسألة ثم يتكلمون عليها ... وميلهم إلى مذهب أبي حنيفة ، وليس من رسمهم الانبساط إلى الرعية « اه .

وقد أخرجت هذه البلاد ما لا يحصى من رجال الحديث والفقهاء ، خدموا العلم خدمة كبرى بجدهم وصبرهم على البحث ورحلتهم إلى أقاصى البلدان ، يأخذون العلم من أهله حيث كان ؛ فعلى رأس المحدثين الإمام البخارى ، وهو من بخارى ، كما تدل عليه نسبه ، ورحل إلى الجبال ومدن العراق ، والحجاز والشام ومصر ، يجمع الأحاديث بالأسانيد ، ويعنى بالمتن والسند ، ورجال الحديث وتاريخهم ، ومعرفة درجة الثقة بكل منهم مع الحفظ التام ، والدقة العجيبة ... يحكى عن نفسه أنه عنى بحفظ الحديث وهو فى العاشرة ؛ فلما بلغ السادسة عشرة أخذ يحفظ كتب الحديث ، ويتعرف رجاله ، ثم خرج مع أمه وأخيه إلى مكة ورجعاها وبقى هو يطلب الحديث من محدثى مكة والمدينة ، ثم طوّف فى سائر البلدان ، واستخلص من كل ما سمع ما صح عنده ، فاستخرج صحيحه من زهاء ستمائة ألف حديث ، وظل يعمل فى تأليف صحيحه هذا ست عشرة سنة . وقد نشر الحديث فى بقاع الأرض ، فعقد مجالسه فى البصرة وبغداد ، والرى وخراسان ، وما وراء

النهر ونيسابور ، وأخذ عنه الألو ف . وقد أصابته محنة خلق القرآن فكان يقول إن القرآن غير مخلوق ولكن لفظى به مخلوق ، وشنعوا عليه بذلك بعد أن عاد إلى بلاده ، فأخرج من بخارى إلى خَرَ تَنَك (وهى قرية من قرى سمرقند) مات بها سنة ٢٥٦ .

كما أخرجت نيسابور مسلم بن الحجاج النيسابورى مؤلف الصحيح المنسوب إليه « صحيح مسلم » ، وهو كذلك رحل إلى الحجاز والعراق والشام ومصر ، وروى عن أهلها ، وجمع الحديث واستخرج صحيحه من ثلثمائة ألف حديث ، « وبعض المحدثين يفضل صحيحه على صحيح البخارى لما اختص به من جمع الطرق ، وجودة السياق ، والمحافظة على أداء الألفاظ كما هى من غير تقطيع ولا رواية بمعنى »^(١) . وكان كتابه مصدراً لحركة كبيرة فى الحديث بين النيسابوريين ، وانتفع به خلق كثير . ومات سنة ٢٦١ بنيسابور . وقد ناصر البخارى فى قوله فى القرآن ، وخاصمهما فى ذلك شيخهما المحدث الكبير أيضاً أبو عبد الله محمد بن يحيى الذهلى النيسابورى ؛ فكان يقول بأن القرآن حتى لفظنا له غير مخلوق .

ويطول بنا القول لو عددنا أسماء كبار المحدثين الذين أنجبتهم هذه البلاد ؛ فالبخارى ومسلم كانا سبباً فى حركة حديث قوية ظلت تعمل فى هذه البلاد أجيالاً ، وحسبنا دلالة على كثرة من خرجتهم هذه البلاد أننا نقرأ أسماء المحدثين ، فنجد الكثيرين المنسوبين إلى بلاد هذا الإقليم ، وخصوصاً نيسابور .

كما أخرجت البلاد كثيراً ممن بلغوا مبلغ الاجتهاد فى الفقه مثل أبى حاتم محمد بن حبان التميمى السمرقندى ، إمام كبير له تصانيف كثيرة فى الحديث والجرح

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر .

والتعديل ، وطوف في البلاد وقال : « لعلنا أخذنا عن ألف شيخ بين الشاش والإسكندرية » . وقد ولي قضاء سمرقند ، ورحل إليه الناس لأخذ العلم عنه ، وإليه مرجع كثير من المحدثين في حكمه على رجال الحديث بالجرح والتعديل ؛ مات سنة ٣٥٤ .

وأبو بكر محمد بن المنذر النيسابوري ، وكان إماماً مجتهداً ؛ قال الذهبي : كان على نهاية من معرفة الحديث والأخلاق ، وكان مجتهداً لا يقلد أحداً ؛ توفي سنة ٣١٦ .

ثم كان بهذه الأقاليم كثير من عطاء الشافعية والحنفية . فمن أكبر رجال الشافعية محمد بن علي القفال الشاشي ، كان يعد إمام عصره فيما وراء النهر ، وناشر مذهب الشافعية فيه ، وكان يقول بالاعتزال ، وله كتب في الفقه والأصول ، وخرج غازياً في الحروب بين المسلمين والروم ، وأخذ أسيراً إلى القسطنطينية ؛ ثم عاد إلى بلاده ، ومات بالشاش سنة ٣٦٥ .

وأبو بكر بن فورك الأصفهاني الأصل ، الأصولي المتكلم ، ناصر الأشعري ، اضطهد بالري لكثرة الاعتزال بها ، فطلبه أهل نيسابور ، وبنوالة مدرسة يعلم فيها ، وألف مصنفات كثيرة نحو المائة ، ومات سنة ٤٠٦ بنيسابور .

وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي الحافظ الشافعي ، رحل إلى كثير من البلاد ، ثم عاد إلى بلده ، وأخذ في تصنيف الكتب ، وأكثر منها حتى قالوا إنها تبلغ نحو ألف جزء ، وهو أول من جمع نصوص الإمام الشافعي في عشرة مجلدات . ومن تأليفه السنن الكبير ، والسنن الصغير ، ودلائل النبوة ، ومناقب الشافعي ، ومناقب ابن حنبل ، وطلب إلى نيسابور لنشر العلم بها فأجاب ، وتوفي بها سنة ٤٥٨ ، ونسبته إلى بيهق بالقرب من نيسابور .

كما اشتهر من الحنفية الإمام أبو منصور الماتريدي ، وهو للحنفية في علم الكلام كالأشعري للشافعية ، كتب كتاب التوحيد ، وأوهام المعتزلة ، وما أخذ الشرائع في الفقه ، والجدل في أصول الفقه وغير ذلك ؛ مات سنة ٣٣٣ ، والنسبة إلى ماتريد أو ماتوريد محلة بسمرقند .

ثم أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي الملقب بإمام الهدى توفي سنة ٣٧٣ . وهذا نموذج صغير جداً مما أخرجته هذه البلاد من المحدثين والفقهاء ، فحيثما قرأت في كتب المحدثين والفقهاء راعتك كثرة ماترى منهم ، ودلالة نسبتهم عليهم كالبخى ، والسرخسى ، والخوازمى ، والسمرقندى ، والفارابى ، والبخارى ، والترمذى ، والصاغانى ، والأبيوردى ، والقاشانى ، والشاشى ، والنيسابورى ، والمروزى (نسبه إلى مرو والزاي زائدة كالرازي نسبة إلى الري ، وبعضهم ينسبها مروروزى نسبة إلى مرو الروز) ، والهروى نسبة إلى هرات ، والفرغانى ، والزخشري ، والصغدنى ، والبيهقى ، والبستى الخ .

وظهر التصوف في هذه البلاد كما ظهر في مصر وفي العراق ؛ فكان من أولهم في هذا الإقليم شقيق البخى ، قيل إنه أول من تكلم في علم الأحوال بخراسان . كان يقول : قرأت القرآن عشرين سنة حتى ميزت الدنيا من الآخرة ، فأصبته في حرفين ، وهو قوله تعالى : « وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى » ، ومات سنة ١٥٣ .

ثم تتابع التصوف من بعده في هذه البلاد كأبى حفص عمرو بن سالم الحداد النيسابورى التوفى سنة ٢٧٠ ؛ وأبو تراب النخشبى من متصوفة خراسان المشهورين بالعلم والفتوة والزهد ؛ وأبو على الجوزجانى له التصانيف في الرياضة النفسية والمجاهدات والمعارف ؛ وأبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق أصله من

ترمز وأقام ببلخ ؛ وأبو عبد الله محمد بن منازل النيسابوري شيخ طريقة الملامتية ، مات بنيسابور سنة ٣٢٩ ؛ وأبو العباس بن القاسم بن مهدي من أهل مرو ، وهو أول من تكلم عندهم في حقائق الأحوال ، مات سنة ٣٤٢ .

وكانت في هذه البلاد حركة فلسفية قوية يرجع الفضل فيها أولاً إلى شخصيتين من أقوى الشخصيات ، وهما أبو زيد البلخي ، وأبو القاسم الكعبي .
فأما أبو زيد فهو أحمد بن سهل البلخي ، جمع بين الفلسفة والعلوم الشرعية والأدب ؛ قال أبو حيان التوحيدى : « الذى أقوله وأعتقده أنى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر إلا ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقيظهم ومدحهم ونشر فضائلهم فى أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم مدى الدنيا لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم : أحدهم أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . . . والثانى أبو حنيفة الدينورى ، فإنه من نوادر الرجال ، جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب ، له فى كل فن ساق وقدم ، ورواء وحكم . . . والثالث أبو زيد أحمد بن سهل البلخي ، فإنه لم يتقدم له شبيه فى الأعصر الأول ، ولا يظن أنه يوجد له نظير فى مستأنف الدهر ، ومن تصفح كلامه فى كتاب أقسام العلوم ، وفى كتاب أخلاق الأمم ، وفى كتاب نظم القرآن ، وفى كتاب اختيار السيرة ، وفى رسائله إلى إخوانه ، وجوابه عما يسأل عنه ويبيده به عليم أنه بحر البحور ، وأنه عالم العلماء ، وما روى فى الناس من جمع بين الحكمة والشريعة سواه ، وإن القول فيه لكثير » (١) .

ولد ببلخ ، ورحل إلى العراق ، وأقام به ثمانين سنين يأخذ علمه وفلسفته ؛

(١) معجم الأدباء : ١٢٥/١ .

ثم عاد إلى بلاده ينشر فيها علمه ، وكان يقال له : « جاحظ خراسان » — وألف نحو ستين كتاباً في علوم مختلفة منها كتاب في نظم القرآن ؛ قال أبو حيان : « لم أر كتاباً في القرآن أحسن منه — تكلم فيه بكلام لطيف دقيق ، وأخرج أسراره ، ولم يأت على جميع المعاني فيه » . وكان يتنزه عن الجدل في القرآن ، ويتخرج عن تفضيل بعض الصحابة على بعض ، وعن المفاخرة بين العرب والعجم ، ويقول : ليس في هذه المناظرات الثلاث ما يجدى طائلاً . ومن تأليفه كتاب أقسام العلوم ، وشرائع الأديان ، وكتاب السياسة الكبير والصغير . وحدود الفلسفة ، وما يصح من أحكام النجوم ، وكتاب الرد على عبدة الأوثان ، وكتاب أخلاق الأمم الخ . ويعد أيضاً من أكبر جغرافيي العرب ، وقد ألف « صور الأقاليم » ، وهو خرائط ملوثة موضحة ببعض الشروح . وينسب إليه كتاب البدء والتاريخ المطبوع وليس له — مات ببلخ سنة ٣٢٢ .

والثاني أبو القاسم عبد الله بن أحمد الكعبي كان من بلخ أيضاً ، وكان معاصراً لأبي زيد وصديقاً له واشتهر بتبحره في علم الكلام ، وأنه رأس من رءوس المعتزلة ، له مذهب خاص وأتباع يقال لهم الكعبية ، مات سنة ٣١٧ . هذان العلمان نشرا في هذا الإقليم حركة فلسفية وعقلية كبيرة توجت بالفيلسوف الكبير ابن سينا درة الدولة السامانية .

وهو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا ، ولعل خير ما يمثل الحركة الفلسفية في العهد الساماني ما حكاه ابن سينا نفسه في ترجمة حياته ، كما رواه عنه تلميذه أبو عبيد الجوزجاني ؛ قال ابن سينا : « إن أبي كان رجلاً من أهل بلخ ، وانتقل منها إلى بخارى في أيام نوح بن منصور (الساماني) ، واشتغل بالتصرف وتولى العمل بقرية هناك ... ثم انتقلنا إلى بخارى ، وأحضرت معلم

القرآن ، ومعلم الأدب ... وكان أبي ممن أجاز داعي المصريين (الفاطميين) ،
ويُعد من الإسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ،
وكذلك أخي ، وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه ،
ولا تقبله نفسى ، وابتدءوا يدعوننى إليه أيضاً ، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة
والهندسة وحساب الهيئة . وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه ... ثم جاء إلى
بخارى أبو عبد الله الناتلى ، وكان يدعى المتفلسف ، وأنزله أبى دارنا رجاى تعلمى
منه ... فابتدأت بكتاب إيساغوجى على الناتلى ... وكان أى مسألة قالها لى
أتصورها خيراً منه ... ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى ، وأطالع الشروح
حتى أحكت علم المنطق ، وكذلك كتاب أقليدس ، فقرأت من أوله خمسة أشكال
أوستة عليه ، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره ؛ ثم انتقلت إلى
المجسطى ... ثم فارقتى الناتلى ، واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من النصوص
والشروح من الطبيعى والإلهى ، وصارت أبواب العلم تتفتح على . ثم رغبت
فى علم الطب ... وتعهدت المرضى ، فانفتح على من أبواب المعالجات المقتبسة
من التجربة ما لا يوصف ، وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه ... وقرأت
كتاب ما بعد الطبيعة (لأرسطو) ، فما كنت أفهم ما فيه ، وأيست من نفسى
حتى أعدت قراءته أربعين مرة ، وصار لى محفوظاً ، وقلت هذا كتاب لا سبيل إلى
فهمه ، وإذا أنا فى يوم من الأيام فى الوراقين ، وييد دلال مجلد ، فقال لى : اشتر
منى هذا فإنه رخيص ... فاشتريته بثلاثة دراهم ، فإذا هو كتاب لأبى نصر
الفارابى فى أغراض كتاب ما بعد الطبيعة ، ورجعت إلى بيتى ، وأسرعت قراءته
فانفتح على فى الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان محفوظاً على ظهر
القلب ... وكان سلطان بخارى فى ذلك الوقت نوح بن منصور (السامانى) ،

واتفق له مرض ، فاستدعيت لمشاركة الأطباء في معالجته ، وتوسمت بخدمته ، فسألته يوماً الإذن لى فى دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب ، فأذن لى ؛ فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة فى كل بيت صناديق كتب ، منضدة بعضها على بعض ، فى بيت منها كتب العربية والشعر ، وفى آخر الفقه ، وكذلك فى كل بيت كتب علم مفرد ، فطالعت فهرست كتب الأوائل ، وطلبت ما احتجت إليه منها ، ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيت من قبل ، ولا رأيت أيضاً من بعد ، فقرأت تلك الكتب ، وظفرت بفوائدها ، وعرفت مرتبة كل رجل فى علمه « الخ الخ ^(١) .

وقد شاهد ابن سينا سقوط بخارى فى يد أمير غزنة محمود بن سبكتكين ، وسافر إلى الري وهمذان .

واتصل بكثير من علماء وقته كالبيرونى ، وأبى الخير بن الخمار ، وأبى القاسم الكرماني ، وأخذ اسمه وتأليفه شهرة ومكانة لم ينلها أحد غيره من فلاسفة الشرق ؛ وظل كتابه القانون فى الطب يدرس فى الشرق وفى الغرب إلى عهد قريب ؛ وكتبه الشفاء والإشارات والنجاة مرجع كل من درس الفلسفة الإسلامية — عاش ابن سينا من سنة ٣٧٠ إلى سنة ٤٢٨ .

وكان فى هذا الإقليم حركة أدبية قوية من شعر ونثر فى .
فى الشعر جروا على أساليب العراق وفارس من إكثارهم من المقطوعات فى المناسبات ، والتفنن فى التخييل ، والإغراق فى المبالغة ، والإمعان فى التشبيه ؛ وشجع الملوك السامانيون الحركة الأدبية ، كما شجعها وزيران كبيران لهذه الدولة ،

(١) طبقات الأطباء : ٢/٢ .

فكاننا صورة مصغرة لابن العميد وابن عباد ، وهما : الوزير البلعمي ،
وأبو عبد الله الجيهاني .

فالوزير البلعمي هو أبو الفضل محمد بن عميد الله البلعمي ، أصل أجداده عرب
من تميم استوطن فرعهم في بخارى ، وكان وزيراً لنصر بن أحمد الساماني ؛ قال
السمعاني : « وكان واحد عصره في العقل والرأى وإجلال العلم وأهله —
ولقبه ابن حوقل بالشيخ الجليل ، وقد قام بترجمة تاريخ الطبرى إلى اللغة الفارسية .
والجيهاني هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني ؛ قال فيه ياقوت : « وكان
أديباً فاضلاً شهماً جسوراً ، وكان حسن النظر لمن أمله وقصده — معيناً لمن أمله
واعتمده ، وله تأليف ، وقد استوزر أيضاً لنصر بن أحمد .

فكلاهما شجع الحركة العلمية والأدبية في بخارى ، كما شجعها ابن العميد
وابن عباد في الري .

وقد نبغ في الدولة السامانية من الشعراء كثيرون عدهم الثعالبي في اليتيمة ،
ونقل طرفاً من أشعارهم ؛ ولعل من أحقهم بالذكر محمد بن موسى الحدادي
البلخي ، وكان يقال : « أخرجت بلخ أربعة : أبا القاسم الكعبي في علم الكلام ؛
وأبا زيد البلخي في البلاغة والتأليف ؛ وسهل بن الحسن في شعر الفارسية ؛
ومحمد بن موسى في شعر العربية »^(١) ، ومما امتاز به أنه كان مولعاً بنقل الأمثال
الفارسية إلى العربية نظماً ، وله في ذلك مزدوجة طويلة كقوله :

من مُثِّلَ الفرس ذوى الأبصار الثوب رهن في يد القَصَّار

نال الحمار بالسقوط في الوَحْل ما كان يهوى ونجا من العمل

(١) اليتيمة : ٢١/٣ .

البحر غمر الماء في العيان والكلب يروى منه باللسان الخ
وسار في ذلك على منهجه أبو عبد الله الضريير الأبيوردى . وقد وضع قصيدة
في أمثال الفرس كذلك أولها :

صياحى إذا أفطرت بالسحت ضلّة وعلمى إذا لم يُجد ضرب من الجهل
وتزكيتى مالاّ جمعت من الربّاء رياء ، وبعض الجود أخزى من البخل
كسارقة الزمان من كرم جارها تعود به المرضى وتطمع في الفضل
وقد قال الثعالبي : « كانت بخارى في الدولة السامانية مثابة المجد ، وكعبة
الملك ، وجمع أفراد الزمان ، ومطلع نجوم أدياء الأرض ، وموسم فضلاء الدهر »^(١) .
وأنتج هذا الإقليم من أعلام النثر الأديبين الكبارين الشهيرين أبا بكر
الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمداني .

فالخوارزمي محمد بن العباس أصله من خوارزم ، وطوف في الشام ، ونزل ضيفاً
على سيف الدولة في حلب ، وعلى صاحب بن عباد في الري ، ثم عاد إلى نيسابور .
« وكان يتعصب لبني بويه ، ويغض من سلطان خراسان ، ونكل به مرة
من أجل ذلك ، ثم علت منزلته ثانية ، ونظر إليه أهل نيسابور بعين الإكرام
والإعظام ، وعُدَّ إمام الأدياء حتى رُمى ببديع الزمان الهمداني ، وُئلي بمساجلته ،
وأعان البديع شبابه ولباقته ، ومساعدة خصوم الخوارزمي السياسيين للبديع ،
« فأنخزل الخوارزمي أنخزالا شديداً ، وكسف باله ، وانخفض طرفه ، ولم يحل
عليه الحول حتى خانة عمره ، ومات سنة ٣٨٣ »^(٢) .

وقد خلف لنا رسائله الأدبية القيمة ، على ما فيها من تكلف أحيانا جرّ إليه
الغرام بالسجع والبديع .

(٢) اليتيمة : ١٢٧/٣ .

(١) يتيمة : ٣٣/٣ .

ثم أتى بديع الزمان الهمداني ، وهو أبو الفضل أحمد بن الحسن ، ولد بهمدان ، وتوفي بهراة سنة ٣٩٨ ، وقد أرنى على الأربعين . وقد اتصل بالأمير محمد بن منصور فأكرمه ، ونزل نيسابور سنة ٣٨٢ ، فأملى بها مقاماته المشهورة ، وكانت الخصومة بينه وبين أبي بكر الخوارزمي أيام إقامتهما في نيسابور . وقد قص اليديع هذه الخصومة في رسائله ، ولا بد أن يكون قد بالغ فيها تحيزاً لنفسه ، ومع هذا فهي تدل على ما عرف عن اليديع من جودة حفظ ، وحضور بديهية ، وقوة بيان . وله الفضل الكبير في مقاماته التي حذا حذوها الحريري فيما بعد ، وله رسائله ، وهذه وتلك تدل على خفة روح وحسن خيال ، وقدرة على الابتكار ، ووقوف على أحوال الزمان مما يجعلها مصدراً كبيراً لدراسة الحياة الاجتماعية في زمنه .

ونبع في هذا العصر ، وفي هذا الإقليم من الأدباء والمؤلفين في الأدب أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري ، كان أديباً بليغاً على أسلوب أهل زمانه في السجع والاستعارة والتشبيه ، وكان واسع العلم باللغة والأدب والأدباء وتاريخهم ، وألف في ذلك كله ؛ فله فقه اللغة أراد فيه أن يجعله معجماً على نمط جديد ، وهو جمع الكلمات في الموضوع الواحد في موضع واحد ، وأتت هذه الفكرة للثعالبي في نيسابور ، وابن سيده في الأندلس في وقت واحد تقريباً ؛ فقد مات الثعالبي سنة ٤٢٩ ، ومات ابن سيده سنة ٤٥٨ ، وألف الأول فقه اللغة ، والثاني الخُصص . كما ألف الثعالبي يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، ذكر فيه تراجم الأدباء في المائة الرابعة ، ومختاراً من أدبهم مقسماً إلى الدول المختلفة ، والأمصار المتباينة ؛ وقد عني فيه بالمختارات أكثر مما عني بتراجم الحياة . وله كتب أخرى كثيرة قيمة وصلت إلينا كالإعجاز والإيجاز ، وخاص

الخاص ، وثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، ومن غاب عنه المطرب ، ونثر النظم وحل العقد الخ ، وله كتاب غرر أخبار ملوك الفرس ، وكلها كتب قيمة مفيدة . كما كان من هذه البلاد من أئمة اللغة ، الأزهرى أبو منصور محمد بن أحمد ابن الأزهر ، أصله من هراة ، ولد بها ومات بها ، ورحل إلى العراق وأخذ عنه أئمة علمائه كابن دريد ، وطاف في أرض العرب يجمع اللغة منهم ، فوقع أسيراً في يد القرامطة ، قال : « وكان القوم الذين وقعت في سهمهم عرباً نشئوا في البادية يتتبعون مساقط الغيث أيام النجع ، ويرجعون إلى إعداد المياه في محاضرهم زمان القيظ ، ويرعون الماشية ويعيشون بألبانها ، ويتكلمون بطباعمهم البدوية ، ولا يكاد يوجد في منطقتهم لحن أو خطأ فاحش ، فبقيت في أسرهم دهرماً طويلاً... واستفدت من مجاورتهم ومحاطبة بعضهم بعضاً ألفاظاً جمّة ونوادير كثيرة أودعت أكثرها في كتابي » .

وقد صنف في اللغة كتاب التهذيب في عشرة مجلدات ، وهو من الكتب التي فرغها ابن منظور في كتابه لسان العرب ؛ وقال في مقدمته : « ولم أجد في كتب اللغة أجمل من تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهرى ، ولا أكمل من المحكم لابن سيده ، وهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق ، وما عداها بالنسبة إليهما ثنيتا للطريق » .

وقد توفي الأزهرى سنة ٣٧٠ .

وكذلك الجوهرى صاحب الصحاح ، ومبتكر طريقة المعاجم جرى عليها صاحب القاموس ولسان العرب وغيرها — وهو إسماعيل بن حماد ، أصله من فاراب ، سافر إلى بلاد العرب ، ودخل ديار ربيعة ومضر ، وجمع ما استطاع من اللغة ، وعاد إلى نيسابور فدرس فيها ؟ ثم وضع كتاب الصحاح ، وهو يعد من

أمهات كتب اللغة اهتم به علماء اللغة اهتماماً كبيراً استفادة ونقداً ؛ وقد تقدم ذكره مات سنة ٣٩٨ .

ومن هذا الإقليم من علماء اللغة والأدب الزوزني^(١) أبو عمرو أحمد بن محمد ابن إبراهيم نسبة إلى زوزن ، وهي بلدة واسعة بين نيسابور وهرة ، وكانت زوزن تسمى بالبصرة الصغرى لكثرة من أخرجت من الفضلاء والأدباء وأهل العلم ، وإليها ينتسب كثير من أهل الأدب والعلم منهم صاحبنا هذا .
وقد خلف لنا شرحاً على المعلقات السبع ، وهو شرح مختصر مفيد يدل على سعة علم باللغة والنحو والتصريف وحسن الذوق والفهم ، مات بزوزن سنة ٣٧٤ .

وكان في هذا الإقليم أمراء جمعوا إلى الإمارة وجاهة الأدب ، ورعاية أهله ، فأحاطوا أنفسهم بجو أدبي رائع ، كان ينتج أكثر مما أنتج لولا ما انغمسوا فيه من السياسة وفتنها والأعيانها . .

فكان فيه طائفة كبيرة من نسل الخلفاء العباسيين أتوا إليه من العراق لما كانوا يعرفون من الرابطة القوية بين آبائهم العباسيين والخراسانيين ؛ إذ كان الخراسانيون عماد الدولة العباسية . فلما ذهب إلى خراسان أبناء هؤلاء الخلفاء أكرمهم الخراسانيون وأغدقوا عليهم النعم ، وأحلّوهم محل الإجلال ، ولعبت ببعض هؤلاء الذين من نسل الخلفاء فكرة أن يعيدوا الأمر جذعة ، فبيثوا الدعوة لأنفسهم ، ويكوّنوا جيشاً من الخراسانيين يفتحون به العراق من جديد ويؤسسون ملكاً جديداً ، وأصاب بعضهم بعض النجاح أولاً وفشلوا أخيراً .

(١) قال ياقوت إنها بضم الأول وقد يفتح ، واعتمدنا في نسب هذا المؤلف وتاريخ وفاته على الأنساب للسمعاني وهو يخالف ما في ترجمته في صدر شرحه للمعلقات .

وكان من أشهر هؤلاء أبو طالب عبد السلام بن الحسين المأموني من نسل المأمون ، قال الثعالبي : « وقد رأيت المأموني ببخارى سنة ٣٨٢ ، وعاشرت منه فاضلا ملاء ثوبه ، وذاكرت أديباً شاعراً بحقه وصدقه ، وسمعت منه قطعة من شعره ، ونقلت أكثره من خطه ، وكان يسمو بهيمته إلى الخلافة ، ويمنى نفسه قصد بغداد في جيوش تنضم إليه من خراسان لفتحها فاقطفته المنية دون الأمنية ، ولم يكن بلغ الأربعين ، وذلك سنة ٣٨٣^(١) » .

وكذلك كان أبو محمد عبد الله بن عثمان الواثق من أولاد الخليفة الواثق ، ذهب كذلك بأهله إلى خراسان ، ودبر أن يستعين بالأتراك لإزالة دولة بني سامان حتى هاجموا بخارى وأزالوا الساماني عنها ، ثم فشلت الحركة ، وكان كالمأموني شاعراً أديباً .

ومن الأمراء غير العباسيين الذين كانوا من الأدباء آل ميكال الذين اشتهر من بينهم أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي ، وأبو محمد عبد الله بن إسماعيل الميكالي . وآل ميكال أسرة كبيرة من سادة خراسان ، وأولى الفضل والنبيل والرياسة فيها ، جمعوا إلى إنشاء الأدب حماية الأدب .

هؤلاء الأمراء الأدباء من نسل العباسيين وغيرهم بهذا الإقليم شجعوا حركة أدبية عظيمة بما بذلوا من مال ، وما وجهوا من رأى ، وما ضربوا المثل بما أنشؤوا من أدب ، فقصدهم المؤلفون يهدون إليهم تأليفهم وقصائدهم ؛ فيقصد ابن دريد — مثلاً — أبا الفضل الميكالي في نيسابور ، ويؤلف له كتاب الجهرة ، وينشئ له قصيدته المقصورة — ياظبية أشبه شيء بالمها — والتي يقول فيها في مدح آل ميكال :

إن ابن ميكال الأمير انتاشنى من بعد ما قد كنت كالشئء اللقا

(١) اليتيمة : ٩٤/٣ .

ويقول في ابني ميكال بعد أن ذكر العراق وأهله ، وأنه لا يداينهم في فضلهم أحد :

حاشا الأميرين اللذين أوفدا عليّ ظلا من نعيم قد ضفا
هما اللذان أثبتا لي أملا قد وقف الناس به علي شفا
تلافي العيش الذي رنقه صرف الزمان فاستساغ وصفا
وأجريا ماء الحيا لي رغدا فاهتز غصني بعد ما كان ذوى
هما اللذان سمو بناظري من بعد إغضائي علي لدع القذى
هما اللذان عمرا لي جانبا من الرجاء كان قدما قد عفا
وقلداني منة لو قرنت بشكر أهل الأرض عني ماوفي

ونرى مثلاً أبا منصور الثعالبي يؤلف كتابه لطائف المعارف للصاحب بن عباد ، والمبهج لشمس المعالي قابوس بن وشمكير ، وفتح اللغة ، وسحر البلاغة لأبي الفضل الميكالي ، والنهاية في الكناية لمأمون بن مأمون صاحب خوارزم الخ .

وعلى الجملة فهاتان الدولتان البويهية والسامانية مع فارسية ملوكهما وأعجمية لغاتهما الأصلية قد خدمتا اللغة العربية ، والأدب العربي ، والعلوم الإسلامية العربية ، والفلسفة الإسلامية العربية خدمة لا تقدر .

الباب الرابع السند وأفغانستان

تولى هذا الإقليم الدولة الغزنوية ، وتسمى أيضاً دولة بني سُبُكْتِكِين .
وقد قامت هذه الدولة من سنة ٣٥١ إلى سنة ٥٨٢ .
وهي دولة تركية — والنزاع بين الأتراك والفرس قديم ، والحرب بينهم
سجال ؛ فقد ساد الفرس في الدولة العباسية الأولى إلى أن جاء المعتصم ففوّى
سلطان الترك ، وضعف سلطان الفرس ، وظل الحال كذلك حتى أتى بنو بويه .
وهم فرس ، فاستردوا سلطانهم ، وأضعفوا سلطان الترك .
وكذلك الأمر هنا ؛ فقد ساد السامانيون الفرس في خراسان وما وراء النهر
حتى جاء آل سبكتكين الأتراك ، فأنزلوهم عن مكاتهم ، وحلوا محلهم في السيادة .
نشأ الأمراء الأولون من الدولة الغزنوية في أحضان الدولة السامانية ؛ فقد
كان أَلْبَتَكِين مملوكاً تركياً حاكماً لهراة من قبل السامانيين . وقد فتح غزنة
سنة ٣٥٢ ؛ وقد خلفه ابنه إسحاق ، وهذا لم يعقب فال أمر ما بيده إلى غلامه
سبكتكين ، وإليه تنسب الدولة . وقد وسع سبكتكين ملكه في ناحيتين : في
ناحية الهند ، وأنشأ بها حكومة في « بشاور » ؛ وفي ناحية فارس باستيلائه على
خراسان وما إليها . ومن أشهر رجال هذه الدولة بل من أشهر أعلام الإسلام محمود
ابن سبكتكين الذي وطد ملكه ووسعه ، فوسع فتوحه في الهند إلى ما وراء
كشمير وبنجاب ، واستولى من ناحية أخرى على بخارى وما وراء النهر ،
وأخذ إقليم الري وأصفهان من البويهيين إلى العراق ، فامتدت مملكته من

لاهور إلى سمرقند إلى أصفان إلى العراق ، واستمر الملك في عقبه إلى أن خلفتها الدولة الغورية .

والذي يهمننا هنا الناحية العقلية ؛ فقد كانت هذه البلاد في هذه الدولة مركزاً عقلياً نبغ فيه كثير من رجال العلم والأدب والفلسفة .

وكان من أهم بلاد هذه الدولة ولاية سجستان « وعاصمتها زرنج — وفي أهل سجستان عظم خلق وجلادة ، وأغلب أهلها على مذهب الحنفية ، لا ترى من غيرهم إلا القليل ، وكان فيها كثير من الخوارج يظهرون مذهبهم ، ولا يتحاشون منه ، ويفتخرون به عند المعاملة ؛ يقول الرجل عند مما كسته : « أنا من الخوارج لا تجد عندي إلا الحق » ، واشتهر أهل سجستان — على العموم بصحة المعاملة ، وقلة الخاتلة ، ومسارعتهم إلى إغاثة الملهوف ومداركة الضعيف ، ثم أمرهم بالمعروف » (١) .

وقد ينسب إليها فيقال السجستاني ، وقد تختصر النسبة فيقال السجزي . وكثير من العلماء ينسب إليها ، منهم أبو سعيد السجزي القاضي الحنفي ، رحل إلى الشام والعراق وخراسان ، ثم عاد إلى بلاده وولى القضاء بعدة نواح ، ومات بفرغانة سنة ٣٧٣ — وأبو أحمد خلف بن أحمد السجزي كان ملكاً بسجستان ، وكان من أهل العلم والفضل والسياسة والملك ، سمع الحديث بخراسان والعراق . وقد سلب ملكه سنة ٣٩٩ محمود بن سبكتكين ، وتوفي في الهند محبوساً .

وكان من أعماله العظيمة أن جمع العلماء بسجستان وحملهم على تصنيف كتاب في التفسير لا يغادرون فيه حرفاً من أفاويل المفسرين وتأويل المتأولين ، ونكت المذكرين ، ويتبعون ذلك بوجوه القراءات وعلل النحو والتصريف ، ويوشحونه بما رواه الثقات الأثبات من الحديث . وقد أشق على العلماء مدة اشتغالهم فيه عشرين ألف دينار ، وتم هذا العمل الضخم في مائة مجلد

(١) المقدسي .

تستغرق عمر الكاتب ، وتستنفد حبر الناسخ^(١) .
ومن مدن سجستان المشهورة الرُّخَّج ، وإليها ينسب كثير من العلماء والأدباء .
ثم من أهم مدن هذه الدولة غزنة وكانت عاصمة ملكها ، قد ملأها محمود
ابن سبكتكين بأجمل ما وصلت إليه يده عند فتحه للهند . وقد دفن بها السلطان
محمود هذا ، ولا يزال بها قبره عليه قبة عظيمة ، وأبواب المدفن من خشب الصندل
قيل إنه أتى بها من أحد هياكل الهند .

وقد وصف العُتبي بعض ما عمله السلطان محمود في غزنة ، فذكر — مثلاً —
أنه بنى فيها مسجداً ، وقال : « لما عاد السلطان يمين الدولة إلى دار الملك بغزنة
أحب أن ينفق ما أفاء الله عليه في عمل بر يشيع جدواه — وكان قد أوعز
باختطاط صعيد من ساحة غزنة للمسجد الجامع ، إذ كان ما اختط قديماً على قدر
أهلها ، فوافق عوده حصول المراد من تقطيعه وتوسيعه ، وإقامة الجدران على
ترايعه ، فصبّ بدر المال على الصُّنَّاع ، كما صب دماء الأبطال يوم القِرَاع . . .
ونقل إليه من أقطار الهند والسند جذوع توافقت قدوداً وورصانة ، وتناسبت
تديراً وثخانة . وقد فرشت ساحتها بالمرمر منقولا من كل فج عميق ، ومضرب
سحيق . . . أشد ملاسة من راحة الفتاة وصفحة المرآة — فأما الأصباغ ففروضة
الربيع ضاحكة الثغور تستوقف الأبصار ، وتقيد النظائر . وأما التذهيب فهو
صبات الذهب الأحمر أفرغت عن صور الأصنام المجذوزة ، والبددة المأخوذة^(٢) ،
فطفقت تعرض على النار بعد أن كانت آلهة للكفار الخ .

وقد أفرد السلطان لخاصته بيتاً في المسجد مشرفاً عليه ، وفرشه وإزاره من
الرخام ، قد أحيط بكل رخامة مربعة محراب من الذهب الأحمر مكللاً

(١) انظر تاريخ العتبي . (٢) البددة : جمع بد وهو الصنم .

باللازورد ، في تعاريح من ألوان المنثور والورد .

وأمام هذا البيت مقصورة بتعاريح عليها منصوبة^(١) تسع ثلاثة آلاف غلام ، متى شهدوا للفرض أخذوا أما كتبهم منها صنفوا ، وأقبلوا على انتظار الأذان عكوفاً .

وأضيف إلى المسجد مدرسة فيحاء ، تشمل بيوتها من مناط الأرض إلى مناط السقوف على تصانيف الأئمة الماضين ، من علوم الأولين والآخرين ، منقولة من خزائن الملوك ، تقرأ عن ديار العراق ، ورباع الآفاق ، حتى اقتنوها بخطوط كفرأند سموط ، مصححة بشهادات التقييد ، وعلامات التخفيف والتشديد ، ينتابها فقهاء دار الملك وعلماؤها للتدريس ، والنظر في علوم الدين ، على كفاية ذوى الحاجة منهم ما يهمهم ، جراية وافرة ، ومعيشة حاضرة .

وناهيك من بلد يحتوى على مراض ألف فيل ، يشغل كل منها بساسته ومارته^(٢) داراً كبيرة ، وخطة وسبعة — إن الله تعالى إذا أراد عمّر البلاد وكثّر العباد^(٣) ؛ وقال ياقوت : « وقد نسب إلى هذه المدينة من لا يعد ولا يحصى من العلماء » ؛ وقال السمعاني : « الغزنوى نسبة إلى غزنة ، وهى بلدة من بلاد الهند ، خرج منها جماعة من العلماء فى كل فن » .

ثم أفغانستان ، ومن أشهر مدنها قندهار ، وكابل ، وقد نسب إليها جمع من المحدثين .

ثم السند ، وكانوا يطلقونها على البلاد الواقعة بين الهند ومكران وسجستان .

(١) يريد بالتعاريح الدرازين .

(٢) ساسة الفيل : خدامه ومن يقومون بأمره ؛ ومارته : جمع مائر ، وهو الذى يقوم على طعامه .

(٣) نقلت هذه من تاريخ العتبى باختصار .

وكانت عاصمتها « المنصورة » ؛ وقد قال المقدسى فى وصف السند عندما زارها :
« إنه إقليم الذهب والتجارات والعقاقير والآلات والفانيد والخيرات . . . به
عدل وإنصاف وسياسات . . . العلماء به قليلون — والمنصورة قصبتها وهى مثل
دمشق ، لأهلها مروءة ، وللإسلام عندهم طراوة ، والعلم وأهله كثير ، ولهم ذكاء
وفطنة . . . ومن مدن السند دَيْبُل ، وكل أهلها تجار ، وكلامهم سندی وعربى —
والمُلتان ، وهى مثل المنصورة ، وأهلها لا يكذبون فى بيع ، ولا يببخسون فى كيل ،
يجبون الغرباء ، وأكثرهم عرب (١) .

ثم قال : « إن إقليم السند أكثر أهله مذاهبهم أصحاب حديث ، ورأيت
القاضى أبامحمد المنصورى داودياً إماماً فى مذهبه ، وله تدريس وتصانيف ، قد
صنف كتباً عدة حسنة . وأهل الملتان شيعة ، ولا تخلو القصبات من فقهاء على
مذهب أبى حنيفة ، وليس به مالكية ولا معتزلة ، ولا عمل للحنابلة ؛ قد
أراحهم الله من الغلو والعصية والمهرج والفتنة » الخ .

ونعود إلى وصف الحركة العلمية والأدبية فى هذه البلاد .

كان طبيعياً أن تكون الحركة العلمية والأدبية فى البلاد الجديدة التى فتحتها
الدولة الغزنوية فى الهند ضعيفة ؛ فقد بدأت تنشر فيها الإسلام والعربية ، فليس
من الطبيعى أن تخرج علماء . أما القسم الذى استولت عليه من الدولة السامانية
وغيرها مما تأصل فيه الإسلام من عهد بعيد ، فقد استمرت فيه الحركة فى العهد
الغزنوى كما كان فى العهد السامانى .

وكان من الغزنويين من شجع الحركة الدينية والعلمية والأدبية تشجيعاً

(١) أحسن التقاسيم : ٤٧٩ وما بعدها .

عظيما ، وخاصة محمود بن سبكتكين ؛ فقد سار على أسلوب العصر في أن يزين مملكته بالعلماء والأدباء ، كما يزين تاجه بالآلئ .

وقد احتاط به كثير من علماء الدين ، وجدّ أهل المذاهب الدينية والفقهاء في كسبه ، علماً منهم بأنه إذا اعتنق مذهباً ساد في الأقاليم الواسعة التي فتحها ؛ فالفاطمية في مصر وجهوا إليه « التاهرتي » الداعي ليدعوه إلى مذهب الفاطمية ، فوقف السلطان محمود على سر ما دعا إليه ، وعلم بطلان ما ندب إليه ، وأمر بقتل التاهرتي ، وأهدى بغلته التي كان يركبها إلى القاضي أبي منصور محمد بن محمد الأزدي شيخ هراة ، وقال : كان يركبها رأس الملحدين فليركبها رأس الموحدين (١) .

« وذكر إمام الحرمين أبو المعالي الجويني أن السلطان المذكور كان على مذهب أبي حنيفة ، وكان مولعاً بعلم الحديث ، وكانوا يسمعون الحديث من الشيوخ بين يديه وهو يسمع ، وكان يستفسر الأحاديث ، فوجد أكثرها موافقاً لمذهب الشافعي ، فوقع في خلده حكمه ، فجمع الفقهاء من الفريقين في مرو والتمس منهم الكلام في ترجيح أحد المذهبين على الآخر ، فوقع الاتفاق على أن يصلوا بين يديه ركعتين على مذهب الإمام الشافعي ، وركعتين على مذهب الإمام أبي حنيفة ، لينظر فيه السلطان ويتفكر ويختار ما هو أحسنهما ، وتولى الإمام القفال المروزي الشافعي ذلك ، فتحول السلطان من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي » (٢) .

ولما فتح إقليم خراسان ، وسائر إيران وما وراء النهر وسجستان ، وجه أدباؤها مديحهم إليه كما كانوا يوجهونه إلى السامانيين — فبديع الزمان الهمداني

(١) طبقات الشافعية : ١٦/٤ .

(٢) انظر الحكاية بطولها في ابن خلكان : ١١٦/٢ .

ينشئ القصائد في مدح محمود بن سبكتكين ، كالتى يقول فيها :

تعالى الله ماشاء وزاد الله إيماني
أفريدون في التاج أم الإسكندر الثاني
أم الرجعة قد عادت إلينا بسليمان
أظلت شمس محمودٍ على أنجم سامان
وأسمى آل بهرام عبداً لابن خاقان^(١)
إذا ماركب الفيلَ لحرب أو لميدان
رأت عينك سلطانا على منكب شيطان^(٢)
فمن واسطة الهند إلى ساحة جرجان
ومن قاصية السند إلى أقصى خراسان
على مقتبل العمر وفي مفتتح الشان
فيوما رسل الشاهِ ويوما رسل الخان^(٣)
فما يعزب بالغرب عن طاعتك اثنان
أيا والى بغدادٍ ويا صاحب همدانِ
تأمل مائتي فيلٍ على سبعة أركان^(٤)
يقلبن أساطين ويلعبن بشعبان^(٥)
ويأجوجُ وماجوج من الجند تموجان

(١) يريد بآل بهرام السامانيين لأنهم يقولون لأنهم من نسل بهرام جور كما تقدم ، ويريد بابن خاقان السلطان محموداً لأنه تركى ، وخاقان لقب لملك الترك .

(٢) يريد بالشیطان الفيل لشكله الهائل .

(٣) أى يوما عنده رسل ملوك العجم ، ويوما عنده رسل الترك .

(٤) يريد أركان الجيش ، وهى القلب والميمنة والميسرة والجناحان والساقة والمقدمة .

(٥) الضمير للفيئة أى ينتقلن على قوائم كالعمد ، ويلعبن بخرطوم كالشعبان .

وكذلك أنشأ أبو منصور الثعالبي القصائد في مدحه كقوله :
يا خاتم الملك ويا قاهر الـ أملاك بين الأخذ والصفح
عليك عين الله من فاتح للأرض مستولٍ على النُجج
رأياته تنطق بالنصر بل تكاد تملأ كتب الفتح
فاسعد بأيامك واستغرق الـ أعداء بالكبح وبالذبح
إلى كثير غيرها من الشعراء .

واختص به أديبان كبيران نثر وشاعر ، أولهما أبو القاسم أحمد بن حسن الميمندى ، وثانيهما كاتبه أبو الفتح البستي .

فالأول (الميمندى) : كان وزير محمود بن سبكتكين ، واشتهر بفصاحة القلم ، وعلو الهمم ، وسعة النظر ، وحسن السياسة . «وكان الوزير الذي قبله «أبو العباس» قليل البضاعة في الصناعة ، فانتقلت المحادثات مدة أيامه من العربية إلى الفارسية حتى كسدت سوق البيان ، وبارت بضاعة الإجابة والإحسان ، ولما سعدت الوزارة بأبي القاسم رفع ألوية الكتاب ، وعمر أفنية الآداب ، فأمر الكتاب أن يتحاشوا الفارسية إلا عن ضرورة من جهل من يكتب إليه ، وعجزه عن فهم ما يتعرب به إليه^(١) — فطارت توقيعاته في البلاد ولا شوارد الأمثال ، وأبيات المعاني من القصائد الطوال ، ففي كل ناد نداء بألحانها ، وفي كل مشهد شهادة باستحسانها» الخ^(٢) .

وأما أبو الفتح البستي ، فكان كاتب محمود بن سبكتكين وموضع سره ، ومستشاره في أمره — وهو أديب كبير له شعر جيد ، ونثر جيد ؛ فأما شعره فأكثره مقطوعات يعمد فيها إلى المعنى الدقيق ، فيصوغه في لفظ رشيق ، وأما نثره

(١) أى فهم ما يكتب إليه بالعربية . (٢) العتبى ٣/١٧٠ .

فواضح جميل فيه السجع والازدواج على طريقة عصره ، وهو في نثره يكثر من الأمثال ، وفي نظمه يكثر من الحكم . وقد قال الثعالبي : إن له طريقة خاصة به ، فهو « صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس ، البديع التأسيس ، وكان يسميه المتشابه ، ويأتي فيه بكل طريقة لطيفة » تتجلى هذه الطريقة في أمثاله من مثل قوله : « عادات السادات ، سادات العادات — الخيبة تهتك الهيبة — من كان عبد الحق فهو حرّ ، المنية تضحك من الأمنية — معنى المعاشرة ترك المعاصرة » الخ ، وله في هذا الباب الشيء الكثير .

كذلك تظهر طريقته في شعره من دقة المعنى وأناقة اللفظ ، مثل قوله :

لا يغرنك أني لئن المسّ فغربي إذا انتضيت حسام
أنا كالورد فيه راحة قوم ثم فيه لآخرين زكام

وقوله :

وقد يلبس المرء خز الثيا ب ومن دونها حالة مُضنيه
كمن يكتسى خدّه حمرة وعلتها ورمّ في الرّيه

وقوله :

تحمل أخاك على مابه فما في استقامته مطمع
وأني له خلق واحد وفيه طبائعه الأربع

ويظهر أن له ثقافة واسعة في علم النجوم استخدمها كثيراً في شعره .

وعلى الجملة فشعره ونثره يدلان على رقة ذوقه ، وسعة ثقافته في فروع من العلم مختلفة ، إلى استفادة كبيرة من مزاولته الكتابة للسلطين والأمراء ، واحتكاكه بالأحداث السياسية ، والمشاكل الاجتماعية ، وأكثر ما يتجلى ذلك في أمثاله وحكمه .

وقد غضب عليه ابن سبكتكين أخيراً فنفاه إلى بلاد الترك ، ومات بها سنة ٤٠٠ .

ثم كان مؤرخ الدولة الغزنوية الكبير ، وهو أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي . وقد سمي كتابه « اليميني » نسبة إلى لقب محمود بن سبكتكين ؛ فقد لقبه الخليفة القادر بالله « يمين الدولة وأمين الملة » . وقد ألف العتبي كتابه هذا في تاريخ الدولة الغزنوية ترجم فيه لسبكتكين ، وكيف أسس مملكته ، ثم تاريخ ابنه محمود ، والوقائع التي حدثت في أيامه الخ .

ولا يزال الكتاب يعدّ أكبر مصدر لتاريخ هذه الدولة — وقد صاغه في أسلوب أدبي مسجوع على نحو ما فعله معاصره أبو منصور الثعالبي ؛ ولذلك وقع بين الكتب الأدبية والتاريخية ، ولو كان نثراً مرسلالكان أجدى على التاريخ . ومع هذا فقد حاز شهرة كبيرة في عالم الأدب ، وخاصة في الأقاليم الفارسية ؛ قال السبكي : « وكان أهل خوارزم وما والاها يعتنون بهذا الكتاب ، ويضبطون ألفاظه أشد من اعتناء أهل بلادنا بمقامات الحريري »^(١) ، وغنى بشرحه كثير من الأدباء ، وطبع له في مصر شرح للميني الدمشقي .

وقد حكى الأستاذ براون في كتابه التاريخ الأدبي للفرس أن السلطان محمود علم أن في مجلس مأمون بن مأمون جماعة من رجال العلم والفلسفة منهم ابن سينا والبيروني ، وأبو سهل المسيحي ، وابن الخمار ، وأبو نصر العراق ، فكتب إليه أن أرسلهم ليشرّفوا بمجلسي ونستفيد من علمهم ، فجمعهم مأمون بن مأمون ، وقرأ عليهم كتاب السلطان ، فأبى ابن سينا وفرّ ، وقبل البيروني ، وابن الخمار ، والعراق^(٢) .

(١) طبقات الشافعية : ١٣/٤ . (٢) ٩٦/٢ .

وكان ذهاب البيروني إليه نعمة لا تقدر ، فهو الذي استغل فتوح السلطان محمود في الهند أحسن استغلال علمي ، وجعل ثروة الهند في الرياضة والفلسفة والإلهيات في يد العرب والفرنج ، ولا تزال كتبه التي ألفها العمدة الصادقة لكل من كتب عن الهند من شرقيين وغربيين ؛ وكان البيروني هذا درة في تاج الدولة الغزنوية كابن سينا في الدولة السامانية .

وهو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (نسبة إلى بيرون مدينة في السند) ولد سنة ٣٦٢ ، ونبغ في كثير من العلوم ، وخاصة الرياضة والفلك ، وأزهر في الأوساط العلمية ، وكانت — إذ ذاك — قصور الخلفاء والأمراء ومجالسهم تقوم مقام الجامعات اليوم . وقد عدد في إحدى قصائده الذين أكرموه لعلمه ، فقال :

مضى أكثر الأيام في ظل نعمة على رتب فيها علوت كراسيا
فأل عراقٍ قد غذوني بدرهمهم ومنصور منهم قد تولى غراسيا
وشمس المعالي كان يرتاد خدمتي على نفرة منى وقد كان قاسيا^(١)
وأولاد مأمون ومنهم عليهم تبدي بصنع صار للحال آسيا
وآخرهم مأمون رفه حالي ونوه باسمي ثم رأس راسيا^(٢)
ولم ينقبض محمود عنى بنعمة فأغنى وأقنى مُعْضِيَا عن مكاسيا^(٣)

أبو الفتح في دنياى مالك ربقتى فهات بذكراه الحميدة كاسيا^(٤)
فلا زال للدين وللدنيا عامرا ولا زال فيها للغواة مواسيا

(١) هو شمس المعالي قابوس بن وشمكير أمير طبرستان ؛ وقد تقدم ذكره .

(٢) مأمون وأولاد مأمون أمراء خوارزم .

(٣) محمود هو محمود بن سبكتكين .

(٤) أبو الفتح هو أبو الفتح البستي ، وقد تقدم .

ويعبده « سخاو » المستشرق الكبير — ناشر كتبه — أكبر عقلية علمية
ظهرت ، وكذلك رأى محمد بن محمود النيسابوري ، إذ قال : « إن له في الرياضيات
السبق الذي لم يشقَّ المخضرون غباره ، ولم يلحق المضرون المجيدون مضماره »
وفي الحق أنه كان من خير المثل العليا للعالم الخالص للعلم ، الواهب له حياته ،
يزهد في المال إلا ما يكتفيه حاجته ، صنف القانون السعودي للسلطان مسعود
فوصله السلطان بأموال طائلة فردها بعذر الاستغناء عنها^(١) .

« ولا يكاد يفارق يده القلم ، وعينه النظر ، وقلبه الفكر إلا في يومى النيروز
والمهرجان من السنة لإعداد ما تمس إليه الحاجة في المعاش » ، لا يميل الاستزادة من
العلم حتى حين يجود بنفسه — دخل عليه الفقيه أبو الحسن الولوالجي ، وهو يجود
بنفسه فسأله عن مسألة في توريث ذوى الأرحام ؛ فقال له الفقيه — إشفاقاً عليه
— : أفي هذه الحالة ؟ قال البيروني : أودع الدنيا وأنا عالم بها خير من أن أخليها
وأنا جاهل بها ! قال الفقيه : فلما خرجت من عنده سمعت الصراخ عليه^(٢) .
ويقول عن نفسه : « خصصت في غريزتي منذ حدثتني بفرط الحرص على اقتناء
المعارف بحسب السن والحال » . ويتعلم لغات مختلفة ؛ ففي كتبه عن العقاقير
والجواهر يذكر اسم الشيء بالعربية واليونانية والسريانية والفارسية والتركية ؛
ويقارن بين اللغات مقارنة دقيقة ، فيمدح اللغة العربية بحسن أداؤها للمعاني ،
ويفضلها على الفارسية ، وينقد الكتابة العربية ، كما ينقد مفاكرو اليوم نقداً
دقيقاً فيقول : إن كل أمة تستحل لغتها التي ألفتها واعتادتها ، واستعملتها في
مآربها . . . وأنا نفسي قد طبعت على لغة (يريد بها لغته الأصلية الخوارزمية)
لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب ، والزرافة في الأكواب ؛

(١) ياقوت : ٣٠٨/٦ . (٢) المصدر نفسه .

ثم انتقلتُ إلى العربية والفارسية ، وأنا في كل واحدة دخيل ولها متكلف ، والهجو بالعربية أحب إليّ من المدح بالفارسية ، وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتابَ عِلْمٍ نُقِلَ إلى الفارسي كيف ذهب رونقه ، وكسف باله واسودَّ وجهه ، وزال الانتفاع به ؛ إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية ، والأسمار الليلية «...» ثم ينقد الكتابة العربية فيقول : « وقد حل بأرضنا رومي ، فكنت أجيء بالحبوب والبذور والثمار وغيرها ، وأسأله عن أسمائها بلغته وأحررها ، لأن للكتابة العربية آفة عظيمة ، وهي تشابهُ صور الحروف المزدوجة فيها ، واضطرابها في التمايز إلى نقط المعجم ، وعلامات الإعراب التي إذا تركت استبهم المفهوم منها ؛ فإذا انضاف إليها إغفال المعارضة ، وإهمال التصحيح بالمقابلة — وذلك بالفعل عامٌّ في قومنا — تساوى وجود الكتابة وعدمه ، بل عِلْمٌ ما فيه وجهه ؛ ولولا هذه الآفة لكفى نقل ما في كتاب ديستوريدس المنقولة إلى العربي من الأسماء اليونانية إلا أننا لا نشق بها » الخ^(١) .

لقد اتصل البيروني بشمس المعالي قابوس بن وشمكير ، وألف له « الآثار الباقية » ، وهو يبحث في التواريخ التي كانت تستعملها الأمم ، والاختلاف في الشهور والسنين ، والتقاويم عند الأمم وأسماها ، إلى غير ذلك مما يسميه الفرج الآن علم الكرونولوجيا .

فلما اتصل بمحمود بن سبكتكين فاتح الهند ، وقف من الفتوح موقفاً عجيباً يذكرنا بالجمعية العلمية الفرنسية في حملة نابليون على مصر ، ولكن البيروني كان جمعية وحده ، فعكف على الهند يدرسها من جميع نواحيها : جغرافيتها وعلومها

(١) قطعة نقلها الأستاذ كرنكو عن كتاب الجماهر في معرفة الجواهر للبيروني — في مجلة Islamic Culture : ٥٣١/٦ .

ودينها بل وجواهرها ، وألف في ذلك الكتب الكثيرة مثل تاريخ الهند ،
والجواهر في الجواهر الخ ، وتعلم اللغة السنسكريتية ، وأخذ ينقل منها إلى
العربية ، ومن العربية إليها ، فنقل إلى السنسكريتية نظريات أقليدس ،
والجسطى في الفلك ، ونقل إلى العربية من السنسكريتية « باتا نجالي » .

وربما كان أعظم كتبه القانون المسعودى الذى ألفه للسلطان مسعود بن
محمود بن سبكتكين . وهذا الكتاب يبحث فى الرياضة والفلك وفلسفة الهند ،
ولما ينشر بعد .

وقد عمّر « البيرونى » عمراً طويلاً مباركاً ألف فيه كتباً كثيرة نشرت فى
رسالة له فى أول كتاب الآثار الباقية تدل على سعة آفاقه العلمية وعمقه فيها ؛
وقد مات بغزنة نحو سنة ٤٤٠ عن خمسة وسبعين عاماً .

كما كان من رجال الفلسفة فى بلاط السلطان محمود ، ابن الخمار ، وكان
نصرانياً ؛ وقد تقدم طرف من خبره .

كما كان فى بلاطه من أدياء الفرس : الفردوسى ، والعنصرى ، والعسجدى ،
والفرخى ؛ وقد نظم له الفردوسى قصبا من الشاهنامه ، كما نظم له الآخرون ،
وموضع ذلك الأدب الفارسى (١) .

(١) انظر ذلك فى مقدمة الشاهنامه للدكتور عبد الوهاب عزام .

الباب الخامس

بلاد المغرب

لما فتح المسلمون بلاد المغرب كلها كانوا يقسمونها إلى ثلاثة أقسام : مملكة إفريقية ، وهي المغرب الأدنى ، وقاعدتها القيروان ، وسمى أدنى لأنه أدنى إلى بلاد العرب ومركز الخلافة . والمغرب الأوسط ، وقاعدته تلمسان والجزائر ، والمغرب الأقصى ، وقاعدته فاس في مراکش .

وكان العرب يطلقون على سكان كل هذه البلاد البربر . وقد افتتحها المسلمون من أوائل عهد الفتح ، ولقوا في فتحها عناء كبيراً ، وبدلوا في ذلك ضحايا كثيرة من سنة ٢٦ إلى سنة ٨١ .

وكان أهل هذه البلاد لسذاجتهم مرتعاً خصيباً للدعاة الخارجين على الدولة ، ولكل داع بمذهب ديني جديد . قال ياقوت : « البربر أجنى خلق الله ، وأكثرهم طيشاً ، وأسرعهم إلى الفتنة ، وأطوعهم لداعية الضلالة ، وأصغاهم لتمق الجهالة ، ولم تخل أجيالهم من الفتن وسفك الدماء قط ... وكم من ادعى فيهم النبوة فقبِلوا ، وكم زاعم فيهم أنه المهدي الموعود به فأجابوا دعوته ، ولمذهبه انتحلوا ، وكم ادعى فيهم مذهب الخوارج فإلى مذهبه بعد الإسلام انتقلوا » ، وقامت به دول مختلفة متعاقبة ؛ فقد خرج إلى المغرب الأقصى إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب سنة ١٦٩ ، ونشر الدعوة به وأسلم على يده خلق كثير ، فبويع له بالخلافة سنة ١٧٢ ، وأسس دولة تسمت دولة الأدارسة استمرت إلى سنة ٣٧٥ فاكتسحتها دولة العبيديين (الدولة الفاطمية) .

وقام بنو الأغلِب بتونس ودولتهم تنسب إلى إبراهيم بن الأغلِب التيمي حكمت من سنة ١٨٤ . وقد عظمت دولتهم وأنشؤا أسطولا قوياً في البحر الأبيض فتحوا به صقلية ومالطة وسردينيا ، وكان عهدهم عصر سيطرة قوية على البحر ، واستمروا في الحكم إلى سنة ٢٩٦ حيث استولى عليهم العبيديون أيضا . ثم جاءت الدولة الفاطمية ، وكان منشؤها بالمغرب ، فبسطت سلطانها على جميع بلاد المغرب من حدود مصر إلى المحيط الأطلنطي مضافا إليها صقلية وسردينيا ؛ وقد بدأ ملكهم على يد أبي محمد عبيد الله المهدي سنة ٢٩٦ ، واستمر الملك في أولاده حتى تولى منهم المعز ؛ فلما انتقل إلى مصر سنة ٣٦٢ ، وتتابعت فتوحهم في الشام والحجاز واليمن ، وقوى سلطانهم فيها ، ضعف سلطانهم في المغرب .

فجاء بنو زيري الصنهاجيين بتونس والجزائر ، وأصلهم من البربر ، وكانوا عمالا للفاطميين ؛ ولما سار المعز إلى مصر استعمل على تونس يوسف بن بُلُكَيْن ، ثم استفحل أمر يوسف واستقل بمملكته ، وأسس دولة نسبت إليه استمرت من سنة ٣٦١ — سنة ٥٤٢ ، واشتهر من رجالها باديس بن يوسف ، وابنه المعز ، وهو أول من حمل الناس بإفريقية على مذهب مالك ، وكانوا قبلُ على مذهب أبي حنيفة ، ثم ابنه تميم بن المعز الشاعر الكبير ، وسيأتي ذلك .

ومن أول الفتح والمسلمون يعملون أقصى ما في وسعهم لإدخال البربر في الإسلام ، وتفقيهم وتحضيرهم ، وتولى على بلاد المغرب أمراء عظام عملوا في هذه السبيل أعمالا جليلة ؛ فحسان بن النعمان الغساني عامل عبد الملك بن مروان على إفريقية هو الذي دوّن الدواوين بها باللغة العربية ، وغزا موسى بن نصير المغرب ،

وكان معه سبعة وعشرون ألفاً من العرب ، واثناعشر ألفاً من البربر ، وأمر موسى العرب أن يعلموا البربر القرآن والفقہ . . . ثم أسلم بقية البربر على يد إسماعيل بن عبید الله بن أبي المهاجر سنة ١٠١ أيام عمر بن عبد العزيز^(١) . . . وقد أرسل عمر بن عبد العزيز عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب في الدين . وفي أيام هشام بن عبد الملك فرّ قوم من خوارج العراق إلى المغرب ، وبتوافيه مبادئهم ، فسرت دعوتهم في البربر ، وأعجبهم من تعاليمهم أن الخليفة ليس يجب أن يكون قرشياً ، فانتفض البربر على العرب يريدون أن تكون لهم دولة من أنفسهم ، وساعد على ذلك ما لقيه البربر أيام ولاية عبید الله بن الحبحاب من الظلم والفساد ، وكان خوارج المغرب على مذهب الأباضية والصفرية ، وكان لدعوة الخوارج أثر كبير في المغرب في إيجاد عصبية بربرية ضد العصبية العربية ، وكثر عدد الخوارج من البربر حتى بلغوا في الثورة أيام عمر بن حفص عامل الخليفة المنصوراً أكثر من أربعين ألفاً من الصفرية ، وخمسة وعشرين ألفاً من الأباضية^(٢) . وفي أيام هارون الرشيد ولى على المغرب يزيد بن حاتم بن المهلب بن أبي صفرة . قال ابن خلدون : « وفي أيامه انخفضت شوكة البربر ، واستكانوا للغلب وطاعوا للدين ، فحضر الإسلام بجرانه ، وألقت الدولة المضرية على البربر بكل كليها » . وفي عهد العباسيين أخذ أهل المغرب بمذهب أهل العراق (مذهب أبي حنيفة) في الأصول والفروع لأن ذلك المذهب يومئذ هو مذهب الخلفاء بالمشرق ، والناس على دين ملوكهم ، قال القاضي عياض : « ظهر مذهب أبي حنيفة بإفريقية ظهوراً كبيراً إلى قرب سنة أربع مائة ثم انقطع منها » ، وللمعز بن باديس الصنهاجي المتوفى في أواسط المائة الخامسة أثر كبير في ذلك ، فقد كان هو وأصحابه على مذهب الشيعة

(١) تاريخ ابن خلدون . (٢) انظر « الاستقصاء » : ٥٨/١ .

أخذاً من أسلافهم الفاطميين أيام استيلائهم على المغرب ؛ ثم قطع المعز دعوة الشيعة ، ودعا لبني العباس وحمل الناس على التمسك بمذهب مالك ، وكان مذهب مالك معروفاً في هذه البلاد من قبل ، ولكن أهله كانوا في محنة حتى نصرهم المعز هذا^(١) . وانتشر مذهب أهل السنة يزاحم الشيعة والخوارج .

هذه الأحداث العظمى من دخول العدد الكبير من العرب ، وفتح البلاد ، ونشر الإسلام واللغة العربية فيها ، وتثقيف الناس بالدين الإسلامي والأدب العربي ، وجعل البلاد جزءاً من المملكة الإسلامية يدخلها التجار من جميع الأجناس ، ويتبادلون مع أهلها المعاملات والسلع ، واختلاط العرب وغيرهم من المسلمين بأهل البلاد بالتزاوج والتوالد ، ووقوعها بين البلاد المتحضرة ، وخاصة بين مصر والأندلس ، وكثرة العلاقات والرحلات بين هذه البلاد بعضها وبعض ، كل هذا نقل بلاد المغرب من برابرة جفاة — كما يعبر ياقوت — إلى أمة لها مدنية ولها حضارة ولها ثقافة ، فلا عجب بعد إذا رأينا في البلاد حركة عقلية تؤرخ . ويكون لها شأن يذكر .

وقد اشتهرت بلدان في المغرب بتقدمها في الحضارة وال عمران والعلم والأدب كالقيروان والمهدية وتاهرت وسجلماسة وفاس .

فأما « القيروان » فقد أسسها عقبة بن نافع سنة خمسين . قال ابن خلدون : « اختط عقبة القيروان ، وبنى بها المسجد الجامع ، وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم ، وكان دورها ثلاثة آلاف وستمائة باع ، وكملت في خمس سنين ، وكان يغزو ويبيعت السرايا للاغارة والنهب ، ودخل أكثر البربر في الإسلام ، واتسعت خطة المسلمين ، ورسخ الدين » ، وهي عاصمة إفريقية^(٢) ، وفي القرن

(١) انظر الاستقصاء : ٦١/١ .

(٢) إفريقية كان يستعملها العرب فيما يشمل المغرب الأدنى والأوسط فيشمل طرابلس وتونس والجزائر .

الرابع كانت « مصرأ بهياً عظيماً قد جمع أصداد الفواكه ، والسهل والجبل - مع علم كثير - لا ترى أرفق من أهلها - ليس بينهم غير حنفي ومالكي مع ألفة عجيبة ، لا شغب بينهم ولا عصبية - فهي مفخرة المغرب ، ومركز السلطان ، وأحد الأركان ، أرفق من نيسابور ، وأكبر من دمشق ، وأجل من أصبهان ... جامعها بموضع يسمى السماط الكبير ... وهو أكبر من جامع ابن طولون بأعمدة من الرخام ، ومفروش بالرخام^(١) .

والمهدية وهي مدينة من أعمال تونس اختطها المهدي رأس الفاطميين ، بينها وبين القيروان مرحلتان ، أسسها سنة ٣٠٠ ، وفرغ منها سنة ٣٠٥ ، وهي على ساحل البحر الأبيض داخله فيه كهيئة كف متصلة بزند ، وسورها سوراً محكماً بأبواب من الحديد المصمت ، وجلب إليها الماء من قرية على مقربة من المهدية ، وجعل لها مرسى يسع ثلاثين مركباً .

وبنى على المرسى برجين بينهما سلسلة من حديد ! فإذا أريد إدخال سفينة أرسل الحراس أحد طرفي السلسلة حتى تدخل ثم يمدونها كما كانت ، ولما أتم ذلك قال المهدي : « اليوم أمّنت على الفاطميات يعني بناته ، وارتحل إليها وأقام بها ، ثم عمّر فيها الدكاكين ، ورتب فيها أرباب المهن ، كل طائفة في سوق ، فنقلوا إليها أموالهم ... وينسب إلى المهدية جماعة وافرة من العلماء في كل فن^(٢) ، وكان من إحدى قرى المهدية هانيء أبو ابن هانيء الأندلسي ، وفي المهدية هذه ولد المعز فاتح مصر ، ومؤسس القاهرة .

وتاهرت بلد كبير من أعمال الجزائر قد أحدثت بها الأنهار ، والتفت بها الأشجار ينتعش فيها الغريب ، ويستطيبها اللبيب ، رشيق الأسواق ، جيد

(١) المقدسي ٢٢٦ وما بعدها (٢) انظر معجم ياقوت في مادة المهدية .

الأهل ، قديم الوضع ، محكم الرصف ، عجيب الوصف ^(١) . . . وكانت قديماً عش الأباضية ؛ وقد أخرجت كثيراً من حفاظ الحديث ، وثقات المحدثين ^(٢) .

وسجلماسة قصبه جليلة على نهر بمعزل عنها ، شديدة الحر والبرد جميعاً ، صحيحة الهواء ، كثيرة التمر والأعناب والفواكه والحبوب ، كثيرة الغرباء . . . وهم أهل سنة . . . بها علماء وعقلاء ^(٣) . . . ولنسأهم يد صنّاع في غزل الصوف ، فهن يعملن منه كل حسن عجيب من الأزر ، تفوق القصب الذي بمصر . . . وأهلها من أغنى الناس وأكثرهم مالاً لأنها على طريق من يريد « غانّة » التي هي معدن الذهب ، ولأهلها جرأة على دخولها ^(٤) .

وفاس بلدان جليلان كبيران ، كل واحد منهما محصّن ، بينهما واد جرار عليه بساتين وأرحية ، قد استولى على أحدهما الفاطمي ، وعلى الآخر الأموي ، وكم ثم من حروب وقتال وغلبة ، كثير الخيرات ، قليل العلماء ، كثير الغوغاء ^(٥) ، وقال أبو عبيد البكري : « مدينة فاس مدينتان : عدوة القرويين ، وعدوة الأندلسيين ، وعلى باب دار الرجل ، رحاه وبستانه بأنواع الثمر . . . وهي أكثر بلاد المغرب يهوداً يختلفون منها إلى جميع الآفاق » ^(٦) .

ولما وصف المقدسي إقليم المغرب جملة عند زيارته فيما يهمنها من الناحية العلمية ، قال : « إنه إقليم كبير طويل . . . أهله لا يعرفون مذهب الشافعي إنما هو أبو حنيفة ومالك ، وكنت يوماً إذا كر بعضهم في مسألة ، فذكرت قول الشافعي فقال : اسكت من هو الشافعي ، إنما كانا بجرين أبو حنيفة لأهل المشرق ، ومالك لأهل المغرب ، أفنتركما ونشتغل بالساقية ؟ . . . وما رأيت فريقين أحسن اتفاقاً وأقل

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٨ . (٢) معجم ياقوت في مادة تاهرت

(٣) المقدسي : ٢٣١ . (٤) ياقوت في مادة سجلماسة .

(٥) المقدسي : ٢٢٩ . (٦) ياقوت في مادة فاس .

تعصباً منهم ... وسألت بعضهم : كيف وقع مذهب أبي حنيفة إليكم ، ولم يكن على سابلتكم ؟ قالوا : لما قدم وهب بن وهب من عند مالك ، وقد حاز من الفقه والعلوم ما حاز ، استنكف أسد بن عبد الله أن يدرس عليه ، لجلالته وكبر نفسه ، فرحل إلى المدينة ليدرس على مالك فوجده عليلاً ؛ فلما طال مقامه عنده قال له : ارجع إلى ابن وهب فقد أودعته علمي ، وكفيتكم به الرحلة ، فصعب ذلك على أسد ، ثم سأل : هل يعرف لمالك نظير ؟ فدل على محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ، فرحل إليه ، وأقبل محمد عليه إقبالا لم يقبله على أحد لما رأى منه من فهم وحرص ؛ فلما رأى محمد أنه قد بلغ مراده سيّبه إلى المغرب ، فلما دخلها اختلف إليه الفتيان ورأوا فروعا حيرتهم ، ودقائق أعجبتهم ، ومسائل ما طنت على أذن ابن وهب ، ففشا مذهب أبي حنيفة بالمغرب . . . وهناك القسم الثالث المذهب الفاطمي . . . ولهم تصانيف يدرسونها ، ونظرت في كتاب الدعائم ، فإذا هم يوافقون المعتزلة في أكثر الأصول ، ويقولون بمذهب الإسماعيلية ، ولهم فيه سرٌّ لا يعلمونه لكل أحد إلا من وثقوا به بعد أن يحفوه ويعاهدوه ، وإنما سموا باطنية لأنهم يصرفون ظاهر القرآن إلى بواطن وتفسير غريبة ، ومعان دقيقة ، وهذه الأصول مذاهب الإدريسية وغلبتهم بكورة السوس الأقصى^(١) .

وقد اشتهرت بلاد المغرب بالعباية بالحديث والفقه ، وتقصيرها في العلوم النظرية من الفلسفة وفروعها ؛ قال المقرئ التلمساني : « وأما ملكة العلوم النظرية فهي قاصرة على البلاد المشرقية ، ولا عناية لحذاق الترويين والإفريقيين إلا بتحقيق الفقه فقط ، ولم يزل الحال كذلك إلى أن رحل الفقيه ابن زيتون^(٢) »

(١) المقدسي : ص ٢٣٦ وما بعدها .

(٢) هو أبو القاسم بن أبي بكر الشهرستاني بن زيتون عاش من (٦٦٦ — ٧٣٠) .

إلى المشرق ، فلقى تلاميذ الفخر بن الخطيب ، ولازمهم زمانا حتى تمكن من ملكة التعليم ، وقدم إلى تونس فانتفع به أهلها»^(١) .

وقد اشتهر من المغرب كثير من الفقهاء وخاصة في الفقه المالكي ؛ من أشهرهم وأولهم أسد بن الفرات ، وهو نيسابوري الأصل قيرواني الدار ، أخذ عن مالك موطأه في المدينة ، ورحل إلى العراق فأخذ من أبي يوسف ومحمد صاحب أبي حنيفة ، وأخذ عن أبي يوسف الأسئلة التي كان يثيرها الحنفية ، ويضعون لها الأحكام على مقتضى مذهبهم ، فجردها أسد بن الفرات من أحكامها ، وعرضها على ابن القاسم ، وتلقى منه أحكامها على مذهب مالك ، أو اجتهاد ابن القاسم نفسه ، أو اجتهاد أشهب ، ودوّن ذلك كله في الكتاب المشهور المسمى بالمدونة ، فالمسائل المجردة مسائل الحنفية ، والأحكام أحكام مالك وصحبه ، وتشتمل على نحو ستة وثلاثين ألف مسألة .

وقد حمل أسد بن الفرات ذلك كله إلى القيروان ونشره بالمغرب ، وتولى القضاء بها زمنا ، كما تولى قيادة الجيش الذي فتح صقلية لبني الأغلبي ، وقد قتل وهو محاصر لسرقوسة سنة ٢١٣ .

ثم سُخّنون وهو عبد السلام بن سعيد ، عربي من تنوخ ، كان أبوه من العرب الذين نزلوا القيروان ، تعلم على علماء القيروان ، ورحل فأخذ العلم عن ابن القاسم وأشهب وابن وهب وغيرهم .

وقد أخذ مدونة أسد بن الفرات التي ذكرنا ، وأعاد قراءتها على ابن القاسم وصححها عليه ، وعاد بها إلى القيروان ، فأقبل عليها الناس في المغرب والأندلس

(١) أزهار الرياض : ٢٦/٣ .

وتولى قضاء إفريقية ، وجدّ في نشر مذهب مالك ، وتعلم عليه كثيرون حتى عد العلماء الذين تخرجوا عليه بنحو سبعمائة .

قال ابن جارث : « قدم سُحنون (إفريقية) بمذهب مالك ، واجتمع له مع ذلك فضل الدين والورع والعفاف والانقباض ، فبارك الله فيه للمسلمين ، ومالت إليه الوجوه ، وأحبته القلوب ، وصار زمانه كأنه مبتدأ قد انمحي ما قبله ، فكان أصحابه سُرج أهل القيروان ... ابنه عالمها وأكثرهم تأليفاً ، وابن عبدوس فقيهما ، وابن غافق عاقلها ، وابن عمر حافظها ، وابن جبلة زاهدنا ، وحمديس أصلهم في السنة وأعداهم للبدعة ، وسعيد بن الحداد لسانها وفصيحتها ، وابن مسكين أرواهم للكتب والحديث ، وأشدهم قاراً وتصاوفاً — كل هذه الصفات مقصورة على وقتهم » (١) .

وتوفي سنة ٢٤٠ عن ثمانين عاماً ، ولما مات رجعت القيروان لموته . واشتهر ابنه محمد بن سحنون بالتأليف الكثيرة في الحديث والفقه ، ومات سنة ٢٥٦ . ثم أبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن اللباد ؛ اشتهر بالحفظ والإتقان وسعة العلم ، وسعيه لنشر المذهب المالكي في المغرب ، وتكوين علماء حملوا علمه ، وأفادوا به الناس . وقد اضطره الفاطميون أيام سطوتهم لأنه لم يتابعهم في آرائهم ، فسجنوه ومات سنة ٣٣٣ .

ثم أبو ميمونة دراس بن إسماعيل الحراوي الفاسي ، وهو الذي أدخل فقه مالك في المغرب الأقصى بعد أن كان أهله على مذهب أبي حنيفة ، وكان من الحفاظ المعدودين ، والفقهاء المشهورين ، مات بفاس سنة ٣٥٧ .

ثم أبو محمد عبد الله بن أبي زيد النفري القيرواني ، إمام المالكية في زمنه

(١) الديباج ص ١٦٢ .

كثير التأليف واسع الفقه حتى سمي «مالك الصغير». رحل إليه العلماء للرواية عنه والتفقه به، له كتاب الزيادات على المدونة، وله مختصر المدونة توفي سنة ٣٨٦. وأبو عبد الله بن محمد بن محمود الهواري قاضي فاس وإمامها، يضرب به المثل في عدله وورعه، له تعليقات على المدونة، مات سنة ٤٠١ الخ.

والقاسبي علي بن محمد المعروف بابن القاسبي، كان واسع الرواية عالماً بالحديث ورجاله، فقيهاً مالِكياً أصولياً متكهماً مؤلفاً مجيداً، له كتاب المهدى في الفقه، والمنقذ من شبه التأويل، وكتاب المعلمين والمتعلمين، وكتاب رتب العلم وأحوال أهله الخ، مات بالقيروان سنة ٤٠٣.

واشتهر من فقهاء الحنفية محمد بن عبدون، ولى القيروان بعد سحنون، فاضطهد المالكية الخ.

ولما تغلبت الدولة الفاطمية نشرت فقهاء الشيعي ودعوتها الشيعية في المغرب، كما نشرتهما بعد في مصر، واضطهدت الفقهاء السنيين؛ وقد عرضوا التشيع على كثيرين منهم فأبوا فعذبوهم «وقد قتلوا في وقعة أبي يزيد مُحَمَّد بن كيداد خمسة وثمانين من نخبة علماء القيروان»^(١).

وعلى الجملة فقد كانت الحركة الدينية الفقهية في المغرب حركة قوية نشيطة أكثر ما خدمت فقه الإمام مالك.

والعلم النظري أو الفلسفة — وإن لم ينم كثيراً في بلاد المغرب — لم يخل ممن عكف عليه، فيذكر ابن أبي أصيبعة أن إسحاق بن عمران، كان بغدادى

(١) انظر الحجوى في تاريخ الفقه الإسلامى، ومحمد هذا نائر بربرى هاجم إفريقيا سنة ٣٣٣، وأخذها من يد الفاطميين؛ ثم ظفر به المنصور بن القائم العبيدى سنة ٣٣٦.

الأصل مسلم النحلة ، ودخل إفريقية في دولة زيادة الله بن الأغل ب ، وكان قد استجلبه (وإنما دعاه لحاجته إلى الطب ، والطب كان دائماً مقروناً بالفلسفة) ، وبه ظهر الطب بالمغرب ، وعرفت الفلسفة ، وكان طبيياً حاذقاً متميزاً بتأليف الأدوية بصيراً بتفرقة العلل ، أشبه الأوائل في علمه ، وجوده قريحته ، استوطن القيروان حيناً ؛ وقد ألف كتباً كثيرة كلها في الطب .

وقد تتلمذ له في القيروان إسحاق بن سليمان الإسرائيلي ، وأصله من مصر . ثم سكن القيروان ، ولازم إسحاق بن عمران ، وكان إسحاق بن سليمان مع فضله في صناعة الطب بصيراً بالمنطق ، متصرفاً في ضروب المعارف ، وعمر عمراً طويلاً إلى أن نيف على مائة سنة ، وقد ألف في الطب والحكمة والمنطق ، وقد خدم الأغالبة والفاطميين ، ومات نحو سنة ٣٢٠ .

وأجيب هؤلاء الوافدون من الأطباء أطباء من أهل البلاد نفسها ، مثل أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزار من أهل القيروان ، وقد اشتهر بالطب وخدمة العامة به . قالوا وكان عنده نحو خمسة وعشرين قنطاراً من كتب طبية وغيرها ، وكان إلى اشتغاله بالطب وتأليفه فيه مؤلفاً في التاريخ ، فألف في علماء زمانه ، وفي أخبار الدولة الفاطمية الخ .

ثم كان حظهم من الأدب كبيراً ، وقد مر المغرب بالدور الذي مرت به مصر عند اختلاط العرب بسكان البلاد . من وقوف الشعر إلا القليل الضعيف ، حتى إذا زالت روعة الفتح وكثر دخول العرب واتصلهم بالبربر ، وانتشرت اللغة العربية ، ووجد جيل نشأ في المربى العربي أخذ الشعر يجود ، وربما كان خير موطن له دولة الأغالبة ، ودولة الفاطميين ، ودولة الصنهاجيين (بنى

زيرى). ففي دولة الأغلبة كان كثير من أمراءهم أدباء ، فابراهيم بن الأغب
نفسه كان شاعراً ، فمن شعره يفخر بانتصاره :
ماسار عزمى إلى قوم وإن كثروا إلا رمى شعبهم بالحزم فانصدعا
ولا أقول إذا ما الأمر نازلى يا ليته كان مصروفا وقد وقعنا
حتى أجلبه قهراً ^(١) بمعتزم ^(١) كما يجلى الدجى بدرٌ إذا طلعا
قوما قتلتُ وقوماً قد نفيتهمُ ساموا الخلاف بأرض الغرب والبدعا
كللاً جزيتهمُ صدعا بصدعهمُ وكل ذى عمل يجزى بما صنعا
وكذلك حفيده أبو العباس بن أبى عقال بن إبراهيم ، وهو الذى ولى
سحنونا الفقيه قيادة الجيش الذى فتح صقلية ، ومن شعره يقول فى الفخر أيضا :
أنا الملك الذى أسمو بنفسى فأبلغ بالسمو بها السحابا

أظل عشيرتى بجناح عزمى وأمنحها الكرامة والثوابا
وأصطنع الرجال وأطبيهم وأغفر للمسىء إذا أنابا

أنا ابن الحرب ربتنى وليداً إلى أن صرت ممتلئاً شبابا
لعمر أيبك ما إن عبت قومى وما أخشى بقومى أن أعابا
بنيت لهم مكارم باقيات إذا ما صارت الدنيا خرابا

وقد اشتهر من شعراء هذه الدولة بكر بن حماد الزناتى ؛ وقد رحل إلى المشرق
فدخل البصرة والكوفة وبغداد ، ولقى بعض كبار شعرائها كدعبل الخزاعى
وأبى تمام ، وعاد إلى القيروان ، وغلب على شعره الوعظ والزهد كقوله :

(١) يريد بالمعتزم القرس الجامع .

قف بالقبور فناد الهامدين بها من أعظم بليت فيها وأجساد

أين البقاء وهذا الموت يطلبنا هيهات هيهات يا بكر بن حماد
بيننا ترى المرء في لهو وفي لعب حتى تراه على نعش وأعواد

فكلنا واقف منها على سفر وكلنا ظاعن يحدو به الحادي
في كل يوم ترى نعشاً نشيعه فرائح فارق الأجاب أو غاد^(١)

أما الدولة العبيدية فكان فيها الشعر أرق وأضح للأسباب التي ذكرناها
عند الكلام في الأدب الفاطمي في مصر ، وحسبها أن أنجبت في الشعر ابن هانيء
الأندلسي ؛ وقد نسب إلى الأندلس لإقامته هناك بعض الوقت ، وإلا فهو إفريقي
من قرية من قرى المهديّة ، وكان في شعره للمعز كما كان أبو الطيب لسيف الدولة ،
يصف حروبه وأسطوله ، ويدون وقائعه ، وينشر دعوته ، ويمجد خلاله ؛ وقد
تقدم ذكر طرف عنه ، وكان كذلك حوله شعراء ابتلعهم كما ابتلع المتنبي من حوله ،
فكان في بلاط المعز بالمهديّة من الشعراء أبو الحسن علي بن محمد بن الأيادي التونسي ،
وقد كان شاعراً كبيراً اتصل بالفاطميين أيام القائم والمنصور والمعز . وكذلك
علي بن عبد الله التونسي ، ومقداد بن الحسن الكتامي ، وابن هانيء نفسه يفخر
على هؤلاء الشعراء وأمثالهم ، ويستصغر منزلتهم منه فيقول :

أرى شعراء الملك تنحت جانبي وتنبو عن الليث الخاض الأوارك^(٢)

(١) انظر المنتخب المدرسي من الأدب التونسي للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب .

(٢) تنحت جانبي : تطعن في ، والخاض : الحوامل من النوق ، والأوارك التي ترعى الأراك ، ورعى الأراك من دلائل الضعف ، يقول إن الشعراء يطعنون في ، وهم أمامي كالنوق الضعيفة أمام الأسد .

تخب إلى مِيدان سَبَقِ بطاؤها وتلك الظنون الكاذبات الأوافك
رأتني حماما فاقشعرت جلودها وإني زعيم أن تلين العرائك
تسبى قوافيهما وجودك محسن وتنشد إرنانا ومجدك ضاحك^(١)
وتُجدي وأكدي والمناديح جمة فما لي غنى البال وهي الصعالك^(٢)
أبت لي سبيل القوم في الشعر همة طموح ونفس للدينة فارك^(٣)
وفي الدولة الصهاجية كان العمران قد استحکم ، والصلة بين المغرب وبين
الأندلس ومصر والعالم الإسلامي كله قد تمكنت ، والحضارة قد ازدهرت .

قال ابن خلدون : « كان ملكهم أضخم ملك عرف للبربر بأفريقية
وأترفه وأبدخه » ، فرقبت العلوم والفنون ، ومنها الأدب .

ومن أشهر ملوكهم المعز بن باديس قالوا : « إنه اجتمع بمحضرتة من أفاضل
الشعراء ما لم يجتمع إلا باب الصاحب بن عباد » وذكر أكثرهم ابن رشيق في
كتابه « أتمودج الزمان في شعراء قيروان » .

وكان من الأمراء الصهاجيين شعراء مجيدون ، من أشهرهم تميم بن المعز بن
باديس — وهو غير تميم بن المعز المصري — ملك إفريقية وما والاها ، وكان
محباً للعلماء والشعراء مقرراً لهم ، ومن شعره :

إن نظرت مقلتي لمقلتها تعلم مما أريد نجواه

كأنها في الفؤاد ناظرة تكشف أسراره وفخواه

وكان من شعرائه الحسن بن رشيق وغيره .

وقد نبغ في هذه الدولة كثير من الشعراء والأدباء مثل عبد الكريم النهشلي ،

(١) الإرنان : رفع الصوت بالبكاء ، وهذا علامة الضعف .

(٢) يقول : يعطون الكثير وأعطى القليل ، ومع ذلك أنا غني القلب ، وهم صعاك .

(٣) فارك : كارهة .

وكان شاعراً أديباً ناقداً ، عارفاً باللغة خبيراً بأيام العرب وأشعارها . مات سنة ٤٠٥ ؛
وقد أكثر ابن رشيقي من النقل عنه في العمدة ، وذكر أن له كتاباً في الشعر .
ومثل علي بن أبي الرجال رئيس ديوان الإنشاء في الدولة الصنهاجية ، واشتهر
بالكرم وتشجيع الأدب ، وهو الذي رتب المعز بن باديس وحبب إليه الأدب ،
وهو الذي ألف له ابن رشيقي كتاب « العمدة » ، وألف له ابن شرف « رسائل
الانتقاد » . مات سنة ٤٢٥ .

ومثل أبي عبد الله محمد بن جعفر القزاز القيرواني كان إماماً في اللغة ، ألف
كتاب « الجامع » في اللغة ، وهو يقارب التهذيب للأزهري — وهو شيخ ابن
رشيقي ، وهو ينقل في كتابه العمدة أقواله وما جرى له في مجلسه من أدب ،
وكان يطرح على تلاميذه عويصات المسائل ويكلفهم حلها . مات سنة ٤١٢^(١) .
وأبو عبد الله عبد العزيز بن أبي سهل الخشني الضري ، وهو كذلك من
شيوخ ابن رشيقي في الأدب . قال عنه : « كان مشهوراً بالنحو واللغة جداً ، مفتقراً
إليه فيهما ، بصيراً بغيرهما من العلوم . وكان شاعراً مطبوعاً ، سلك طريقة أبي العتاهية
في سهولة الطبع ولطف التركيب ، ولا غناء لأحد من الشعراء الخذاق عن العرض
عليه والجلوس بين يديه . مات سنة ٤٠٦ ، وقد زاد على السبعين »^(٢) .

ومن كبار المؤلفين في الأدب إبراهيم بن علي الحضري القيرواني ، وهو
صاحب كتاب زهر الآداب ، وكتاب المصون في سر الهوى المكنون ؛ قال فيه
ابن رشيقي : « كان شبان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه ، ورؤس
عندهم ، وشرف لديهم ، وسارت تأليفاته ، واثالت عليه الصلات من الجهات ،
وله ديوان شعر^(٣) . مات سنة ٤١٣ .

(١) ترجم له باقوت وابن خلكان . (٢) انظر ابن رشيقي اليميني .

(٣) ابن خلكان .

وكتابه زهر الآداب يدل على ذوق في الأدب رقيق ، واطلاع واسع على ما أنتجه الأدياء من الجمل الروائع ، والرسائل البليغة .

وله ابن خالة هو أبو الحسن علي بن عبد الغنى الحضرمي القيرواني ، كان عالماً بالقراءات ، وشاعراً ظريفاً ، وهو صاحب القصيدة المشهورة :

يا ليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده

رقد الشمار فأرقه أسف للبين يردده

وقد حازت شهرة كبيرة ، وعارضها كثير من الشعراء في مختلف الأمصار

إلى عصرنا هذا .

وظهرت في الغرب حركة جيدة في النقد الأدبي ، وردت أول الأمر تنقفاً في كتب الأدب عندهم كقول عبد الكريم النهشلي : « قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد ، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر ، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ، ونجد الشعراء الخذاق تقابل كل زمان بما استجد فيه وكثر استعماله عند أهله ، بعد ألا تخرج من حسن الاستواء وجد الاعتدال وجودة الصنعة ، وربما استعملت في بلد أفاظ لا تستعمل كثيراً في غيره ، كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في أشعارهم ونوادير حكاياتهم » الخ .

ومثل قول إبراهيم الحضرمي : « الشعر مطبوع ومصنوع : فالمطبوع الجيد الطبع مقبول في السمع ، قريب المثال ، بعيد المنال ، أنيق الديباجة ، رقيق الزجاجة ... يطرد ماء البديع على جنباته ، ويجول رونق الحسن في صفحاته ... وحمل الصانع شعره على الإكراه في العمل بتنقيح المباني دون إصلاح المعاني ، يعني آثار الصنعة ، ويظفي أنوار الصبغة ، ويخرجه إلى فساد التعسف ، وقبح

التكلف . . . وأحسن ما أجرى إليه ، وأعول عليه هو التوسط بين الحالين ،
والمنزلة بين المنزلتين من الطبع والصنعة .»

ثم ارتقى هذا حتى صار موضوعاً قائماً بنفسه ، وتوجت هذه الحركة بكتاب
العمدة لابن رشيق ، وأعلام الكلام لابن شرف^(١) ، وهما من خير الكتب
في النقد الأدبي .

وقد نقل ابن رشيق في كتابه العمدة فن النقد من نقد شاعر خاص أو شعراء
معينين — كما فعل صاحب الموازنة والوساطة — إلى نقد للشعر عامة ؛ وقد قال
فيه ابن خلدون : « وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وأعطاه حقه ،
ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله » .

وبعد العمدة ألف ابن رشيق كتابه « قراضة الذهب » ، وأكثر ما يتعرض
فيه للسرقات الشعرية ، ومتى تجوز ، ومتى لا تجوز ، وأين تحسن وأين لا تحسن^(٢) ،
كما وضع ابن شرف كتابه « أعلام الكلام » ، وموضوعه مقامة طويلة كقمامات
الحريري ، تعرض بطلها لمشهورى الشعراء من المتقدمين والحديثين يصف أحدهم
في قول قصير ، ويبين مزيائه وعيوبه في إيجاز^(٣) .

وقد كان كلاهما من القيروان ، وكانا من ندماء المعز بن باديس وشعرائه
وجلسائه ؛ ولما أغار الهلالية القادمون من مصر على القيروان فرا وقالوا القصاصد
في رثاء القيروان . وذهب ابن رشيق إلى صقلية حيث مات بها سنة ٤٥٣ ،
وذهب ابن شرف إلى الأندلس ومات بها سنة ٤٦٠ .

وقد كانا صديقين ثم دبت بينهما الخصومة فتساجلا في الأدب كتلك

(١) نشر الأستاذ عبد العزيز الميمنى كتاب الننف من شعر ابن رشيق وابن شرف ،
كما وضع رسالة قيمة في ابن رشيق وابن شرف فاظرهما .
(٢) وقد طبع في مصر . (٣) طبع كذلك في مصر .

المساجلة التي كانت بين الخوارزمي ، و بديع الزمان الهمداني .

ومعجب أمر المسلمين في هذه العصور ، فما استقر قرارهم في المغرب حتى أنشئوا أسطولا قويا في البحر الأبيض فتحوا به صقلية وسائر الجزائر حولها ، وكان فتح صقلية على يد الأغلبة ؛ وقد كان بها ثلثمائة ونيف وعشرون قلعة ، ولكنها لم تثبت أمام قوة المسلمين .

قال ابن خلدون : « كان فتح صقلية أيام زيادة الله الأول بن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا . . . ثم قال : وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على بحر الروم (البحر الأبيض) من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبيل أساطيلهم بشيء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ؛ فكانت لهم القامات المعلومات من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل مثل : ميورقة ومنورقة وسردانية وصقلية ومالطة وأقريطش وقبرص . . . والمسلمون خلال ذلك قد تغلبوا على الأكثر من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة ، والعساكر الإسلامية تميز البحر في أساطيلهم من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها . . . وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الأفرنجية والصقالبة لا يعدونها — وأساطيل المسلمين قد خربت عليهم ضراء الأسد بفرسته » .

ولما فتحوا صقلية فسرعان ما نشروا دينهم وعلمهم ولغتهم ؛ بل إن قائد الجيش في الفتح كان هو أسد بن الفرات العالم المالكي المشهور ، ومعه جماعة من وجوه أهل العلم في تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل ، وما زال يفتح في قلاعها

حتى أصيب بجروح بالغة مات متأثراً بها ، فآتم خلفاؤه الفتح . ثم « صار أكثر أهلها مسلمين ، وبنوا بها الجوامع والمساجد »^(١) ، وانتشر بها العلم ، وأصبحنا نسمع عن كثير من العلماء ينسبون إليها ؛ فيقولون : فلان الصقلي ، يرحل إليها علماء المسلمين يعلمون الدين واللغة ، والأدباء يشعرون ، والخلعيون يقولون في الخمر ورهبان الأديار وبناتها . فنجد المقرئى — مثلاً — يقول : محمد بن الحسن بن علي الكركنتى الفقيه المالكي تفقه بصقلية وإفريقية ، وقدم الإسكندرية — وكر كنت مدينة بصقلية .

والعماد الأصفهاني يعقد باباً طويلاً في القسم الثاني من الجزء الحادى عشر في ذكر محاسن فضلاء جزيرة صقلية ، ويروى فيه شعراً صقلياً بعضه على أوزان جديدة ، كقول أبى الحسن بن أبى البشر فى راقصة :

وغزالٍ مشنّفٍ قد رثى لى بعد بُعدى

لَمَّا رأى ما لقيت

مثل روض مفوّفٍ لا أبالى وهو عندى

فى حبه إذ ضنيت

وجبه البدر طالعاً تاه لما حاز ودى

فانى قد سقيت الخ

ولا ننس القائد الكبير جوهرأ الصقلي فاتح مصر ، وبنى الأزهر ، ومدوخ المغرب كله لمولاه المعز ، وهو غلام رومى الأصل من مواليد صقلية ، صار مولى للمنصور ثم للمعز ، وكان من أكفأ القواد الذين عرفهم التاريخ . بل نجد من النحاة محمد بن خراسان الصقلي ، كان مولى لبني الأغلب ، ورحل إلى مصر ،

(١) معجم ياقوت فى صقلية .

وتعلم النحو على أبي جعفر النحاس ، وروى عنه مصنفاته ، وعاد إلى صقلية يدرس
النحو ، ومات بها سنة ٣٨٦ عن ست وسبعين سنة (١) .
ومحمد بن علي بن الحسن بن عبد البر الصقلي التميمي اللغوي ، ولد بصقلية ،
ورحل عنها في طلب العلم ثم عاد إليها ، وكان موجوداً سنة ٤٥٠ ، وهو أستاذ
ابن القطاع الصقلي .

وفي العصر المتأخر عن عصرنا هذا أخرجت صقلية ابن حمديس الصقلي
الشاعر المشهور ، والإمام المازري المحدث الكبير صاحب كتاب العلم بفوائد
كتاب مسلم ، وهو منسوب إلى مازر Mazzard بلدة بصقلية ، والإدريسي
الجغرافي الشهير ، وابن ظفر الأديب مؤلف كتاب سلوان المطاع ، وابن القطاع
أحد أئمة الأدب واللغة والنحو والعروض ، ومؤلف « الدرّة الخطيرة » ، والختار
من شعراء الجزيرة « الخ .

(١) انظر بقية الوعاة للسيوطي .

الباب السادس

جزيرة العرب

أسلفنا في « فجر الإسلام » ما كان في الحجاز من علم وفن وأسباب ذلك .
والحجاز قطر قلما يعتمد على نفسه في العيش لقله زرعه وتناجه . فلما كان
موطن الخلافة أيام الخلفاء الراشدين كانت تأتيه الأرزاق من البلاد المفتوحة
كمصر والعراق ، ولما انتقلت الخلافة إلى دمشق في العهد الأموي ظلت الخيرات
تنهال على الحجاز لكثرة الفتوح وكثرة الغنائم ، وكانت عصبية الأمويين عصبية
عربية تقر بالسيادة للعرب ، فكانت ترعى جزيرة العرب وسكانها ، وكان
الفاتحون من العرب ، وكثير من غنائمهم يتسرب إلى بلادهم ، ولهم ديوان تقيد فيه
أسمائهم وعطاياهم . لذلك سعدت الجزيرة وأنتجت علما وفنا .
فلما جاءت الدولة العباسية تغير الوضع فأصبح زمام الأمور أكثره في
يد الفرس ، والعمال أكثرهم من الفرس .
وزاد الأمر سوءا في الحجاز خروج العلويين به والتفاف الناس حولهم وإرسال
الخلفاء العباسيين من ينكل بهم ؛ ففي عهد المنصور خرج محمد بن عبد الله بن
الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ومعه أشراف بني هاشم وأعيان « المدينة »
فقرزل عاملها من قبل المنصور ، وولى عليها عاملا من قبله ، فبعث إليه المنصور جيشا
كبيرا قاتله وقتله ، وقتل كثيرا ممن معه .
وفي أيام الهادي خرج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي
طالب واجتمع حوله آل أبي طالب وكثير غيرهم ، وأرسل الهادي جيشا فكانت

وقعة « وِجَّ » بين مكة والمدينة ، ثم قتل الحسين وكثير من معه . وهكذا تتابعت حوادث خروج العلويين ، وثورات الحجاز ، وفي كل مرة ينكل العباسيون بهم وتزيد كراهيتهم وقبض يدهم عنهم .

فأخذت جزيرة العرب يقل شأنها شيئاً فشيئاً بغلبة العنصر الفارسي ، وإبعاد العنصر العربي ، وقلة المدد الذي يرسل إلى الجزيرة .

ولما جاء المعتصم وتغلب العنصر التركي كان الأمر أسوأ ، فقد « كتب إلى عماله في الأطراف بأسقاط من في دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم ، ففعلوا وانحط شأن العرب من ذلك الحين » (١) .

واستمر هذا العبث بالجزيرة ، ففي خلافة المستعين أحمد بن المعتصم تغلب اسماعيل بن يوسف من أولاد علي بن أبي طالب على مكة ، فهرب عاملها من قبل الخليفة ، وقتل اسماعيل هذا الجند وجماعة من أهل مكة ونهب منزل العامل ، ومنازل أصحاب السلطان ، وأخذ من الناس نحو مائتي ألف دينار ، وأخذ كسوة الكعبة وما في الكعبة وخزائنها من الأموال ، ونهبت مكة وأحرق بعضها ، ثم خرج منها إلى المدينة فتواري عنه عاملها ، ثم رجع إلى مكة فحصرها حتى مات أهلها جوعاً وعطشاً ، وبلغ الخبز ثلاث أواق بدرهم ، ولقي أهل مكة منه كل بلاء . ثم سار إلى جدة فحبس عن الناس الطعام ، وأخذ الأموال التي للتجار وأصحاب المراكب ، ثم وافى الموقف بعرفة فأفسد فيه كثيراً ، وكان ذلك سنة ٢٥١ (٢) .

وجاء القرامطة فأفسدوا في البلاد ، وزحفوا على مكة واستولوا عليها وارتكبوا أشنع الفظائع ، ونهبوا الحجاج ومنعوا من زيارة البيت الحرام ، وفي سنة ٣١٢ نكلوا بالحجاج أعظم تنكيل ونكبوا العرب أعظم نكبة شهدتها الجزيرة ،

(١) خطط المقرئ . (٢) المنتقى في أخبار أم القرى ص ١٩٥ / ٢٤٥ .

وكان عدد الذين قتلهم القرامطة في تلك السنة من الحجاج وفي بيت الله وشوارع مكة وضواحيها ثلاثة آلاف ، غير الذين ماتوا جوعا ، ونهبوا من الأموال آلاف الآلاف .

وفي سنة ٣١٤ وسنة ٣١٥ وسنة ٣١٦ لم ينجح إلى مكة من العراق أحد للخوف من القرامطة^(١) ، وكان أبو طاهر القرمطي يقول :

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا

ونزعوا الحجر الأسود ، وبقي في إحدى زوايا « الاحساء » إلى سنة ٣٣٩ ، حيث رده القرامطة بأمر المنصور الفاطمي — والخلافة في بغداد عاجزة عن إخضاعهم .

كل هذه الأحداث وأمثالها أضعفت شأن جزيرة العرب وجعلتها في شبه عزلة وأخرتها ماديا وعلميا ، حتى إن المقدسي لما زارها في القرن الرابع وصفها بالفقر وقلة العلم .

ووصف مذاهبهم الدينية فقال : « إن مذاهبهم بمكة وتهماة وصنعاء سنة ، ونواحي صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراة (خوارج) غالبية ، وهجر وصعدة شيعية .. وشيعية عمان وصعدة وأهل السروات وسواحل الحرمين معتزلة ... والغالب على صنعاء وصعدة أصحاب أبي حنيفة ، والجوامع في أيديهم ، وفي نواحي نجد اليمن مذهب سفيان .. والعمل بهجر على مذهب القرامطة ، وبعمان داودية (على مذهب أهل الظاهر) لهم مجالس » .

ووصف لغتهم فقال : « وأهل هذا الإقليم لغتهم العربية إلا بصحار فإن نداءهم وكلامهم بالفارسية ، وأكثر أهل عدن وجدة فرس ... وأهل عدن يقولون

(١) أخبار مكة طبعة وستنفيلد : ٢٤٥/٢ .

لرجليه رجلينه ويديه يدينه وقس عليه ... وجميع لغات العرب موجودة في
بوادي هذه الجزيرة ، إلا أن أصح لغة بها لغة هذيل ، ثم النجديين ، ثم بقية
الحجاز إلا الأحقاف فإن لسانهم وحش» (١) .

ومع هذا فقد كان في الحجاز حركة دينية في الفقه والحديث لا بأس بها
بفضل تتابع المحدثين الذين كانوا يروون أقوال النبي وأعماله محدثا عن محدث .
وقد كان هذا الإقليم أخصب الأقاليم في هذا الموضوع ، فظل علمه يتوارث ،
ثم كانت هذه البلاد المقدسة تأوي إليها أفئدة كثير من العلماء يحصّون العلم
ويفيدونه ويعتزون بجوار الحرم الملوكي أو قبر الرسول ، ويفضلون الإقامة فيهما
فيكونون مصدر علم . وقد رأينا في تراجم كثير من المحدثين أن كان في برنامجهم
الرحلة إلى الحجاز ورواية الحديث عن ساكنيه ، وإطالتهم الإقامة فيه ، وكان
للإمام مالك وتلاميذه من بعده فضل كبير في الحركة الفقهية .

فكان في مكة أمثال أبي بكر عبد الله بن الزبير الحميدي الأسدي المكي
أحد شيوخ البخاري الذين أخذ عنهم في مكة . قال يعقوب بن سفيان فيه :
ما لقيت أنصح للإسلام وأهله منه . مات بمكة سنة ٢١٩ وكثر تلاميذه في مكة
من روا عنه وأخذوا علمه

كما نبغ بالمدينة أبو اسحاق إبراهيم بن المنذر بن عبد الله الأسدي ، أحد
كبار علماء المدينة ومجتهديها ، مات سنة ٢٣٦ . وتتابع بعده تلاميذه . ويطول
بنا القول لو عددنا المحدثين المكيين والمدنيين في القرن الثالث والرابع الهجري .
فهم كثير ، منهم من كان من الحجاز نفسه ومنهم الراحل إليه المتوطن فيه .
ثم انتشر في اليمن فقه الزيدية ، وهم أتباع زيد بن علي زين العابدين

(١) أحسن التقاسيم : ٩٤ وما بعدها ، والعبارة في بعض المواضع مضطربة .

ابن الحسين بن علي بن أبي طالب؛ ومذهبهم في الأصول قريب من مذهب الاعتزال، فهم يقولون بالعدل والتوحيد كالمعتزلة، وبوجوب الخروج على الظلمة كالخوارج، ولهم في الفقه اجتهاد يخالفون في بعض الأحكام للمذاهب الأربعة، وقد اشتهر منهم أئمة في اليمن، اجتهدوا على أصول مذهبهم كالإمام يحيى بن الحسين الزاهد الرسى المتوفى سنة ٢٩٨، والإمام الناصر للحق، ألف كتباً على مذهب الزيدية، والقاسم بن إبراهيم العلوي صاحب صعدة المتوفى سنة ٢٨٠، وأبو الحسن الصليحي ملك اليمن سنة ٤٥٥، وكان فقيهاً زيدياً كبيراً، وقتل سنة ٤٧٣. وعلى الجملة فهم من قديم كان كثيراً ما يجمع ملكهم بين تولى أمور الدولة والاجتهاد الديني على المذهب الزيدي.

وقد بقيت الأندلس، وسفرد لها جزءاً خاصاً بها إن شاء الله.

وقد كان من أهم مظاهر الحركة العلمية التي تدعو إلى الإعجاب في هذا العصر الرحلات، فقد أصبح تقليداً للعالم أن يرحل ويلاقي العلماء ويأخذ منهم ويروى عنهم مع عناء الأسفار وفقر العلماء غالباً. وقد بلغ الغاية في ذلك الحدوث، فقد كانوا حركة دائمة يرحلون من أقصى الأرض إلى أقصاها لطلب الحديث وجمعه. وما يشتهر عالم في بلدة بالحديث وضبطه وجمعه حتى يرحل إليه العلماء من كل صوب. خذ لذلك — مثلاً — محمد بن إسماعيل البخاري يرحل من بخاري إلى مدن خراسان إلى الجبال إلى العراق ومدنه كلها إلى الحجاز إلى الشام إلى مصر، وفي كل مدينة يتحرى حالة علماءها، ويأخذ عن وثق بهم، وليس البخاري إلاً مثلاً واحداً من أمثلة كثيرة لا تحصى،

فقل أن تجد محدثاً كبيراً إلا رحل هذه الرحلات وأمثالها حتى قد يقطع المحدث المسافات الواسعة لرواية حديث واحد وضبطه . وتقرأ تراجم العلماء في كتاب كتارنج بغداد ، فيأخذك العجب من نشاط العلماء ورحلاتهم واحتقارهم لمشاق السفر ومتاعب الفقر في سبيل العلم ومعرفتهم كل مصر وكل بلدة ومن فيها من العلماء وما فيها من حديث .

وليس الأمر مقصوراً على المحدثين ؛ فهكذا كان الشأن في كل علم وكل فن . فأبو جعفر النحاس يذهب من مصر إلى العراق ليأخذ النحو عن أهلها ، وابن بابشاذ المصري يذهب إلى بغداد في تجارة الجواهر ، ويأخذ النحو عن رجالها ، ومن بالقيروان يذهب إلى المدينة ليأخذ عن تلاميذ مالك ، وإلى العراق ليأخذ عن تلاميذ محمد بن الحسن ، ويسمع الأدباء والشعراء بسيف الدولة فيكون في بلاطه انخوارزمي وأبو علي الفارسي وابن جني الموصلي ؛ والمتنبي يوماً يجلب ويوما بمصر ويوما بالعراق ويوما بشيراز ؛ وابن بطالان الطيب البغدادي يناظر ابن رضوان المصري فإذا طالت المناظرة رحل إليه من بغداد إلى مصر .

وإذا فتحت بلدة فسرعان ما يذهب إليها العلماء في الفقه والأدب يعلمون أهلها الدين واللغة والأدب ، حتى تصبح بعد قليل مركزاً من مراكز الإنتاج العلمي ، كالذي رأينا في صقلية ، تُفتح فيرحل إليها العلماء وتدوى فيها حركة العلم ، وبعد قليل تراها مركز إنتاج علمي وأدبي عجيب .

والحكومات من جانبها تنشئ الطرق ، وتقيم الرباطات والخافر لحاجتها الشديدة إلى تنظيم البريد ، وتسهيل التجارة ؛ فكان العلماء في رحلاتهم ينتفعون بهذه المزايا ، كما ينتهزون الفرص لخروج القوافل إلى الحج ، فينتظمون في سلك الحجاج ، ويرحلون إلى البلدان التي يريدونها .

وكانت الرباطات كثيرة في مراحل المسافرين ، ويذكر الاصطخري أنه كان في بلاد ما وراء النهر ما يزيد على عشرة آلاف رباط ، في كثير منها إذا نزل النازل قدم له طعامه ، وعلف دابته إن احتاج لذلك .

وقد زودت هذه الرباطات بالماء لحاجة المسافر إليه ، وُعِدَّت إقامة الرباطات وتزويدها من الأعمال الخيرية التي يقف عليها المسلمون بعض أوقافهم . وفي بعض المراحل تقوم الأديار مقام الرباطات ، فينزلها بعض الرحلين ، ويجدون فيها راحتهم ومطالبهم ، وأكثر ما استغلها الأدباء لمرحهم وشغفهم بجمهورها المعتقة ، وولوعهم بالجمال .

كل هذا جعل المملكة الإسلامية من مشرقها إلى مغربها كأنها وحدة مهما تعدد ملوكها وحكوماتها ، فالعالم والأديب والفنان والتاجر لا يعبثون بالحدود التي ترسمها السياسة ، ويرون أن اللغة والدين تكسر حواجز السياسة . وكان لهذا أثره الكبير في العلم والأدب ، ومن أوضح هذه الآثار ضعف الشخصية الإقليمية ، فليس علم مصر وأدبها متميزاً كثيراً عن علم العراق وأدبه ، ولا عن علم خراسان وما وراء النهر والسند وأدبها ، كلها متقاربة ، لأن رحلة العلماء وشدة الاتصال قربت بين الفروق ، وما يظهر امتياز في ناحية إلا استمدته الناحية الأخرى وحذقتة واستغلته ، قالفقه المالكي في المدينة ، والفقهاء الحنفي في العراق يؤلف بينهما أمثال محمد بن إدريس الشافعي ، وأسد بن الفرات المالكي ، والنحو العراقي يحمله إلى مصر وإلى المغرب الراحلون إلى العراق والمتعلمون على أساتذته ، والعائدون بعد ذلك منه ، والشعراء على أبواب الملوك والأمراء ينتقلون من بلاط إلى بلاط فيوحدون مناهج النظم ، والوراقون وتجار الكتب يحملون كتاب الأغاني ورسائل إخوان الصفا من العراق إلى الأندلس ، ومكاتب مصر ومكاتب

الأندلس ، والقيروان ، والمهديّة ، وفاس ، وخراسان ، وغزنة تضم في خزائنها أهم ما أنتجه العالم الإسلامي بقطع النظر عن إقليمه .

بل والعلماء أنفسهم نرى شطرا من عمرهم قضوه في بلد وشطرا في بلد آخر ، شطر في مصر وشطرا في الشام ، أو شطر في الشام وشطرا في العراق ، أو شطر في العراق وشطرا في فارس ، وهكذا ، حتى ليصعب في كثير من الأحيان عدّ العالم مصريا أو شاميا ، وعراقيا أم فارسيا . ومؤلفو التراجم أدركوا هذا المعنى فجمع أكثرهم علماء العالم الإسلامي على اعتبار أنهم نتاج مملكة واحدة كقطر واحد . نعم توجد شخصية لنتاج كل إقليم ، كالأدب المصري والشامي والعراقي والفارسي ، والطب المصري والشامي والعراقي والفارسي وهكذا ، ولكنها شخصية غامضة خفية لا ترى إلا بالمنظار الدقيق والبحث الطويل . وأكثر ما يظهر هذا في منبع الظاهرة العلمية والأدبية حين تظهر ، فظهورها في إقليم خاضع ولا بد لمؤثرات اجتماعية في هذا الإقليم كظهور المقامات في إقليم فارس والموشحات بالأندلس ، والأسلوب المسجوع المحلى بالبديع في الرى وما حولها ، والرسائل الشاملة لفروع الفلسفة — كرسائل إخوان الصفا — في البصرة ؛ كل ذلك له علل اجتماعية وتاريخية وإقليمية مرتبطة بهذه الظواهر ارتباط السبب بالمسبب ، ولكن لا تلبث بعد ظهورها أن تقلد في سائر الأمصار ، ولو لم تكن العلة الأصلية موجودة ، وتقوم علة التقليد مقام علة الابتكار ، وتختفي الشخصية الأولى وراء المظهر العام للوحدة المشتركة .

وبعد — فهذا عرض سريع للحركة العلمية والأدبية ، يتلوه إن شاء الله البحث التفصيلي في تاريخ كل علم ومدى تقدمه ، ومركز هذا التقدم ، وهذا هو موضوع الجزء الثاني من « ظهر الإسلام » أعاننا الله على إتمامه .

فهرس الأعلام

ابن حجر (الحافظ العسقلاني) صاحب الفتح :

٢٦٣

ابن حزم ، الإمام الظاهري : ١٢٤

ابن حمديس الصقلي : ٣١٠

ابن حنابلة ، وزير الدولة الأخشيدي :

١٧١ ، ٢٢٥ ، ٢٤٢

ابن حوقل : ٢٧٠

ابن خالويه : ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧

ابن خلدون : ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣٠٤ ،

٣٠٧ ، ٣٠٨

ابن خلكان : ٣٩ ، ٧٧ ، ٨٥ ، ١٠٤ ،

١٠٨ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٨٠ ،

١٨٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢٣٢ ،

٢٤٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٨٢ ،

٣٠٥

ابن الحمار : ٢٣٢ ، ٢٥١ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ،

ابن دريد ، صاحب الجمهرة : ١٩٩ ، ٢٣٨ ،

٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ،

٢٧٣ ، ٢٧٥

ابن رائق : ٩١

ابن رزنيك ، الوزير الفاطمي : ١١٣

ابن رشيق : ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ،

ابن الرضي ، مولى روعة المغنية : ١٢٦

ابن رضوان : ٢٣١ ، ٣١٦ ،

ابن الرومي الشاعر : ٢٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ،

١٣٧ ، ١٧١ ، ١٨٤ ،

ابن زرعة : ٢٥٦

ابن زريق الكوفي : ١٣٨

ابن زولاق : ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،

١٦٨ ، ١٧٦ ، ١٩٦ ،

ابن زيتون (أبو القاسم بن أبي بكر) : ٢٩٧ ،

ابن سريج : ١٩٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،

(باب الألف)

الأصم بأحكام الله : ٢٠٩

إبراهيم بن أدهم : ٢٢٦

إبراهيم بن الأغب : ٢٩٢ ، ٣٠٢ ،

إبراهيم بن بكس : ٥٧

إبراهيم بن الجنيد النصراني : ٣٤

إبراهيم الحرني : ١٠٧

إبراهيم بن هلال الصابي : ١٣٣ ،

إبراهيم بن الوليد : ١٢٤

أبقراط : ٢٠٣

ابن أبي أصيبعة : ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٣٠٠ ،

ابن أترجة : ٤٢

ابن الأثير : ٢٣ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٧٦ ،

٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٦ ،

٢٣٧

ابن بابشاذ : ٢٠٥ ، ٣١٦ ،

ابن بركات ، مؤلف الخطط : ١٦٦

ابن بطلان ، الطبيب النصراني : ٣٥ ،

٦٦ ، ٧٤ ، ١٢٨ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،

٢٣١ ، ٣١٦ ،

ابن جبلة : ٢٩٩

ابن جبير ، الرحالة : ٥٧

ابن جليات ، أبو القاسم علي : ٢٣٥

ابن جنى النحوي : ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ،

١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٤٣ ،

٣١٦

ابن الجوزي : ١٠٣

ابن حارث : ٢٩٩

ابن حجاج الشاعر : ١٣٣ ، ١٣٩ ،

١٤٠ ، ١٥١ ، ٢٣٤ ، ٢٥٦ ،

- ابن عمر الأفريقي : ٢٩٩
ابن غافق : ٢٩٩
ابن عيلان التاجر : ١٢٥
ابن الفرات ، الوزير : ١٠٣ ، ٨٣ ، ٢٧
١٠٤ ، ١١٥ ، ١٧١
ابن الفقيه : ١٢٣
ابن فهم الصوفي : ١٢٥
ابن فورك : ٢٢١
ابن القارح : ٢١٥
ابن القاسم : ٢٩٨
ابن القاشاني : ٢٥٣
ابن قتيبة الدينوري : ٢٢٠
ابن قُئد يد : ١٦٦
ابن قُريعة : ١٠٥
ابن القطاع الصقلي : ٣١٠
ابن كثير ، صاحب البداية والنهاية : ١٩٦
ابن اللبّاد : ٢٩٩ وانظر : أبو بكر
ابن لئلك البصري : ١٤٦ ، ١٤٧ ،
١٤٩ ، ٢٣٥
ابن هبيعة : ١٧٢
ابن ماجه ، صاحب السنن : ١٦٢
ابن المدبر ، صاحب خراج مصر : ١٧٢
ابن مسكين : ٢٩٩
ابن المسيبي : ١٣٤
ابن معروف : ١٠٥
ابن المغني ، مولى نهاية المغنية : ١٢٥
ابن المقفع : ٤٤
ابن مقلّة ، الوزير : ١٠٣ ، ٢٥٤
ابن منظور ، صاحب لسان العرب : ٢٧٣
ابن ميكال : أبو الفضل
ابن ميمون : ١٩٢
ابن نباتة التيمي : ٢٤٥
ابن نباتة السعدي الشاعر : ١٨٤ ، ١٨٥
٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٥٣
- ابن سعدان ، الوزير : ١١٧ ، ١٥٨ ،
٢٣٠ ، ٢٣٨ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦
ابن سكرة الشاعر : ١٣٧ ، ١٣٩ ،
١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ٢٣٤
ابن السكيت : ٤٢
ابن السمح : ٢٣٢
ابن سيده ، صاحب المخصص والمحكم :
٢٧٢ ، ٢٧٣
ابن سينا (الرئيس) : ٢٦٧ ، ٢٦٩ ،
٢٨٦ ، ٢٨٧
ابن شرف : ٣٠٥ ، ٣٠٧
ابن طاهر الفارسي : ٢١
ابن الطوير : ١٩٩
ابن ظفر الأديب : ٣١٠
ابن عباد «الصاحب» : ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٤ ،
١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٨ ، ١٧٨ ،
٢٢٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ،
٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ،
٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،
٢٥٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،
٢٧٦ ، ٣٠٤
ابن عباس (ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم) : ٧
ابن عبد الحكم : ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٦
ابن عبدكان : ١٧٣
ابن عبدوس : ٢٩٨
ابن العبري : ٤٤
ابن عرس ، مولى علوان : ١٣٢
ابن عساكر المؤرخ : ٨٤
ابن العميد ، الوزير : ١٣٣ ، ١٤٩ ،
١٥٨ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ،
٢٣٨ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ،
٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،
٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،
٢٧٠

أبو بكر الأدفوي . ٢٠٥
أبو بكر بن الأنباري : ٢٣٩ ، ٢٤٠
أبو بكر الجصاص : ٢٢٣
أبو بكر بن الحداد : ١٦٣
أبو بكر الخوارزمي . ١٨١
أبو بكر الصديق : ٧٨ ، ١٠٣ ، ١٩٥
أبو بكر الصيرفي : ٣٩
أبو بكر عبد الله بن داود الأزدي السجستاني
٢٢٦
أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي الأسيدي
المكي : ٣١٤
أبو بكر بن فورك الأصفهاني : ٢٦٤
أبو بكر محمد بن بركة الحميري اليحصي
الفتنسي : ١٧٥
أبو بكر محمد بن زكريا الرازي : ٢٤٩ ،
٢٥٠ ، ٢٥١ وانظر : الرازي
أبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق :
٢٦٥
أبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن اللباد :
٢٩٩
أبو بكر محمد بن المنذر النيسابوري : ٢٦٤
أبو بكر محمد النعالي المالكي : ١٩٧
أبو بكر محمد بن هاشم (أحد الخالدين) :
١٨٤ ، ١٨٥
أبو بكر محمد بن يحيى الصولي : ٩٥ وانظر
الصولي
أبو تراب النخشي : ٢٦٥
أبو تغلب الحمداني : ٧٥
أبو تمام الشاعر : ٣٧ ، ٦٥ ، ١٣٩ ،
١٧١ ، ١٧٧ ، ٣٠٢
أبو جعفر الطحاوي لإمام الحنفية : ١٦٢
أبو جعفر ، ملك سجستان : ٢٤٢
أبو جعفر النحاس : ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١
٣١٦ ، ٣١٠ ، ٢٠٥

(٢١ — ظهر الإسلام)

ابن نباتة الفارقي الخطيب : ١٨٥
ابن النجار : ٢٤٥
ابن النديم ، صاحب الفهرست : ٤٦ ،
١٨٤ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥
ابن النعمان القاضي : ١٩٠
ابن هاني الأندلسي ، الشاعر : ٢٠٦ ،
٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ،
٢٩٥ ، ٣٠٣
ابن ولاد أحمد بن محمد بن الوليد : ١٦٩ ،
١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢
ابن اليزيدي ، مولى بلور المغنية : ١٢٥
ابن يونس ، أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد
ابن يونس بن عبد الأعلى : ١٦٥ ،
١٧٦
ابنا ميكال : ٢٣٩ ، ٢٧٦
أبو أحمد خلف بن أحمد السجزي : ٢٧٨
أبو أحمد المهرجاني : ٢٣٢
أبو إسحاق إبراهيم الحربي : ٢٢٦
أبو إسحاق إبراهيم بن المنذر بن عبد الله
الأسدي : ٣١٤
أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن حماد :
٢٢٤
أبو إسحاق الرقي : ١٧٦
أبو إسحاق الصابي : ٣٦ ، ١٧٩ ، ٢٣٦
٢٥٦ وانظر : الصابي
أبو إسحاق المروزي : ٢٢٥
أبو الأسود النضر بن عبد الجبار : ١٦٤
أبو بشر متى : ٢٤٣
أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابي
الرازي : ٢٤٥
أبو بكر بن أبي شيبة : ٣٩
أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي : ٢٦٤
أبو بكر أحمد بن هاني الطائي البغدادي :
٢٢٥

أبو الحسن محمد بن يوسف العاصري : ٢٣١
أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون
النصراني : ٢٣١

أبو الحسن الولواجي (الفييه) ٢٨٨
أبو الحسين بن الأشثاني : ٢٢٩

أبو الحسين أحمد بن فارس الرازي : ٢٥٤
أبو الحسين أحمد القُدوري : ٢٢٤

أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم : ٦
أبو الحسين علي بن أحمد الراسبي : ١٠٥

أبو الحسين بن فارس : ٢٥٢
أبو حفص عمر بن سالم الحداد النيسابوري :
٢٦٥

أبو حنيفة (الإمام) : ٤١ ، ٤٦ ، ٧٨ ،

١٦٢ ، ١٩٦ ، ٢١١ ، ٢١٧ ،

٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٤٠ ، ٢٦١ ،

٢٦٢ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٣ ،

٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣١٣ ،

أبو حنيفة الدينوري : ٢٢٠ ، ٢٦٦ ،

أبو حيان التوحيدي البغدادي : ١١٦ ،

١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٤ ،

١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٠ ،

١٥٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٢١ ،

٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ،

٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥٦ ،

٢٦٦ ، ٢٦٧ ،

أبو الخير الحسن بن سوار المعروف بابن

الخمير : ٢٥١ ، ٢٦٩ ،

أبو داود السجستاني ، صاحب السنن :

١٦٢ ، ٢٢٨ ،

أبو دلف الخزرجي : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،

أبو ذر الصحابي : ٥٤ ،

أبو الرقعق الشاعر : ٨٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،

أبو زكريا الصيمري : ٢٢٩ ،

أبو جمال الحسين بن قاسم بن عبيد الله بن
سليمان بن وهب : ٨٣ ،

أبو حاتم الرازي : ٢٥٠ ، ٢٥١ ،

أبو حاتم محمد بن حبان التميمي السمرقندي :

٢٦٣

أبو حامد الأسفرائيني : ٢٢٢ ، ٢٤٦ ،

أبو حامد الأنطاكي : أبو الرقعق

أبو الحسن بن أبي البشر : ٣٠٩ ،

أبو الحسن الأشعري : ٣٩ ، ٢٢١ ،

٢٢٢

أبو الحسن البديهي : ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،

أبو الحسن بنان بن محمد بن حمدان بن سعيد

الجمال : ١٦٩ ،

أبو الحسن الجراحي القاضي : ١٢٥ ،

أبو الحسن الجوهرى : ٢٥٣ ،

أبو الحسن الرماني : ٢٤٤ ،

أبو الحسن السلاحي : ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،

٢٥٣

أبو الحسن الصليحي ملك اليمن : ٣١٥ ،

أبو الحسن العروضي : ٣٠ ،

أبو الحسن علي بن أحمد البغدادي المشهور

بابن القصار : ٢٢٤ ،

أبو الحسن الماوردي علي بن محمد بن حبيب

البصري (الإمام) عالم العراق : ٨٤ ،

٢٢٥

أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني

(القاضي) : ١٧٨ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،

أبو الحسن علي بن عبد الغني المصري

القيرواني : ٣٠٦ ،

أبو الحسن علي بن عمر البغدادي الدارقطني :

٢٢٥

أبو الحسن علي بن محمد بن الأيادي التونسي :

٣٠٣

أبو الحسن علي بن هرون الزنجاني : ٢٣٢ ،

أبو زيد أحمد بن سهل البلخي : ٢٢٦ ،
٢٧٠
أبو سعد التستري اليهودي : ٨٧
أبو سعد السرخسي : ٧٦
أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادى الخراز :
٢٢٧
أبو سعيد الرستمي : ٢٥٣
أبو سعيد السجزي القاضى الحنفي : ٢٧٨
أبو سعيد السيرافي : ٤٧ ، ٣٣٠ ، ٢٣٩ ،
٢٤٣ ، ٢٤٢
أبو سليمان محمد بن معشر البُستي المعروف
بالقديسي : ٢٣٢
أبو سليمان المنطق محمد بن طاهر بن بهرام
السجستاني : ١١٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٨
أبو السمط (من ولد مروان بن أبي حفصة) : ٤٢
أبو سهل المسيحي : ٢٨٦
أبو طالب عبد السلام بن الحسين الأموني :
٢٧٥
أبو طالب المكي : ٢٢٧
أبو طاهر وزير عن الدولة : ١٠٤
أبو طاهر القرمطي : ٣١٣
أبو العباس وزير ابن سبكتكين : ٢٨٤
أبو العباس بن أبي عقيل بن إبراهيم : ٣٠٢
أبو العباس المعروف بابن الحجاز الموصلي : ١١٨
أبو العباس بن القاسم بن مهدي : ٢٦٦
أبو العباس الناجي : ١٨٣
أبو عبد الله البصري : ١٤٠
أبو عبد الله الجواني (الشريف) : ٢٠٩
أبو عبد الله الضرير الأبيوردي : ٢٧١
أبو عبد الله الطبري : ٢٥٢
أبو عبد الله عبد العزيز بن أبي سهل الحشني
الضرير : ٣٠٥
أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني : ٢٧٠
واظن الجيهاني
أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي : ١٧٦

أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى
ابن منده الأصفهاني : ٢٤٦
أبو عبد الله محمد بن جعفر القزاز القيرواني :
٣٠٥
أبو عبد الله محمد بن محمد الهواري : ٣٠٠
أبو عبد الله محمد بن منازل النيسابوري : ٢٦٦
أبو عبد الله محمد بن يحيى الذهلي النيسابوري ،
شيخ البخارى ومسلم : ٢٦٣
أبو عبد الله النائي : ٢٦٨
أبو عبيد البكري : ٢٩٦
أبو عبيد الجوزجاني : ٢٦٧
أبو عبيدة : ٢١٧
أبو عثمان سعيد بن هاشم (أحد الخالدين) :
١٨٤ ، ١٨٥
أبو العلاء المعري : ٩٧ ، ١١٩ ، ١٣٣ ،
١٤٩ ، ١٥٤ ، ١٨٧ ، ٢١٥ ،
٢٥٧ ، ٢٤١
أبو علي الجبائي : ٢٢١ ، ٢٢٢
أبو علي الجوزجاني : ٢٦٥
أبو علي الحسن بن علي الخالغ : ٢٣٥
أبو علي الحسن بن القاسم الطبري البغدادي :
٢٢٤
أبو علي بن زرعة النصراني : ٢٣١
أبو علي الزعفراني البغدادي : ٢٢٤
أبو علي السنجي : ٢٤٦
أبو علي الفارسي : ٤٧ ، ٥٣ ، ١٨٥ ،
٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٣١٦
أبو علي القالي البغدادي : ١٦٧ ، ١١٨ ،
٢٣٩
أبو علي الكرابيسي البغدادي : ٢٢٤
أبو علي المحسن التنوخي : ٥٣ ، ٢٤١
أبو علي محمد بن موسى القاضى الواسطي :
١٦٨
أبو علي بن الهيثم : ٢٠٣ ، ٢٠٤

أبو عمر بن يوسف الأزدي : ٢٢٩
أبو عمران موسى بن رباح الفارسي : ١٦٨
أبو عمرو الدمشقي : ١٧٦
أبو عيسى بن المنجم : ٢٥٣
أبو العتاهية : ٣٠٥
أبو الفتح الإسكندري (بطل مقامات
البديع) : ١٨٠ ، ١٤٢
أبو الفتح البستي : ١٣٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧
أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشور : ٢٠٣
أبو فراس الحمداني : ٦٥ ، ١٣٩ ، ١٨١ ،
١٨٦ ، ١٨٢
أبو الفرج الأصفهاني ، صاحب الأغاني :
١٢٨ ، ١٢٩ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ،
٢٥٦
أبو الفرج البيهقي : ٢٥٦ ، وانظر : البيهقي
أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي : ٢٧٥ ،
٢٧٦
أبو الفرج علي بن الحسين بن هندو : ٢٥١
أبو القاسم أحمد بن حسن الميمندي : ٢٨٤
أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف : ٢٣٦ ،
٢٤٠ ، ٢٣٧
أبو القاسم عبد الله بن أحمد الكعبي :
٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠
أبو القاسم علي بن جلبات : ٢٣٥
أبو القاسم علي بن الحسن التنوخي : ٢٤١
أبو القاسم عمر بن الحسين الحرق : ٢٢٦
أبو القاسم الكرماني : ٢٦٩
أبو القاسم المبارك : ١٨٧
أبو الليث الطبري : ٢٥٧
أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي : ٢٦٥
أبو المنثني : ٢٨
أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم بن إدريس
الحنظلي : ٢٤٦
أبو محمد عبد الله بن أبي زيد النخعي
القيرواني : ٢٩٩

أبو محمد عبد الله بن إسماعيل الميكالي : ٢٧٥
أبو محمد عبد الله بن حيان الأصفهاني : ٢٤٥
أبو محمد عبد الله بن عثمان الوائلي : ٢٧٥
أبو محمد عبيد الله المهدي : ٢٩٢
أبو محمد العلوي : ١٨١
أبو محمد النصورى : ٢٨١
أبو المكارم (الأمير) : ٧٥
أبو مسلم الخراساني : ٦ ، ١٣١
أبو منصور الخلاج : ٢٢٧ ، ٢٢٩
أبو منصور الماتريدي : ٢٦٥
أبو منصور محمد بن محمد الأزدي : ٢٨٢
أبو ميمونة دراس بن إسماعيل الجراوي
الفاقي : ٢٩٩
أبو نصر عبد الله الحسين القيرواني : ٨٥
أبو نصر العراق : ٢٨٦
أبو نصر الفارابي : ٤٧ ، ٩٦ ، ٢٦٨ ،
وانظر : الفارابي
أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتيبي : العتيبي
أبو نصر محمد النيسابوري : ١٧٩
أبو نواس الشاعر : ١٣٩ ، ٢١٤ ، ٢٣٤
أبو هريرة الصحابي الجليل : ٧
أبو هلال العسكري : ٢٥٥
أبو الوزير : ٣٤
أبو الوفاء البوزجاني : ١٥٨ ، ٢٣٢ ،
أبو يزيد مخلد بن كيداد : ٣٠٠
أبو يوسف صاحب أبي حنيفة : ١٦٢ ،
٢٩٨
الأبيوردى الشاعر : ١١٩
أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزار :
٣٠١
أحمد بن أبي دواد : ٤ ، ٣٤ ، ٣٩
أحمد بن أسد بن سامان : ٢٥٩
أحمد بن الحارث بن مسكين : ١٦٣

أسد بن الفرات المالكي : ٢٩٨ ، ٣٠٨ ،

٣١٧

أسد بن موسى : ١٦٢

إسرائيل النصراني (كاتب الناصر لدين

الله) : ٨٣

الاسفرائيني : ٢٢٢ ، ٢٢٤

الإسكافي وزير السامانيين : ١٣٣

الإسكندر المقدوني : ٩١ ، ٢٤٩ ، ٢٨٣

إسماعيل بن أسد بن سامان : ٢٥٩

إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي : ٤٧

إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر : ٢٩٣

إسماعيل بن يوسف من أولاد علي بن أبي

طالب : ٣١٢

الأشجع السلمي : ١٧٧

الأشعري : ٢٦٤ ، وانظر : أبو الحسن

أشناس التركي : ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٣٥

أشهب : ٢٩٨

الاصطخري : ٣١٧

أعشى سليم الشاعر : ٧٣

أفريديون : ٢٨٣

الأفشين : ٧

أفلاطون : ١٧٤ ، ١٨٨

إقليدس : ٢٦٨ ، ٢٩٠

ألبتكين : ٢٧٧

أم مكية الزنجية (زوجة الفرزدق) : ٧٣

إمام الحرمين (أبو العالی الجويني) : ٨٤ ،

٢٨٢

الأمين (الخليفة العباسي) : ١١ ، ١٢٤ ،

١٣٠ ، ١٣١

أتامش : ١٠

الأوزاعي (الإمام) : ١٧٥

إيتاخ التركي : ٦ ، ٧ ، ٣٥٩

أيوب عليه السلام : ١٤٨

أحمد بن حنبل (الإمام) : ٣٩ ، ٧٦ ،

٢٦٤ ، ٢٢٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥ ، ٢٧٨

أحمد بن الحطيب : ١٩

أحمد بن طولون : ٦ ، ٩ ، ٤٥ ، ٤٦ ،

١٦٩ ، ١٦٤ ، ١٦٢ ، ١٦١ ، ٦٦

١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٩٣ ،

١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٩٥

أحمد بن عمر بن سريج القاضي : ابن سريج

أحمد بن محمد المعتمد (المستعين الخليفة العباسي) :

١١ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤

أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية :

١٧٣ ، ١٧٤

الأحنف العكبري : ١٤٣ ، ١٤٤

الأخشيد (مولي كافور) : ٧٣ ، ١٢٢ ، ١٦٣

الأخفش الصغير : ١٧٠

إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي

طالب : ٢٩١

الإدريسي الجغرافي الشهير : ٣١٠

أرسانيس (أخو زوجة العزيز الخليفة

الفاطمي) : ١٩٠

أرسطو : ٤٧ ، ١٧٤ ، ١٨٨ ، ٢٠٤ ،

٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٦٨

أرميس (أخو زوجة العزيز الخليفة الفاطمي) :

١٩٠

الأزهري أبو منصور محمد بن أحمد (صاحب

التهديب في اللغة) : ١١٩ ، ٢٧٣ ،

٣٠٥

إسحاق بن إبراهيم (أبو الحسين) : ٦ ، ٧

إسحاق بن إبراهيم بن نسطاس : ٢٠٣

إسحاق بن ألبتكين : ٢٧٧

إسحاق بن سليمان الإسرائيلي : ٣٠١

إسحاق بن عمران : ٣٠٠ ، ٣٠١

أسد بن سامان : ٢٥٩

أسد بن عبد الله : ٢٩٧

بلال الحبشي (مؤذن رسول الله صلى الله

عليه وسلم) : ٧٢

البلعمي (الوزير) : ٢٤٢ ، ٢٧٠ ،

بلور المغنية (جارية ابن الزبيدي) : ١٢٥ ،

١٢٩

بنيامين (الرحالة) : ٨٢

بهاء الدولة البويهى : ٥٣ ، ٥٤ ، ٢٥٦ ،

البهاء زهير : ٢١٣

بهرام جور : ٢٥٩ ، ٢٨٣ ،

البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد) : ٢٦٩ ،

٢٩٠ ، ٢٨٩ ، ٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٦

(باب التاء)

تاج الدولة بن عضد الدولة : ٢٥٥

التاهرتي : ٢٨٢

تتر (غلام مهذب الدين ومعشوقه) : ٣٨ ، ٣٧ ،

تكثير الجامدار (غلام معز الدولة) : ٣٦ ،

تميم بن المعز الفاطمي : ٢١٢ ، ٢١٣ ،

٣٠٤

تميم بن المعز بن باديس : ٢٩٢ ، ٣٠٤ ،

التنوخى أبو القاسم على بن محمد (القاضي)

٣٢ ، ١٠٥ ، ١٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٥٦ ،

تورون : ٣٠ ، ٥٨ ، ١٠٧ ،

تيودورا (امبراطورة القسطنطينية) : ٢٠٢

(باب الشاء)

النعالي (أبو منصور عبد الملك) : ١٣٣ ،

١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،

١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٧٧ ،

٢٣٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،

٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ،

٢٧٦ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ،

ثمل القهرماتة : ٣٠

(باب الباء)

الباخرزى : ٦٨

باديس بن يوسف : ٢٩٢

باغمر التركي : ١١

الباقلانى : ٢٢١ ، ٢٢٢ ،

بايكبك : ٢٤

البيضاء (أبو الفرج) : ١٧٩ ، ١٨٤ ،

١٨٦ ، ٢٥٦ ،

بجكم التركي : ٣٠ ، ٣١ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٩٥ ،

البحترى : ١٢ ، ١٣ ، ٢١ ، ٦٧ ، ١٠٠ ،

١٣٩ ، ١٧١ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،

١٨٤ ، ٢٥٤ ،

البخارى (صاحب الصحيح) : ٢٦٢ ،

٢٦٣ ، ٣١٥ ،

بختكين التركي : ٧٦

بختيار بن معز الدولة : ٥١ ، ٧٦ ، ٢٥٥ ،

وانظر : عز الدولة

بختيشوع بن يحيى المططب : ٣٠ ، ٣٤ ،

بديع الزمان الهمداني : ١٣٣ ، ١٣٤ ،

١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٨٠ ، ٢٣٩ ،

٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ،

٢٨٢ ، ٣٠٨ ،

البراء بن عازب (الصحابي) : ١٩٤

براون (الأستاذ) : ٢٨٦

البريدى : ٩١

بشار الشاعر : ٢٨ ، ١٨٤ ،

بشر الحافي : ٢٢٦

بشر بن متى : ٢٣١

بطليموس : ٢٤٩

بغا الصغير : ٦ ، ١١ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ،

بغا الكبير : ٦ ، ٨ ، ٢١ ، ٢٢ ،

بكر بن حماد الزناتي : ٣٠٢

الحسن بن بشر الدمشقي الشاعر : ٨٥
حسن حسني عبد الوهاب (الأستاذ) : ٣٠٣

الحسن بن رشيق : ٣٠٤
الحسن بن سهل : ٦ ، ٤٤ ، ٤٩
الحسن بن عبد الله الجصاص : ١١١
الحسن بن علي بن أبي طالب : ٤٢ ، ٥٥ ،
٢٠٨ ، ١٩٣ ، ٧٥

الحسن بن وهب : ٣٧
الحسين بن عبد السلام المعروف بالجلل :
١٧٣ ، ١٧٢

الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي
ابن أبي طالب : ٣١١ ، ٣١٢
الحسين بن علي بن أبي طالب : ٤١ ، ٤٢ ،
١٩٤ ، ١٩٣ ، ١٥٣ ، ٧٥ ، ٥٥
٢٠٨

الحصري (صاحب زهر الآداب) : ٢٣٩ ،
٣٠٥ ، ٣٠٦ : (إبراهيم بن علي
الحصري القيرواني)

الخطيئة الشاعر : ١٧٠
حمديس : ٢٩٩
حزة : ٢١٧
حنين بن إسحاق : ١٠٧
حيدر (علي بن أبي طالب) : ٣٨
الحيقطان (شاعر أموي) : ٧٢

(باب الخاء)

الخالديان : ١٨٤ ، ١٨٥
الخصيبي : ١٣٣
الخطيب البغدادي : ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١١٩ ،
٢٢١
الخطيب التبريزي : ١١٩ ، ٢٤١
الخليل بن أحمد : ١٩٩
خليل مرادم : ٢٥٣

(باب الجيم)

جاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : ١٤ ،
١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٤٧ ،
٧٣ ، ٧٧ ، ١٣١ ، ١٧٣ ، ٢٥٢ ،
٢٦٦ ، ٢٥٤
جاحظ خراسان : ٢٦٧
جالينوس : ٢٠٣
جرير عليه السلام : ٧٥
جرير الشاعر : ٧٢
جعفر بن العتضد : ٢٧
جمال الدين الأفغاني : ١٩١
جني (أبو ابن جني النحوي) : ٦٨
الجنيدي : ١٦٩ ، ٢٢٧
جوهر الصقلي (القائد) : ١٣٠ ، ١٨٩ ،
١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٨ ، ٢١٠ ،
٣٠٩

الجوهري (إسماعيل بن حماد) صاحب الصحاح :
٢٧٣
جيجك (أم المكتفي بالله) : ٣٥
الجيهازي : ٢٨٠ ، واضطر : أبو عبد الله

(باب الحاء)

الحاتمي محمد بن الحسين : ٢٣٤
الحارث الحاسبي : ٢٢٧ ، ٢٢٨
الحاكم بأمر الله : ٦٦ ، ٨٦ ، ١٩٠ ،
١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ،
٢١٠ ، ٢١٥
الحجاج : ٧٢
الحجوي : ٣٠٠
الحريري (صاحب المقامات) : ١٤٢ ،
٢٥٤ ، ٢٧٢ ، ٢٨٦ ، ٣٠٧ ،
حسان بن النعمان القسائي : ٢٩٢

الراضى بالله : ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ،
٤٥ ، ٦٦ ، ٧٩ ، ٩٥
الربيع بن سليمان المرادى : ١٦١ ، ١٦٢
ربيعة الرقى : ١٧٧
رسطاليس : ٢٤٩
الرشيد (الخليفة هارون) : ٤٩ ، ٢٩٣
ركن الدولة أخو معز الدولة : ٥١ ، ٧٨ ،
٢٤٦ ، ٢٤٧
روح بن الفرج أبو الزبناج الزبيرى : ١٦٣
روعة جارية ابن الرضى : ١٢٦

(باب الزاى)

زاهد على (الدكتور) : ٢٠٨
الزبير بن العوام : ١٦٤
الزجاج : ١٦٩ ، ١٧٠
الزجاجى (تلميذ الزجاج وصاحب كتاب
الجل) : ٢٠٥
زكريا بن يحيى السجزي : ١٧٥
الزخشمى : ١١٨
الزوزنى (أبو عمرو أحمد بن محمد) : ٢٧٤
زيادة الله بن الأغلب : ٣٠١ ، ٣٠٨
زيد بن رفاعه : ٢٣٢
زيد بن على زين العابدين : ٣١٤

(باب السين)

سابور بن أردشير : ٢٣٥ ، ٢٥٥ ،
٢٥٧ ، ٢٥٦
ساسان : ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥
سبكتكين التركى : ٥٢ ، ١٣٠ ، ٢٧٧ ،
٢٨٦
السبكي : ٢٨٦
ست الملك (ابنة العزيز وأخت الحاكم بأمر
الله) : ١٩٠

سارويه بن أحمد بن طولوت : ١٠٩ ،
١١٠ ، ١١١
خمرة (قينة سوداء) : ١٣٧
الحوارزى (أبو بكر محمد بن العباس) :
١٣٣ ، ١٨١ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ،
٣٠٨ ، ٣١٦

(باب الدال)

دارا ملك بابل : ٩١
داعى الدعاة : ٢١١ ، ٢١٥ : (المؤيد
الشيرازى)
داغر : ٢١
داود الأظلكى : ٣٨
داود الظاهرى الأصفهانى : ٢٢٣
دبسية (قينة حسنة الغناء قبيحة المنظر) : ١٣٨
درة المغنية : ١٢٦
دعبل الخزاعى : ٦ ، ٢١١ ، ٣٠٢
الدمستق : ٦٥
دناقير بنت كعبويه الزنجى : ٧٣
دوزى (المستشرق) : ١٩١
ديستقوريدس : ٢٨٩

(باب الذال)

الذهبي (المؤرخ) : ٥٤ ، ٢٦٤
ذو الرمة : ٢١٤
ذو النون المصرى : ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٤ ،
١٧٥ ، ١٧٦

(باب الراء)

رابعة العدوية : ٢٢٦
الرازى الطيب : ١٠٧ ، انظر : أبو بكر

(باب الشين)

الشابشي (أبو الحسن علي بن محمد) : ٢٠١ ،
الشافعي (الإمام) : ٧٨ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،
١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ،
١٩٦ ، ٢١١ ، ٢٢٥ ، ٢٦٤ ،
٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٣١٧ ،
شاهك (غلام الفتح بن خاقان) : ٤٦ ، ٤٧ ،
الشيلي : ١٧٦ ،
الشريف الرضي : ٥٣ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ،
١٥٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ،
الشريف المرتضى : ٣٧ ، ٣٨ ، ١١٨ ،
٢٤١ ،
شفيق البلخي : ٢٢٦ ، ٢٦٥ ،
شكر (غلام عضد الدولة) : ١٣١ ،
شمس المعالي قابوس : ٢٧٦ ، انظر : قابوس

(باب الصاد)

الصابي (أبو إسحاق) : ٩٧ ، ١٣٣ ،
١٣٤ ، ١٣٩ ، ٢٥٦ ،
الصابي (هلال) : ٨٢ ، ٨٣ ، ١٠٦ ،
الصاحب : ابن عباد
الصالح بن رزيك : ٢١٠ ،
صالح بن وصيف التركي : ٢٣ ،
صدقة بين يوسف اليهودي (وزير المستنصر
بمصر) : ٨٧ ،
صلاح الدين الأيوبي : ١١٣ ،
صمصام الدولة البويهبي : ٢٣٨ ، ٢٥٦ ،
الصنوبري الحلبي الشاعر : ١٣٣ ، ١٣٩ ،
١٤٧ ،
الصولي : ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٥ ، ٤٩ ،
٩٧ ، ٩٥

ست الناس بنت سيف الدولة الحمداني : ٧٥ ،
سحنون (عبد السلام بن سعيد) : ٢٩٨ ،
٢٩٩ ، ٣٠٠ ،
سغاو (المستشرق الكبير) : ٢٨٨ ،
سعيد بن جبير سيد التابعين : ٧٢ ،
سعيد بن الحداد : ٢٩٩ ،
سعيد الخالدي الشاعر : ١٣٩ ،
سعيد بن نوفل النصراني طبيب ابن طولون :
١٧٤ ،
السفاح (الحليفة العباسي) : ١٢٤ ،
سفيان (سيد القراء) : ٢١٧ ، ٣١٣ ،
السلامي الشاعر : ١٣٧ ،
سليمان بن الحسن أبو سعيد الجنابي : ١٩١ ،
سليمان بن داود عليهما السلام : ١٠٠ ،
٢٨٣ ،
سليمان بن فهد الأزدي : ٦٨ ،
السعاني : ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠ ،
سندس الغنية : ١٢٥ ، ١٢٩ ،
سهل بن الحسن : ٢٧٠ ،
سهل بن عبد الله التستري : ٢١٨ ، ٢٢٧ ،
سيبويه : ١٧٠ ، ٢٤٢ ،
سيبويه المصري : ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،
١٦٨ ،
السيد الحميري : ٢١١ ،
سيف الدولة الحمداني : ٣٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ،
٦٠ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٥ ، ١٠٧ ،
١٠٨ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ،
١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،
١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،
١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٢٣ ،
٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ،
٢٧١ ، ٣٠٣ ، ٣١٦ ،
السيوطي : ٣١٠

عبد الله بن وهب : ١٦٢
عبد الملك بن مروان : ٢٩٢
عبد الوهاب البغدادي المالكي : ١١٦
عبد الوهاب عزام (الدكتور) : ٢٩٠
عبيد الله بن الحجاب : ٢٩٣
عبيد الله بن الحسن القيرواني : ١٩١
عبيد الله الكرخي : ٢٢٣
العتابي : ١٧٧
العتبي صاحب التاريخ (أبو النصر محمد بن
عبد الجبار) : ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ،
٢٨٦
عثمان (أخو أبي بكر بن أبي شيبة) : ٣٩
عثمان بن سعيد الملقب بورش : ١٦٣
عثمان بن عفان (أمير المؤمنين) : ١٠٣
عريب (صاحب صلة تاريخ الطبري) : ٨٤ ، ٨٣
عز الدولة أبو منصور بختيار : ٢٥٥
عز الدولة البويهجي : ٣٦ ، ٥٢ ، ٢٣٦ ،
٢٥٥
العزيز (نزار بن المعز الخليفة الفاطمي) : ٨٤ ،
٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ،
١٩٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ،
٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٢
العسجدي : ٢٩٠
عضد الدولة البويهجي : ٣٦ ، ٥٢ ، ٥٣ ،
٥٦ ، ٥٩ ، ٨٤ ، ٩٢ ، ١٠٣ ،
١٠٦ ، ١٢٣ ، ١٣١ ، ١٤٨ ،
١٥١ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٣٢ ،
٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،
٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،
٢٤٨ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ،
٢٦٢
عضد الدولة بن ركن الدولة : ٢٤٦
عقبة بن نافع : ٢٩٤
العقيلي (أبو الحسن علي بن الحسين بن حيدرة) :
٢١٤ ، ٢١٢

(باب الظاء)

الطائع لله بن المطيع (الخليفة) : ٥٢ ،
٥٣ ، ٥٤ ، ١٥٢ ، ٢٥٧ ،
طاهر بن الحسين : ٧
طاهر المقدسي : ١٧٥
الطبري (محمد بن جرير) : ٤ ، ٦ ، ٧ ،
٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ،
٢٤ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ١٣١ ،
١٩٩ ، ٢٢٣ ، ٢٤٠ ، ٢٧٠

(باب الظاء)

ظلوم (أم الراضي بالله) : ٦٦

(باب العين)

العاقد : ١١٢
عبادة الخنث : ٤١
العباس (عم رسول الله صلى الله عليه وسلم) :
١٢٢ ، ١٢٤ ، ٢١٣ ،
العباس بن الحسن : ٢٧
العباس بن المأمون : ٤
عبد الجبار (قاضي القضاة) : ٢٢٢
عبد الحميد الكاتب : ٢٥٢
عبد الحميد بن عبد العزيز (القاضي) : ٨١
عبد الرحمن الناصر أمير الأندلس : ٩٢
عبد العزيز بن محمد بن النعمان : ١٩٦
عبد القاهر الجرجاني : ٢٥٤ ، ٢٥٥
عبد الكريم النهشلي : ٣٠٤ ، ٣٠٦
عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل : ٢٢٥
عبد الله بن الحكم : ١٦٩
عبد الله بن طاهر : ٦ ، ٧
عبد الله بن المعتز : ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ،
٢٧ ، ٢٨ ، ٢١٢ ، ٢١٤

عمرو بن مسعدة : ١٧٣
عمرو بن معد يكرب : ٢٥٣
العنصرى : ٢٩٠
العوفى : ٢٣٣
عياض (القاضى) : ٢٩٣
عيسى الرقى : ١٨٧
عيسى بن على بن عيسى الوزير : ٢٣٠
عيسى بن نسطورس النصرانى : ٨٦ ، ٩٠

(باب الفين)

الغزالي (حجة الإسلام) : ١٨٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧
غلام الخليل : ٢٢٨
غلام زحل : ٢١٩

(باب الفاء)

فاتق (فائد السامانيين) : ١٣١
الفاراني ، أبو نصر الفيلسوف : ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٣١ ، ٢٦٨
السيدة فاطمة الزهراء ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : ٥٤ ، ٧٥ ، ١٢٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٨
فان ثفلوتن : ٧٣
الفتح بن خاقان : ١١ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٤٦ ، ٣٩ ، ١٩ ، ١٧
فتيان (أم المعتمد على الله) : ٦٦
الفخر بن الخطيب : ٢٩٨
نجر الدولة : ٢٤٧
الفراء : ٢١٧
الفرجى : ٢٩٠
الفرردوسى : ٢٩٠
الفرزدق الشاعر : ٧٣
الفضل (القائد أيام العزيز نزار بن المعز) : ٨٦
الفضل بن سهل : ٦ ، ٤٤

العكبرى : ١٨٠
علوان (غلام بن عرس) : ١٣٢
علوة الغنية : ١٢٦ ، ١٢٩
على بن أبي الرجال : ٣٠٥
على بن أبي طالب (الإمام) : ٣٨ ، ٤١ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١٠٣ ، ١٢٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٨ ، ٣١٢ ، ٢٦١ ، ٢١٣
على بن بويه : ٩١
على بن الجهم الشاعر : ٤٢ ، ٤٣ ، ٩٩
على بن رضوان رئيس أطباء الحاكم : ٢٠٤ ، ٢٠٥
على بن سليمان طبيب العزيز بالله وولده الحاكم : ٢٠٣

على بن عبد الله التونسي : ٣٠٣
على بن عيسى وزير المقتدر : ٨٣ ، ١١٥
على بن محمد بن أحمد بن أبي طالب (صاحب الزنج) : ٧٠ ، ٧١
على بن النعمان (القاضى) : ١٩٨
على بن يحيى الأرمنى : ٢٠
العقاد الأصفهاني : ٢١٠ ، ٣٠٩
عماد الدولة أخو معز الدولة : ٥١ ، ٢٤٦
عمارة الينى الشاعر : ١١٣ ، ٢١٠
عمر بن حفص : ٢٩٣
عمر بن الخطاب (أمير المؤمنين) : ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٨ ، ٤٤ ، ٦٤ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٠٣ ، ١٦٤ ، ١٩٥
عمر بن عبد العزيز (أمير المؤمنين) : ١٠٢ ، ٢٩٣
عمر بن فرج الرخجى : ٣٤ ، ٤٢
عمر بن عبيد الله الأقطع : ٢٠
عمرو بن العاص : ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٩٥ ، ١٩٨

كسرى : ١٣ ، ٥٥ ، ٩٨
كشاجم : ١٠٤ ، ١٣٩ ، ١٨٥
كلثم بنت محمد بن جعفر بن محمد الصادق :
١٩٤

الكهيت صاحب الهاشميات : ٢١١
الكندي (محمد بن يوسف) : ٩ ، ١٦٥ ،
١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٦

كيدر (نصر بن عبد الله) : ٨

(باب اللام)

لؤلؤ الحاجب : ١١٥
الليث بن سعد : ١٧٢ ، ١٧٥

(باب الميم)

مأجوج : ٢٨٣
ماردة (أم المعتصم) : ٤
المازري (الإمام) : ٣١٠

مالك بن أنس (الإمام) : ٧٨ ، ١١٦ ،
١٦٧ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٢٤ ،
٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،
٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣١٤ ،
٣١٦

المأمون الخليفة : ٣ ، ٤ ، ٦ ، ١٧ ، ٣١ ،
٤٢ ، ٤٩

مأمون بن مأمون : ٢٧٦ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،
مؤنس الخادم : ٢٨ ، ٢٩ ، ٨٣ ، ٨٤ ،
٩٢ ، ١٣٠

مؤنس الخازن : ٢٨ ، ٢٩ ، ٨٣ ، ٨٤ ،
٩٢ ، ١٣٠

مؤنس القائد : ١٣١
ماني المجوسي : ٢٣١
المؤيد (أخو المنتصر بن المتوكل) : ١٩ ،
٤٢

المؤيد الشيرازي (داعي الدعاة) : ٢١١ ،
٢١٥

(باب القاف)

القائم الفاطمي : ٣٠٣
القائم بأمر الله : ٧٦
القابسي علي بن محمد المعروف بابن القابسي :
٣٠٠

قابوس بن وشمكير : ٢٥٧ ، ٢٧٦ ،
٢٨٧ ، ٢٨٩
القادر (الخليفة) : ٥٤ ، ١٥٢ ، ٢٣٥ ،
٢٨٦

القاسم بن إبراهيم العلوي : ٣١٥
القاضي الفاضل : ٢٥٢
القاهر (الخليفة) : ٣٠
قييعة (زوجة المتوكل وأم المعتز) : ٢٣ ،
٣٥ ، ٦٦

قرواش العقيلي : ٥٨
قسطا بن لوقا : ١٠٧
القضاعي (صاحب الخطط) : ١٦٦ ، ٢٠٢ ،
قطر الندى بنت خمارويه : ١١٠
القفال المروزي الشافعي (الإمام) : ٢٨٢ ،
القفطي : ٢٠٢

القلقشندي : ٢١٥
قلم ، المغنية : ١٢٩
قنوة ، البصرية ، المغنية : ١٢٥
القومسي (أبو بكر) : ٢٢٩ ، ٢٣٢

(باب الكاف)

كافور الأخشيدي : ٧٣ ، ٨٤ ، ١٣٠ ،
١٤٨ ، ١٥١ ، ١٧١ ، ١٧٣ ،
٢٢٥

كراوس (الأستاذ) : ٢٥٠
كرنكو (الأستاذ) : ٢٨٩
الكسائي : ٢١٧

محمد بن داود الظاهري : ٢٨ ، ٢٢٣ ،
 ٢٢٩
 محمد بن زرعة الدمشقي : ١٧٧
 محمد بن سحنون : ٢٩٩
 محمد بن عبد الله : ٢٦٠
 محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي
 ابن أبي طالب : ٣١١
 محمد بن عبد الله بن سعد النحوي راوية
 أبي الطيب : ١٨٧
 محمد بن عبد الملك الزيات : ٩ ، ٣٤
 محمد بن عبدون : ٣٠٠
 محمد بن علي بن الحسن بن عبد البر الصقلي
 التيمي : ٣١٠
 محمد بن علي القفال الشاشي : ٢٦٤
 محمد بن عمر الصيمري : ٢٢٢
 محمد بن عوف الطائي الحمصي : ١٧٥
 محمد بن محمود النيسابوري : ٢٨٨
 محمد بن منصور (الأمير) : ٢٧٢
 محمد بن موسى الحدادي البلخي : ٢٧٠
 محمد بن النعمان (قاضي المعز والغزيرين) :
 محمد بن يوسف الكندي : ٩ ، ١٦٥ ،
 ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٦
 محمد بن يوسف (عامل المتوكل على أرمينية)
 ٤٤
 محمود بن سبكتكين : ٢٦٩ ، ٢٧٧ ،
 ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ،
 ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ،
 ٢٩٠
 مرداويج الفارسي ابن زيار : ٤٩ ، ٥٠ ،
 ٢٥٧
 المرزبان بن عز الدولة البويهي : ٧٦
 المرزبان بن محمد : ٢٤٢
 المرزباني : ٢٤٥
 مروان بن محمد : ٢٤٠
 المزني ، صاحب الشافعي : ١٦٢

مؤيد الدولة بن ركن الدولة : ٢٤٧
 المبرد : ٤٦ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢٢٤
 الميشر بن فاتك : ٢٠٤
 متى بن يونس القنأني : ٢٣٠
 متر (الأستاذ) : ٨٢ ، ٨٧
 المتقي بالله (الحليفة) : ٣٠ ، ٤٥ ، ٥٨ ،
 ٩١ ، ٩٥
 المنبجي (أبو الطيب) : ٣٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ،
 ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٣ ، ١٠٨ ، ١٣٣ ،
 ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥١ ، ١٧١ ،
 ١٧٣ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
 ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،
 ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ،
 ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،
 ٣٠٣ ، ٣١٦
 المتوكل (الحليفة) : ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ،
 ١٤ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ،
 ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ،
 ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٣ ،
 ٦١ ، ٦٥ ، ٨١ ، ٩٩ ، ١٦٧ ،
 ١٦٩ ، ٢١٦ ، ٢٢١
 الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب : ٧٥
 سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم : ٧ ،
 ٤٠ ، ٥٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٩ ،
 ٨٠ ، ١٠٣ ، ١٢٢ ، ١٩٣ ،
 ١٩٤ ، ٢٠٨ ، ٢١١ ، ٣١٤
 محمد بن ابراهيم : ٧
 محمد بن أبي الليث : ٣٨ ، ١٦٧ ، ١٦٩
 محمد بن أحمد بن أبي دواد : ٣٩
 محمد بن أحمد بن سعيد التيمي : ٢٠٢
 محمد بن الحسن ، صاحب أبي حنيفة : ١٦٢ ،
 ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣١٦
 محمد بن الحسن بن علي الكركنتي : ٣٠٩
 محمد بن الحسين الحاتمي : ٢٣٤
 محمد بن خراسان الصقلي : ٣٠٩

معز الدولة بن بويه : ٣٦ ، ٥١ ، ٥٢ ،
 ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ١٢٢ ، ١٩٤ ،
 ٢٤٦ ، ٢٥٦ ،
 المعز لدين الله (الخليفة الاطمي) : ٨٤ ،
 ١١٢ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،
 ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ،
 ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ،
 ٢١٦ ، ٢٩٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ،
 المقtedir بالله بن المعتضد : ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ،
 ٣٠ ، ٣٥ ، ٦٦ ، ٩٢ ، ١٠٠ ،
 ١٠٢ ،
 مقداد بن الحسن الكتامي : ٣٠٣ ،
 المقدسي (أبو سليمان محمد بن معشر) : ٧٨ ،
 ٨٢ ، ٨٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٦٠ ،
 ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،
 ٢٩٧ ، ٣١٣ ،
 المقرئ ، صاحب نفع الطيب ، ٩٢ ، ٢٩٧ ،
 المقرئ بن زكري : صاحب الخطط : ٩ ، ٤٦ ،
 ٦٦ ، ٨٧ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ،
 ١١٣ ، ١١٥ ، ١٦٦ ، ١٩١ ،
 ١٩٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ،
 ٢٠٩ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ ،
 الكتفي بالله بن المعتضد (الخليفة) : ٢٦ ،
 ٢٧ ، ٣٥ ، ٩٨ ،
 المكين بن العميد : ١٩٠ ،
 الملك الضليل (امرؤ القيس) : ١١٦ ،
 ملك بن الوليد النصراني : ٨٣ ،
 المنتصر بالله (الخليفة ابن التوكل) : ١٠ ،
 ١١ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٤٤ ، ٦٥ ،
 منشا اليهودي (نائب العزيز بالشام) : ٨٦ ،
 المنصور (الخليفة العباسي) : ٣٠ ، ٣٩ ،
 ٢٩٣ ، ٣١١ ،
 المنصور الفاطمي بن القائم العبيدي : ٣٠٠ ،
 ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ ،

المسبحي ، مؤرخ الدولة الفاطمية : ١٩٩ ،
 ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،
 المستعين (الخليفة) : ١١ ، ٢٠ ، ٢١ ،
 ٢٤ ، ٣١٢ ،
 المستكني (الخليفة) : ٣٠ ، ٥١ ، ٩١ ،
 ٢١٦ ،
 المستنصر (الخليفة) : ٨٧ ، ١١٢ ، ١١٣ ،
 ٢٠٢ ،
 مسعود (السلطان) : ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، (ابن
 محمود بن سبكتكين)
 المسعودي (المؤرخ) : ٥٠ ، ١٠ ، ٢٢ ،
 ٢٩ ، ٧١ ، ٩١ ، ١٠٣ ، ١٦٦ ،
 مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد) : ٢٦ ،
 ٣٢ ، ٥٦ ، ٧٦ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ،
 ٢٣٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ،
 ٢٥٦ ،
 مسلم بن الحجاج (صاحب الصحيح) : ٢٦٣ ،
 مسلم بن الوليد الشاعر : ١٨٤ ،
 المطيع لله (الخليفة) : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ،
 ٧٥ ، ٩١ ، ٢١٦ ،
 مظفر بن كيدر : ٩ ،
 معاوية بن أبي سفيان : ٥٤ ، ٧٧ ، ٨٣ ،
 ٢١٨ ،
 المعتز بالله (الخليفة) : ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ،
 ٢٤ ، ٢٧ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ٦٥ ،
 المعتصم (الخليفة أبو إسحاق) : ٣ ، ٤ ،
 ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٤ ، ٣٢ ،
 ٣٥ ، ٤٢ ، ٦٤ ، ١٦٧ ، ٢٧٧ ،
 ٣١٢ ،
 المعتضد بن الموفق : ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٢ ،
 ٣٣ ، ٧١ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٩٨ ،
 ١٠٠ ، ١١٠ ،
 العتيد على الله (الخليفة) : ٢٥ ، ٦٦ ، ٧١ ،
 معروف الكرخي : ٢٢٦ ،
 العزيز بن باديس بن يوسف : ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،
 ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ،

نصر بن عبد الله (كيدر) : ٨
نصر بن هارون الصراني (وزير عضد
الدولة) : ٥٦ ، ٨٤
ظيف القسي الرومي : ٢٣٢
النعان بن محمد بن حيون : ١٩٦
السيدة نفيسة : ١٩٤
نهاية ، جارية ابن المغني : ١٢٥ ، ١٢٩
نوح بن أسد بن سامان : ٢٥٩
نوح بن منصور الساماني : ٢٦٧ ، ٢٦٨
نوح بن نصر الساماني : ٢٤٢
النوشجاني : ٢٢٩
التويري : ١٩٠

(باب الهاء)

الهادي (الخليفة العباسي) : ٣١١
هارون (أخو الرازي بالله) : ٢٧
هانيء (أبو ابن هانيء الأندلسي الشاعر) :
٢٩٥
هشام بن عبد الملك : ٢٩٣
الهمداني : ١٠٨

(باب الواو)

الوائق (الخليفة) : ٨ ، ٩ ، ٢٦ ، ٤٢ ،
١٦٧ ، ٢٧٥
الواحدى ، (شارح ديوان المتنبي) : ١٠٨
الوأواء اللمشقي : ١٨٤ ، ١٨٥
وحيدة المغنية : ١٣٧
وستنفيذ : ٣١٣
الوشاء ، صاحب كتاب الموشى : ١٠٧
وشمكير (أبو قابوس) : ٢٥٧
وصيف : ٦ ، ٧ ، ١١ ، ١٩ ، ٢١
الوليد (الخليفة الأموي) : ١٢٤
وهب بن وهب : ٢٩٧

منصور بن إسحاق بن أحمد بن أسد : ٢٥٠
منصور التمرى : ١٧٧
المنيني اللمشقي : ٢٨٦
المهتدي بالله (الخليفة) : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ،
٢٦ ، ١٠٢
المهدي (الخليفة العباسي) : ١٢٤
المهدي رأس الفاطميين : ٢٩٥
المهذب بن الزبير : ٢١٠
المهذب الموصلي : ٢١٠
مهذب الدين الطرابلسي : ٣٧ ، ٣٨
المهلب بن أبي صفرة : ١٢٢ ، ٢٥٦
المهلبى (الوزير) : ٣٦ ، ٥٤ ، ١٠٤ ،
١٠٥ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٣ ،
١٣٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ ،
٢٥٥ ، ٢٥٦
مهيبار الديلمي : ٥٥
موسى بن نصير : ٢٩٢ ، ٢٩٣
الموفق (أخو المعتمد) : ٢٥ ، ٧١
الميمنى (عبد العزيز) : ٣٠٥ ، ٣٠٧

(باب النون)

الناطقة : ١٧٠
نابليون : ٢٨٩
ناصر الدولة بن حمدان : ٥٨ ، ٥٩ ،
٧٤ ، ٧٥
الناصر لدين الله : ٨٣
الناصر للحق (الإمام) : ٣١٥
نزار بن المعز : العزيز
النسائي ، صاحب السنن : ٧٧ ، ١٦٢ ،
١٦٦
نسيم (غلام البحتري) : ٦٧
نصر بن أحمد الساماني : ٢٧٠
نصر الحاجب : ٢٧

فهرس أسماء الأماكن والبقاع والبلدان

(باب الألف)

إقليم المشرق : ٢٦٠
 ألمانيا : ١٣٠
 أم القرى : ٣١٢
 الأندلس : ٦١ ، ٦٣ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ،
 ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٣٠ ، ٢٢٣ ،
 ٢٣٩ ، ٢٧٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ،
 ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣١٥ ،
 ٣١٧ ، ٣١٨
 انطاكية : ١٦٨
 الأهواز : ٥١ ، ٧١ ، ٧٨ ، ٢١٦ ،
 ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٥٥
 أوروبا : ٩٧
 إيران : ٢١٩ ، ٢٨٢
 إيطاليا : ١٣٠
 إيوان كسرى : ١٣

(باب الباء)

بابل : ٩١
 بارق : ٦٠
 باريس : ١٠٨
 بحر الروم : ٦٤
 البحرين : ٩١
 بحيرة تيس : ٩
 بحيرة الحد : ٦٥
 بخارى : ٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ،
 ٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ،
 ٣١٥
 بست : ٢٥٩ ، ٢٦١

الأبلة : ٧١
 أيورد : ٢٥٩ ، ٢٦١
 الاحساء : ٣١٣
 الأحقاف : ٣١٤
 أجم : ١٦٨
 أذربيجان : ٢٤٤ ، ٢٤٢ ، ٢٥١
 أرجان : ٢٢٠
 أرزنجان : ٢٤٥
 أرمينية : ٤٤
 أسبيجان : ٢٦٠
 الإسكندرية : ٨٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،
 ١٧٥ ، ٢٦٤ ، ٣٠٩
 أشروسنة : ٣ ، ٢٦٠
 أصبهان : ٩١ ، ١٨١ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ،
 ٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٥٧ ، ٢٩٥
 إسطخر : ٢٢٠ ، ٢٤٥
 أصفهان : ٨٠ ، ٨٢ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ،
 ٢٢١ ، ٢٣٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،
 ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٧٧ ،
 ٢٧٨
 أعلى الفرات : ٦٤
 أفريقيا المرقية : ٧٠
 أفريقية : ٩١ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،
 ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ،
 ٣٠٩ ، ٣٠٤
 أفغانستان : ٦١ ، ١٣٠ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠
 اقرطش : ٣٠٨
 إقليم الجبل : ٢٢٧

بلغ : ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ،
٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠
البلغار : ١٣٠ ، ١٤٤
بنجاب : ٢٧٧
بوشنيج : ٢٥٩
بيت المقدس : ١٦٨ ، ٢٠٢
بيروت : ٢٨٧
بيهق : ٢٦٤

(باب التاء)

تاهرت : ١٦٨ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦
تبريز : ١١٩
تركستان : ٣ ، ٨ ، ١٣٠
ترمز : ٢٦٠ ، ٢٦٦
تشقند (الشاش قبالا) : ٢٥٩
تلمسان : ٢٩١
تهامة : ٧٨ ، ٣١٣
تونس : ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨

(باب الجيم)

الجحفة : ١٩٤
جدة : ٣١٢ ، ٣١٣
جرجات : ٥٠ ، ٦١ ، ٩١ ، ١٦٦ ،
٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٨٣
الجرجانية : ٢٦
الجزائر : ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥
الجزيرة : ٣١٠
جزيرة ابن عمر : ٨٢
جزيرة العرب : ٨ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٤ ،
٧٨ ، ١٧٧ ، ٢٠١ ، ٣١١ ،
٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤
جنديسابور : ١٠٥
الجيل : ٩١

بسطام : ٢٤٥
بشاور : ٢٧٧
البصرة : ٣٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
٨٢ ، ٩١ ، ١٢٣ ، ١٧٢ ، ٢٠٣ ،
٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ،
٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ،
٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٦٢ ،
٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣١٨
البصرة الصغرى : ٢٧٤

بفداد : ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١ ،
٢٥ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٢ ،
٤٦ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ،
٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٦ ،
٧٩ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩١ ،
٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ،
٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ، ١١٠ ،
١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ،
١٣٢ ، ١٤٣ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،
١٨٦ ، ٢٠٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،
٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ،
٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،
٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ،
٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ،
٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،
٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ ،
٢٧٥ ، ٢٨٣ ، ٣٠٢ ، ٣١٣ ،
٣١٦

بلاد الترك : ٢٨٦
بلاد الجبل : ٢١٩ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،
بلاد الجزيرة : ٢٤٦
بلاد الروم : ٦٤
بلاد الشاش : ٢٥٩
بلاد العرب : ٢٩١

دمشق : ١٠ ، ٤٧ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ١٩٥ ،

٢٨١ ، ٢٩٥ ، ٣١٢

دولاب : ٢٤٥

ديار بكر : ٥٨ ، ٩١

ديار بكر وربيعه : ٩١

ديار ربيعة ومضر : ٢٧٣

ديبل : ٢٨١

ديلم : ٤٩ ، ٢٤٢ ، ٢٥١

الدينور : ٢٢٠ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦

(باب الراء)

رامهرمز : ٧١

الرخج : ٢٧٩

الرستاق : ٨٠ ، ٨١

الرصافة : ٣٩ : ١٢٦

رمطة : ٦٥

الرملة : ٧٧

الروم : ١٤٤

الري : ٤٩ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٩١ ، ١٤٤ ،

٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ،

٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،

٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،

٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ،

٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،

٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٣١٨

(باب الزاي)

زبطرة : ٦٤

زرنج : ٢٧٨

زنجشرف : ٢٦٠

الزنج : ١٤٤

زوزن : ٢٧٤

(باب الحاء)

الحبشة : ١٣٠ ، ١٣١

الحجاز : ٤٨ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ١٦١ ،

١٧٧ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٩٢ ،

٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥

الحدث : ٦٤

حصن منصور : ٦٤

حلب : ٣٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٧٥ ،

٨٢ ، ٩٦ ، ١٤٧ ، ١٦١ ، ١٧٧ ،

١٧٩ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،

٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٧١ ، ٣١٦

الحاة : ٨٢

الحيرة : ٨٢

(باب الخاء)

الخالدية : ١٨٤

خراسان : ٣ ، ٤ ، ٥٠ ، ٨٢ ، ٨٤ ،

٩١ ، ١٤٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ،

٢٦٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ،

٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ،

٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨

خرتنك : ٢٦٣

خوارزم : ١١٩ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٧١ ،

٢٧٦ ، ٢٨٦

خوزستان : ٩١ ، ٢٥٥

خيوة أو كيوه : ٢٥٩

(باب الدال)

دار السلام : ١٠ ، ٢٣٣

دار قطن : ٢٢٥

دجلة : ٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٥٧

٢٠٨ ، ٢٠١ ، ١٩٧ ، ١٩٢
٢٦٣ ، ٢٦٢ ، ٢٥٤ ، ٢٤٤
٣١٨ ، ٣١٥ ، ٢٩٢ ، ٢٧٨ ، ٢٧١
شرق أوروبا : ١٣٠
شعب بوان : ٢٤٧ ، ٢٣٤ ، ٢٢٠
الشمسية : ٦٦
شهرستان : ٢٢٠
شيراز : ٢٣٤ ، ٢٢٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٨٢
٣١٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٥

(باب الصاد)

صحار : ٣١٣
صحراء الشام : ٥٧
صعدة : ٣١٥ ، ٣١٣ ، ٧٨
الصعيد : ٢٠١
صفانيان : ٢٦٠ ، ٢٥٩
الصغد : ٢٥٩
الصفاء : ٢١١
صقلية : ٣٠٢ ، ٢٩٨ ، ٢٩٢ ، ٦٥
٣١٠ ، ٣٠٩ ، ٣٠٨ ، ٣٠٧
٣١٦
صنعاء : ٣١٣ ، ٧٨
الصين : ٢٤٤ ، ١٦٦ ، ١٤٥ ، ١٨

(باب الطاء)

طبرستان : ٢٥٧ ، ٢٥١ ، ٩١ ، ٤٩
٢٨٧
طبرية : ٨٣
طحا : ١٦٢
طرابلس : ٢٩٤
طرسوس : ٦٤ ، ٤٦
طهران : ٢١٩
طوس : ٢٦١ ، ٢٥٩

(باب السين)

سامرا : ٢١ ، ٢٠ ، ١٠ ، ٧ ، ٥
٢١٧ ، ١٠٠ ، ٩٩ ، ٣٨ ، ٢٤
سجستان : ٢٧٨ ، ٢٦١ ، ٢٥٩ ، ٢٤٢
٢٨٢ ، ٢٨٠ ، ٢٧٩
سجلماسة : ٢٩٦ ، ٢٩٤
سرخس : ٢٦١ ، ٥٩
سردينيا : ٣٠٨ ، ٢٩٢
سر من رأى : ٩٩ ، ٥٦
السروات : ٣١٣
السغد : ٤
سمرقند : ٢٥٩ ، ١٣٠ ، ٨٢ ، ٣٥ ، ٣
٢٧٨ ، ٢٦٥ ، ٢٦٤ ، ٢٦٠
السند : ١٤٤ ، ١٣١ ، ١٠١ ، ٧٢
١٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٧٧ ، ٢٦٢
٢٨٠ ، ٢٨٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨١ ، ٢٨٠
٣١٧
السواحل : ٧٢
سواحل الحرمين : ٣١٣
السودان : ١٣١ ، ١٣٠ ، ١٠٦ ، ٧٣
السوس : ١٠٥
سيراف : ٢٤٥ ، ٢٢٠
سيلان : ١٦٦

(باب الشين)

الشاش (المساة اليوم تشقند) : ٢٥٩
٢٦٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٠
شاطي دجلة والفرات : ٨٢
القام : ٦١ ، ٦٠ ، ٥٧ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٦١
٨٣ ، ٨٢ ، ٧٧ ، ٧٣ ، ٦٤
١٥٠ ، ١٠٧ ، ٩٥ ، ٩١ ، ٨٦
١٧٦ ، ١٧٥ ، ١٦٦ ، ١٦١
١٨٩ ، ١٨٨ ، ١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٧٧

(باب الفاء)

فأراب : ٢٧٣ ، ٢٦٠ ، ٤٧ ،
فأس : ٢٩٩ ، ٢٩٦ ، ٢٩٤ ، ٢٩١ ،
٣١٨ ، ٣٠٠
فأرس : ١٦١ ، ٩٣ ، ٩١ ، ٦١ ، ٥٠ ،
١٦٦ ، ١٧٧ ، ١٩١ ، ٢١٦ ،
٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٠ ، ٢٣٨ ،
٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،
٢٤٧ ، ٢٥٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٧ ،
٣١٨ ، ٣٠٦
فأرك : ٥٤
فأرغاة : ٢٧٨ ، ٢٦٠ ، ٢٥٩ ، ٣ ،
فرنسا : ١٣٠
القسطاط : ١٦٧ ، ١٦٦ ، ١٦١ ، ٣٩ ،
١٧١ ، ١٧٤ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ،
٢١٨ ، ٢١٤ ، ٢٠٠
فيروزاباد : ٢٤٥

(باب القاف)

قأشان : ٢٦٠ ، ١٤٤ ،
القاطول : ٩ ، ٧ ،
القاهرة : ١٩٣ ، ١٩٠ ، ٨٢ ، ٦٦ ،
١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٠٦ ،
٢٩٥
قأرس : ٣٠٨
قأرح : ٧٨
قأرسين (كأرمنشاه) : ٢١٩ ،
القسططينية : ٢٣٢ ، ٢٠٢ ، ١٨٢ ،
٢٦٤
قأ : ٢٢٠ ، ٧٨ ،
قأدهار : ٢٨٠ ،
قأوس : ٢٤٥

(باب العين)

عأدان : ٧١ ،
عأدن : ٣١٣ ،
العأذيب : ٦٠ ،
العأراق : ٤٧ ، ٤٥ ، ٤٢ ، ٤١ ، ٣٩ ، ١٠ ،
٤٩ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦١ ،
٦٢ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ٨٤ ،
٩٥ ، ١٠٧ ، ١١٩ ، ١٣٠ ،
١٥٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ،
١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ،
١٧٧ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ٢٠١ ،
٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،
٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،
٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،
٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ،
٢٤٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ،
٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ،
٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،
٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ،
٢٨٧ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨ ، ٣١١ ،
٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ،
العأراق العأجمي : ٢١٩ ،
عأرفة : ٣١٢ ،
عأسكر مأكرم : ٢٥٥ ،
عأمان : ٣١٣ ، ٢٦٢ ، ٢٣٨ ، ٧٨ ،
عأمورية : ٦٤ ، ٥ ،
عأين زربة : ٦٤ ،
(باب العأين)
عأناة : ٢٩٦ ،
عأدير أخم : ٢٠٩ ، ١٩٤ ، ١٨٨ ، ٥٥ ،
عأزنة : ٢٨٠ ، ٢٧٩ ، ٢٧٧ ، ٢٦٩ ،
٢٩٠ ، ٣١٨ ،

ما وراء نهر جيحون : ٢٥٩
المدينة : ٨ ، ١٦٨ ، ١٩٥ ، ٢٦٢ ،
٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣١١ ، ٣١٢ ،
٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧

مدينة السلام : ٨١

مراكش : ٢٩١

مرعش : ٦٤

مرو : ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٨٢ ،

المروة : ٢١١

المشرق : ٩٢ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٩٣ ،

٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٢

مصر : ٨ ، ٩ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٦١ ، ٦٣ ،

٦٦ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ،

٨٦ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٥ ،

١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ،

١١٦ ، ١٢٢ ، ١٣٠ ، ١٤٥ ،

١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،

١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،

١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ،

١٧٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،

١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،

١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ،

٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،

٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،

٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ،

٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ،

٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٨٢ ، ٢٩٢ ،

٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ،

٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ،

٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ،

٣١٧ ، ٣١٨

المرة : ٩٧ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٨٧ ،

القيروان : ٩٢ ، ٢٠٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ،

٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ،

٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،

٣٠٧ ، ٣١٦ ، ٣١٨

(باب الكاف)

كابل : ٢٨٠

الكرخ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١٢٤ ،

كرخ بغداد : ٢٣٤

كرخ سامرا : ٥

كردستان : ٦١

كركنت : ٣٠٩

كرمان : ٩٢ ، ٢١٦

كرمنشاه (قرمسين) : ٢١٩

الكنيسة : ٦٤

كورة السوس الأقصى : ٢٩٧

الكوفة : ٧٧ ، ٨٢ ، ١٧٢ ، ٢١٧ ،

٣٠٢

(باب اللام)

لاهور : ٢٧٨

(باب الميم)

ماتريد أو ماتوريد : ٢٦٥

ماذاريا : ١٠٥

مازر Mazzard : ٣١٠

مالطة : ٢٩٢ ، ٣٠٨

ما وراء أذربيجان : ١٦٦

ما وراء كشمير : ٢٧٧

ما وراء النهر : ٥٠ ، ٦١ ، ٩١ ، ٩٣ ،

١٣٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ،

٢٦٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨٨ ، ٣١٧

٢٩٥ ، ٢٧٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٣

(باب الهاء)

الهارونية : ٦٤

هجر : ٧٨ ، ٩١ ، ٣١٣

هراة : ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،

٢٨٢ ، ٢٧٧

همدان : ٢٨٣

همذان : ٥٢ ، ٨٢ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،

٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢

الهند : ٦١ ، ٧٢ ، ١٤٤ ، ١٦٦ ، ١٧٧ ،

٢٤٤ ، ٢٥٩ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ،

٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ،

٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠

(باب الواو)

وادي القرات : ٥٧

واسط : ٧١ ، ٩٥ ، ١٦٩

وج : ٣١٢

الوجه البحري : ٨٢

الوجه القبلي : ٨٢

(باب الياء)

اليامة : ٨ ، ٩١

اليمين : ٣ ، ١٦٨ ، ٢٠٨ ، ٢٦٨ ،

٢٩٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥

اليهودية : ٢٢٠

المغرب : ٦١ ، ٦٣ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩١ ،

١١٢ ، ١٣٠ ، ١٦١ ، ١٧٧ ،

١٨٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ،

٣٠٩ ، ٣١٧

المغرب الأدنى : ٢٩١ ، ٢٩٤

المغرب الأقصى : ٢٩١ ، ٢٩٩

المغرب الأوسط : ٢٩١ ، ٢٩٤

مكة : ٢٣ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ١٦٨ ، ٢٢٧ ،

٢٦٢ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،

مكران : ٢٨٠

الملتان : ٢٨١

مطية : ٦٤

النصورة : ٢٨١

منورقة : ٣٠٨

النيا : ١٦٢

المهدية : ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٣ ، ٣١٨ ،

الموصل : ٥٧ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٨٢ ، ٩١ ،

١٦١ ، ١٨٤ ، ٢٠١ ، ٢٤٦ ،

ميورقة : ٣٠٨

(باب النون)

نابلس : ٧٨

نجد : ٤٨

نجد اليمن : ٣١٣

نسا : ٢٥٩ ، ٢٦١

النعمانة : ٧١

نهاوند : ٢٢٧ ، ٢٤٥

النوبة : ١٣١

نيسابور : ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ،

٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ،

الخطأ والصواب

الصواب	الخطأ	السطر	الصفحة
يا بايكباك	يا بكباك	١٤	٢٤
اندماجهم	اندامجهم	٧	٣٢
قارق	فارق	٦	٦٧
الراضى	الرضى	٢١	٩٥
والعنبر	العنبر	٦	١٤٠
أجلّ	أجلّ	١٣	١٦٩
رسائل الخوارزمى	رسائل الصابى	٢٠	١٨١
بيت من هاشم	بيت هاشم	٢	٢١٣
ليس هذا برأى	ليس هذا رأى	١٢	٢١٦
التفسير والتاريخ	التفسير والحديث	٩	٢٢٣
اليأس	الناس	٤	٢٧٦



Handwritten text in the lower-left quadrant of the page, possibly a name or a label.

Handwritten text in the lower-middle section of the page, possibly a name or a label.

Handwritten text in the lower-right quadrant of the page, possibly a name or a label.

Small, faint handwritten text at the bottom center of the page, possibly a signature or a date.

۱۳۳۱ ساله قمری ۱۳۳۱ ساله شمسی
 در روز شنبه ۱۳۳۱ ساله قمری ۱۳۳۱ ساله شمسی

